٢١٧

رحالة إسباني في الجزيرة العربية

رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة

سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م



ترجمه ودرسه وعلق عليه

د. صالح بن محمد السنيدي

رحالة إسباني في الجزيرة العربية

رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة

سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٧ م

رحالة إسباني في الجزيرة العربية

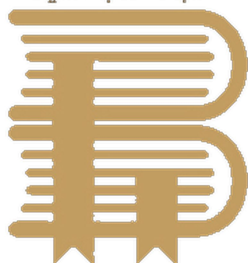
رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي) إلى مكة المكرمة سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م

ترجمه ودرسه وعلق عليه

د. صالح بن محمد السنيدي

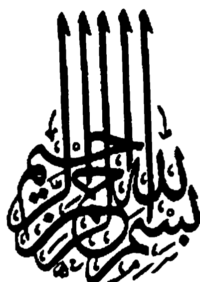


دارة الملك عبدالعزيز



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
باديا، دومنجو
رحالة إسباني في الجزيرة العربية، دومنجو باديا، صالح بن محمد السنيدي
الرياض، ١٤٢٨ هـ
٤٢٤ ص؛ ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٨ ـ ٧ ـ ٩٨٢٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الجزيرة العربية ـ وصف ورحلات ٢ ـ الرحالة الغربيون
ديوي: ٩١٥،٣٠٠١٠٤
رقم الإيداع: ١٤٢٨/٢٩
ردمك: ٨ ـ ٧ ـ ٩٨٢٣ ـ ٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن دارة الملك عبدالعزيز قد سعت منذ إنشائها إلى تحقيق كثير من الأهداف الطموحة، يأتي في مقدمتها خدمة تاريخ الجزيرة العربية بإثراء دراساته، وتحقيق تراثه، وترجمة ما له صلة به، ونشره. وقد أنجزت الدارة بحمد الله وتوفيقه في هذا المضمار ثمرات متعددة، وما زالت في مسيرتها ماضية، لإكمال البناء الثقافي، وإتمام العطاء الحضاري الذي يليق بهذه البلاد الطاهرة.

وتعد الجزيرة العربية من الأماكن المهمة التي حظيت بعناية عدد من الدراسات الأجنبية، وساقت الرحلات إليها عددًا من المستكشفين، وجلبت المراكب من كل صوب إلى ضفافها الراصدين، وخطت الأقلام بفكر غربي صورًا ملونة عن واقعها المعيش في ذلك الوقت. وقد نالت المدينتان المقدستان: مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة قصب السبق في هذا المجال، وكان لهما النصيب الأوفر، لمكانتهما الإسلامية، ولشهرتهما العالمية.

ويتضمن هذا الكتاب الذي نقدم له ترجمة للرحلة التي قام بها الرحالة الإسباني دومنجو باديا المتسمي باسم علي باي العباسي إلى مكّة المكرّمة سنة ١٢٢١ هـ/ ١٨٠٧ م، وحوت وصفا لطريق الرحلة إلى مكّة المكرّمة،

وتناولت بالحديث مناسك الحج، ووصفت ريشة الرحالة المسجد الحرام وما فيه من معالم، وتحدثت بصورة موسّعة عن مكّة المكرّمة: جغرافيًا، وسياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، وصحيًا، وغير ذلك مما برز أمام ناظري الرحالة المستكشف. ثم وصفت طريق العودة إلى الديار مرة أخرى.

وقد سبقت الترجمة بدراسة للكتاب، تضمنت تعريفًا بالرحالة الإسباني، وتحليلًا لمضمون الرحلة، وأبرزت المظاهر العامة التي وردت فيها، ومثلت للمعالم المهمة التي انطلقت منها نظرته إلى المجتمع الإسلامي.

ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب يعد ذا قيمة علمية، ويحظى بمكانة تاريخية، لكونه واحدًا من الكتب التي حوت معلومات تاريخية، ووصفًا لمكّة المكرّمة في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وتعد مادته مادة خصبة لدراسات لاحقة، تتميز بالتنوع التاريخي والاجتماعي والسياسي لتلك الحقبة، وهذا ما جعل دارة الملك عبدالعزيز تسعى لترجمته ودراسته ونشره، راجية أن يسهم في خدمة تاريخ الجزيرة العربية.

دارة الملك عبدالعزيز

مقدمة المترجم

تَظلُّ الجزيرة العربيَّة محلَّ اهتمام الكثيرين ومحطَّ أنظارهم مُنذ قديم الزَّمن، ابتداء باليونانيين والرُّومان، ومُرورًا بالبُرتغاليين والهولنديين والألمان، وانتهاءً بالإنجليز والفرنسيين وأخيرًا الأمريكان، هذا على صَعيد الاهتمام الغَربي الذي تمليه رغبات استعماريَّة ومصالح اقتصاديَّة، أمَّا الآخرون من آسيويين وأفارقة، مُسلمين وغير مُسلمين، فقد كان شَغفهم بالوصول إلى الجزيرة العربيَّة لا يقلُّ عنه لدَى الآخرين، لكنَّه يبقى اهتمامًا شَخصيًا ومَدفوعًا بدوافع دينيَّة بحتة في الأعمِّ الأغلب، وليس وراءه أهداف مُريبة أو أطماع بعيدة المدى.

ولسنا هنا بصَدد الحصر أو التَّدليل على شواهد هذا الاهتمام، ولا الدُّخول في تفاصيله ودوافعه، لأنَّ المؤسسات العلميَّة والبحثيَّة نَشطت أخيرًا وجادت لنا بكمٍّ ليس بالقليل ممَّا يُؤكِّد على ما ذكرناه من ذلك، تمثَّل في ترجمة ونَشر العديد من كتب الرَّحالة والمستكشفين التي تحمل توجُّهاتهم وأطروحاتهم[1]، لكن يبقى الجهد - في غالبه - مُنصبًا على جانب الرَّحلات منه دون الغَوص في الأراشيف وتَقارير المبعوثين والقناصل الرسميِّين، وهذه بلا شكٍّ تحمل في طيَّاتها الكثير من

(١) لعلَّ دارة الملك عبدالعزيز تظلّ الأكثر اهتمامًا في هذا الجانب، وإن كان هناك مؤسسات أخرى أخرجت لنا العديد من مُذكُرات الرَّحالة وإنتاجهم، أمثال مكتبة الملك عبدالعزيز وبعض الجامعات السعودية.

المعلومات والانطباعات التي من شأنها إثراء المكتبة العربيَّة فيما يخدم تاريخ الجزيرة العربيَّة وجغرافيتها وثقافة شعبها ممَّا نحن كباحثين بأمسِّ الحاجة إليه.

ولعلَّ ما يلفت النَّظر هو غياب إسبانيا ذلك المستعمر العتيق عن هذه الحلبة وعدم الدُّخول في ميدانها، مع أنَّ أساطيلها كانت من أوائل من جَاس الديار بحثًا عن مغانم ثمينة ومُستعمراتٍ جديدة، وعلى الرَّغم من قُربها المكاني وارتباطها بالمنطقة تاريخيًا بشكل أو بآخر، خاصَّة وقد كانت مُنافستها وجارتها البُرتغال قد اقتحمت غِمار هذا الميدان، لكنَّها مع ذلك نَأتْ بنفسها بعيدًا للبحث عن ميادين جديدة وصيدٍ ثمين لا يُنافسها فيه مُنافس، فألقت بثقلها إلى الغرب حيث ما يُعرف اليوم بأمريكا الشماليَّة وأمريكا اللاتينيَّة وإلى الشَّرق وبالذَّات إلى الفلبِّين وما حولها.

ومع نهاية القرن الثَّامن عشر الميلادي وبداية القرن الذي يليه، عادت إسبانيا تُلملم دَفاتر ذكرياتها العتيقة متأمِّلة في انتصاراتها ومُغامراتها الجريئة التي فتحت أعين قادة أوربا ومُفكِّريها على قارات وأراضٍ بِكْر، لم تكن معروفة من قبل على الأقلّ لدى الأوربيِّين، ومُحفِّزة في الوقت نفسه هذه الرُّوح لدى هؤلاء، ليبدأ عصر مَليء بالصِّراع والصِّدام والتَّنافس بين هذه القُوى الجديدة والنَّاشئة، كان ضحيَّتَه أمَمٌ وشُعوب ظلَّت سنين طويلة تَرزح تحت وطأة العبوديَّة والذل في ظلِّ المستعمر الجديد الذي رأى في هذا العالم لُقمةً سائغةً عليه التهامها والظَّفر بغنائمها. على أنَّ رائدة هذه الكشوف والهيمنة ـ إسبانيا ـ والتي بَلغت أساطيلها الشَّرق والغرب، شَربت أخيرًا من الكأس نفسها وتجرَّعت مَرارة الهزيمة على يَدِ مُنافسيها الجدد من إنجليز وفرنسيِّين وأخيرًا الأمريكان[١]، في معارك

(١) لقد دخلت إسبانيا في صراع مرير مع إنجلترا كان ميدانه بالإضافة إلى سواحل البلدين عرض البحر، وكان لأساطيل الدولتين الدور الحاسم في تلك المعارك وإنهائها لصالح الإنجليز أخيرًا بعد هزيمة الأرمادا الإسبانية سنة ٩٩٦هـ/١٥٨٨م، أما التفوّق الفرنسي

مُتعدِّدة وفي مواقع مُختلفة شرقًا وغربًا، ممَّا دفع بها إلى الانكماش والانكفاء على نفسها.

في ظلِّ هذه الظُّروف جاء مُغامر يَحدُوه طُموح الشَّباب وعُنفوان الماضي السَّعيد لبلاده، ليُحاوِل القيام بدورٍ ما في ظلِّ تَشابك المصالح وتَداخل الصَّلاحيات بين حِيتان تلك الحقبة، طامعًا في الوقت نفسه أن يُسهِم في خدمة بلاده ويضع لها موطئ قدم فيما وراء الحدود، يُسلِّيها ويُعوِّضها عمَّا فقدته، أو هي في طريقها للنزوح عنه مُجبرةً، ونقصد بها أمريكا اللاتينية(١).

كانت المنطقة المقصودة هي المغرب التي تَنظر إليها حُكومة إسبانيا على أنَّها الامتداد الأسهل والأقرب لها(٢)، وكان صاحب المشروع هو المغامر الجريء دومنجو باديا الذي ستكون رحلته ومغامرته هذه هي مَدار

= فقد جاء بعد الثَّورة الفرنسيَّة ومجيء نابليون الذي اكتسح أوربا غازيًا ومبشرًا بالمبادئ الجديدة للثورة، مع ما كانت تعانيه الملكية في إسبانيا من عجز وإرهاق، مما ربط مصيرها بفرنسا خاصة وأنَّ الأسرتين اللتين تحكمان في كلا البلدين هما من فرع واحد (آل بربون)، لكن إسبانيا شهدت تراجعًا كبيرًا قبل ذلك على الصَّعيد الاستعماري وحتى الداخلي؛ أمَّا أمريكا فقد أصبحت منافسة لإسبانيا بعد حركة التحرير الكبرى التي خاضتها ونجحت فيها، خاصة في الفلبين التي انتزعتها منها. للمزيد انظر: MARQUES DE LOZOYA، **Historia de Espana, t.8 p.1727**؛ أ. ج. جرانت وهارولد تمبرلي: **أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ترجمة: بهاء فهمي القاهرة١٩٦٧م، ج١، ص١٠٧؛ جيمس أنتوني فرويد: **التنافس البريطاني الإسباني الفرنسي في القرن السادس عشر حول العالم الجديد وجزر الهند الغربية**، ترجمة: السيد يوسف نصر، الإسكندرية ١٩٩١م. أغلب صفحات الكتاب، هزيمة الأرمادا الإسبانية، ص٢، ١٦١ ـ ١٨١.

(١) هذا ما يبدو من مراسلاته وخطاباته لمسؤولي بلاده كما سنعرض فيما بعد.

(٢) نوقشت هذه القضية في ندوة خاصة أقامتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس بالرباط، ونشرت مداولاتها في كتاب بعنوان: **المغرب وإسبانيا خلال القرن السابع عشر**. الرباط ١٩٩٧م.

حديثنا على مَدى الصَّفحات الآتية، خاصَّة وقد تجاوزت خُطاه تلك المناطق التي حدَّدَها لنفسه أمام سُلطات بلاده، لتجوس خلال ديارٍ مُتعدِّدة من البلاد العربيَّة والإسلاميَّة كالمغرب والجزائر وتونس ومصر ثم الحجاز وفلسطين والشَّام وتركيا.

ومع تتابع الرَّحلات وجَولات المغامرين من بُرتغاليين وإنجليز وفرنسيِّين وأوربيِّين آخرين من وسط أوربا وشرقها، إلا أنَّ إسهامات الإسبان جاءت مَحدودة أو مَعدومة بالأحرى، وقد يكون مردُّ ذلك عدم اهتمام إسبانيا بالمنطقة خاصَّة ما عُرف بـ«الشَّرق الأوسط» نظرًا لانشغالها في مُستعمراتها واكتشافاتها في الغرب، وهو ما يُفسِّر نُدرة ما كتبه دبلوماسيّوها ورحَّالتها في هذا الجانب، مُكتفين بما قام به زُملاؤهم من فرنسيِّين وإنجليز حسب رأي أديبها خوان جويتسولو[١]. لكن الأمر ليس على إطلاقه ويحتاج إلى وقفة مُتأنيَّة، وتحليل أدقّ، فما جادت به أقلام مفكِّريها وكتَّابها خاصة من اهتمُّوا بالحضارة والثَّقافة العربيَّة والإسلاميَّة منهم من مُستشرقيها ومُستعربيها ليس بالقليل، والمكتبات خير شاهد على ذلك، لكن أعتقدُ جازمًا أنَّ هناك أزمة تواصل بيننا وبين ما يُكتب باللُّغة الإسبانيَّة، فأغلب ما ظفرنا به من مُساهماتهم سواء في مجال الرَّحلات أو حتى غيره مما دوَّنوه وصل إلينا عن طريق الأوربيِّين، ولعلَّ الأمر تغيَّر قليلًا بعد التَّواصل الأخير بين إسبانيا والعالم العربي، عندما خرجت من عزلتها التي فرضها عليها الجنرال فرانكو سابقًا، فبدأت الوفود والبعثات بين الطَّرفين لتكوِّن جِسرًا ثقافيًا ينقل لنا ومنَّا ما يدور من مُداولات ونتاج فكري وثقافي، وهو ما نَلحظه بوضوح في الآونة الأخيرة. قد يصدق هذا القول في مجال الرِّحلة والاستكشاف التي لم نجد لها أيَّ اهتمام إسباني سواء على الصَّعيد الرَّسمي أو الفردي بعد سُقوط غرناطة، آخر المعاقل

(١) انظر: مقدمة الرحلة، ط برشلونة، ص٢.

الإسلاميَّة في إسبانيا سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م في حوزة الإسبان، فلم نَسمع برحلات أو رحَّالين إلى البلاد الإسلاميَّة ذات صفَة واعتبار، وبالتَّحديد إلى الحجاز، ما عدا تلك التي قام بها أحد الموريسكيِّين بنيَّة الحجِّ[(١)]، ثم هذه الرِّحلة التي نحن بصدد الحديث عنها.

ومع أنَّ دومنجو باديا لم ينجح في مَسعاه الذي خطَّط له في المغرب كما سنرى، حيث تكشَّفت مُخططاته وافتضح أمره، إلا أنَّه نجح في التَّوغل من خلاله إلى قَلْب العالم الإسلامي، واستطاع الدُّخول إلى مكَّة المكرَّمة ووصف مَعالمها ومَناسك الحجِّ فيها، واستطاع كذلك التَّعمية على العامَّة وبعض المسؤولين وذوي الشَّأن، ليصل إلى ما يُريد من أخبار ومَعلومات، هي رصيد مُغامرته هذه التي ضمَّنها سجلَّات رحلته ومُذكِّراته.

وموضوعنا الذي هو **سجلٌّ رحلته الخاصّ بالجزيرة العربيَّة** نتشرَّف بتقديمه للمكتبة العربيَّة، لكونه مصدرًا له قيمته واعتباره سواء من حيث المراحل التي تناولها، أو من ناحية كونه أحد أبرز المصادر الموثَّقة التي

---

(١) ونقصد بها رحلة حاج بوي منثون Puey Monzon التي قام بها أحد الموريسكيِّين (المسلمون بعد سقوط غرناطة) إلى مكَّة المكرَّمة قبل رحلة باديا هذا بقرنين (١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م)، وقد عرض لها طارق خضر في بحثه الموسوم بـ «علاقات الموريسكيِّين بالأراضي العربية المكرَّمة من خلال المخطوطات الموريسكية» نشر ضمن موسوعة: **الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات** الذي أصدرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ق٢، ص٥٧ ـ ٦١. لكنَّ عبدالحكيم سلامة أعطى لها حيِّزًا أكبر في بحثه: «بعض الرِّحلات الإسبانيَّة إلى الحجاز» في ندوة **مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي** التي أقامتها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م انظر الصفحات ٧ ـ ١٠. وقد نشرت دار الفيصل الثَّقافيَّة بالرياض أخيرًا كتابًا عن هذه الرِّحلة بعنوان: **أناشيد الحاج بوي مونثون**: رحلة إلى مكَّة في القرن السادس عشر لماريانو دي بانو إي رواته، ترجمة عبدالله إجبيلو ومراجعة د. عبدالله العمير.



نقش على الخشب لصورة علي باي (دومنجو باديا) عملها : E. C. Ricart

اعتمدتها الدَّوائر الاستعماريَّة والاستشراقيَّة لمدة غير قليلة، فصاحب الرِّحلة استطاع بما أُوتي من مَلَكة وحبٌّ للمغامرة أن يَخترق الحواجز التي كانت عائقًا لأقرانه الأوربيِّين، وتَغلغَل حتى وصل إلى بَواطن صُنَّاع القرار وأصحاب الشَّأن في البلاد التي اختارها هدفًا لزيارته، كما تسلَّل إلى أعماق تلك المجتمعات التي رحَّبت به، وفتحت صَدرها له على أنَّه ابن الدَّار وسليل الحسَب والنَّسَب من أبنائها البَررة، ومن هنا فقد ظَفر بما لم يتمكَّن منه غيره من المغامرين والرَّحالة الأجانب الذين زاروا البلاد الإسلاميَّة.

وتَكْمُنُ أهميَّة هذه الرِّحلة في العَرض السَّلس لمعلوماتها التي اتَّسمت بالثَّراء والتَّنوع، فصاحب الرِّحلة لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أقحم نفسه فيها، كعادة الفضوليين أو الجواسيس الذين يهمُّهم إثراء تَقاريرهم ومَعلوماتهم بكلٍّ ما يدور في هذا البلد مَوقع الزِّيارة من أحداث سياسيَّة وتَفاعلات اجتماعيَّة ومنشآت عُمرانيَّة وأطلال مبانٍ اندرست وقضايا اقتصاديَّة وأحوال جويَّة إلى جانب المعتقدات الدينيَّة والعلميَّة والجغرافيَّة. تطرَّق دُومنجو باديا أو علي باي العبَّاسي كما سَمَّى نفسه لكلٍّ ذلك، وغيره في رحلته الموسومة بـ«رحلات في المغرب وطرابلس واليونان ومصر» في جزئها الأول و«رحلات في جزيرة العرب وفلسطين وسورية وتركيا» في جزئها الثاني، وكانت في بداية القرن التَّاسع عشر الميلادي ونهاية الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري.

وسيتناولُ موضوعنا بعد التَّعريف بصاحب الرِّحلة، أهداف رحلته مع عرض لأهمِّ محطَّاتها حتى وصوله إلى الحجاز، والتَّوقُّف عند أبرز النُّقاط التي تناولها، ثم وقفة موجزة مع الظُّروف السَّائدة في زمن رحلته تلك، وسنَتعرَّف إلى نظرته لبعض الأحداث وانطباعاته الشَّخصيَّة التي دوَّنها في سجلَّات مذكَّراته عن قضايا اجتماعيَّة ودينيَّة وسياسيَّة وعلميَّة وطبوغرافيَّة ونحوها، والتي فيها الجديد بلا شكّ، خاصَّة عندما يتطرَّق إلى الأحداث

التَّاريخيَّة التي كان شاهدًا عليها، أو النَّواحي العلميَّة من قياسات ونحوها، وكذلك مُشاهداته التي تُعد بحقّ سجلاً حيًا لتلك الحقبة بموضوعاتها المختلفة. على أنَّ جُهدنا في هذا العمل قد انصبَّ بعد التَّقديم والعَرْض المفصَّل لوقائع الرِّحلة، على محاولة إخراج ترجمة سليمة وأمينة لما يخصُّ الحجاز والجزيرة العربيَّة في هذه الرَّحلة، فقد التزمتُ الدِّقة في التَّرجمة مُحتفظًا برُوح النَّص الأصلي مع الأخذ بالمعنى لتقديمه للقارئ العربي بلُغة عربيَّة سليمة وأسلوب سَلِس، وأحيانًا يتطلَّب الوضع الأخذ بأسلوب التَّرجمة الحرفيَّة، راجيًا أن يكون الصَّواب حليفنا فهو هدفنا وغايتنا، وإذا ظهر غير ذلك فنحن بَشر، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا وهدانا إلى تقصيرنا.

وقد أخذنا بمذهب سلفنا ممَّن سلك هذا الطَّريق مترجمًا وناشرًا لأعمال الرَّحالة والمستشرقين من حيث استخدام بعض الأدوات كالأقواس ( ) في حالة إضافة يتطلبها النَّصُّ، ولجأنا إلى الهوامش التَّعريفيَّة والتَّوضيحيَّة وأحيانًا التَّعليقيَّة إذا تطلَّب الموقف مثل هذا التَّدخل. كما حرصنا أن نُقدِّم النَّصَّ كما أراد صاحبه أن يقدِّمه، تاركين للمهتمِّين والمتخصِّصين مهمَّة النَّقد والتَّحليل وحتى الردِّ على ما ورد فيه من آراء واستنتاجات قد لا نوافقه عليها وأشرنا إلى موقفنا في مواضع عدَّة منها.

كما حرصنا أن يكون العمل متكاملًا، فجمعنا ما استطعنا جمعه من رسوم الرَّحالة وصوره من مصادر عدَّة، وحاولنا جاهدين أن نخرج بخطِّ سَيْرِ الرِّحلة ذهابًا وإيابًا من خلال الخرائط المرفقة آخر الكتاب، على الرّغم من الاضطراب الذي يشوب هذا الجانب نظرًا لأسباب أبداها المؤلِّف في مواضع عدَّة من كتابه.

أخيرًا، نتقدَّم بجزيل شُكرنا وامتناننا لدَارة الملك عبدالعزيز ممثَّلة براعي مسيرتها وداعم أنشطتها صاحب السُّمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله ثمَّ أمينها السَّاهر الأمين على حُسن توجيهها ومسيرتها

فيما يخدم تاريخ وحضارة هذه البلاد حماها الله من كلِّ سُوءٍ ومكروه الدكتور فهد السّماري، وذلك على تفضُّلها بنشر هذا الجهد المتواضع، سائلين المولى جلَّ وعلا أن ينفع به، وأن يجعله في موازين حسناتنا جميعًا، وأن يمدَّهم بالعَون والتَّوفيق والسَّداد لمواصلة الجهد ومُتابعة الخُطَى. كما نتوجَّه إلى كلِّ من أسدى إلينا معروفًا، كان ذلك نُصحًا أو توجيهًا، تصحيحًا أو تعليقًا، مُساعدةً كانت بأيِّ وجهٍ من الوجوه، بالشُّكر والدُّعاء لمن بيده مقادير الأشياء وتصريفها أن يجزيهم خير الجزاء دُنيًا وآخرة.

د. صالح بن محمد السنيدي

الرِّحْلَةُ والرَّحَّالَة

أوَّلًا ـ دُومنجو باديا أو علي باي العبَّاسي: الحُلُم الذِّي اصْبَحَ حَقيقة

مَا توافر لدينا من معلومات لا تتناسب وحجم هذه الشَّخصيَّة وما قامت به من مُغامرات وأدَّته من أدوار، لكنَّها مع ذلك تُلقي أضواءً كافية حول حياة هذا الرَّحالة والتَّقلُّبات السِّياسيَّة التي عاشها وشارك في أحداثها.

لم يلقَ باديا الاهتمام الذي يستحقُّه من قبل مُواطنيه الإسبان بشكل عام، لكنَّه وجده أخيرًا من قبل الباحثين الكتلان الذين خصُّوه بدراسات وبحوث، كان آخرها مجموعة من المقالات والبحوث تحت عنوان: «علي باي *Ali Bei*» حَاجٌّ كَتَلاني في ديار الإسلام «*باللُّغة الكتلانيَّة*» نُشر في برشلونة سنة ١٩٩٦م.

ويفيد دارسو رحَّالتنا بأنَّه يَنْتمي إلى أبٍ كتلاني كان يعمل سكرتيرًا لحاكم برشلونة وأمٍّ بلجيكيَّة اسمها كاتالينا لُبليخ Catalina Leblich، أمَّا هو فاسمه دُومنجو باديا إي لبليخ Domingo Badia y Leblich، وُلد في برشلونة في الأوَّل من أبريل سنة ١٧٦٧م الموافق للثاني من ذي القعدة ١١٨٠هـ، انتقل أبوه إلى غرناطة ثمَّ إلى مدريد يرافقه ابنه الذي تبدو عليه علامات النَّجابة والنُّبوغ، فوجَّهه والده لدراسة الإدارة، وعندما بلغ الرَّابعة عشرة من عُمره أصبح مُعاونًا إداريًّا لوالده في بلدة على ساحل غرناطة، ثم خلف والده في منصبه عندما انتقل إلى مدريد وعمره وقتها تسعة عشر

عامًا، وبعد أن بلغ أربعًا وعشرين سنة تزوَّج من فتاة غِرناطيَّة، وفي هذه الأثناء تحوَّل إلى قرطبة ليعمل في مصلحة التّبغ، وأثناء ذلك كان الطُّموح وحبُّ المغامرة يدفعانه إلى البحث والدِّراسة وإجراء التَّجارب العلميَّة المتعدِّدة التي كان آخرها تجربته الاستطلاعيَّة حول الغاز وتأثيره في رفع المناطيد، كما سبقها وتلاها مُحاولات مُتعدِّدة بقصد التَّرقية، وهي وإن كانت غير مُوفَّقة في غالبيتها إلا أنَّها تدلُّ بوضوح على ما ذكرناه من شخصيَّته المميَّزة والمغامرة، وهذا ما دفعه فعلًا إلى التَّقدم بمشروع الرِّحلة مَوضوع حديثنا هذا في شهر أغسطس من سنة ١٨٠١م/١٢١٦هـ إلى الحكومة الإسبانية باسم «*مشروع رحلة إلى شمال أفريقية ذات أهداف سياسيَّة وعلميَّة*»، وقد تمَّت الموافقة عليها مع ما يتطلَّبه ذلك من تَمويل وتَجهيز. وكان وراء المشروع والدَّاعم الأول له رئيس الحكومة الإسبانية آنذاك مانويل جودوي[١] Godoy الذي تحمَّس له وأقنع الملك كارلوس الرابع[٢] Carlos IV بالموافقة عليه.

أخذ باديا يستعدُّ للرِّحلة ويحضِّر لمستلزماتها من أجهزة ومُعدَّات وتهيئة نفسيَّة ولغويَّة ومعرفيَّة تتناسب والبلاد المقصودة، فرَحل إلى لندن وهناك التقى أعضاء الجمعيَّة الأفريقيَّة وبحث معهم إمكانيَّة إجراء بعض الاكتشافات في القارة الأفريقيَّة جنوب جبال الأطلس، وفي هذه الأثناء قام بمبادرة شخصيَّة فخَتَنَ نفسه تأكيدًا لشخصيَّته الإسلاميَّة التي سوف يَتقمَّصها فيما بعد، ثم انتقل إلى باريس وأجرى بعض الاتِّصالات الخاصة

---

(١) كان يلقَّب بأمير السَّلام لأنه تولَّى عملية الصُّلح بين أمراء إسبانيا المتنازعين في هذه المدة، وصل إلى رئاسة الوزارة سنة ١٧٩٢م وكان مولده في بطليوس سنة ١٧٦٧م ووفاته ١٨٥١م في باريس. للمزيد عن سيرته وحياته انظر:

Diccionario enciclopedico **LAROUSSE**, ed. Planeta, Barcelona 1985. P1066.

(٢) تولَّى كارلوس الرابع الحكم بعد خلاف على العرش، وشهد عهده بداية الثورة الفرنسية وامتدادها إلى إسبانيا نفسها، انظر عن عهده وسيرته:

MARQUES DE LOZOYA, **Historia de Espana**, t. 9, pp. 2045 - 2076.

وأعدَّ بعض الأجهزة العلميَّة التي تلزمه في رحلته هذه؛ وبعد سنتين من الاستعدادات والتَّجهيزات انطلق صَوب المغرب حيث وَصلَها في التَّاسع والعشرين من شهر يونية سنة ١٨٠٣م الموافق للتَّاسع من ربيع الأول سنة ١٢١٨هـ مُعلنًا بداية الرِّحلة، ومُتنكِّرًا بالزِّيِّ العربي مُدَّعيًا أنَّه من أصل عربي، وينتمي إلى الأسرة العباسيَّة ومُتَّخذًا من علي باي[١] العبَّاسي اسمًا له، مُوحيًا أنَّ الظُّروف دفعته إلى تَرك بلاده الإسلاميَّة والانتقال إلى أوربا، وفي مَعاهدها درس العلم ونَهل من مَعينه، وتنقَّل ما بين دُولها من إيطاليا وفرنسا إلى إسبانيا، ممَّا جعله يَنسى لُغة آبائه وأجداده، لكنَّه مع ذلك ظلَّ مُحافظًا على تَعاليم دينه الإسلامي[٢].

---

(١) هذا لقب عثماني عسكري قيادي تشريفي، وعادة ما يُكتب بصيغة «بيك» أو «بك» لكنَّ باديا استخدمه بهذه الصيغة «باي» كما جاء في مقدِّمة كتابه. ولعلَّ تقمُّص شخصيَّة بعينها، والتَّحرك بإطارها الضَّيق هو ما كبَّل صاحبنا وجعله أسير هذه الشَّخصيَّة، مع أنَّه في الواقع فتح الباب أمام مُغامرين آخرين ليدخلوا البلاد الإسلاميَّة ويتجوَّلوا بين نَاسها ومَعالمها بكلِّ حريَّة واقتدار مُتقمِّصين شخصيَّات مُماثلة. وفي اعتقادنا أنَّه كان بمقدوره أن يتقمَّص شخصيَّة أقرب إلى الواقع وأدعى للاحترام وأقلّ تكلُّفًا من تلك التي ادَّعاها ألا وهي شخصيَّة مُوريسكي أندلسي، ليجد التَّرحيب والتَّعاطف والأيادي الحانية، حيث مأساة الأندلس ما زالت تهزُّ مَشاعر المسلمين آنذاك، لكن يبدو أنَّ مجرَّد استخدام مثل هذا الاسم يثير حساسيَّة ما زالت قائمة في ظلِّ وجود محاكم التَّفتيش في إسبانيا نفسها.

(٢) انظر حول سيرته بشكل عام ما كتبه مواطنه خونيو رومانو: **Viajes de Ali Bey el Abbasi** مدريد ١٩٥١م، ص ص١١ ـ ٢٤. جاكلين بيرن: **اكتشاف جزيرة العرب** ترجمة قدري قلعجي، نشر الفاخرية بالرياض، ص ١٨٤ ـ ١٨٦؛ **Ali Bei; Barcelona,** 1996, p. 29 - 34 مجموعة من الباحثين؛ د. روبن بدول: **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة: د. عبدالله نصيف، جامعة الملك سعود الرياض١٩٨٩م، ص ص. ٢٩ ـ ٣٤؛ الطاهر أحمد المكي: «أول رحالة إسباني يزور العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر» **مجلة الفكر العربي**، عدد ٥١، يونيه ١٩٨٨م، ص ١٧٥ ـ ١٩٤ بالإضافة إلى مقدِّمة الرحلة (ط برشلونة) نفسها؛ بيتر برينت: **بلاد العرب القاصية**، ترجمة: خالد عيسى وأحمد إسبانو، بيروت ١٩٩٠م، ص ٩٨ ـ ١٠٦. وفيما يخص رحلته إلى المغرب فقد تطرَّق إليها عبدالحفيظ حمَّان في بحث مختصر بعنوان:

في رحلته هذه جَاب المغرب وولاية طرابلس وقبرص وبعض جُزر اليونان ومصر والحجاز وفلسطين وسورية وتركيا، ثم عاد إلى بلاده عن طريق فرنسا سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م التي كانت الأمور فيها مُضطربة، حيث اقتحمها نابليون بونابرت وأسقط حكومتها، ونصَّب فيها ملكًا مُواليًا له، هو أخوه جوزيف بونابرت، وضمَّها إلى حُكمه المباشر[1]، فتردَّد رحَّالتنا هذا ما بين تفرُّغه لأبحاثه ومشروعاته العلميَّة أو الدُّخول في مُعترك السِّياسة ودهاليزها المظلمة، فجذبته الأضواء وتقلَّب في مناصب مُتعدِّدة تحت إدارة أخي بونابرت جوزيف، وعندما انتهى الحكم الفرنسي في إسبانيا آثر باديا الرَّحيل معه والانخراط في خدمة الفرنسيِّين، وتحت حمايتهم بعد أن أحرق جميع أوراقه الوطنيَّة.

لقد بلغ به الطُّموح أن يتطلَّع إلى دور قيادي لخدمة الإمبراطوريَّة الفرنسيَّة، فهاهو يبعث برسالة لنابليون يشرح له فيها مُخطَّطاته ومشروعاته في المغرب وما له من مكانة وأنصار هناك، ليصل إلى ما يريد قوله صراحةً: «*إذا كان لجلالة الإمبراطور الغرض في القيام بحملة عسكريَّة على المغرب، فممَّا لاشكَّ فيه أنه إذا وضع هذه الحملة تحت اسمي فإنها سوف لن تجد أيَّة مُقاومة، وبذلك سنوفِّر دماء أبطالنا*». ومع أنَّ نابليون لم يلتفت لرسالته تلك، فقد أعاد المحاولة والاستجداء مع خلفه الملك لويس الثَّامن عشر الذي تعامل معه بالأسلوب نفسه: «*إنَّه باستطاعتي أن*

- «الرحلات الأوروبيين إلى شمال أفريقية في مطلع القرن التاسع عشر» ضمن بحوث ندوة **مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي** التي أقامتها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، انظر الصفحات ٨ ـ ٢٢؛ كما توقف عند هذه الرِّحلة إلى الحجاز المؤلف نفسه في بحث له بعنوان: «الحياة العامة في منطقة الحجاز من خلال رحلة دومنجو باديا في بداية القرن التاسع عشر» **مجلة التاريخ العربي**، عدد ٢٣، سنة ٢٠٠٢م، ص٢٩ ـ ٦٥.

(١) عن هذه الحقبة المضطربة من تاريخ إسبانيا، انظر: MARQUES DE LOZOYA, **Historia de Espana**, t. 9, pp. 2067 - 2076, t 10, pp. 2113 - 2175.

أقدِّم الكثير من الخدمات لفرنسا في المغرب، فشخصيَّتي في هذا البلد تفوق بكثير شخصيَّة أمير مسلم. إنَّ فرنسا تستطيع أن تحصل من خلالي على مُستعمرات في أفريقيَّة بدون إسالة قطرة دم فرنسي، إنَّني أستطيع ـ وأنا الوحيد القادر على ذلك ـ أن أضمن الأمن والاستقرار والطمأنينة في هذه المستعمرات، أمَّا الطَّريقة لبلوغ هذه الغاية فتبقى دائمًا من أسراري الخاصة»[١].

على أنَّه سيُعاود الكرَّة مرَّة أخرى للمغامرة وإعادة التَّجربة، ويشدُّ الرَّحال من باريس هذه المرَّة باتِّجاه الشَّرق الذي دفعته إليه دوافع مُتعدِّدة لعلَّ أهمها ما يتداوله بعضهم من أنَّه انتدب في مهمَّة جديدة تتعلَّق بالهند، وبدأ يُعدُّ لها متَّخذًا من موسم الحجِّ ووفد الحجيج الهندي وسيلة للبداية في مشروعه الجديد[٢]، لكن ما يهمُّنا هنا أنَّه لقي مَصيره المحتوم في هذه الرِّحلة الأخيرة وهو في طريقه إلى مكَّة المكرَّمة مع نهاية شهر أغسطس من سنة ١٨١٨م الموافق لنهاية شوَّال سنة ١٢٣٣هـ في ظُروف غامضة، قيل إنَّه أصيب بالدُّوسنتاريا أو الزُّحار، وذلك على بُعد مئة وعشرين ميلًا من دمشق، ولا يَستبعدُ بعضهم أنَّ السُّمَّ قد دُسَّ له من قبل أعدائه الإنجليز[٣]. لكن من المؤكَّد أيضًا أنَّ الفرنسيِّين لن يبكوا عليه كثيرًا بعد أن تجاوزت طموحاته حدود المعقول، وأصبح يشكِّل همًّا لهم سواء

(١) انظر: M.HOSSOTE - REYNAUD; Quatre documents inedits touchant les Relations entre la France et Maroc. Dans **Hesperis Tamuda**, 1960, vol 1, pp. 555 - 8. وقد أورد عبدالحفيظ حمَّان مقاطع مهمَّة من هذه الرَّسائل مترجمة، انظر: «رحلات الأوربيين. . . . .»، ص٢٦ ـ ٢٩.

(٢) خوليو رومانو: **Viajes de Ali Bey el Abbasi, p. 23-24.**

(٣) **Ali Bei**; p. 263؛ روبن بدول: الرحالة ص ٣٤. ولا يُستبعد هذا الرَّأي إذا صحَّت حكاية المهمَّة الجديدة التي انتدب لها من قبل الفرنسيِّين. ويرجِّح خوليو رومانو أنَّ وفاته كانت سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م عن عمرٍ يُناهز الخامسة والخمسين سنة.
Viajes de Ali Bey el Abbasi, p.23.

بمجاراته وإجابة مطالبه أو خوفًا من تحوله إلى خصومهم الإنجليز.

ثانيًا ـ الرِّحلة: دَوافعها وظُروفها

بعد هذا العَرض السَّريع لسيرته نتوقَّف عند هذه الشَّخصيَّة بالتَّحليل والدِّراسة لمعرفة دوافع رحلته هذه، ولصَالح مَنْ كانت تلك المعلومات التي حملتْها مُجلَّداتها.

كما رأينا فيما عرضناه من مَعلومات أنه كان رَجلًا مُغامرًا وذكيًا وطَمُوحًا، تدرَّج بسرعة في المناصب الإداريَّة، ومع ذلك لم يجد فيها ما يُرضي طُموحه، ففكَّر بطريقة تُوصله إلى ذوي الشَّأن وأصحاب السُّلطان، وجدها في توجهات ذلك العصْر وهي الاكتشافات والتَّجارب العلميَّة التي كانت حديث المجالس في أوربا وحُلم شُبَّانها ومَحطّ أنظار ساستها، فكانت تجاربه ومُحاولاته العلميَّة ورقةً أدخلته إلى الدَّهاليز المتنفِّذة وصانعة القرار في بلده، ومع أنَّه فشل في مُعظم تجاربه هذه خاصَّة الطَّيران بالمنطاد بواسطة الغاز، إلا أنه تحوَّل إلى ما هو أهمّ، فعالم المغامرات واكتشاف العالم الجديد ما زال له بَريقه ولمعانه في هذا الوقت، والصِّراع حوله بين أقطاب القُوى الاستعماريَّة الأوربيَّة المتنافسة على أشدِّه، وتَرِكة الرَّجل المريض (الدولة العثمانية) تُغري بالمغامرة ودخول المعترك. كلُّ ذلك دفع بمغامرنا إلى ولُوج المعمعة والتَّقدم بمشروع الرِّحلة.

لقد احتار مَنْ كتب عن هذه الشَّخصيَّة في تصنيفه وتبعيَّته، فعلى الرَّغم من اتفاقهم على انخراطه في سلك الجاسوسيَّة وأساليبها القذرة، إلا أنَّهم لم يتَّفقوا على من كان يقف وراءه ويتلقَّى تقاريره الدَّورية، هل هم الإسبان بتطلُّعاتهم نحو شَمال أفريقيَّة وبشكل خاص المغرب؟ أم نابليون بأحلامه وطموحاته التَّوسعيَّة نحو شمال أفريقيَّة والشَّرق الإسلامي العربي؟ الدَّلائل التي تجعل منه عميلًا إسبانيًا أو فرنسيًّا مُلتزمًا لم تصل إلى حدٍّ

القطع، مع وجودها وظهورها بوضوح، وبشكلٍ مَكشوف أحيانًا وبالذّات في المغرب، عندما كان يسعى لتحقيق طموحات قادة بلاده فيها؛ وفي مرحلة الإعداد للرّحلة زار لندن والتقى أعضاء الجمعيَّة الأفريقيَّة وبحث معهم العمل لصالحهم في أفريقية تحت ستار الاكتشافات العلميَّة[١]، وكما نعرف مدى ارتباط هذه الجمعيَّات بالأهداف الاستعماريَّة لبلادها، ومع ذلك فإنَّنا نجهل مَدى تجاوب هذه الجمعيَّة مع مشروعه هذا، فهل كانت إحدى المموّلين له في رحلاته عبر البلاد العربيَّة؟ وفي ذات المدة وبعد أن خرج من لندن اتَّجه إلى باريس بحجَّة استكمال الاستعدادات للرّحلة، فهل عَقَد صفقةً مع حكومة فرنسا للعمل لصالحها في هذه المناطق مشروع الرّحلة؟ ثم ما مَدى ارتباطه بحكومة بلاده في كلِّ مشوار الرّحلة؟ كلُّ هذه التَّساؤلات تحتاج لأكثر من دراسة للإجابة عن مُلابساتها، خاصَّة وأنَّ باديا ـ كما يقول مُواطنه خوان بارثيلو Juan Barcelo: «لا يَعدو عن كونه جاسوسًا يستحيل معرفة سيرته الذَّاتيَّة لأنَّ *الجواسيس ليس لهم سيرة واحدة بل مُتعدِّدة، هي التي يمكن بمجموعها أن نخرج بتصوُّر ولو جُزئي عنهم*»[٢]. وفي اعتقادنا أنَّ باديا استخدم كلَّ أساليب المكر والخديعة لا ليخدعَ بها ضحاياه السُّذَّج وذوي النَّوايا الطيِّبة في البلاد التي زَارها فقط، وإنَّما ليلعب على كلِّ الحبال، فبعد أن أقنع حُكومة بلاده بمشروعه التَّجسُّسي والتَّخريبي داخل المغرب، وأغراها بخيرات هذا البلد مع هشاشة الحكم فيه، كسب الدَّعم والتَّمويل منها طيلة مدَّة إقامته في المغرب، مُرتبطًا بشبكتها التَّجسُّسيَّة ومُزوِّدًا إياها بالأخبار والمعلومات والاقتراحات، ومُستَمِدًّا منها التَّوجيهات تحت اسم رمزي هو «الشَّيطان» حينًا و«الرّحالة» في أحيانٍ أخرى[٣]، ساعيًا إلى كسب السُّلطان

(١) روبن بدول: **الرحالة**، ص ٣٢ ـ ٣.

(٢) **Ali Bei**, p. 251

(٣) مقدمة الرحلة، ط. برشلونة: ص ١٦؛ **Ali Bei**, p. 269.

مولاي سُليمان وإقناعه بالحماية العسكريَّة الإسبانيَّة ضدَّ أعدائه، وفي حالة رفضه فسيدفع البلد إلى حَرْبٍ أهليَّة تجعل الإسبان يَصطادون في الماء العكِر[١]، ومع ذلك فإنَّ الأمر اختلف عندما غادر باديا المغرب، فمع مُحاولة بعضهم تأكيد استمراريَّته في العمل لصالح إسبانيا من أجل وجودهم في منطقة الشَّرق الأوسط، لتكون قريبة من الهند والشَّرق الأدنى، ولذا كان على صِلة بعناصر إسبانيَّة ذات نُفوذٍ واسع من جزيرة مايوركا[٢]، لكن مع احترامنا لهذا الرَّأي إلا أنه يصعب إيجاد أيِّ دليل يؤكِّد هذه المقولة، بل على العكس فالأدلَّة كلّها تُشير إلى أنَّه عمل لصالح الفرنسيِّين بعد خُروجه من المغرب مُباشرة، فلم يَمض وقت طويل على مُغادرته للشَّمال العربي الأفريقي حتى كان نابليون يُفكِّر بإنزال عسكري فيه وبالتَّحديد في الجزائر، بل هناك دلائل تُشير إلى أنَّه كان يُزمع إنشاء مُستعمرات سكنيَّة أوربيَّة على السَّاحل الشَّمالي لأفريقيَّة للاستفادة من حُبوبها وسدِّ حاجة جُيوشه منها[٣]، وحتى وصل الأمر ببعضهم ليقول بأنَّ باديا ليس إلا أحد مُوظَّفي إمارة البحر الفرنسيَّة أُرسل إلى البحر الأحمر لتدوين مُلاحظات فلكيَّة وتحديد مَواقع جغرافيَّة[٤]، بل يذهب آخرون إلى أنَّه ليس إلا جاسوسًا لنابليون، ومن المحتمل أنَّ هذا الأخير قد رغب في أن يتعرَّف إلى حقيقة الحركة الإصلاحيَّة الجديدة التي ظهرت في جزيرة العرب، وفتح قنوات اتِّصال معها[٥]، ولعلَّ ما يضفي نوعًا من المصداقيَّة

---

(١) مقدمة الرحلة: ص ١٥. كان المولى سليمان بن محمد (١٢٠٦ ـ ١٢٣٨هـ/ ١٧٩٢ ـ ١٨٢٢م) أحد حكام دولة الأشراف العلويِّين في المغرب، قد تولى الحكم في ظروف عصيبة مابين أطماع خارجية وفتن داخلية، إلى جانب شخصيته المتسامحة. انظر: حسين مؤنس: **تاريخ المغرب وحضارته**، بيروت ١٩٩٢م، ٣/ ٣١٠ ـ ٣١٨.

(٢) **Ali Bei**, p. 259.

(٣) روبن بدول: **الرحالة**، ص ٣٣.

(٤) جاكلين بيرن: **اكتشاف جزيرة العرب**، ص ١٨٥.

(٥) نفسه، ص ١٨٥.

على هذا الطَّرح ما يوحي به ما بين سُطور هذه المذكَّرات، فقصَّة الرِّحلة مليئة بالإشادة بفرنسا والفرنسيِّين وإنجازات الحملة الفرنسيَّة على مصر، ثم لا ننسى اتِّصاله بالقناصل الفرنسيِّين في المناطق التي سيزورها، وعودته إلى فرنسا أولًا وليس إلى إسبانيا، وأكثر من ذلك تعاطفه بل تعاونه مع الاحتلال الفرنسي لبلاده، ثم رحيله مع قوَّاتها بعد طردها إلى باريس، كلُّ ذلك لا يَدَعُ مجالًا للشَّك في ارتباط باديا بحكومة فرنسا بعد خروجه من المغرب.

هذه الثَّوابت التي أكَّدها عدد من الكتَّاب الأوربيِّين نَستبعد معها أن تكون تزييفًا لحقائق ثابتة، أو تشويهًا للشَّخصيَّة التي حاول أن يرسمها لنا باديا فيما كتبه من أنه مُسلم يَسعى لصالح الإسلام والمسلمين، ربَّما نشكُّ في هذه لو أنَّها توقَّفت عند الاتِّهامات ولم تصل إلى المسلَّمات الثابتة، لكن برغم هذه الثَّوابت فإنَّ مَن كتبوا عنه احتاروا في مدى تلك العلاقة وهل تصل إلى حدِّ العمالة؟ خاصةً عندما وقفوا مَبهورين أمام مقدرته في مَزْج شخصيَّته الأسطوريَّة بالحقيقيَّة، وإظهاره لنفسه وكأنَّه مُؤمن إيمانًا عميقًا في كلِّ ما يكتبه، ثم تَمسُّكه بشخصيَّته الخياليَّة طيلة مَراحل رحلته، وحتى بعد عودته إلى أوربا.

كما تساءل أولئك عن تلك الإمكانيَّات الماليَّة التي توافرت له، وسهَّلت رحلته وجعلته يُنفق ببذخ، ما مَصدرها إذا افترضنا براءة الرَّجل وصحَّة ما ذهب إليه؟ ونحن بدورنا نتساءل ونضيف تَساؤلًا آخر مُلحًّا هو: كيف وصل باديا وبهذه السُّهولة إلى قُصور أمراء ورؤساء تلك البلاد العربيَّة التي زارها؟ حيث يجد الطَّريق أمامه سالكةً ميسَّرة، فبعد أن وصل المغرب التقى سُلطانها وكسب ثقته، ثم نجد حاكم طرابلس يتوسَّل إليه بالبقاء، وكذلك الحال مع محمَّد علي بمصر، وفي الحجاز يَسكن بجانب قصر الشَّريف ويتلقَّى استقبالًا حارًا منه، فهل صدَّق هؤلاء ادِّعاءاته وانتحاله لهذه الشَّخصيَّة الخياليَّة أم كان للهدايا المميَّزة التي تسبقه



«علي باي في الصَّحراء» كما تخيَّله أحد الفنَّانين

والتَّوصيات الخاصة من قبل حكومات أوربيَّة مُعيَّنة بشكل أو بآخر أثر في ذلك القبول وتلك التَّسهيلات؟ كلُّ هذه الدَّلائل والمؤشِّرات تجعلنا نُؤكِّد بأنَّه ليس إلا أحد هؤلاء المستكشفين ومُوظَّفي الدَّوائر الاستعماريَّة على الرغم من مُحاولته المستميتة خداعنا وإقناعنا بأنَّه أحد المسلمين نسبًا وحسبًا واعتقادًا، والسَّاعي للحقيقة العلميَّة المجرَّدة، فبالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقًا من علاقاته وارتباطاته بالدَّوائر الاستعماريَّة، فإنَّ هذه العلاقة ظلَّت تُلازمه في رحلته داخل البلاد الإسلاميَّة، ليس في المغرب وحدها بل في طرابلس ومصر والحجاز، ففي قبرص مثلًا التي كانت خارج إطار رحلته مكث فيها حوالي الشَّهرين بحجَّة أنَّ المركب والأمواج دفعت به إليها، وكانت حائلًا دون وصوله للإسكندريَّة، وهو ما يُلقي أكثر من علامة استفهام، فلو كانت المسألة كذلك لما احتاج إلى كلِّ هذه المدَّة التي من المتوقَّع أنه التقى خلالها شخصيَّات وأشخاصًا سهَّلوا له مهمَّته ورحبوا به[١]، ويرجِّح بارثيلو أن يكون قابل خلالها زملاءه من عُملاء المخابرات الأوربيَّة، وتزوَّد فيها بالمال والتَّعليمات اللأَّزمة[٢]، ثم في مِصر يزوره القنصل الفرنسي[٣]، وتتكرَّر هذه الزِّيارات واللِّقاءات من قبل مسؤولين فرنسيِّين وأوربيِّين في أكثر من مُناسبة وأكثر من مكان، لدرجة أنَّ أحد من تناولوا سيرته كتب مُتعجِّبًا: كيف يستطيع هذا الجاسوس العتيق الوصول إلى شخصيَّاته في أغلب الأماكن التي حلَّ بها، مُدَّعيًا أحيانًا أنَّه صديقه القديم[٤] ومرَّات أخرى دون تعليل يذكر؟!

على ضوء ما نقدَّم يُمكننا أن نَرسم إطارًا زمنيًّا ومنطقيًّا لارتباطات باديا وعلاقته بهذه القُوى أو تلك على النَّحو الآتي:

---

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ص ١٩٩.

(٢) Ali Bei, p. 253.

(٣) الرحلة، ط. برشلونة، ص ٢٧٣.

(٤) Ali Bei, p. 255.

حاول جاهدًا أن يَستثمر كلَّ الظُّروف لصالح مشروعاته وتحقيق طموحاته، مُستخدمًا كلَّ الوسائل الممكنة لخدمة هذه الأهداف بعد أن درس عصره وعرف كيفيَّة الوصول إلى ما يريد، اتَّصل بالإنجليز واستفاد من تجارب وخبرة الجاسوسيَّة فيها، ووعدها مُقابل ذلك بخدمتها في مناطق محدَّدة مقابل تسهيلات معيَّنة، ومع أنَّه كرَّس خدماته لبلاده في المغرب وبشكل مكشوف لا يقبل الجدل، إلا أنَّ ذلك لا يمنع جاسوسًا مُحترفًا من أن يتعامل مع أكثر من جهة، ويُرسل تقاريره لعدَّة أطراف حسب ما تقتضيه مصلحة تلك البلاد خاصة بريطانيا وفرنسا، بدليل أنَّه ظلَّ على صِلة بهذه القوى وارتباط أوضح بعد طرده من المغرب، ففي قبرص يلتقيه ممثِّل بريطانيا، ويسكن في منزل أحد عملائهم ويستفيد من توجيهاته[١]، لكنَّه عندما يصل إلى مِصر تظهر عليه علامات الضَّجر من الإنجليز، وينسب إليهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة ما حلَّ بها من خراب ومشكلات اقتصاديَّة[٢]، وحتى سرقة الآثار[٣]، كما ينتقد الرَّحالة الإنجليزي براون فيما كتبه عن القاهرة، وأنَّها لا تعدو معلومات خاطئة في غالبيَّتها[٤]، وهذا يُشير إلى أنه اتَّخذ موقفًا وخطًا آخر يصبُّ في صالح الفرنسيِّين، ولذا لم تغفر له المخابرات البريطانيَّة هذه الإهانة، وربَّما الخيانة فانتقمت منه وقتلته بالسُّمِّ عندما استأنف رحلته من باريس مرَّة أخرى على رأي أغلب من تناولوا سيرته[٥]، وممَّا يؤيِّد هذا الرَّأي أيضًا خوفه وتوجُّسه من الإنجليز، نَلحظ ذلك واضحًا في مُغادرته للقاهرة في

---

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ص ١٩٩.
(٢) نفسه، ص ٢٣٥.
(٣) نفسه، ص ٢٣٦.
(٤) نفسه، ص ٢٦٣ ـ ٤.
(٥) Ali Bei, p. 263؛ روبن بدول: الرحالة، ص ٣٤.

سفرةٍ مُفاجئة تشبه الهرَب عندما أحسَّ أنَّ هذه المدينة تقع في مرماهم[١].
أمَّا فرنسا فظلَّ على ولائه لها حتى وفاته، ولذا فقد استحقَّ أن يُمنح لَقَب «سيِّد» نظير ما أسداه لها من خدمات في الشَّرق[٢]. وإن أشارت بعض الوثائق إلى ولائه المبكِّر للفرنسيِّين حسب القنصل البريطاني في طنجة الذي اتَّهمه بالعمالة لنابليون بونابرت[٣]؛ لكن وزير العلاقات الخارجيَّة الفرنسي بعث رسالة يُوصي فيها ممثِّل فرنسا في طنجة بعلي باي ويدعوه إلى استمالته[٤]، وهذا يعني أنَّه لم يرتبط بفرنسا بعد.

كما لا نستبعد أيضًا أن يكون قد سوَّى صفقة مع الكنيسة الكاثوليكيَّة نفسها، يزوِّدها بموجبها بدراسة عن وضع هذه الكنيسة والعاملين عليها ومُرتاديها في المناطق التي يمرُّ بها، والدَّلائل تشير إلى ذلك، فلدينا صورة لباديا محفوظة في المكتبة الوطنيَّة بإسبانيا وقد كُتب عليها بأنَّه مبعوث من قبل .m.s الكاثوليكيَّة إلى أفريقية، (انظر الصُّورة في الصفحة الآتية)، كما نَلحظ اهتمامه الشَّديد بتفصيل الحديث عن وضع الجالية النَّصرانية في كلِّ الأماكن التي مرَّ بها، سواء في معابدها أو مذاهبها والقائمين عليها وتعداد أتباعها، وكان الحديث دقيقًا ومدعَّمًا بالأسماء والأرقام في حديثه عن الكنيسة الكاثوليكيَّة في بيت المقدس بالذَّات،

---

(١) انظر: الرحلة، ص ٣٤٣ من طبعة مدريد. فقد اختلق بعض الأعذار الواهية عقب عودته من الحجّ، واتَّجه إلى بيت المقدس، والسَّبب وراء ذلك يكمن في خوفه من قوافل الإنجليز التي كانت تتَّجه للقاهرة، ليس هو وحده بل كانت الجالية الفرنسيَّة هي الأخرى تخطِّط للرَّحيل.

(٢) **Ali Bei**, p. 261.

(٣) H. de Castries, «Napoleon et le Maroc» Dans **Revue Hebdomadaire**, n. 8, Avril 1908, p. 3، نقلًا عن عبدالحفيظ حمَّان في: «رحلات الأوربيين. . . .» ص١٤.

(٤) هذا الوزير هو تاليران، وانظر رسالته التي أرسلها في هذا الشَّأن في الطَّاهر مكِّي: «أول رحالة إسباني. . . .»، ص١٧٧.

ودور كنيسة إسبانيا التي أحصى عدد قساوستها في هذه المدينة ومدن فلسطين الأخرى ومُساهمتها الفعَّالة فيها[١].

وقد نكون شططنا بالحكم وأبعدنا الرَّمي، فربَّما كانت له دوافعه الأخرى على افتراض بعضهم، بعد أن تحرَّر من السَّياسة ومُؤامراتها خاصَّة بعد تجربته الفاشلة معها، فانتهج خطًّا كان الهدف العلمي يأتي في أولويَّاته خدمةً للجانب الأوربِّي، فلم تكن رحلته إلى مكَّة ذات أغراض سياسيَّة خفيَّة أو أغراض تنصيرية، وإنَّما كانت تدخل بالأساس في مجال الأنثربولوجيا حسب تعبير عبدالحفيظ حمَّان[٢]، لكن مع كلِّ ما ذكرناه آنفًا يصعب أن نتنازل بسهولة دون أدلَّة وإقناع تؤكِّد تخلُّصه من الدَّوافع الأخرى، لاسيَّما وأنَّ تحرُّكاته اللاَّحقة تؤكِّد الجانب غير البريء في أهداف جولته.



إحدى الصُّور المحفوظة في المكتبة الوطنيَّة بمدريد وقد كُتب أسفلها: «السيِّد دومنجو باديا باي لبليخ مبعوث M.S الكاثوليكيَّة لداخل البلدان الأفريقيَّة»

(١) الرحلة ط. مدريد، ص٣٩٨، ٤٠٠.

(٢) «الحياة العامَّة في منطقة الحجاز...»، ص٦٤.

باديا والإسلام:

بقي أن نتوقّف عند موضوع إسلامه وهل كان ذريعة للدُّخول إلى قلب العالم الإسلامي وكسب مسؤوليه؟ أم أنّه كان عن اقتناع واعتقاد؟ بدايةً لا نستطيع أن نجرِّد شخصًا من إسلامه مهما كانت الكبائر التي ارتكبها، ويَبقَى علاَّم الغُيوب هو وحده العالم بحقيقته، وهو الذي سيُحاسبه ويجازيه؛ فمع ثُبوت عمالته وتقمُّصه لشخصيّة إسلاميّة خياليّة، إلا أنّه ظلَّ على ولاءٍ وتمسُّكٍ بهيئته الخياليّة والتّنكريّة تلك حتى بعد انتهاء رحلته، وفي ثنايا مُذكّراته نجده لا يفارقها لحظةً واحدةً، وظلَّ في قلب مَشروع رحلته هذه، ولم يكشف عن شخصيّته الحقيقيّة مثلما فعل غيره من الرّحالة الآخرين، حتى إنَّ النّاشر الفرنسي الذي قدَّم له عند طبع مُذكّراته لأوّل مرّة في باريس، قدَّمه باسمه الإسلامي وبأنّه سليل الشَّجرة النَّبويّة والأسرة العبّاسية العريقة[١]، كما نلحظ حماسته للإسلام ودفاعه عنه فيما كتبه للأوربيّين: «يَا فَلاسِفة الأرض اسمحوا لعلي باي كي يُدافع عن دينه كما تُدافعون أنتم عن الرُّوحانيّات أو الماديات، الفارغ منها والمليان، فَرضيّة الوُجود أو الخلق! هنا ليس هناك وَسيط بين الإنسان وربِّه، فكلُّ البشر مُتساوون أمام الخالق، كلُّهم مُتحابُّون مُقتنعون بأنَّ أعمالهم فقط هي التي تُبعدهم أو تُقرِّبهم إلى الله تعالى دون تدخُّل أيادٍ أجنبيّة تستطيع أن تُغيّر نظام هذه العدالة البديعة، أيُّ رادع ضدَّ الجريمة وأيُّ تشجيع للفضيلة!!»[٢]. حتى وجدنا من يتّهمه بالإسلام عند عودته إلى بلاده إسبانيا[٣]، لكن في المقابل هناك من يقول بأنّه وُجد الصَّليب داخل ثيابه عند وفاته[٤]، هذه الرِّواية التي مَصدرها أحد الرُّهبان، يقابلها أنَّ باديا

(١) JULIO ROMAN, Viajes de Ali Bey, p. 13.

(٢) انظر: الفصل الثالث من هذا الكتاب أثناء حديثه عن الوقوف بعرفة.

(٣) JULIO ROMAN, Viajes de Ali Bey, p. 261.

(٤) Ali Bei; p. 263؛ روبن بدول: **الرحالة**، ص ٣٤.

عندما أحسَّ بالوفاة أمر بأن تُحمل كلّ أمتعته وأثاثه وتوزَّع على فُقراء مكَّة والمدينة[١]، وقد ناقش بعضهم هذه النقطة لكنَّه لم يتوصل إلى رأي محدَّد[٢]، ومع ذلك فهناك دوائر مُتعدِّدة من الشُّكوك تظهر في ثنايا ما يكتبه، تدلِّل على أنَّه ما زال أسير مُعتقده القديم ونظرته الصَّليبيَّة الحاقدة، كما أنَّ توقُّفه بقبرص وحرصه الشَّديد على الالتقاء برجال الدِّين النَّصارى والزِّيارات المتبادلة، وحقده الشَّديد على الأتراك؛ كلُّ ذلك يُلقي بظلالٍ من الشَّك على صحَّة مُعتقده، ولا أدلَّ على ذلك من تصريحه عندما كان في قبرص بأنَّه كان يتردَّد لحضور الصَّلوات الكنسيَّة مع صاحبه روك الإنجليزي[٣]. فهل كان ذلك مجرَّد مجاملة أم أنه كان عن اقتناع؟

كما تداول بعضهم روايات عن يهوديَّته وشكَّكوا في صدق نواياه[٤]، وإن كنَّا لا نستطيع أن ننفي أو نثبت صدق هذا الادِّعاء إلا أنه في حديثه عن المسجد الأقصى ببيت المقدس يؤكِّد المزاعم اليهودية بأنَّه يحتلُّ موقع هيكل سليمان[٥]، كما ورد في ثنايا حديثه استعمال لفظ «*الأرض الموعودة*» بدلًا من فلسطين، وعندما وطئت قدماه أرض فلسطين كانت كتاباته عنها أشبه بشِعر المتيَّم الولهان الذي قاده الشَّوق والحنين إلى مكان يألفه ويعشقه[٦]، وكما سنرى عند العرض السَّريع لرحلته كيف أعطى الجالية اليهوديَّة حيِّزًا ليس بالقليل من اهتمامه. لكن هذه وحدها قد لا تكفي للتَّأكيد على ما ذهب إليه دو غوري لأنَّ النَّقل الذي اعتمده باديا

---

(١) Ali Bei; p. 263.

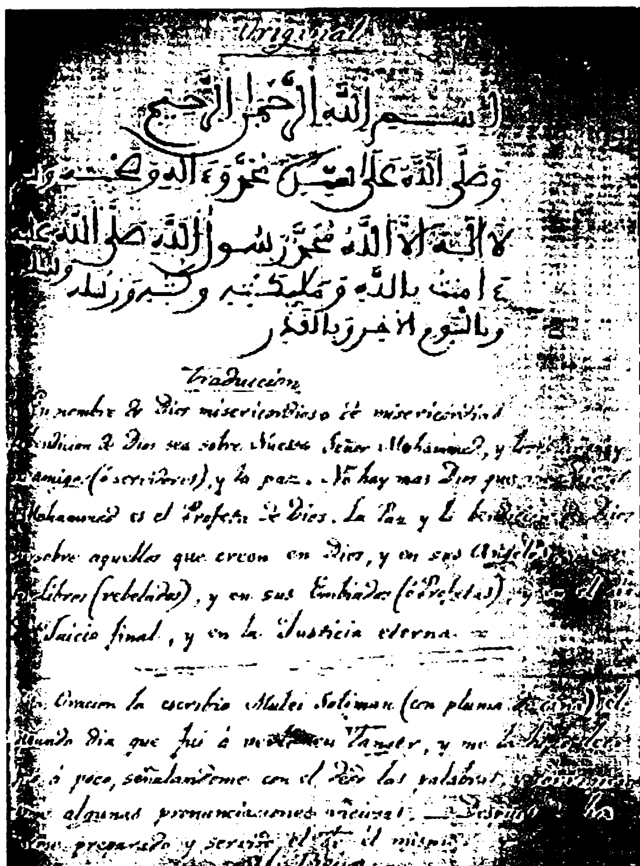
(٢) بيرن: **اكتشاف** ص ١٨٦ ـ ٨؛ بيتر برينث: **بلاد العرب القاصية**، ص١٠٤ ـ ٥.

(٣) الرحلة، ط. برشلونة، ص ١٩٩.

(٤) انظر مثلًا: جيرالد دو غوري: **حكَّام مكَّة**، ترجمة محمد شهاب، القاهرة ٢٠٠٠م ص٢١٤.

(٥) الرِّحلة، ط. مدريد، ص٣٥٨.

(٦) الرِّحلة، ط. مدريد، ٣٥١.



Original

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله
وباليوم الآخر وبالقدر

Traducción

En nombre de Dios misericordioso de misericordia
Bendicion de Dios sea sobre Nuestro Señor Mohammed, y [illegible]
amigos (ó servidores), y la paz. No hay mas Dios que [illegible]
Mohammed es el Profeta de Dios. La Paz y la bendicion de Dios
sobre aquellos que creen en Dios, y en sus Angeles, [illegible]
Libros (revelados), y en sus Enviados (ó Profetas), y [illegible]
Juicio final, y en la Justicia eterna. =

[illegible] Oracion la escribio Muley Soliman (con pluma [illegible]) el
[illegible] Dia que fui á [illegible] en Tanger, y me la [illegible]
[illegible] á poco, señalandome con el dedo las palabras, [illegible]
[illegible] algunas pronunciaciones [illegible]
[illegible] preparado y servido [illegible] el mismo.
[illegible] Ali Bey [illegible]

شهادة تأكيد إشهار الإسلام لباديا كما يبدو،
كُتبت في المغرب بتاريخ ١٩/٦/١٢١٨هـ - ٥/١٠/١٨٠٣م

دون تدقيق قد يُوقعه في مزالق غير مقصودة أحيانًا، كما أنَّ إسبانيا عند ظهور باديا كانت فيها الكنيسة لها كلمتها، وثقة الحكومة الإسبانية في يهوديٍّ لا يدين بديانتها يظل محل تساؤل، ومع ذلك فإنَّ هذه الفكرة قد تجد ما يعضدها ويقوِّيها، خاصَّة وقد تَعَالت الأصوات يومًا ما في مدينة سيجوبيا Segovia الإسبانية ناعتةً إياه باليهوديَّة مرَّة وبالماسونيَّة أخرى[١].

لكن على العُموم يجب ألا يغيب عن البال أنَّ تلك الحقبة التي ظهر فيها باديا اتَّسمت بنوعٍ من التمرُّد ومُحاولة التَّقرُّب من الآخر الذي هو خارج إطار الكتلة الغربيَّة، حيث أذكت الثَّورة الفرنسيَّة بمبادئها المعلنة الخلابة هذا الشُّعور، ولذا لا نستغرب على باديا وهو المعجب بهذه الثَّورة وما جاءت به من مبادئ، عندما يتبنَّى أفكارًا كهذه، انظر إليه وهو يقول: «*يجب أن تختفي الفوارق الدينيَّة لدى الفيلسوف، وعليه أن يَنظر فيما ينفع البشريَّة، وهذا هو شُعوري الذي سخَّرت له قلمي دائمًا، وبهذا سيكون من السَّهل تحسين أوضاع أولئك البائسين من ضحايا التَّعصب الدِّيني دون بذل المزيد من التَّضحية*»[٢]. ولعل من المفيد أن يتعرَّف القارئ إلى المزيد من نظرة باديا للإسلام، خاصة وقد خصَّه بفصل خاصّ من مذكَّراته هذه وهو الفصل التَّاسع أثناء حديثه عن جولته بالمغرب، حاول من خلاله أن يُعطي القارئ معلومات حول الإسلام والرَّسول ﷺ والخلفاء الرَّاشدين، صدَّره بقوله:

«*كتب الكتَّاب على اختلاف أممهم عن الإسلام وتاريخ نبيِّنا إمَّا سلبًا أو إيجابًا، لكن هذه الكتابات مُنصفها ومُتحاملها تأثَّر مُؤلِّفوها بالمصادر التي استقوا منها مادتهم العلمية، كما لا ننسى هدفهم من وراء ذلك*

---

(١) Ali Bei; p. 261، وذلك أثناء تعاونه مع جوزيف بونابرت عندما كان حاكمًا لإسبانيا.

(٢) الرِّحلة، ط. مدريد، ص٤٠١. ومن المعلوم أنَّ نابليون انتهج سياسة أطلق عليها «السياسة الإسلامية» عندما كان الفرنسيون في مصر، ويقصد من ورائها كسب الرأي العام الشعبي والرسمي في البلاد الإسلامية.

حسب اهتماماتهم وميولهم وفلسفاتهم، وهذا أثَّر قليلًا أو كثيرًا فيما كتبوه أو وصفوه، ولو كتبتُ للمسلمين فسأحذف هذا الفصل بالطبع، لكن لأنَّ هدفي من هذا العمل هو البشريَّة كافَّة، لأنِّي أكتبُ لكلِّ الأجناس والأديان، ورأيتُ من الملائم والضَّروري وصف البلدان الخاضعة للإسلام عند نشر الكتاب، وإعطاء ولو فكرة موجزة عن ديانتها، وأيضًا عن حياة نبيِّها الذي يَتبعه خُمس سكَّان المعمورة، ولو بشيء يسير يُغني القارئ عن البحث في مَصادر أخرى».

ثم يَسترسل في الكتابة عن النَّبي ﷺ مَولده وحياته ونشأته وزواجه بخديجة ونُزول الوحي إليه ثم موقف النَّاس منه وخاصة قبيلة قريش، وإن كان ذلك بأسلوب استعراضي بحت وموجز، كما يتوقَّف عند ديانة قُريش وسبب مُعارضتها للدَّعوة الجديدة التي ستنزع منها كلَّ الصَّلاحيَّات والامتيازات، ومن ثَمَّ قرارها الصَّارم ضدَّها وضدَّ دُعاتها، وقَرار الرَّسول ﷺ بعدها الهجرة إلى المدينة المنوَّرة، وما لاقته الدَّعوة في الأرض الجديدة. وبعد توقُّفٍ عند الانتصارات التي حقَّقها الإسلام بقيادة الرَّسول ﷺ وخلفائه الرَّاشدين، يستعرض تاريخ الإسلام بإيجاز شديد، ثم يبدأ بعد ذلك بالتَّعريف بالإسلام ويشير إلى أنَّه بصريح العبارة لا يُوجد فيه أسرار ولا طُقوس كنسيَّة ولا وسطاء بين الإنسان وربِّه، مثلما يُسمَّى بالنَّصرانيَّة «القساوسة»، ويستمرُّ في المقارنة والتَّعريف حتى يصل إلى الطَّهارة والوضوء والصَّلاة، ويشرح ذلك كلّه وما يُقرأ في الصَّلاة، ووضعية المصلي والدعاء فيها والأذان وما يقال فيه ثم صلاة الجمعة والنَّوافل.

ثمَّ ينتقل في الفصل الذي يليه ليتحدَّث عن عدَّة موضوعات أهمُّها الزَّكاة في شُروطها ومقدارها، وكذلك زكاة الفطر والأضاحي والصَّدقات التي بيَّن أوجه صَرفها وإخراجها، وأفادنا أنَّه بعد تركه لبلاد النَّصارى تصدَّق بخزان مياهٍ صالحة للشُّرب لمسجد طنجة. ثمَّ عرَّج على الصِّيام

وأحكامه والشَّهر القمري، كما أشار إلى الشُّعور العام المصاحب لرمضان وما يُضفيه من أجواء روحيَّة على النَّاس، ثم توقَّف عند ليلة سبع وعشرين وما يُتلى فيها من قُرآن وأوراد، ولفت نظره المسحَّراني الذي يدور على الأبواب في مدينة فاس، ثم الحجّ ووجوبه وأحكامه، ويؤكِّد في هذا الصَّدد أنَّ **هدف الرِّحلة الأساس هو زيارة بيت الله في مكَّة المكرَّمة**، كما تطرَّق إلى الحديث عن صلاة العيد وما يُصاحبها من مَواكب رسميَّة وتعبديَّة.

ويعاود الحديث مرَّة أخرى عن عدم وجود قُسُس ولا رُهبان بين المسلمين، فأولئك الذين يَخدمون المساجد ليس لهم أيَّة امتيازات خاصَّة مثلما يحدث لدى النصارى من أخذ الاعترافات والضَّرائب، وللمقارنة عَرَض لمهمَّة الإمام والمؤذِّن في المسجد، وانحصارها في أداء الصَّلاة وقراءة بعض الكتب الدينيَّة من قبل الإمام، والتَّنبيه للصَّلاة ومساعدة الإمام من قبل المؤذِّن.

وعند الحديث عن الأعياد والعطل الرسميَّة، أشار إلى أنَّ العمل لدى المسلمين في المغرب مُستمرٌّ حتى في يوم الجمعة، إذ يتوقَّفون فقط لأداء الصَّلاة، وهذا يمنح المجتمع اثنين وخمسين يوم عملٍ هي ضائعة لدى أصحاب الدِّيانات الأخرى.

ثم يقول: «*من كل ذلك نستنتجُ أنَّ الإسلام أو دين محمَّد سهل وواضح، فكلمة الإسلام معناها الاستسلام لله، وحول هذه القاعدة الرئيسة تقوم الدِّيانة، فالإيمان يرتكز على وجود إله واحد، ثمَّ الطَّهارة فالصَّلاة والإحسان وتزكية الجسد من خلال الصِّيام والحجِّ، هذه هي الصِّفات الجوهريَّة التي تُقدِّرها كلّ الأمم والأعمار، وهو ما تتطلَّع إليه أنظار الفلاسفة الذين عَرفوها عبر اتصالاتهم المتعدِّدة*»[1].

---

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ص٨٦.

ويوضِّح أنَّ الإيمان برسالة نُوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء الأوَّلين عليهم السلام، هي شَرط لا بدَّ منه للدُّخول في الإسلام، ويشرح موقف المسلمين من الأناجيل التي في أيدي النَّصارى وأنَّ التَّحريف قد دخلها، ويُبيِّن موقفهم من صلب المسيح.

ويشير إلى بعض الخرافات التي أدخلها بعض الناس في الإسلام مثل الاعتقاد بالأولياء، وغيرها من السَّلبيَّات الأخرى التي عدَّدها، وذكر أنها مُتفشِّية في المجتمع، ويتساءل: «لكن في النِّهاية هل هناك ديانة في الأرض لم يدخلها زَيف المشعوذين وجهل الجاهلين من البشر؟ لكن لحسن الحظّ لا نلحظ في هذا البلد وجود دراويش الصُّوفيِّين الذين يوجدون بكثرة في تركيا»[١].

ثالثًا ـ الكتاب عرض ودراسة:

حمل الكتاب في صفحته الأولى التَّوقيع الآتي بالحرف العربي وبخطّ المؤلِّف:

«الحمد لله وهو العليُّ العظيم الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلمْ، قُل اللَّهم الحمد لله الذي هدانا للإيمان وللإسلام وهدانا إلى الحجاز وإلى البلد الحرام. هذا كتاب الصالح الأمير الحكيم الفقيه الشَّريف الحاج علي باي بن عثمان باي العباسي خادم بيت الله الحرام» وهو يحمل عددًا من الأخطاء الإملائيَّة (الصورة التالية) ثم قال: «بعد أن مكثتُ عدَّة سنوات في الدُّول النَّصرانية للدِّراسة في مدارسها علوم الطَّبيعة وغيرها من العلوم والفنون المفيدة للإنسان سواء في مجتمعه أو في ثقافته و دينه، عزمتُ في النِّهاية على القيام برحلة في البلاد الإسلاميَّة، وفي نفس الوقت أكملُ واجبي الدِّيني بالحجِّ إلى مكَّة، مُلاحظًا العادات

---

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ص٨٧.

والتَّقاليد وطبيعة الأرض التي أمرُّ بها هادفًا من وراء ذلك ألاَّ تكون هذه الرِّحلة الشَّاقة غير مفيدة لي ولأهل بلدي في تلك التي سأتخذها مكان إقامة دائمة»[١].

مُذكِّرات دُومنجو باديا أو علي باي العبَّاسي هذه، وما سجَّله خلال رحلته تلك، سعى جاهدًا أن يطبعه وينشره في أوربا ولم يتأخَّر ذلك كثيرًا، فقد طُبعت الرِّحلة في ثلاثة مُجلَّدات وأطلس باللُّغة الفرنسيَّة بباريس سنة ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م بعنوان: «رحلات علي باي العبَّاسي في أفريقيا وآسيا»، ولم يلبث أن ترجمه وطبعه بالإنجليزية والألمانية سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م ثم الإيطالية عام ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م، بينما تأخَّرت الطبعة الإسبانيَّة حتى سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م وظهرت في مدينة بلنسية[٢]، وقد نُشرت تحت عنوان: «رحلات علي باي العبَّاسي في أفريقيا وآسيا» مترجمة عن النسخة الفرنسية؛ وبين أيدينا نسخة أخرى تتكوَّن من مُجلدين باللغة الإسبانيَّة، نُشرت في برشلونة سنة ١٩٨٤م بعنوان: «رحلات في المغرب وطرابلس واليونان ومصر» في جزئها الأول و«رحلات في جزيرة العرب وفلسطين وسورية وتركيا» في جزئها الثاني، وتحمل عددًا من الصُّور والخرائط، وأخرى نُشرت في مدريد سنة ١٩٩٨م في مجلَّد واحد بعنوان «حاجٌّ إلى مكَّة» اقتصرت على مُذكِّرات رحلته بعد خروجه من المغرب، كما ظهرت قبلها طبعة أخرى في مدريد سنة ١٩٨٢م مزوَّدة بالصُّور والخرائط ومعنونة بـ «رحلات الأمير علي باي العباسي في المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربيَّة وسورية وتركيا». وليست هناك فوارق مهمَّة بين الطَّبعات الثَّلاث لأنَّ الطبعتين الأخيرتين اعتمدتا على طبعة بلنسية، ومع أنَّ جلَّ اعتمادي كان على طبعة برشلونة، لأنَّها مخدومة بمقدِّمة وافية وتحمل

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) بيرن: اكتشاف ص ١٨٥. Ali Bei; p. 232.

خرائط ومصوَّرات، إلا أني اضطررتُ في مرحلة لاحقة إلى الاستفادة من طبعة بلنسية ومدريد.

الحمد لله و هو العلي العظيم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم قل لهم الحمد لله الذي هدينا للايمان و الاسلام و هدينا الي الحجاز و الي البلد الحرام

هذا كتاب الصالح الامير الحكيم الفقيه الشريف الحاج علي باي ابن عثمن باي العباسي خادم بيت الله الحرام *

بهذه الكلمات صدَّر علي باي أو دومنجو باديا كتابه
الذي هو سجلٌ رحلته هذه.

وقد حَظي الكتاب بدراسات نقديَّة وتحليليَّة، من بينها تلك التي تصدَّرت طبعة برشلونة التي قام بها خوان جويتيسولو، وفيها أبرز الأهميَّة القُصوى لهذه الرِّحلة بصفتها مصدرًا غنيًّا وشاملًا عن المناطق التي زارها، برغم المبالغات التي تتخلَّل أحاديثه أحيانًا، كما أنَّها ثريَّة بما حملته من أوصاف ومعاينات أنثروبولوجيَّة وعلميَّة وجغرافيَّة، ودقَّة في وصف الحجِّ بمشاعره ومشاهده، وهذا يَمنح كاتبها مكانةً مُميَّزة بين أولئك المغامرين

والرَّحالة والمستكشفين ومُوظَّفي الدَّوائر الاستعماريَّة الذين مَزجوا الدَّافع السيَّاسي والمهني بالتَّعلق الشَّخصي بالحياة العربيَّة والافتتان بالإسلام[١]، كما تتميَّز كتابات باديا بالأسلوب المنظَّم والمعرفة العلميَّة واللغويَّة التي تجعل منه وحده ـ في تلك المدة ـ مُمثِّلًا للعالم الحديث[٢] حسب اعتقاده، قدَّم أوَّل تقرير دقيق ومفصَّل للغرب عن الحجِّ كما رآه وعايشه[٣]. ومن بين أهم الدِّراسات الجديرة بالإشادة تلك التي قام بها عدد من الكتَّاب الكتلان وغيرهم بعنوان: «علي باي: حَاجٌّ كتلاني في ديار الإسلام»، كما خصَّه الأديب الإسباني خوليو رومانو بدراسة طريفة بعنوان: «رحلات علي باي العبَّاسي» وقد سبقت الإشارة إليهما.

وها نحن نقدِّم أحداث ووقائع رحلته إلى الحجاز مرورًا بشمال الجزيرة لقرَّاء العربيَّة، بعد أن ظلَّت كثيرًا من تفصيلاتها محجوبةً عنهم سنين طويلة، على الرّغم من أهميتها فيما تحمله من معلومات تُعدُّ وثائق مهمَّة لأحداث سياسيَّة واجتماعيَّة. وسنكتفي هنا بعرضٍ سريع لأهمِّ انطباعات هذا الرَّحالة فيما دوَّنه في مُذكَّراته التي أصبحت مُلكًا للأجيال والباحثين والدَّارسين لتاريخ الأمم والحضارات من بعده، وما يمكن أن يوجَّه إليها من ملحوظات وانتقاد أو تقويم وتحليل.

١ ـ أهميَّة الرِّحلة ومكانتها من بين الرَّحلات:

إذا نظرنا إلى هذه الرِّحلة من حيث الأهميَّة والمكانة فنجد أنها تتبوَّأ مكانةً مميَّزة بين مثيلاتها، ليس لأنَّها الأقدم فقط، بل للجرأة التي صاحبتها من قبل باديا الذي اخترق الحُجُب وتسلَّل بصفته أحد أبناء الدَّار، ليصل إلى ما عجز عنه غيره ممَّن سبقوه أو جاؤوا بعده، وفي هذا

(١) مقدمة الرحلة، ط. برشلونة، ص ٢٦.

(٢) روبن بدول: الرحالة، ص٣٤.

(٣) بيرن: اكتشاف، ص ١٨٨.

الصَّدد يمكن لنا أن نقارن بما كتبه جون بوركهارت الذي جاء إلى مكَّة بعده بسنوات واعتمده في كثير من النّقاط التي وردت في كتابه على الرَّغم من مُحاولته إخفاء ذلك بحجَّة أنَّه اطَّلع على مُذكِّرات باديا بعد عودته إلى مصر، ومع أنَّه قد فصَّل في مواضع غَفل عنها باديا، وتوسَّع في أخرى اختصر فيها، إلا أنَّ اطِّلاعه واستفادته منه لا يمكن إنكارها، خاصَّة وقد فضَح نفسه حينما انتقد باديا في مُخطَّطه الذي رسمه للحَرَم وكذلك الخارطة التي وضعها لمكَّة المكرَّمة، ثم ينتقده في مواضع أخرى من كتابه[1] لكنَّه يعترف أنَّ باديا تفوَّق عليه في التَّمويه على من التقاهم في طريق رحلته إلى الحجِّ حيث انكشف أمره على الأقلِّ لعلية القوم بعكس صاحبنا الذي حافظ على تلك الشَّخصيَّة التي تقمَّصها[2]، ولسنا بصدد المقارنة والتَّدقيق، لكنَّ الكثيرين ممن تناول سيرة باديا وسجلَّ رحلته هذه، يؤكِّدون مكانتها وقيمة ما قدَّمته من معلومات قيْمة تعدُّ توثيقًا لأحداث عايَشها واطَّلع عليها بنفسه، خاصة دخول الجيش السُّعودي إلى مكَّة المكرَّمة وما سجَّله لنا حول هذا الحدَث بصفته شاهد عيان، ثم مُقابلته للشَّريف غالب وإفادتنا بمعلومات تتعلَّق بشخصيَّته وسياسته وتحالفاته، وهو ما يمنح الباحث في تاريخ هذه المنطقة معلومات في غاية الجدَّة والأهميَّة.

ولعلَّ اهتمامه بالقضايا السياسيَّة ومجرياتها لم يُنسه التَّصوير الوصْفي

---

(١) انظر: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ترجمة: عبدالعزيز بن صالح الهلابي، وعبدالرحمن عبدالله الشيخ، بيروت ١٩٩٢م، ص ١٤٠، ١٦٦، ٢٣٢.

(٢) نفسه، ص ٨١. ومما يجدر ذكره أنَّ هذا الرَّحالة السويسري الأصل بوركهارت تسمَّى بالحاجّ إبراهيم بن عبدالله، وكان شاهدًا على انحسار نفوذ الدَّولة السُّعودية التي كان باديا شاهدًا على سيطرتها على الحجاز، وقد انطلق من القاهرة ليصل إلى مكَّة المكرَّمة في ١٥ من يوليو سنة ١٨١٤م الموافق ٢٧ رجب سنة ١٢٢٩هـ إلى ٢٥ مايو ١٨١٥م الموافق ١٥ جمادى الآخرة ١٢٣٠هـ، وكان يعمل لحساب الجمعيَّة الأفريقيَّة البريطانيَّة. انظر مقدمة المترجم للرِّحلة، ص٦ ـ ١٠.

الدَّقيق لما شاهده وعايشه من مَشاهد اجتماعيَّة وإنثروبولوجيَّة وجغرافيَّة وأثريَّة وعلميَّة، سواء في مكَّة المكرَّمة أو في جدَّة أو في غيرها من الدِّيار والمواقع التي مرَّ بها، مُستخدمًا أدواته القياسيَّة ابتداء من مقياس كثافة الرُّطوبة الجويَّة إلى آلة السُّدس والثُّمن وأجهزة الرَّصد الأخرى، وممَّا حمله معه من أدوات تحليل التُّربة والمياه، ولذا فقد أمدَّ علم الجغرافيَّة والفلك بمعلومات قيِّمة تتجلَّى في تلك الملحوظات الفلكيَّة من تحديد مواقع الأماكن التي مرَّ بها على البحر الأحمر طولًا وعرضًا في إحداثيَّات تعدُّ دقيقة وأوَّليَّة، ومُحدِّدًا موقع المدينة المنوَّرة بشكل تقريبي، مع أنَّه لم يصل إليها، ومكَّة المكرَّمة بشكل صحيح، ولأوَّل مرَّة تمكَّن من تحديد الموقع العَرضي لبعض الأماكن داخل شبه الجزيرة العربيَّة بالنِّسبة إلى خطِّ الاستواء(١)، كما كانت ملحوظاته عن النَّاس وملابسهم وسلاحهم، عاداتهم وتقاليدهم، إلى جانب التَّعليم ومدارسه والنَّباتات وأنواعها والجبال وصُخورها والعُملة المتداولة والأسواق خاصَّة في مكَّة المكرَّمة وجدَّة بمثابة إضاءة جديدة للباحثين في تاريخ هذه الحقبة.

أمَّا حديثه عن الحَرَم بمرافقه المتعدِّدة والمناسك بمشاهدها المختلفة، فقد كان بمثابة آلة تصوير تنقلنا من مَشهد لآخر؛ وبما أنه رجل غربيٌّ يُؤمن بالأشياء مجرَّدة من الغيبيَّات التي نراها نحن المسلمين مُسلَّمات نأخذها بالقبول دون مُناقشة ونُؤمن بها تعبُّدًا كما وردت، ونجده يطرح رُؤىً نُخالفه فيها وأثبتنا ذلك في ثنايا التَّرجمة مثل قضايا المرأة وبئر زمزم.

ولعلَّ الظُّروف التي صادفت مَجيء باديا إلى الحجاز قد صبغت انطباعاته بالسَّوداوية والتَّشاؤم، انظره مثلًا عندما يكتب عن أهل مكَّة المكرَّمة في أشكالهم ونحافتهم، ثم عن أحوالهم المعيشيَّة السيِّئة وتناقصهم المتتابع، وخراب أحياء أطراف المدينة وهَجْرها من قبل

(١) جاكلين بيرن: **اكتشاف جزيرة العرب**، ص١٨٥.

سُكَّانها؛ كلُّ ذلك قد يكون صحيحًا وغير مُبالغ فيه، لأنَّ مكَّة عاشت قبل ذلك سنوات عِجافًا من الحصار والصِّراع الدَّاخلي قبل الخارجي، والحروب المتقطِّعة التي دخل فيها الشَّريف غالب، وضعٌ كهذا سينتج عنه ما ذكره باديا بلا شكّ.

وكان للمرأة في الجزيرة العربيَّة حضورها الواضح فيما دوَّنه باديا، وإن كان مُتناقضًا ومُتحاملًا في بعض الأحيانِ ومُنصفًا في أحيانٍ أُخرى، ظهر ذلك في عدَّة مواقف، فمثلًا حينما كانت المرأة حاضرة في قضيَّة حجِّ قافلة الشَّام هذه السَّنة التي كان فيها باديا، واشترطت قيادة جيش الدَّولة السُّعودية الأولى في المدينة المنوَّرة ـ حسب ما يرويه ـ على هذه القافلة أنَّ عليها لكي تُكمل حجَّها إعادة النِّساء والجنود المسلَّحين إلى حيث جاؤوا ـ وقد علَّقنا على هذا القول في مكانه ـ مع أنَّه يُؤكِّد وجود العُنصر النِّسائي بشكل أساسي في حجِّ هذه السَّنة التي كان فيها الإمام سُعود وأنصاره من جماعة الدَّعوة الإصلاحيَّة ومعهم جمعٌ من النساء!! فكيف يُستساغ معه هذا القول المتناقض؟ أم أنَّ المرأة الشاميَّة كائن آخر؟ ممَّا يبدو معه أنَّ لديه عُقَده الخاصَّة تجاه المرأة كغيره من الغربيِّين حينما يتعلَّق الموضوع بالشَّرقيَّة منهنَّ، يأخذ الحديث مَنحى رومانسيًا وأسطوريًّا، وتُصبح الكتابة عنه للتَّهريج وشدِّ فضول القارئ الغربي أكثر منها للكلام الموضوعي المتَّزن.

تبقى الوهَّابيَّة والوهَّابيُّون التي كان لها حضور واضح في ثنايا سجلِّ الرِّحلة، بل وإفرادها بفصل خاص بها من أهمِّ وأبرز الموضوعات التي تطرَّق لها وأصبح فيها مَرجعًا لغيره من الأوربيِّين من رحَّالة وغيرهم ممَّن جاؤوا بعده، سواء فيما يتعلَّق بمبادئها وأفكارها أو بالدَّولة التي حمتها ورعتها وتبنَّتها. ومع تحفُّظنا على هذا الاسم الذي أطلقه خُصوم الحركة الإصلاحيَّة تشويهًا لها وتنفيرًا منها، وما يحمله من دلالات لدى القارئ الغربي، خاصَّة وقد عادت الآلة الإعلاميَّة الغربيَّة من جديد لتدُقَّ على هذا

الوتر، وتُحمّل هذه الحركة الإصلاحيَّة نتيجة تَراكمات وأخطاء كان للغرب أنفسهم فيها النَّصيب الأوفى، ممَّا أفرز معه هذه الحالة التي يَعيشها عالم اليوم من التَّشدُّد ورفض الآخر ومَوجة الغليان في كلا الجانبين سواء الغربي أم الإسلامي. ومع أنِّي قد حافظتُ على حرفيَّة النَّص الأصلي للمؤلِّف فيما يتعلَّق بهذا الاسم، دون مُوافقة أو استحسان له، لكنِّي لجأتُ إلى التَّعليقات والشُّروحات التي توضِّح الصَّواب وتَجلي الغُموض وتُبرئ الذمَّة، وهو أسلوب سار عليه من نعدهم أساتذة لنا في هذا المجال[1].

وعند تحليل ما كتبه باديا حول الدَّعوة الإصلاحيَّة والدَّولة السعوديَّة الأولى نجد الكثير من الإنصاف والعقلانيَّة والوصف المجرَّد، حتى وهو في أوج غضبه وانكساره عندما أجبروه على التَّراجع ومَنعوه من مُواصلة رحلته إلى المدينة المنوَّرة، بل وسَلبوه بعض أدواته واضطرُّوه إلى إتلاف العيِّنات التي يحملها من نَبات وصُخور وحَشرات، كان يُزمع دراستها وتصنيفها، مُوحين بأنَّ ذلك تنفيذًا لأوامر قد جاءت من الإمام سُعود بمنعه وإعادته من حيث جاء بطريقة فظَّة، ومع كلِّ ما تعرَّض له نجده يقول: «*أستطيعُ القول مُردِفًا بسَعادة: إنَّه على الرَّغم من هذه المشاكسة السيِّئة، إلا أنَّها أبقتْ لديَّ الشُّعور بالأسى، لأنِّي خَسِرتُ رِحلةً مُهمَّة*». ثم يعلِّل ما حدَث بأنه اجتهاد من السُّكان المحلِّيين: «*هؤلاء العَرب على الرَّغم من أنَّهم وهَّابيُّون، وتابعون لـ (السُّلطان) سُعُود، فإنَّهم من سُكَّان البلد الأصليِّين وخاضعون جُدد للسُّلطة، ولهذا فهم يَختلفون كثيرًا عن أولئك*

---

(١) انظر مثلًا: عبدالله بن صالح العثيمين: **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين للرَّحالة جوهان بوركهارت**، الرياض ١٩٩١م، ص ٨؛ لي ديفيد كوبر: **كتابات الرَّحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهَّابيَّة في القرن التاسع عشر**، القاهرة ١٩٩١م، تعليقات المترجم: عبدالله بن ناصر الوليعي، الصفحات: خ، د، ذ؛ جان ريمون: **التَّذكرة في أصل الوهَّابيِّين ودولتهم** ترجمة: محمد خير البقاعي، تعليقات: أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري، منشورات الدارة، الرياض ١٤٢٤هـ، ص ٢٤.

الشَّباب الوهَّابي اللاَّمع في الشَّرق الذين رأيتُهم منذُ مدة قصيرة في مكَّة. ولهذا فقد أعفيتُ هؤلاء بنيَّةٍ خالصةٍ مما سَلبوه مِنِّي، وأقصدُ به الآلة والبُرنس، وأعدُّ تلك من بَقايا عُيوب البلد القديمة، وأشكُرُ إصلاح (ابن) عبدالوهَّاب الذي تَركَ لي حاجاتي الأخرى وأجهزتي الفَلكيَّة»[1]. كما نعتهم بالأمانة والنزاهة في عدَّة مواقع، وأكَّد أنَّ الشَّيخ محمد بن عبدالوهَّاب ـ رحمه الله ـ «لم يقدِّم نفسه بكونه نبيًّا مُرسلًا أبدًا البتَّة، كما أراد بعضهم تصوير ذلك، وإنَّما اقتصر على كونه شَيخًا مُصلحًا، أراد تَصفية العقيدة من كلِّ الإضافات التي أضافها الأئمَّة والشُّراح أو العلماء، وإعادتها كما كانت في بدايتها النقيَّة وكما جاءت بالقرآن»[2] مع أنَّ الأمر لا يخلو من هنات وزلَّات علَّقنا عليها في مواضعها.

كما أبدى بعض المآخذ والملحوظات التي استنتجها بنفسه وعايشها، وذكر أنَّ هؤلاء لو تخلَّصوا منها فسيكون لهم شأن كبير في ميدان التَّوازن والنُّفوذ بين القوى المسيطرة آنذاك. لكن مع ذلك نشتمُّ من كتاباته التي تشبه التَّقارير رائحة الكيد والتَّآمر أحيانًا، فنجده يصف ويحلِّل ويستنتج، وكأنَّه يضع الخطط لأسياده، ويدلهم على مواطن القوَّة والضَّعف لدى الدَّولة الناشئة في قلب الجزيرة العربيَّة، انظر إليه مثلًا حينما يصف طريقة دفاعاتهم وتكتيكاتهم ضدَّ الخصم في الفصل الثامن. وتستمرُّ هذه الفكرة معه وداخل مَشروعه حتى بعد مُغادرته الجزيرة العربيَّة، فحين وصل إلى سوريا نجده يدوِّن ما يَتداوله بعضهم هناك من أنَّ نُفوذ الحركة الإصلاحيَّة والدَّولة السعوديَّة الأولى قد وصل إلى هذه المناطق وأنَّها قد دخلت فيما يُشبه الحلف والتَّعاون مع قبيلة عنزة في رواية، وفي أخرى أنَّ الأخيرة

---

(١) انظر الفصل العاشر.

(٢) انظر الفصل الثامن. هكذا وردت في النَّص، والواقع أن من أحدثوا في الدِّين زيادة كان أو نقصًا ليسوا بعلماء، ولا أئمَّة بل من مدَّعي ذلك، ممن ضلُّوا وأضلُّوا.

وقفت منها موقفًا عدائيًا ويحاول أن يوفّق بين الرّوايتين(١).

فيما يتعلّق بجديد هذه الرّحلة وإضافاتها التي زوّدت بها قرّاءها، فلا شكّ بأنّها ليست بالقليلة في مقياس تلك المدة، ولو تتبّعنا ما ورد فيها من أفكار وأطروحات لاستخرجنا كمًّا ليس بالقليل منها، ويكفي الإشارة إلى نموذج منها، يخصُّ قناة السُّويس التي لم تُنشأ بعد في هذه الحقبة(٢)، لقد طرح فكرتها علي باي على أساس أنّ منسوب البحر الأحمر أقلّ من البحر المتوسط، وعليه فإنّه ينصحُ الأوربيّين خاصّة ذوي المصالح في المحيط الهندي أن يفتحوا خطًّا مباشرًا عن طريق البحر الأحمر دون أدنى صعوبات، جاءت هذه الفكرة بعد دراسة وتأنٍّ، فقد ترك المركب وسلك طريق البرّ في هذه النقطة بالذّات ليثري فكرته بالقياس العملي الميداني(٣)، لاسيّما وقد أصبح الموضوع حديث ذوي الاختصاص والسّاسة في فرنسا لربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق قناة مائية(٤)، فأراد أن يُدلي بدلوه في الموضوع.

٢ ـ المآخذ والعيوب:

قبل أن نصدر أحكامنا علينا أن ندرك أنّ هذه الانطباعات التي تناثرت في ثنايا العَرض والوصف لوقائع الرّحلة، هي لرجل غربي يَحكم على الأشياء من خلال مُنطلقاته الفكريّة والمنهجيّة، ولذا فقد تكون له أحكامه التي لا نُقرُّه عليها، خاصّة مع جهله بالمنطقة وتاريخها ومعالمها وأحيانًا

(١) **الرحلة**، ط. مدريد، ص ٤٢٨.

(٢) كان افتتاحها سنة ١٨٦٩م بكونها مشروعًا فرنسيًا يهدف إلى خدمة مصالحها في الشّرق الأقصى، انظر: فاروق أباظة: «أثر افتتاح قناة السويس على التنافس الدولي في البحر الأحمر» ضمن سجل ندوة **البحر الأحمر عبر عصور التاريخ**، القاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٧١ ـ ٢٨٢.

(٣) **الرحلة**، ط. مدريد، ص٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤.

(٤) شوقي الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر**، القاهرة ١٩٧٤م، ص٢٢.

بعض مَناسك الحجّ ومعالمه الأساسيَّة. ولذا فإن الأمر لا يخلو من مآخذ وزلات، توقَّفنا عند بعضها وتركنا بعضها الآخر لفطنة القارئ وقوَّة حدسه وتقديره.

ولعل أوَّل مآخذنا على الكاتب هو عدم اهتمامه في توثيق ما يرويه لنا من معلومات أثناء تجواله، حيث اعتمد بشكل رئيس على الوصف والمشاهدة والرُّواة الذين يُصادفهم، أو مرافقيه من الجالية المغربية التي عدَّ نفسه أحد أفرادها، وعلى ما يتناقله النَّاس من أحاديث عن تلك الأماكن التي زارها، يتَّضح هذا جليًّا فيما رواه عن مكَّة المكرَّمة ومعالمها حيث لم نجده يشير إلى أيَّة مصدر مكتوب، بعكس الرحَّالة الآخرين الذين اعتمدوا على مصادر مكتوبة فيما قصُّوه لنا من حكايات وأحداث، ولو على الأقلّ فيما يتعلَّق بتاريخ الأماكن التي زاروها، فبوركهارت ـ مثلًا ـ صدَّر لنا كتابه بمصادر مكتوبة عن تاريخ مكَّة استند عليها فيما رواه عن أصلها ونشأتها، وآخرون أشاروا إلى اعتمادهم على مصادر مكتوبة أثناء حديثهم، أمَّا باديا فلم يُشر إلى أيّ من ذلك. هذا الاعتماد على الروايات الشَّعبية وما يتداوله النَّاس أسلوب سار عليه غيره من الرَّحالة الغربيِّين من بعده وقبله، لكنه قد يضعف المصداقيَّة وبالذات عندما يلتقط ما يسمع دون تحقيق أو تدقيق، كما هو الحال عندما ينسب إلى السُّعوديين والحركة الإصلاحيَّة هَدْم العديد من القُصور والمباني التي لا تدخل في المحظور الذي ألزموا أنفسهم بإزالته، ولعلّ مردُّ ذلك إلى رواية خُصومهم التي سجَّلها دون فحص أو نقاش. كما نجد صدى ما التقطه من أفواه الرُّواة دون تمحيص مُتناثرًا فيما دوَّنه، فمثلًا حينما حدَّد المسافات بين المدينة المنوَّرة والدِّرعية وبينها وبين البحرين كانت الأرقام غير مُطابقة ولا دقيقة؛ مثلها عندما حاول مُجتهدًا أن يُعلِّل كون الحجر الأسود في موقع أسفل من الباب، وخرج بنتائج فجَّة، لأنَّه لم يُكلِّف نفسه عناء الرُّجوع إلى المصادر واستشارتها في هذا الموضوع لتُعطيه الجواب.

كما نَلحظ الشُّموليَّة ومحاولة الإحاطة بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ يُصادفها في طريق رحلته هذه، وهي وإن عُدَّت من المحاسن إلا أنها أثَّرت في معالجته للموضوع الذي هو بصدده، ولذا نجده فجأةً ينتقل من موضوع لآخر ليحيط القارئ علمًا بهذا المستجدّ أو الطَّارئ، الأمر الذي أوقعه في التّكرار حينًا وعدم التّرابط الموضوعي في أحيانٍ أُخرى، ومثله التَّضارب في أقواله وأحكامه، وقد أشرنا إلى بعضٍ منها في أماكنها.

لكن مع هذه التَّغطية الشَّاملة نجد باديا قد غَفَل عن موضوع مُهمٍّ وهو قافلة الحجّ المصريَّة التي من المفترض أنَّه كان مُرافقًا لها أو على الأقلّ كان قريبًا منها، ما سرُّ هذا الصَّمت لاسيَّما وقد تحدَّث عن قافلة الشَّام في أكثر من مُناسبة؟ فهذه القافلة المصريَّة قد سُمح لها بالحجّ هذه السنة بمحملها، لكن أميرها قد استُدعي من قبل الإمام سُعودٍ ونُبِّه إلى عدم إحضار المحمل واستعمال الطُّبول في العام القادم، وإلاَّ سيُواجَه بحرقها[١].

ولعلَّ أسلوب التَّعميم الذي دَرج عليه باديا في أحكامه، نتيجة

(١) انظر: عبدالرحمن الجبرتي: **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، بيروت، ٣/ ١٨٩ وقد ذكر إبراهيم باشا بأنَّ المحمل المصري قد أحرق في هذه السنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٧ من قبل ابن سُعود. انظر: **مرآة الحرمين أو الرِّحلات الحجازيَّة والحجّ ومشاعره الدينيَّة**، ٢/ ٣٠٨؛ كما أشار آخرون إلى انقطاع الحجّ المصري في هذه السَّنة، انظر: ج ج لوريمر: **تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج**، جمع وتعليق محمد الخضيري مطبوعات الدَّارة، الرياض ١٤٢٢هـ، ص٦٥ وهامش (٢)؛ لكن لو كان الأمر كذلك لما كانت كسوة الكعبة الجديدة التي يُحضرها المحمل المصري معه كلَّ عام، والتي تحدَّث عنها باديا بإسهاب عند حديثه عن هذا الموضوع؛ وقد تطرق باديا إلى خروج هذه الحملة، ص١٠٥، ومن المؤكَّد أنَّهم مُنِعوا من زيارة المدينة المنوَّرة في هذه السَّنة كما يقول الجبرتي (نفسه ٣/ ٢٠٤). ولاشكَّ أن الجبرتي بمعاصرته لهذا الحدث ومتابعته له أولى بالتَّصديق والثقة.

الأحكام المسبَّقة التي كان مُتشبِّعًا بها، قد أثَّرت في موضوعيَّته ومنهجيَّته.

٣ ـ طَريقة مُعالجته للموضوعات التي تَطرَّق إليها:

كما ذكرنا سابقًا أنَّ باديا اعتمد الوصف الدَّقيق لما شَاهده، والنَّقل الأمين لما صَادفه ورَواه، وإن اتَّضحت شَخصيَّته وتجلَّت في ثنايا ما يكتبه، فقد حاول أن يحيط نفسه بهالةٍ من العظمة والهيلمان، وهي طريقة أفادته كثيرًا في الوصول إلى ما يريد، ولعلَّ في قصَّته مع حاكم جدَّة وفي جامعها ما يُؤكِّد ما نقول، كما كان أحد المرافقين للشَّريف في غَسْل الكعبة ونال لَقَب «خادم بيت الله»، هذا الاعتزاز بالنَّفس واصطناع الأبَّهة والمكانة لم تُقلِّل من قيمة ما كتبه، ولا من تلك الآراء والأفكار التي تناثرت فيما دوَّنه لنا في مُذكِّراته سواء وافقناه فيها أو لم نوافقه، فعندما يجزم أنَّ داخل الجزيرة العربيَّة سَلِم من الاستعمار ليس لشجاعة في أهلها ولا لقوَّة دفاعاتها وإنَّما لطبيعتها الفقيرة البائسة وصحاريها القاحلة المهلكة، فهو يَطرح فكرة قابلة للأخذ والرَّد، لكنها تُفصح عن شخصيَّة قائلها ومدى محاولة تَفهُّمه لوضع الجزيرة وأهلها. ومثلها عندما يقول في الفصل الثامن: «*أعتقدُ بأنَّ الوهَّابيِّين في عُمق صَحرائهم، سيظَلُّ النَّصر دائمًا حليفهم، ليس ذلك بسبب قُوَّتهم العسكَريَّة وإنَّما لطبيعة بلادهم التي لا تَصلح لسَكن أيَّة أُمَّةٍ أخرى، ولسُهولة اختفائهم والهرَب من قَبضة أعدائهم*». ومع ما فيها من المبالغة إلا أنَّها تُوضِّح رسوخ الفكرة السابقة لدى الكاتب ومحاولة بناء أحكام عليها.

كما يقرِّر حقيقة نُوافقه عليها وهي أنَّه «*عندما تَتوحَّد الأفكار الدِّينيَّة هُنا ـ في الجزيرة العربيَّة ـ فإنها تتَّحد كلُّ الأهداف التي لا تستطيع أن تَجمعها أيَّة رَوابط أخرى، بسبب انعزال كلِّ قبيلة وجَفاف الأرض،*

ورَفض ثقافة الآخر، ممَّا يَنتج معه التَّقوقع على الأعراف الاجتماعيَّة التي عليها نَشؤوا وترعرَعوا»[١].

وحينما يتحدَّث عن أحوال الطَّقس والبيئة في مكَّة المكرَّمة يؤكِّد أنَّه صِحِّي: «فليس هناك الكثير من المرضى ولا حتى الأمراض المزمنة، ولكن لا يُوجد في الوقت نفسه شُيوخ بعُمرٍ مُتقدِّم، كما لا يُوجد عميان، ولا أمراض عُيون، مثلما هو شائع في مِصر»[٢]. وهو استنتاج جاء بعد مُقارنة ودراسة.

وعندما يتطرَّق لموضوع طريف هو «الوشم» الذي كان سائدًا أثناء مجيئه إلى مكَّة المكرَّمة، فإنه يعزو ذلك إلى التَّقليعة أو موضة ذلك الزَّمان: «تلك التي حَملت هؤلاء على مثل هذا العمل، لأنَّهم يَروْنه جُزءًا من الجَمال، كما هو الحال مع الألوان الزَّرقاء والسَّوداء والحمْراء التي تَتزيَّن بها النِّساء لصَبْغ وجوههنَّ؛ وهي نفسها التي تُجبرهنَّ على وضْع حَلقةٍ في الأنف، والرِّجال على حَمل الخنْجر الذي يُعيق كلَّ حَركة، عجيب أمر هذا الإنسان!»[٣].

من هنا نجد أنه استخدم أسلوب العرض المجرَّد والوصف الدقيق، كما لجأ إلى المقارنة والتحليل ومن ثمَّ الاستنتاج.

رابعاً ـ خَطُّ سَيْر الرِّحلة حتى وصولها للجزيرة العربيَّة:

الكتاب كما أشرنا حَوى وقائع رحلته تلك مُنْذُ أن وصل إلى المغرب وحتى عودته عن طريق تركيا مرورًا ببعض بلدان أوربَّا الشَّرقية إلى فرنسا، ولذا أرى أنَّه من المفيد إعطاء القارئ لمحةً مُوجزة عن خطِّ سَيْر الرِّحلة ومَحطَّاتها الرئيسيَّة.

---

(١) انظر الفصل السادس، ص ٢٤٧.

(٢) انظر الفصل السادس، ص ٢٥٣.

(٣) انظر الفصل السادس، ص ٢٥٥.



صورة علي باي العباسي (دومنجو باديا) رسمت سنة ١٨٦٠م
وبيده إحدى الأدوات الفلكيَّة

١ ـ **المغرب**: (أفرده بجزء خاصٍ به تكوَّن من تسعة عشر فصلًا)

انطلقت خُطوات رحَّالتنا هذا من جنوب إسبانيا وبالتَّحديد من مدينة قادس التي وصلها من لندن، عابرًا مَضيق جبل طارق من ميناء طريفة Tarifa في مركب صغير قطع به هذا المضيق في أربع ساعات، وصل بعدها إلى مدينة طنجة المغربيَّة التي حلَّ بها في السَّاعة العاشرة من صباح التَّاسع والعشرين من شهر يونية سنة ١٨٠٣م الموافق للتَّاسع من ربيع الأول ١٢١٨هـ[١]. يَستهلُّ باديا حديثه عن الصُّعوبات التي واجهته في بلدٍ يزوره لأوَّل مرَّة مُختلف في عاداته وتقاليده عن بلده، ففي كلِّ البلاد المتجاورة تُوجد علاقات وتأثيرات قلَّت أو كثرت، لكن بين سُكَّان هذين البلدين المتجاورين البُون شاسع مثلما هو بين الفرنسي والصِّيني حسب تعبير باديا نفسه[٢]. وعند وصوله إلى الميناء ألقى عليه الحرَس المغربي بعض الأسئلة نَسوقها لطرافتها:

- القُبطان (باللُّغة العربيَّة وبلهجته المغربيَّة): مِنْ أيْنَ أتَيْتُمْ؟
- علي باي: مِنَ لندن عبر قادس.
- هل تَتكلَّمون اللُّغة الموريسكيَّة (يقصد العربيَّة)؟
- لا.
- من أين أنتم إذن؟
- من حَلَب.
- وأين تكون حَلَب هذه؟
- في الشَّام (سورية).

---

(١) **الرحلة**، ط. برشلونة، ١/١٩.

(٢) **نفسه**، ص١٩.

- أيُّ بلاد تكون الشَّام؟
- تقع في الشَّرق بالقرب من تركيا.
- إذن مَن تكونون، أتراك؟
- لستُ تركيًا لكن بلادي تقع تحت نفوذهم.
- لكنَّكم مُسلمون؟
- نعم.
- تَحملون جَوازات سَفَر؟
- نَعَمْ أحضرتُ واحدًا من قادس.
- لماذا لم تحضره من لندن؟
- لأنَّ حَاكم قادس أخذه منِّي واستبدل به هذا.
- ناولني إيَّاه.

وبعد السَّماح له بالدُّخول يبدأ علي باي بوصف انطباعاته الأولى عن البلد في شتَّى المجالات الاجتماعيَّة والعسكريَّة والسياسيَّة، فيصفُ مُشاهداته في الميادين العامَّة والخاصَّة في المدن المغربيَّة كافَّة التي زَارها، ويَسترسل في الحديث عن مَعيشة المغاربة: مكوِّناتها وأنواعها وأثمانها، وعادات الأكل وفلسفتها، ثم يعرِّج على عادات الزَّواج والطَّلاق ومظاهر الحياة ومراسم العزاء والوفاة. ثم ينتقل لوصف الحمَّام الشَّعبي المغربي وصفًا حيًا عند حديثه عن العمارة المغربيَّة ووصفه للمساجد الإسلاميَّة ومُركَّباتها. ويُشير إلى الجهل المتفشِّي نتيجة عدم وجود مطبوعات، وكيف يجهل المغاربة تاريخهم لعدم وجود مؤرِّخ أو حتى شَاعر بينهم، فالقرآن الكريم وتفاسيره تكاد تكون هي الوحيدة السَّائدة بين سُكَّان المدينة، ويَنتقد موقف العلماء لتركهم النَّاس في الجهالة وإعطاء الفرصة للمدَّعين ليخدعوا النَّاس. كما يعرض لليهود الذين خصَّهم بنصيب

وافر من ملحوظاته حيث يصف أحوالهم ويتباكى على وضعهم المزري في المغرب سواء في المعاملة العامة أو إجبارهم بلباس خاص بهم، لكنّه يؤكّد تمتعهم بوضع تجاري لا بأس به. ويعرض بعد ذلك للمقاييس والموازين والنُّقود المستعملة في المملكة المغربيَّة، وبعد استطراد في الحديث عن أشياء عامَّة كالطَّقس والتَّضاريس ونحوها يعود باديا في الفصل السَّادس ليقصَّ ظروف الرِّحلة وأمورًا اعتراضيَّةً أخرى كالحديث عن جنوب البلاد وأفريقيَّة، ثم يذكر أنَّ السُّلطان مولاي سُليمان إمبراطور المغرب زار طنجة في الخامس من شهر أكتوبر من العام نفسه، فكانت فرصة ثمينة لمقابلته وتقديم الهديَّة الكبيرة التي أعدَّها باديا له، ويصف لنا هذه المقابلة وما صاحبها من بُروتوكول، ثم يُشير إلى أسئلة السُّلطان له عن البلاد التي كان مقيمًا فيها، وكم لُغة يُجيد تحدُّثًا وكتابة، ثم عن العلوم التي تعلَّمها في المدارس النَّصرانيَّة، وكم استغرقت إقامته في تلك البلاد الأوربيَّة، ومع أنَّه لم يذكر لنا إجاباته التي نحن بحاجة إليها إلا أنَّه ذكر أنَّ السُّلطان حمد الله الذي أخرجه من بين الكافرين، وأنَّه تأخَّر كثيرًا في المجيء إلى المغرب، كما فَرِح باختياره لبلده المغرب على الجزائر أو تونس أو طرابلس، وأكَّد له حمايته وصداقته، وفي المقابل عَرَض باديا خدماته على السُّلطان خاصَّة ما يتعلَّق منها بعلم الفلك، ويُشير إلى ما لاقاه من تقبُّل واستحسان لما عرَض من تجارب ومعلومات في هذا المجال، استحقَّ عليها جائزة السُّلطان وصلته، وطلبه الرَّحيل معه إلى مكناس، كما تكرَّرت زياراته ولقاءاته به طيلة إقامته في طنجة. ويتوقَّف بالوصف للسُّلطان نفسه وبلاطه وبروتوكولاته، ولم ينسَ قبل ذلك أن يُذكر لنا مُلاحظة السُّلطان لإطالته لشاربه واقتراحه بقصِّه أو تقصيره كما يفعل المغاربة، لكنه علَّل ذلك بأنَّ هذا هو السَّائد في الشَّرق.

وفي طريق توجُّهه إلى مكناس تلبية لرغبة السُّلطان لا يُخفي مَشاعره وهو يَنطلق في رحلةٍ خارج أوربا المتحضِّرة إلى بلدٍ مُتوحِّش لا تتوافر فيه

الضّمانات والأمن إلا بالجهود الذاتيَّة؛ محدِّثًا نفسه: «هل سيُستقبل استقبالًا حسنًا في كلِّ الجهات؟ وإلى أيِّ مدى يُمكن تحقيقه لمشروعاته؟ وهل سيكون ضحيَّة غير مأسوف عليها لخائن؟». لكنَّه يَستبعد هذه الأفكار السّوداء بتذكُّر الله الكبير الذي منه يَستمد الحماية والعون[1].

وبعد أن وصل إلى مكناس حيث يُوجد السُّلطان قابله بعد صلاة الجمعة، وطلب منه الاتِّجاه إلى فاس التي يُكرِّس فصله الثَّامن لوصف شوارعها وسكّانها ومساجدها ومرافقها المتعدِّدة ونباتاتها ويُبدي ملحوظاته حول ذلك كلِّه، ثم يتوقَّف عند قصر السُّلطان بالوصف الدَّقيق أيضًا، ثم يصل إلى المدارس فيذكر أنَّ المدينة تحتوي على عدد منها، وأهمُّها في مسجد القرويِّين ومسجد مولاي إدريس، ويَلفت نظره أسلوب التَّدريس وطريقته فيها. ويذكر أنَّ المدينة يقطنها ألفا عائلة يهوديَّة تعيش في حيٍّ خارج المدينة القديم، ويصف المضايقات التي يُعانيها هؤلاء بعدم السَّماح لهم بالدُّخول إلى المدينة، لكنه يشير من جانب آخر إلى أنَّهم صُنَّاع مَهرة وأصحاب تجارة ويتمتَّعون بحال أحسن ممَّا في طنجة.

وفي ملحوظاته المناخيَّة وصف زلزالًا خفيفًا تعرَّضت له المدينة، مؤكِّدًا أنَّ مركزه الأساس قد يكون في جبل طارق، وأنَّه استمرَّ عشرين ثانية، وقد رَصده بأدواته التي يحملها واصفًا إيَّاه بدقَّة.

وفي الفصل الحادي عشر يَقترب باديا من بلاط السُّلطان فيتوقَّف عند الأسرة الحاكمة وتَنظيمها الهرمي، ويحكي لنا قصَّته معهم مُنذُ وصوله إلى فاس، وإعجاب هؤلاء به ورغبتهم في بقائه عندهم أطول مدَّة ممكنة، مع وعده بجعل إقامته لديهم مريحة، ويشيد بتلك الحفاوة التي حظي بها من قبلهم، وتَتويجه بصفته عالمًا ومُختصًّا فيما يتعلَّق بالفلك.

---

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ص٥٢.

كما لم ينسَ أن يحدِّثنا عن المنغِّصات التي واجهته، والشُّكوك المحيطة به من قبل بعض رجالات البلاط، وأنَّه أوحى على إثرها لمن حوله بأنَّه سيُغادر إلى الجزائر، لكنَّ السُّلطان الذي وصله الخبر طيَّب خاطره وثَناه عن عزمه وأعطاه حرِّية الحركة.

وفي طريقه إلى مدينة مرَّاكش مرَّ بالرباط في رحلة مثيرة، مواصلًا سفره حتى وصل إلى مراكش في مُنتصف النَّهار في الواحد والعشرين من مارس، وخلال هذه الرِّحلة يصف لنا مُشاهداته وانطباعاته بدقَّة على مدى عدَّة صفحات سجَّل فيها ما صادفه منها سواء كانت جغرافيَّة أو نباتيَّة أو غيرها، وما تعرَّض له من مُضايقات الطَّقس خاصَّة الأمطار التي عرقلت سيره بعض الوقت.

وفي الفصل الرابع عشر يحكي قصَّة ذلك الاستقبال الحسن الذي حظي به من قبل السُّلطان وأصدقائه في مرَّاكش، وفرحهم بوصوله، ثم إنعام السُّلطان عليه بالهبات والعطايا التي من ضمنها بيت مُميَّز، وخروجه في رحلة للتَّعرف إلى المملكة والنزهة، بتوجيه من السُّلطان نفسه، يصف مُشاهداته في تلك المنطقة الرمليَّة التي أثارت استغرابه، فوصف رمالها النَّاعمة المتحرِّكة وصعوبة اجتيازها، وقاعدتها مدينة الصويرة التي أسَّسها السُّلطان محمد والد السُّلطان الحالي سُليمان، والتي تُعدُّ مركزًا تجاريًّا، يقيم فيها نوَّاب للقنصليات الأجنبيَّة والتُّجار وعدد من الأوربيِّين واليهود الذين يتمتَّعون بالحريَّة التَّامة والغِنى كغيرهم من الأجانب. وبعد إقامة حافلة بالمشاهدات والمتعة عاد باديا إلى مرَّاكش سالكًا نفس الطريق، لافتًا نظره اصطفاف البدو المقيمين على الطَّريق لمشاهدته والاحتفاء به، مردِّدين: «الله يبارك في عمر سيدنا» وتقديمهم له آنية مملوءة بالحليب.

يعود إلى مرَّاكش عاصمة المملكة في الفصل الخامس عشر، ليستعرض تاريخها وسكَّانها ونشاطها التِّجاري والزِّراعي وأسوارها

وشوارعها المتباينة في السّعة والضّيق ومساكنها وميادينها وأسواقها ومساجدها، ويتوقَّف عند أضرحة الأولياء وما يجري فيها من المخالفات الشرعيَّة، وما يُحيط بها من المناظر الشعبيَّة والتَّصرفات التي لا تُعجبه، ويصف منظر الفقراء والبائسين وحتى الشِّريرين حول هذه الأضرحة، ويُشير إلى ما يتمتَّع به القائمون عليها من صلاحيَّات وتقدير من قبل بعض النَّاس، ومن سُلطة ونُفوذ حتى على الحكومة نفسها التي لا تستطيع ردَّ طلبهم بل تأخذ رأيهم.

ولم ينسَ التوقُّف عند حارة اليهود الذين يُقدَّر عددهم بحوالي الألفين، والذين زاره رئيسهم عدَّة مرَّات، ويَشدّه جمال نسائهم الأخَّاذ في بشرتهنَّ وعيونهنَّ، ويتغنَّى بجمالهن، كما يَتباكى على القيود المفروضة عليهم من قبل المجتمع، ويشيد بمهارتهم فهم الوحيدون في المغرب الذين يمارسون الصِّياغة والسّمكرة والخياطة.

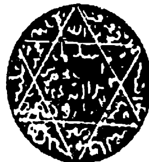
وبعد حديث عن جغرافيَّة هذه المدينة وما يحيط بها من غابات وجبال يقارن بينها وبين مدينة فاس وطنجة من حيث الأسعار والتِّجارة وغيرها، ثم يصف البربر ولغتهم، ويضع لنا قوائم من مُفردات هذه اللُّغة وما يقابلها بالإسبانيَّة.

وفي الفصل السادس عشر يتحدَّث عن مرضٍ أنهكه وشلَّ قواه عن الحركة والبحث، لكنَّه عالج نفسه بنفسه. وفي حديقة منزله قتل رجاله ثعبانًا طوله ستَّة أقدام، تأسَّف على مقتله كثيرًا لأنَّه فريد من نوعه وأنيق في شكله، ثم يتساءلُ كيف تتقدم علوم الطَّبيعة مع هذا في بلاد المسلمين!

ومع اقتراب موعد الحجِّ أعلن باديا عن رغبته في الرَّحيل إلى مكَّة المكرَّمة، مع أنَّ السُّلطان كان يرغب في بقائه معه أكبر وقت ممكن، إلا أنه وافق له على هذا المشروع بعد أن شرح له الصُّعوبات والمشكلات التي سيُواجهها، ثم ودَّعه بالعبرات والأحضان وكذا بقيَّة الأمراء، وأهداه

خيمة ممتازة، وقبل إرسالها له أحضر اثني عشر فقيهًا داخلها للدُّعاء له بالتَّوفيق، وأرفق معها ما تحتاجه الرِّحلة من مَتاع.

الحمد لله وحده



فرمان السُّلطان المغربي مولاي سُليمان
يمنح بموجبه لعلي باي قصراً ومنزلاً في مَرَّاكش

ويخصِّص الفصل السَّابع عشر لحكَّام المغرب المتعاقبين، ويتعرَّض للأسرة الحاكمة وما يدور بينها من مشكلات حول ولاية العَرش، وطريقة وصول كلٍّ منهم إلى الحكم، ثم كيف يدير هؤلاء الدولة، ويفصِّل الحديث عن الوضع السِّياسي وموقف السُّلطان سليمان وإخوته من حوله، والمنافسة الحاليَّة بينهم، وكأنَّه يُعدُّ تقريرًا قد طُلب منه إعداده، فمثلًا يتطرَّق إلى موضوع التِّجارة الخارجيَّة خاصَّة في التَّبغ والحبوب، ويعزو أسباب فَشلها إلى عدم الثِّقة بالنَّصارى، ولأنَّ السُّلطان هو المتحكِّم الحقيقي بالتِّجارة إذ تُقدَّر ثروته بحوالي العشرين أو الخمسة والعشرين

مليون فرنك، لكنَّه يعود مرة أخرى ليمتدح فيه قناعته وبساطته، وأنَّه يأكل بيده مثل كلِّ العَرب. ثم يضع شجرة نسب السُّلطان سليمان التي تبدأ به وتَنتهي بالنَّبي ﷺ مُشيرًا إلى كثرتهم ففي تفليت وحدها أكثر من ألفين كلُّ منهم يَعتقدُ بأحقيَّته بالعَرش المغربي، وكل منهم يحمل السِّلاح، كما لو أنَّ المغرب ليس لديه جيش.

يتحدَّث عن الجيش المغربي والطريقة التي يُحارب بها، معرِّضًا ومؤكدًا لقارئيه أنَّها نفس الطَّريقة التي لا تتغيَّر: الاقتراب من العدو حوالي خمس مئة خُطوة ثم الطَّريقة القتاليَّة الكلاسيكيَّة التي يُواجه بها المقاتلون المغاربة خُصومهم؛ ويذكر أنه لا حاجة للجيش هنا، فإذا دَعَت الحاجة فكلُّ المسلمين جُنود بحكم الدِّين، والجنود الوحيدون النظاميُّون هم حَرَس السُّلطان الذين يقدَّر عددهم بعشرة آلاف، أغلبهم من العبيد الذين اشتراهم السُّلطان لنفسه.

ويبدو أنَّ الشُّكوك بدأت تَحوم حول رحَّالتنا الذي أغرته طيبة الحاكم المغربي وحسن طويَّة المغاربة وجزيل كرمهم، ففكَّر في اقتحام المعمعة في ظلٍّ وضع متأزِّم ومؤامرات تُحاك هنا وهناك بين الإخوة والأحفاد أنفسهم قبل الغرباء في البلاط المغربي؛ فكانت مكَّة المكرَّمة مخلِّصًا ـ فيما يبدو ـ لأصحاب القرار في مرَّاكش من رجل جريء ومريب تحوم حوله الشبهات، وودَّعوه بدُموع الفرح التي ظنَّها باديا دموع لوعة الفراق. فبعد وصوله مدينة فاس، كانت الأوامر قد سبقته بسرعة ترحيله بعزٍّ وكرم، ومع ذلك نجده يتلكَّأ هناك، فبدلًا من الثمانية أو العشرة أيَّام المقرَّرة لبقائه في هذه المدينة، يظلُّ شهرًا ونصف، ممَّا أصاب محافظها بالملل والضَّجر خاصَّة مع الرِّيبة المصاحبة لعلاقاته واتصالاته، والتَّوصيات التي سبقته من السُّلطان إلى كلٍّ من والي تونس وشريف طرابلس ووالي الجزائر.

وبعد وداعٍ حارٍ من أصدقائه الذين أبدوا لوعة الفراق والخوف من

عدم عودته مرَّة أخرى؛ خرج باديا من مدينة فاس باتِّجاه الجزائر، لكنَّ الأمور تبدَّلت والنوايا ساءت عندما حلَّ صاحبنا في مدينة وجدة، إذ يُحدِّثنا في الفصل الثَّامن عشر عن مَسؤولي هذه البلدة الذين أعلموه بأنَّه لا يستطيع مُواصلة الطَّريق، لأنَّ ثورةً قد نَشبت في الجزائر، وفي تلمسان بالذات التي هي إحدى مَحطَّات رحلته، وأنَّ الدِّماء فيها قد سالت بين العرب والأتراك. لكنَّ باديا الذي أصبح يفكِّر بطريقة انتهازية أرسل من يستطلع الخبر، فأكَّد له أنَّ الطَّريق غير مأمون فعلًا، فاتَّصل بأحد زعماء القبائل لتأمين مسيره إلى تلمسان، إلا أنَّ خطَّته تلك قد فشلت، وزاد الأمر سُوءًا باضطراب الأحوال حتى وصلت الاضطرابات إلى أسوار وجدة نفسها، فأصبح في موقفٍ حرج، فمن ناحية نفدت كلُّ وسائله المعيشيَّة، ومن أخرى نجاح أعدائه في مرَّاكش في إثارة الشُّكوك لدى السُّلطان حوله، ومع محاولته فتح قنوات اتِّصال مع زعماء القبائل في هذه المنطقة لتأمين طريق رحلته إلى تلمسان حسب ما يدَّعي، إلا أنَّ حُكَّام المغرب داخلهم الشَّك في تحرُّكاته تلك، فقرَّروا ترحيله نهائيًا من الأراضي المغربية بحرًا عن طريق طنجة، إذ أرسلوا فرقة من الحرَس تولَّت مرافقته إلى هناك.

وقد سلكت هذه القافلة طريقًا صحراويًا مُقفرًا بعيدًا عن الطُّرق السَّالكة التي ربَّما يوجد فيها رجال القبائل الذين اتَّفق معهم باديا أو أجرى اتصالات بهم سابقًا، وكانت المشكلة الكبرى في الماء الذي شحَّ حتى أصبح العطش مُهدِّدًا لحياتهم، فبدؤوا بالتَّساقط واحدًا تلو الآخر، ومن ضمنهم باديا الذي سقط مغشيًّا عليه، وفي هذه الأثناء مرَّت بهم قافلة أنقذت حياتهم، وهنا يصف مَشاعره وما أحاط به من ظُروف قاسية يُوجزها بكلمة واحدة: «*أصبحتُ لا أستطيع الكلام ولا حتى البُصاق*» كما يصف المشاهد التي رآها وحياة الصَّحراء القاحلة التي يجد الإنسان نفسه فيها مُحاطًا بصمت الأموات.

واصلت الحملة مسيرها وتوقَّفت قليلًا في تازا لتواصل مشوارها من

جديد، وليكتشف باديا أنَّ القافلة قد اتَّجهت إلى العرائش بدلًا من طنجة المقرَّرة سلفًا في برنامج الرِّحلة، لكنَّه لا يملك إلا خيار الموافقة. وفي ساحل هذه المدينة كانت تنتظره باخرة صغيرة قادمة من طرابلس استؤجرت مُؤخِّرتها من أجله؛ وبدلًا من الهيلمان والتوديع الحارّ من قبل والي المدينة الذي كان ينتظره باديا، فقد وجد ثلَّة من الجنود ألقته في المركب وحده دون رجاله، وعند تساؤله عمَّا يجري، أُجيب بأنَّ هذه أوامر السُّلطان، وعندها أدرك بشكل جليّ سُوء رأي السُّلطان والوالي فيه الذي كشفوا عنه في آخر لحظة بعد أن رتَّبوا وأعدُّوا كلَّ شيء بدقَّة، فكانت الصَّدمة كبيرة على باديا، فبعد هذا الإكرام والتَّقدير الذي حظي به من السُّلطان ورجاله في كلِّ مكان حلَّ به، يحدث ما حدث؟ وأكثر ما شغل باله هؤلاء النَّاس الذين أحبُّوه وأحبَّهم ماذا سيكون مصيرهم؟!

كان ذلك في يوم الأحد للثالث عشر من أكتوبر من سنة ١٨٠٥م الموافق للعشرين من رجب سنة ١٢٢٠هـ، ويعلِّق على ذلك بقوله: «*بهذه الطَّريقة خرجتُ من إمبراطوريَّة المغرب تاركًا وصف مَشاعري لفرصة أخرى*».

٢ ـ **طرابلس**: (خصَّها بأربعة فصول)

بعد رحلة مليئة بالأهوال نتيجة تقلُّب الأجواء المناخيَّة وأمواج البحر العاتية، وصف خلالها باديا مُشاهداته التي حرص أن يسجِّلها بكلِّ دقَّة، كحركة الرِّياح والأمواج واتِّجاهات السَّفينة وبعض الجزر الصغيرة التي مرَّ بها، وعلاقته بالرُّكاب والقبطان والمشكلات التي تحدث باستمرار، وبعد مدَّة قاربت الشَّهر رَسَتْ الباخرة في ميناء طرابلس(١) مُنتصف نهار الحادي عشر من نوفمبر / التاسع عشر من شعبان.

---

(١) كانت أسرة القرمانلي هي التي تحكم في طرابلس في هذا الوقت، وهي أسرة تنحدر من أصول أناضولية، أدارت هذه الولاية شبه المستقلة عن الدَّولة العثمانيَّة، وتميزت

استقرَّ به المقام في سكنٍ يقابل بيت الوزير الأوَّل والقنصل العام لإسبانيا، وبعد ثلاثة أيّام كانت مقابلته لوالي المدينة والوزير الأوَّل، وقد وصف هذه الزّيارة وما لقيه فيها من مَظاهر التَّقدير والاحترام. لكن المغرب بذكرياته الحلوة والمرَّة سيظلُّ عالقًا في ذهنه مستعيدًا شريطه من حينٍ لآخر، فهاهو يعود لكن بصورة والي العرائش الذي شوَّه سُمعته وصحائفه ممَّا أظهره بمظهر الشَّخص المُريب، وربَّما كتب لوالي طرابلس عنه، مما ألزمه الحذر خاصَّة مع حلول شهر رمضان، فانكبَّ في بيته لا يخرج منه إلا قليلًا، وهو ما حدَّ من مُتابعته لأبحاثه وتجاربه الفلكيَّة.

ويتوقَّف بالوصف لمدينة طرابلس وجمالها وشوارعها ومبانيها التي تَقترب في شكلها من الفنّ الأوربي أكثر منها للذَّوق العربي، كما أنَّها أجمل من أيَّة مدينة مغربيَّة، ويواصل حديثه عن مصادر المياه فيها، وسكَّانها المؤلفين من العرب والتُّرك واليهود، وهم في غالبيَّتهم يُجيدون التَّحدث بعدد من اللُّغات الأوربيَّة، فالحاكم يُجيد الحديث بالإيطاليَّة وهو ما يُعد في المغرب خطيئة، ويؤكد تقدُّمها على المغرب من حيث الحضارة فالذَّهب والحرير يظهر في ملابسهم.

أمَّا المجتمع الطَّرابلسي فهو مُتفتِّح أكثر من المغرب، والمقياس لدى باديا هو أنَّ القناصل الأوربيِّين كانوا يزورونه باستمرار دون تدخُّلٍ من أحد، كما أنَّ الأوربيِّين ـ من غير المسلمين ـ من الممكن أن يصلوا إلى مَراتب عُليا في الدَّولة، فرئيس البحريَّة إنجليزي مُتزوِّج من قريبة الوالي، والعبيد النَّصارى يُعاملون مُعاملة حسنة، فبإمكانهم مُزاولة الأعمال الخاصَّة مُقابل ترك جزء من دخلهم للحكومة، وحاجب القصر الدَّاخلي

= بوقوفها القوي ـ معتمدة على أسطولها البحري ـ في وجه الهجمات المسيحية في البحر المتوسط، بل وفرض الإتاوات على سفنهم وتجارتهم. للمزيد انظر: **جلال يحيى**: **المغرب الكبير (العصور الحديثة وهجوم الاستعمار)** بيروت ١٩٨١م، ج٣ ص٥٨ ـ ٦٣.

للحاكم هو عبدٌ أسود، ولخدمته يوجد أربعون عبدًا مسيحيًا كلّهم إيطاليُّون.

لم يُغفل حُكّام المدينة بل تحدّث عن تاريخهم، حتى وصل إلى الحاكم المعاصر له وهو سيدي يوسف، وعمره في حدود الأربعين ويلقّب بالباشا وتُعجبه الفخامة والتّعظيم، ومظهره يُوحي بالوقار، وهو لطيف وناعم، وله عشر سنوات ونصف وهو يَشغل كرسي الحكم، وشعبه مُرتاح له كما يبدو، لديه امرأتان فقط، إحداهما قريبته وهي بيضاء، أنجبت له ثلاثة أبناء وثلاث بنات، أما الأخرى فهي سَوداء لها ولد وبنتان، ويحمل أولاده لقب بيك، أمّا إماؤه فأغلبهنّ من السُّود وليس بينهنّ بيضاء، وتَظهر الفخامة والعظمة في مَلابس نسائه وأثاث منزله. وقد تأكّد لدى باديا أنّ دخل الحاكم السنوي لا يَزيد على المليون فرنك.

يصف بعد ذلك الاحتفالات التي تجري في القصر، وما يُصاحبها من مُوسيقى وموسيقيِّين، ثمّ يتوقّف عند الوظائف والبروتوكول ثمّ الجيش والبحريَّة وتنظيمهما، ويُحاول تحديد أعداد هذه القوّات المحتملة في حالة الحرب، وعدد القطع البحريّة وأنواعها، وكأنّه يعدُّ تقريرًا قد أوصي به.

في طرابلس تُوجد ستّة مساجد كبيرة وستّة أخرى صغيرة، وبعد وصفٍ لها خاصة الأكبر منها، واستعراضٍ لمراسيم الصّلاة والعبادة ومقارنتها بما يجري في المغرب، سواء في الجمعة وخُطبتها ودعائها أو شهر رمضان، مشيرًا إلى أنّها هناك تتّسم بالرُّوحانيَّة والشّفافية، بينما في طرابلس تبدو عليها مظاهر البهرجة والتّصنُّع، وفي هذه المدينة اختفى صوت المسحّراتي وحلّ محلّه الأذان، كما أنّ المساجد لها أوقافها التي يُصرف منها على احتياجاتها وعلى القائمين عليها. ينتقل بعد ذلك إلى المفتي الذي لديه قاضيان أحدهما على المذهب الحنفي والآخر على المالكي. وبعد أن يذكر أنّ في طرابلس ثلاثة سُجون أحدها للتُّرك واثنان

للعرب، يصف المقاهي وما يُقدَّم فيها والسُّوق وما يُباع فيه، والأغذية المختلفة الموجودة، والمياه وغيرها من مظاهر الحياة.

ثمَّ يصل لليهود الذين حُظوا بثلاثة معابد، ويُشيد بمُعاملتهم المختلفة عن المغرب وعددهم الذي يزيد على الألفين، وفيهم حوالي ثلاثين غَنيًّا يُمسكون بزمام التِّجارة مع أوربا. ويواصل حديثه عن تجارة طرابلس التي تميل لصالحها مع أوربا، وينتقل إلى المقاييس والموازين المستخدمة والعُملة المتداولة مع التَّفصيل في ذلك، ثم يصل إلى الأوربيِّين والنَّظرة العامَّة نحوهم والتي تتَّسم بالاحترام والتَّقدير، فبالإضافة إلى وجود وكلاء لعدد من القُوى الأوربيَّة، يُوجد مُمثِّل تجاري لفرنسا هو أخو القنصل، وإسباني يبني البواخر، وطبيب مالطي وساعاتي سويسري، والنَّصارى لهم مُصلّى خاصٌ بهم، تُسمع نواقيسه في أرجاء المدينة يوميًّا.

أمّا سُكَّان الولاية كلّها فيُقدَّرون بمليونين، ينتمون إلى عدَّة أجناس، وبعد وصف لوضع هؤلاء السُّكان وعلاقاتهم بالدَّاخل وأفريقية، يؤكِّد حالة عدم الاستقرار التي تعيشها البلاد وشمال إفريقية بشكل عامّ في تلك المدة، ولهذا فإنَّ الحجَّاج يضطرُّون إلى أداء حجِّهم عن طريق البحر، وهذا ما سيفعله هو متوجِّهًا إلى الإسكندريَّة.

الطريق إلى الإسكندريَّة:

قرَّر عليّ باي مُواصلة الرِّحلة والاتِّجاه إلى الإسكندريَّة، فانطلقت الباخرة التي تقلّهم في السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٠٦م الموافق للسادس من ذي القعدة عام ١٢٢٠هـ بعد وداعٍ حارٍّ له من قبل حاكم طرابلس الذي ألحَّ عليه في البقاء بطرابلس، لكنَّه رفض.

يتوقف قليلًا ليصف لنا هذا المركب الذي يقلُّه، فهو كبير إلا أنَّ قبطانه يتَّسم بالغباء والجهل ولا يعرف الجهات، لكن لحسن الحظِّ ترك لمساعده كلّ شيء، بينما تفرَّغ للشَّراب والنَّوم. هذا المركب يُقلُّ عددًا

كبيرًا ما بين تاجر ومبعوث رسميّ من حاكم طرابلس، ومُرابط اسمه مولاي حازم كان يفتخر بأنَّه أكبر مُدمِّر للفرنسيِّين خلال حربهم مع مصر، إلى جانب عدد من النِّساء والحجَّاج الذين تدعو حالتهم للشَّفقة لأنَّهم باحثون عن تحسين أوضاعهم أكثر من إكمالهم لواجب ديني.

وكعادة الرِّياح في كلِّ رحلة بحريَّة يقوم بها باديا تأتي عكس الاتجاه، ممَّا عكَّر مزاجه، وأحاله إلى مُلازمة السَّرير لمدَّة يومين، وبعد شفائه قام بمُلاحظاته الفلكيَّة وقياساته التي اكتشف من خلالها أنَّ خطَّ سيرهم تحوَّل بدلًا من الإسكندريَّة إلى الشَّمال، حتى وصل إلى ما يَقرب من الأدرياتيكي، فنبَّه القبطان إلى اتّجاهه الخاطئ وعدَّل مسيره إلى سواحل إحدى الجزر اليونانيَّة التي حطُّوا فيها رحالهم عقب مسير عدَّة أيّام.

وبعد وقفات عديدة ومتأنيَّة في وصف هذه الرِّحلة الطَّويلة والشَّاقة، والتي جَنحت عن طريقها إلى الشَّمال ودخلت في سواحل اليونان وجزرها وتركيا وشواطئها، يصف لنا باديا وبدقَّة كلّ مُشاهداته هناك: الطَّبيعة فيها وما وراء المنظور من حوادث وتاريخ، ويُشير بشكل لافت للنَّظر إلى بعض الأحداث الصَّغيرة في بعض المواقع التُّركيَّة، ومن خلالها يصوِّر لنا الوضع التَّعس الذي يُخيِّم على الإمبراطوريَّة العثمانيَّة.

كما يصف ما تعرَّضوا له من مُضايقات أثناء رحلتهم هذه، سواء مع اليونانيِّين أو مع الأتراك، وكذلك انعدام الثِّقة بينهم وبين البحّارة في السَّفينة، وقلَّة الموارد الغذائيَّة وغيرها من الوقفات الصَّغيرة الأخرى.

تستمرّ الرِّحلة مُحاولة الوصول إلى هدفها، ففي الثالث من شهر مارس (الثاني عشر من ذي الحجَّة) تراءت مَلامح الإسكندريَّة أمام الجميع، ممَّا كان باعثًا للفرح الغامر والسُّرور، وعندما أوشكوا على دخول مينائها، وبدؤوا الاستعداد للنُّزول، إذ بالمفاجأة تَحدث، وكما يقول: «كم هو مُضطرب مَصير هذا الإنسان، إذ في نفس اللَّحظة التي

نصل فيها إلى مدخل الميناء في ريح صالحة وموانية، إذ بضربة إعصارٍ هائجٍ جعلت القبطان مذهولًا»(١).

ومع مُحاولات الرُسوّ في ميناء المدينة الثّاني أو في (أبو قير)، إلا أنَّ القُبطان برعونته أبعد المركب إلى أعلى البحر، في وضع لا يُتصوَّر بين الحسرة واللَّوعة التي غَشَت الرُّكاب والحزن الذي خيَّم عليهم، وبين مَوجات البحر العاتية التي تَتقاذف المركب ككُرَة حائرة، إنَّها لوحة مأساويَّة قاسية لأوَّل مرَّة تحدث لعليّ باي: «اقتربَ منّي القبطان والدُّموع في عينيه، وقال: ماذا سنفعل سيِّدي علي باي؟ إذا كانت هذه إرادة الله...» فأجابه قائلًا: «آه يا قبطان»، لأنّه يعتقد أنَّ الذي قادهم إلى هذا المصير هو سُوء قيادته وعناده المجنون. حالات من الإعياء الشَّديد واليأس والرُّعب والحياة والموت تسود القارب نتيجة العواصف التي تعصف بالمركب والمياه المتساقطة من أمواج كالجبال: «اعتقدتُ بأنَّ ساعتي الأخيرة قد اقتربت، وأصبحتُ في حالة شديدة من الهلع، لكن عندما فكَّرتُ بأنَّ أقلَّ أو أكثر من عشرين سنة من حياتي مرَّت كالحلم، كما فكَّرت في اعتبارات أخرى مشابهة، تَساوَتْ معها الحياة والموت لديَّ، ممَّا أعادني لهدوئي في هذه اللحظات العصيبة»(٢).

وبعد ثلاثة أيَّام من رحلة شاقة في بحرٍ مائجٍ هائجٍ، أعلن القُبطان أنَّه لن يستطيع الوصول إلى الإسكندريَّة، وسيتَّجه عوضًا عن ذلك إلى قبرص، فوصلوا إلى ليماسول في السابع من شهر مارس سنة ١٨٠٦م الموافق للسَّادس عشر من ذي الحجة ١٢٢٠هـ، وكانت حصيلة هذه الرِّحلة أنَّ كلَّ الرُّكاب أصيبوا بالإعياء، فأكثر من عشرين شخصًا على الفراش بعضهم على وشك الموت، وامرأة تُوفِّيت وأُلقيتْ جثَّتها في البحر، وآخر مات

---

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ١/١٩٦.

(٢) الرحلة، ط. برشلونة، ١/١٩٧.

في نفس اليوم الذي وصلوا فيه إلى الميناء، واثنان في حالة النَّزع الأخير، واثنان آخران من الرُّكَّاب أصبحا مجونين.

٣ ـ رحلة التِّيه: قبرص بدلًا من مصر:

وفي ليماسول تحدَّث لنا عن علاقاتٍ شتىً وأشخاصٍ من جنسيَّات مُتعدِّدة، وحاكم المدينة الأغا الذي بعث معه بعض الجنود لمُساعدته في إحضار أغراضه، كما خدمه نائب القنصل البريطاني والرُّوسي وقنصل نابولي، ونزل في بيت رجل إنجليزي يُدعى «روك» هذا الفتى الذي أخبره أنَّه ينوي الذَّهاب إلى القاهرة لشؤون تجاريَّة مع الهند، يتكلَّم التُّركيَّة والفارسيَّة، ويلبس لباس المسلمين وتعلَّم عاداتهم وتقاليدهم.

وبعد وصف لهذه الجزيرة، زار نيقوسيا ووصفها من كلِّ النَّواحي، وما يمكن مُلاحظته هو الزيارات المكثَّفة والمتبادلة بينه وبين أساقفة هذه الجزيرة، كما زَار حاكم المدينة التُّركي الذي استقبله بحفاوة. وتعرَّض للعلاقات اليونانيَّة التُّركيَّة والحزازات الموجودة بين الطَّرفين، واستعرض كذلك وضع السُّكان اليونانيِّين، والكنيسة وحقوقها التي أسهب في الحديث عنها. ولحظ أنَّ جميع اليونانيِّين في الجزيرة يتركون شَواربهم ويحلقون لحاهم مثل الأتراك، لكنَّ كبار السِّن والأساقفة يعفونها، وذكر أنَّه لا يحقُّ لليونانيِّين أن يملكوا سلاحًا، لكن ليس منهم من لا يحمل خَنجرًا أو سكِّينًا داخل ملابسه. ويتطرَّق إلى تجارة الجزيرة التي تكاد تَنحصر في القطن؛ ومن خلال عرضه وتحليله لا يُخفي تحامله الشَّديد على الأتراك وتعاطفه المفرط مع اليونانيِّين الذين يُظهرهم بصورة المضطهدين الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، فيلجؤون إلى السِّفارات الأجنبيَّة لتحميهم من هذا الاضطهاد.

أمَّا مَساجد الجزيرة ففقيرة وسيئة، وفي خطبة الجمعة لا يجيد الإمام العربيَّة فيكتفي بإيراد بعض الجمل القصيرة والعبارات المتقطعة التي

يُكرِّرها بدون فهم لمعناها لا هو ولا مُستمعوه، ومع أنَّ اللُّغة العربيَّة هي لغة المسلمين، فربَّما لا يوجد في كلِّ الجزيرة عشرة منهم في حالة فهم لها.

ويواصل مستطردًا في وصف الجزيرة وآثارها وجغرافيَّتها ومعالمها، ثمَّ ينتقل بالحديث إلى مُميِّزاتها التي أهمُّها شحُّ المياه، وفي إحدى وقفاته في هذا الفصل يقول: «*في جزيرة قبرص يوجد خَطران شديدان، الأوَّل جمع مُتعدِّد من الأفاعي ذات طول بين قدمين إلى ثلاثة، لها لدغاتها القاتلة كما يقولون، والتي يُعالجها المشعوذون بالتَّمائم والرُّقي*» أمَّا الخطر الآخر فهو الجراد[1].

ولا يُخفي علي باي إعجابه الشَّديد بقبرص التي يصنِّفها بأنَّها عاصمة الثَّقافة مرَّة والعبادة أخرى، ويعتقدُ جازمًا بأنَّ هذه الجزيرة إذا ما أخذتْ بقانون يَحترم الحريَّة والخصوصيَّات الشَّخصيَّة، فستختفي كلُّ الحساسيَّات والصِّدامات الدِّينيَّة المحتملة، وستُصبح الجزيرة من أسعد بلاد العالم. كما أنَّ جوَّها معتدلٌ وماؤها عذبٌ، ونساؤها تغلب عليهن الحشمة والجمال، وتتوافر فيها كلُّ المقوِّمات الأساسيَّة التي تجعلها من أهمِّ البلدان.

٤ ـ السَّفر إلى الإسكندريَّة (مصر):

بعد هذه الجولة الطويلة والممتعة لباديا قرَّر استئناف رحلة الحجِّ عن طريق الإسكندريَّة، وذلك في باخرة يونانيَّة صغيرة، خُصِّص له فيها غرفة مستقلة، خرجت في السَّابع من مايو (الثامن عشر من صفر ١٢٢١هـ) عصرًا لكنَّها أُجبرتْ على العودة نظرًا للأمواج العاتية، فأعادت الكرَّة مرَّة أخرى في رحلة كانت موفَّقة؛ وفي عُرض البحر ظهر لهم مركب عسكريٌّ

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ١/ ٢٢٧.

تُركيّ أوقفهم وألقى عليهم بعد التَّحيَّة والأسئلة التَّقليديَّة الآتية:

- أيُّ مقصورة هذه؟

- أجاب القبطان بلا تَردُّد: هذه للبيه الشَّريف ابن السُّلطان الذي يستقلُّ هذا المركب مُتَّجهًا إلى الإسكندريَّة.

- وما اسمه؟

- سيدي علي باي العبَّاسي.

- مِن أيْنَ أتى؟

- من الغَرْب.

- وأين سيَذهب؟

- إلى مكَّة.

- سَفرةٌ سَعيدةٌ. ثمَّ انصرفوا.

«أثنيتُ على طيبة الأتراك، وحُسن تصرُّف القُبطان، وطلبتُ منه ألا يفعلها مرَّة أخرى»[1].

وصل مركبهم إلى ميناء الإسكندريَّة بيُسرٍ وسعادة في تمام السَّاعة الثَّالثة عصرًا من يوم الثاني عشر من مايو سنة ١٨٠٦م الموافق للثالث والعشرين من صفر ١٢٢١هـ، بعد رحلةٍ استغرقت يومين ونصف. وكانت أولى انطباعاته التي سجَّلها قوله: «في كلمة واحدة وجدتُ كلَّ تقدير واحترام ممَّا يدُل على نزاهة أولئك النَّاس الطِّيِّبين وشهامتهم».

يستهلُّ جولته بمصر التِّي خصَّها بأربعة فصول، بقوله: «ليس من الصَّعب تأليف مكتبةٍ متكاملةٍ لوصف هذا البَلَد» لكنَّه يُشير إلى ما كتبه مُرافقو الحملة الفرنسيّة من وصفٍ يصعب الزّيادة عليه. وقد ابتدأ حديثه

(١) الرحلة، ط. برشلونة، ١/٢٢٨.

بالوصف الجغرافي لمدينة الإسكندريَّة، معرِّجًا على أهميَّة المدينة ومكانتها بالنِّسبة لمصر تجاريًّا وإستراتيجيًّا، ويذكر أنّ تعداد سُكانها كانوا أكثر من مليون نسمة، كما يُقدِّر دخل جماركها بستِّين أو خمسة وستِّين مليون فرنك في حالة الرَّخاء. ثمَّ ينتقل إلى الجانب التَّاريخي مُردِّدًا المقولة التي يَتغنَّى بها المؤرِّخون الغربيُّون بأنَّ المسلمين هدموا وأحرقوا المكتبة الشَّهيرة بها، ويفيض في وصف المدينة بمنازلها وشوارعها ومَرافقها مُشبِّهًا لها بمدينة بَلنسيَّة بإسبانيا. ويُشير إلى وضع الإسكندريَّة الحرِج اقتصاديًّا نتيجةً للحروب مع النَّصارى خارجيًّا ومع المماليك ونقص العُملة داخليًّا، وكذلك لهروب سُكَّانها إلى الحقول نظرًا لظروف الحرب مع الإنجليز.

ويَعتقدُ أنَّ مردَّ سُوءِ النَّظرة للأوربيِّين من قبل هؤلاء السُّكان سابقًا، هو بسبب المشكلات الدِّينيَّة، لكنَّ الحملة الفرنسيَّة جعلتهم يَعتقدون بأنَّ النَّصراني لا يكرهُ المسلم حتى أنّها أكدّت بما فيه الكفاية ذلك بمُعاملة السّكان كأشّقاء، ثمّ يُشيد بهذه الحملة وما قدَّمته لهذا البلد في المجالات المتعدِّدة الحضاريَّة منها والسِّياسيَّة وغيرها.

يتوّقف بالوصف عند مسجد المدينة أو جامعها الأعظم، ويذكر بعض المشاهد التي تسبق صلاة الجمعة من الصوت الجماعي وترديد الأدعية ثمَّ مشهد المؤذِّن وهو يتلو الأذان وتردِّده خلفه مجموعة،واصفًا صوت الرُّجل هذا بأنَّه «كصوت كهلٍ يحتضر». ويُشير إلى أنَّ المساجد تعتمدُ في مصروفاتها على ما تجود به أيدي المُحسنين، فما تقدِّمه الدَّولة قليل لا يستحقُّ الذِّكر، مُشيرًا في الوقت نفسه إلى اختفاء عددٍ من المساجد القديمة والجميلة التي ذكرها الرَّحالة السَّابقون، فالحروب التي يخوضها العثمانيون قضت عليها! وكذلك الحال مع بعض الآثار المهمة التي اختفت هي الأخرى: «وما يغلب على الظَّن ـ كما يقول باديا ـ أنَّ الإنجليز نَقلوها إلى بلادهم».

ينتقل بعدها إلى الأسعار التي تزيد على البلاد الإفريقيّة التي زارها، ويُشير إلى بعض أسعار المواد الغذائيّة بالعُمْلة التُّركيَّة مُقارنةً بما يُعادلها بالعُمُلات الأوربيَّة.

ويتوقَّف عند فنار الإسكندريَّة بالوصف، وعن البديل الذي شيَّده العرب، ثمَّ أبواب المدينة التي كان يُسمحُ للنَّصارى بالدُّخول من بابها الشَّرقي فقط وذلك قبل الحملة الفرنسيَّة، لكن بعدها فُتح لهم الباب الغربي أيضًا. أمَّا دفاعات المدينة فكانت عادية، لكنَّ الفرنسيِّين شيَّدوا القلاع والأسوار. وينتقل بعدها للحديث عن نَباتات المدينة وحيواناتها ثمَّ عن مدارسها التي تنوَّعت حسب المذاهب والطَّوائف، لكنها تؤكِّد حقيقة الاهتمام بالتعليم.

تَضمُّ مدينة الإسكندريّة مزيجًا بشريًا من كلِّ الأجناس، ولذا فهي تتكلّم كلَّ اللُّغات، فالأطفال يتحدَّثون ثلاث أو أربع لُغات في نفس الوقت، ممَّا يمكن معه القول بأنَّ «الإسكندريَّة هي *أسوأ مكان في العالم لتعلُّم اللُّغة*»، ثمَّ يشرع في تفصيل القول عن الأجناس والأعراق التي تسكن المدينة، فالقبط تعدادهم حوالي الألف ويمارسون التِّجارة، ومثلهم اليونانيُّون الذين يُقدَّرون بأربعين عائلة مُستقرَّة، لهؤلاء مَعابدهم ويؤدُّون طُقُوسهم الدِّينيَّة بحريَّة، كما يُوجد أكثر من ثلاث مئة يهودي مُقيمين بصفة دائمة، لهم معبدان صغيران، أمَّا الأكبر فقد هدمه الأوربيُّون، ويُمارس هؤلاء التِّجارة والصِّرافة؛ كما يوجد خليط من الأوربيِّين، يقدَّر بأكثر من مئتين، يُمارسون التِّجارة التي تتأثَّر بالظُّروف المحيطة، وكانت سيئة أيام مجيء باديا نظرًا لكسادها، كما يُشيد بالحريَّة التي يتمتَّع بها هؤلاء رجالًا ونساءً في لباسهم ومعاشهم وعباداتهم، وما يُلاقونه من احترام في البلد المُضيف على خلاف ما هو موجود في المغرب. أمَّا المرأة فقد شدَّه لباسها وجمالها، ويذكر في هذا الصَّدد أنَّ المرأة حتى اليهوديَّة والنَّصرانيَّة

تلبس الحجاب كالمسلمة. وللنظافة في الإسكندريَّة مكانتها، فالحمامات التركيَّة العامة يرتادها النَّاس على مختلف دياناتهم وأجناسهم.

ثم ينتقل إلى موضوع الختان والموسيقى والبريد وكيف يُوزَّع وساعي البريد ومواصفاته، ويتحوَّل فجأةً إلى الطَّقس وأجواء المدينة، ثمَّ يتحدَّث عن موضوع الصِّحة، ويذكر أنَّ الرَّمد أو التهاب العين يكادُ يكون هو المرض المستوطن الوحيد في هذا الإقليم، ويعزو ذلك إلى الرِّمال النَّاعمة التي تثيرها الرِّياح.

وعلى مدَى حوالي ثلاث صفحات يغوص في ميدان التَّاريخ والصِّراع على مصر، ويُفصِّل الحديث في تحالف العثمانيِّين مع الإنجليز لإخراج الفرنسيِّين، والحملات التي اشتركت في هذه العمليّة، ثمَّ يتحدَّث بعد ذلك عن الصِّراع على السُّلطة والنُّفوذ في مصر بين الألبان والمماليك والأتراك، وانتهت بتولية محمَّد علي، ويشير إلى تدخُّلات الإنجليز وأياديهم بكلِّ هذه الأحداث.

خرج علي باي تاركًا الإسكندريّة مُتَّجهًا نحو القاهرة، سالكًا النّيل في مركب أقلّه، واصفًا ما رآه من مَشاهد بنائيَّة وحيوانيَّة ومائيَّة حتى وصل إلى مدينة رشيد التي وصفها بأنَّها لا تختلف عن مظهر مدينة أوربيَّة. وفي يوم الاثنين العاشر من نوفمبر سنة ١٨٠٦م الموافق للتاسع والعشرين من شعبان سنة ١٢٢١هـ كان وصوله إلى القاهرة ودخوله إليها في حفلٍ صوَّره لنا بالفخامة وأحاطه بالأهمية، حيث كان في مقدِّمة مستقبليه شيخ المغاربة بالقاهرة، والرَّجل الثَّاني في المدينة حسب تعبيره، وشيخ القاهرة الذي هو نَقيب الأشراف، وبعض الأمراء المغاربة.

يتوّقف قليلًا ليرسم لنا الصُّورة السِّياسيّة التي تعيشُها مصر خاصّة القاهرة في هذه المدة، ويُشيد بمحمَّد علي الشَّاب الذي يتمتّع بالحيويَّة والنَّشاط، وكيف وصل إلى الحكم وأنقذ الشَّعب من مُعاناته مع المماليك

والأتراك، لكنَّه مع ذلك لم يعرف كيف يستقلُّ بالبلد، لأنَّه أعطى للوجهاء أو المشايخ منزلة مكَّنتهم من أداء دورٍ مهمٍّ في إدارته.

ويصف المدينة في منازلها وشوارعها ومحلاَّتها التِّجاريَّة ومُناخها، وينتقد أولئك الرَّحالة الذين يصمون المدينة وشوارعها بالقذارة والكآبة ويؤكِّد عكس ذلك، فالقليل من المدن الأوربيَّة تفوقها بالنَّظافة. ويتحدَّث كذلك عن مَساجدها خاصَّة الأزهر الذي أفاض في وصفه، ثمَّ بقيَّة المساجد الكبرى، وفي جامع السُّلطان قلاوون كانت تُنسج كسوة الكعبة، ثمَّ انتقل بالحديث إلى المستشفى العام، وكيف كان يعتمد في نفقاته وإدارته ذات الكفاءة العالية.

يتوقَّف بعدها عند الاحتفالات المصاحبة لشهر رمضان، واستعدادات النَّاس وفرحهم بهذه المناسبة، ثمَّ يتحوَّل إلى وصف الطَّبيعة والأهرامات في الجيزة التي زارها تحت وطأة الخوف من الأعراب برفقة رجاله المسلَّحين، ويسترسل بالوصف والشَّرح لهذه المعالم وما أحاط بها من طبيعة، كما يُخصِّص حيِّزًا غير قليلٍ لوصف بعض المعالم الأثريَّة والمعابد النَّصرانيَّة وحيِّ بولاق.

ثم ينتقل بالحديث عن التِّجارة وتأثُّرها من جرَّاء المشكلات المحيطة في أعالي مصر حيث المماليك، وفي الغَرب حيث ثورات البربر وقطع التِّجارة مع المغرب والجزائر وغيرها، ومشكلات البدو وقطع الطَّريق في الشَّرق، وسَرقة القوافل القادمة من الجزيرة العربيَّة والهند، ثمَّ حروب الإنجليز التي عطَّلت التِّجارة في البحر المتوسِّط، وعلى الرّغم من ذلك فإنَّ القاهرة تشهد حركة تجاريَّة ضخمة.

لم يطل المقام بعلي باي في القاهرة على الرّغم من أنَّها تستحقُّ وقتًا أطول، ووصفًا أدقَّ وأشمل، لكن نظرًا لانشغاله بأمر الحجِّ الذي اقترب أوانه، ولأنَّه ينوي العودة إليها مرَّة أخرى، فقد اكتفى بهذه المدَّة التي لم

تزد على الشَّهر وخمسة أيام، فبعد انتهاء شهر رمضان وبالتَّحديد في يوم الاثنين الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٨٠٦م (الخامس من شوال١٢٢١هـ) غادر القاهرة مُتَّجها إلى جدَّة سالكًا طريق السويس ثم البحر الأحمر، وقد ترجمنا الجزء المتعلِّق بذلك كاملًا.

٥ ـ الجزيرة العربية:

وقد خصَّها باديا بحيِّز مُهمٍّ من سجلِّ رحلته هذه، تمثَّل ذلك بأحد عشر فصلًا هو ما حواه الجزء الرابع من أسفار الرِّحلة، على أنه رأى أن جزيرة سيناء هي جزء من جزيرة العرب، فكان الفصل الثاني عشر ضمن هذا الجزء. وقد ترجمنا هذه الفصول كاملة، ولذا نحيل القارئ إليها مباشرة.

٦ ـ عودة باديا إلى مِصر:

بعد زيارته للجزيرة العربيَّة وبالذَّات منطقة الحجاز بما فيها مكَّة المكرَّمة وجدَّة وبقية المدن التي عرض لها في سجلِّ رحلته، قرَّر رحَّالتنا العودة إلى مِصر وبالتَّحديد إلى القاهرة التي ترك فيها بعض أحماله وخدمه، سالكًا طريق البحر الأحمر في رحلة طويلة وشاقة قصّ فيها متاعبه ومشاهدات الطَّريق ممَّا ورد في نصِّ التُّرجمة، فوصل إلى مِصر عن طريق سيناء، ومرَّ بالسُّويس ومنها اتَّجه إلى القاهرة، واصفًا بعض المواقع التي مرَّ بها والمشاهد التي رآها والمتاعب التي لاقاها.

وقُبيل وصوله المدينة خرج لاستقباله عدد من الأعيان، من بينهم سيدي عمر نقيب الأشراف مع عدد من العلماء والوجهاء، يرافقهم كوكبة من المماليك والحشم، وقد دخلوا القاهرة من بَاب الفتح في مُنتصف شهر يونيه من سنة ١٨٠٧م الموافق للثامن من ربيع الآخر ١٢٢٢هـ، لكنَّ الأوضاع فيها كانت غير مُستقرَّة نظرًا لهجوم الإنجليز على مدينة رشيد ونزولهم في الإسكندريَّة، كما أنَّ القاهرة تحتفظ بعدد كبير من السُّجناء

الإنجليز[١]، لذا فإنَّ هجومهم المتوقَّع دفع بصاحبنا إلى مُغادرة المدينة بعد تسعة عشر يومًا فقط من وصوله إليها مُتَّجهًا إلى فلسطين بناء على نصيحة أصدقائه الفرنسيِّين الذين شدُّوا رحالهم هم الآخرون؛ حيث خَرج في صباح يوم الجمعة الثَّالث من شهر يوليه من نفس السنة (السادس والعشرون من ربيع الآخر)، دون أن يسجِّل شيئًا من ذكرياته وملحوظاته هذه المرَّة.

كان بودِّنا أن نتوقَّف بالعرض السَّريع لوقائع رحلته التي تلت زيارته للجزيرة العربيَّة، لكنَّ ضيق الوقت والخوف من اتساع الموضوع وخروجه عمَّا هو مخصص له حال دون ذلك، ولعلَّ في الوقت متَّسعًا لذلك عندما تسمح الظُّروف أو يُهيئ الله له من لديه الهمَّة والاهتمام ليراه قُرَّاء العربية بين أيديهم قريبًا.

خامسًا ـ المظاهر العامَّة للرِّحلة:

بعد هذا العرض السَّريع نتوقَّف مع القارئ الكريم عند بعض النُّقاط الرئيسة التي يمكن استنتاجها من وقائع الرحلة ومشاهداتها:

١ ـ في المغرب:

أ ـ نستشف حرصه الشَّديد على كسب السُّلطان مولاي سليمان ورجاله، حيث نجح في إقناعه بشخصيَّة النَّبيل العربي الذي حلَّ بضيافته قادمًا من أوربا على الأقلّ في البداية، لكن حاشية السُّلطان التي ارتابت بتحرُّكاته وجرأته، وربَّما أيضًا منافسته لبعضهم، كلُّ ذلك جعلها تَزرع الشَّك لدى السُّلطان سليمان تجاهه، وهذا ما جعله يحيطه دائمًا بعددٍ من أتباعه ومن يثق بهم، ولعلَّ إهداءه للجاريتين كما سنرى لا يخرج عن هذا النِّطاق، لكنَّ باديا حاول جاهدًا أن يتخلَّص منهما بحججٍ

(١) **الرحلة**، ط. مدريد، ص٣٤٣.

واهية، مع أنَّه تقبَّل الأمر الواقع عندما رآه قد أحيط به، ولذا قرَّر الرَّحيل إلى موقع آخر ليتحرَّر من الرَّقابة اللَّصيقة.

ب ـ أنَّ باديا فشل في وضع سياسة تخدم مصالح إسبانيا في المغرب حيث أقنع رؤساءه بمشروعه الذي يهدف إلى دعم ثورة القبائل في الجنوب، تلك التي لا تعترف بسلطة الدَّولة، وتظاهر أمام أولئك بأنَّه اتَّصل بها وأقنعها بالثَّورة لخلق اضطرابات تُشغل السلطة المغربيَّة ومن ثم تقوم إسبانيا باحتلال الشَّمال خاصَّة مدينة مليلة وما حولها، هذه المشروعات أثبتت الوقائع أنه ليس لها وجود إلا في خيالات باديا كما يقول جويتيسولو[١].

ج ـ أنَّ التَّقدير الذي حظي به باديا قد جعله يُؤمن بسهولة تحقيق أحلامه ومشروعاته، لدرجة قد تصل إلى الاعتقاد أنَّ بالإمكان تتويجه ملكًا على عَرش المغرب[٢]، وأنَّ أهم أقاليم الدَّولة تميل لصالحه؛ ولم يُدرك أنَّه مجرَّد رحَّالة تتقاذفه الأيدي وترمقه العيون، لا لشخصه وطموحه بل حُبًا في الاستطلاع واستدرارًا لما يحمله من هدايا ونقود، ومع ذلك فالحكومة المغربيَّة سُرعان ما غيَّرت رأيها فيه ورَاقبت تحرُّكاته بدقَّة، فبعد رحيله إلى فاس ظنَّ أنه تخلَّص من المراقبة وأراد على ما يبدو أن يفعل شيئًا يُقنع به رؤساءه في إسبانيا الذين منحوه ثقتهم وأغدقوا عليه أموالهم، فكانت اتِّصالاته بالقبائل بحجَّة تأمين الطَّريق إلى تلمسان، لكن عُيون السُّلطان لاحقته، وجاء القرار الحاسم بترحيله عن طريق العرائش، مُحاطًا بقوَّة عسكريَّة تُؤمِّن رحيله وخروجه من البلاد نهائيًا. وكانت الحكومة الاسبانيَّة قد أقنعتها

(١) مقدمة الرحلة، ص ١٦.

(٢) Ali Bei; p.p. 270 - 1. وهو ما يُستنتج من رسائله لحكومته في المغرب، ثم لمسؤولي الحكومة الفرنسيَّة فيما بعد، كما أشرنا في معرض الحديث عن سيرته.

تقاريره لدرجة أنَّها أرسلت قوَّة بحريَّة إلى السَّواحل المحاذية لمليلة[١].

إذن يُمكن القول: إنَّ دومنجو باديا قد تشرَّب تلك الشَّخصيَّة المتحلة لدرجة جعلته يُصدِّق نفسه، ويتصرَّف بوحي من ذلك، خاصَّة في هذه المرحلة المبكِّرة التي قضاها بالمغرب، لذا تظهر ثقته المتناهية بنفسه التي تنعكس على تعامله مع الآخرين، ولم يدرك أنَّ هذه البلاد مليئة بأمثال شخصيَّته المدَّعاة من ذوي الحسب والنَّسب الحقيقي وليس المزوَّر، ولم يعرف أيضًا أنَّ سِرَّ الاهتمام به هو ما حمله من جديد الغَرب في العلم وأدواته بالدَّرجة الأولى، ثمَّ هداياه التي سبقته في كلِّ مكان يحلُّ به مع تميُّزها وطرافتها، وليس من طِباع العَرب أن يُقابلوا مثل هذا الكرَم إلا بأحسن منه.

٢ ـ في طرابلس:

في هذه البلاد نجدُ شخصيَّة أخرى مكسورة الجناح، مهضومة الجانب، تُلاحقها التُّهم وترمقها الأعين شزرًا، فقد انكشفت أوراقها أمام الجميع، المغرب الذي أحسَّ أنه أُصيب في كبريائه بعد أن وضع ثقته بأمثال هذا المدَّعي، وطرابلس التي وصلتها أخباره[٢]، وربَّما لم تكن لتَسمح له بالدُّخول لولا وساطة أوربيَّة، يُضاف إلى هؤلاء عُنصر ثالث لا يقلُّ أهميَّة وهم أولياء نعمته الذين جهَّزوا رحلته ومؤَّنوه بما يحتاجه في سفره، ففوجئوا بفشل مَشروعاته التي تحمَّس لها بعد أن استقبلوا تقاريره المتتالية التي تحكي قصَّة نجاحاته المتلاحقة، لكنَّهم اكتشفوا أخيرًا أنه يطحن في الهواء دون طائل، فأصبح منبوذًا لديهم إن لم يكن مطلوبًا.

---

(١) مقدمة الرحلة، ص ١٦.

(٢) وهو ما يؤكِّده بنفسه حينما اتهم حاكم العرائش بأنه قد كتب لحاكم طرابلس عن حقيقته، وأرسل معه اثنين من عيونه. الرحلة. ط. برشلونة، ص١٧٨.

ولذا لا نستغربُ بقاءَه في المركب مُتسمِّرًا على مدى يومين متتاليين في ميناء طرابلس قبل أن يُسمح له بالنُّزول، ثمَّ لُزومه بيته وعدم مُغادرته إلا في أوقات قليلة ولأماكن مَحدودة ومعروفة، كلُّ ذلك يُعطي الانطباع أنَّ شخصيَّة الرَّجل قد تبدَّلت فهي غير تلك التي كانت تَصول وتَجول وتتكلَّم بأعلى صوتها في المغرب، فهُنا صوتٌ مبحوحٌ وخُطىً ثقيلة مرتجفة، وعلاقات محدودة بل ونادرة، فالطِّيبة المتناهية التي وجدها بالمغرب والدُّخول إلى عمق المجتمع بشخصيَّاته المتعدِّدة، قابلها فُتور وشكٌّ وعِزلة، ربَّما أملتها طبيعة البلد وأوحتها قرارات السُّلطة التي حدَّت من تحرُّكاته بعد أن أصبح تحت سمعها وبصرها باستمرار، فأوراقه التي يلعب بها قد انكشفت، وشخصيَّته التي يدَّعيها لم تكن تُقنع أحدًا هنا، لذا لا نَستغربُ قراره بالرَّحيل المبكِّر من طرابلس، ليبحث عن موقع آخر يُواري فيه سَوءته ويمارس ألاعيبه من جديد، فبينما يمكث في المغرب أكثر من سنتين، لم يطل به المقام هنا في طرابلس لأكثر من شهرين ونصف فقط.

٣ ـ في قبرص:

في هذه الجزيرة ظهرت لنا شخصيَّة باديا الحقيقيَّة، الغربيَّة التي تحرَّرت مؤقَّتًا من تلك المستعارة «علي باي العبَّاسي» لتُمارس حياتها الطبيعيَّة بين أقرانها من الغربيِّين، ولتكتسب خبرة ومرانًا للمغامرة القادمة في ميادين ما تبقَّى من الرِّحلة. نَلحظُ السُّرور والإعجاب في ثنايا ما كتبه في هذه المرحلة، ونحسُّ أنه يتمنىَّ لو طال به المقام أكثر في هذه الرُّبوع التي يبتعد فيها عن الزَّيف والأقنعة، لولا أوان الحجِّ الذي اقترب ويصعب تأخيره لسنة قادمة.

حاول باديا جاهدًا أن يُعطي نفسه دفعةً جديدةً من الثِّقة التي افتقدها، ويأخذ نَفَسًا وزادًا لمشوار المهمَّة الشَّاقة والطَّويلة، ومع ذلك نَسيَ قارئه

الذي أقنعه بسليل الأسرة العبَّاسية، ونَسيَ نفسه أيضًا مع عظمة آثار الإغريق، مُلهمي الحضارة الغربيَّة في أصولها وجذورها العلميَّة والإنسانيَّة كما يعتقد! كما اندمجَ مع معابد هذه الدِّيار وكنائسها ونَسيَ المساجد والمآذن إلا لمامًا.

٤ ـ في مصر:

تَعود شخصيَّة باديا مرَّة أخرى إلى الظُّهور، لكن في هذه المرَّة ليس بصفته أميرًا عبَّاسيًّا وإنَّما كأحد رجالات المغرب ووجهائها الذين قَدموا لأداء فريضة الحجِّ، لذا نجده مُلتصقًا بالجالية المغربيَّة المقيمة في مِصر، فتَخرج لاستقباله ووداعه، ولا ندري كيف أقنعها بهذه الشَّخصيَّة وفيها مَن هُم في مُستوى أخي السُّلطان المغربي نفسه؟ اللَّهم إلا إذا كان هؤلاء من المعارضة الذين التجؤوا إلى هذه الدِّيار وأقنعتهم وعود باديا بالدَّعم والمؤازرة ضد السُّلطة الشَّرعيَّة في بلادهم، وهذا هو الأقرب.

رحَّالتنا في هذه البلاد مُعجب بإنجازات الحملة الفرنسيَّة، يتحدَّث عنها وعن تأثيراتها الإيجابيَّة، وكيف أزالت كابوس الانجليز وكأنَّه جاء للدِّفاع عنها. كذلك نجده كما لو أنَّ حيويَّته وجرأته عادت واعتباره رُدّ إليه، فهاهو يُقابل الولاة والعلماء والأشراف ويأنس بهم ويأنسون به، ويتجوَّل بحريَّة تامَّة ويكتب بلا قيود، لكنَّه مع ذلك يفرُّ أمام طلائع الإنجليز التي هاجمت مصر خائفًا مذعورًا.

٥ ـ في الجزيرة العربيَّة:

هنا نجد دومنجو باديا بشخصيَّة يلفُّها الغموض، فهو تارةً الحاجُّ الذي شدَّته عظمة المكان وقدسيَّته وألهبت مشاعره الدينيَّة، وأخرى هو ذلك الباحث المنقِّب والسَّاعي إلى الاستكشاف والسَّبق في ميادين لم يسبقه إليها أحد من أقرانه، ولذا فهو يَسعى جاهدًا لرصد المزيد ممَّا صادفه من أحداث ومواقع وشخصيَّات، نجح في تصويرها لنا وإبرازها في إطارٍ لوَّنه

بريشته، ومرَّة ثالثة هو ذلك الفضولي الذي أقحم نفسه في أمورٍ ما كان له أن يخوض فيها أو يناقشها دون علم ورويَّة واطلاع كقضيَّة الحجر الأسود مثلًا، ثم أخيرًا هو ذلك الذي كذبَّ الكذبة وصدَّقها، حيث امتزج بتلك الشَّخصيَّة التي ادَّعاها وتصرَّف بوحيٍ منها، حتى إنَّ أقرب المقرَّبين منه يَصعب عليه اكتشاف شخصيَّته الحقيقيَّة، وهذا هو سرُّ نجاح مهمَّته، خاصَّة وقد صاحبها سِعة خيال وكَرم وهدايا تُقدَّم بمناسبة وبغيرها، ممَّا أكسبه محبَّة من حوله ومن قابلهم من كبار المسؤولين، كشيخ الزمازمة مثلًا.

لكن يبدو باديا لنا هنا بصاحب المهمَّة، محاولًا إقناعنا بأنه المكتشف لهذه الأرض وقاطنيها، فأولئك الذين سبقوه لم يصلوا إلى ما وصل إليه، ولم يعرفوا ما عرفه عن جزيرة العرب، لذا نقرأ بين سُطوره مظاهر الفخر والاعتزاز.

سادسًا ـ أمثلة وملامح اساسيَّة في نَظرات علي باي إلى بعض القضايا:

ـ المجتمع الإسلامي: تطرَّقت مُذكِّرات هذا الرَّحالة إلى المجتمع الإسلامي بشموليَّة تامَّة، حاول خلالها أن يسجِّل كلَّ ملحوظاته التي دوَّنها، في صعوده ونزوله، ذهابه وإيابه، في الشَّارع والمنزل والمسجد والمدرسة، وما يُميِّز هذه الكتابة أنَّها اختلفت بالوصف والتَّحليل من مُجتمع لآخر، كما تميَّزت بالمقارنة فيما بينها من موقع لموقع، وبينما يخصُّ المغرب بجزءٍ وافرٍ من حديثه، ويفصِّل فيه بكلِّ موقع يحلُّ به، نجد اختصارًا في البلاد الأخرى. ومع محاولته أخذ جانب الحياد والموضوعيَّة والعَرض المتجرِّد، إلا أنَّه لا يخلو من همَزات ونَقد لاذع لبعض قضايا المجتمع التي لا يهضمها، أو يصعب على رجلٍ غربي مثله فهمها، فهو يذكرنا بمناسبةٍ أو بدونها أنَّه قادمٌ من أوربَّا المتحضِّرة إلى بلادٍ

متوحِّشة[١]، ويقصد بها المغرب، بينما يُشيد من جانب آخر بقُبرص وجُزر اليونان، فمثلًا لارنكا لا تَقلُّ حضارة وتَقدُّمًا وانفتاحًا عن العواصم الأوربيَّة الأخرى، أمَّا طرابلس فمجتمعها أكثر انفتاحًا وتحرُّرًا لأنَّه يتعاملُ مع الأوربيِّين فيها بلا حساسيَّات، أمَّا مِصر فهي مُتسامحة مع الأجانب، لكنَّ أهلها ـ في الشَّمال ـ في غالبيتهم جَهلة فظُو الطِّباع، أمَّا في القاهرة فمجتمع مطحون تحت عجلة حُكْم عَسْكريٍّ لا يرحم[٢].

وفي الجزيرة العربيَّة يَشدُّه المكان وروحانيَّته، والنَّاس وبساطتها، والأحداث بتسارعها، ويحاول أن يضع لقارئيه لوحة تصويريَّة حقيقيَّة، ينقل لهم فيها مَرئيَّاته ورؤاه حول البشر والطَّبيعة والمدن بما فيها، نستطيع أن نقول إنَّه نَجَحَ في التَّصوير والنَّقل، لكنه أخفق في التَّحليل في أحيانٍ ونجح في أُخرى، وقد أوضحنا الكثير حول مرئياته تلك ولا داعي للتَّكرار.

هذه مَلامح عامَّة سريعة، لكنَّ الكتاب تطرَّق لموضوعات مُتعدِّدة، مثل الكَرم والسَّماحة والطِّيبة وسهولة التَّعامل والتَّرابط الأسري ومكانة الرُّجل المتميِّزة في المجتمع، كما تعرَّض إلى نُدرة التَّعليم وفُشُوِّ الجهل خاصَّة في المغرب ومِصر والحجاز، ويمكن التَّعرف إليها في العَرض المفصل لمحتويات الكتاب الخاص بالجزيرة العربيَّة الذي ترجمناه.

ـ **المرأة**: لم تجد هذه من صاحبنا قبولًا أو اهتمامًا يُوازي أو يقترب من اهتمامه بالرُّجل، وقد نجد له العُذر لأنها في ذلك الزمن كانت بعيدة عن كلِّ ما يجري خارج البيت، ومع ذلك فقد أفرد لها حيِّزًا لا بأس به في مدوَّناته. والانطباع الذي نخرج به أو نلحظه هو أنَّه يُبدي تخوُّفه من الارتباط بها، أو الاقتراب منها، لأنَّه حسب تعليله تفرَّغ للرُّوحانيَّات

(١) انظر على سبيل المثال ص ٥١ ـ ٢، ٩٩ من نفس **الرحلة**، ط. برشلونة.
(٢) **الرحلة**، ط. برشلونة، ص ٢٦٢.

وتَناسى متطلبّات الجسد في هذا الجانب، فهل كان يُعاني من مُشكلة جنسيَّة أو نفسيَّة تجاهها؟ أو دفعه إلى ذلك احترازات المهنة وأسرارها؟ فالجواسيس وذوي المهمَّات الخاصَّة يُدركون قبل غيرهم أنَّ العنصر النِّسائي يُشكِّل خطرًا في كشف حقيقتهم، ولذا فهم دائمو الحيطة والحذر منهنَّ؛ يبدو ذلك واضحًا في المغرب، وإن استمرَّ معه حذره في بقيَّة رحلته منها، لكنَّه خفَّف من غلوائه قليلًا، وتحدَّث عن المرأة الإسكندرانية والمكِّيَّة بشيء من التوسع[١].

في حديث الرَّحالة الأوربيِّين نجدهم يخصِّصون جزءًا من أحاديثهم عن المرأة في كلِّ أحوالها، لكن رحَّالتنا لا يمرُّ عليها إلا لمامًا، ولم يلفتْ نظره سوى المرأة اليهوديَّة المراكشيَّة التي أشاد بجمالها[٢] ربَّما لأنَّه رآها مكشوفة الوجه بعكس الأخريات اللاتي يُغطِّين وجوههن، وقد لا يكون هذا هو السَّبب الوحيد كما سنرى عندما نتحدَّث لاحقًا عن اليهود، وممَّا أثار فضوله في الإسكندريَّة أنَّ المرأة اليونانيَّة في قبرص وجزر اليونان وكذلك اليهوديَّة والنصرانيَّة في مِصر تلبس الحجاب كالمسلمة.

وعلى العُموم ليس باديا بمعزلٍ عمَّا يتردَّد كثيرًا في الغرب من مزاعم عن مُعاملة الإسلام للمرأة ونظرته إليها، وهو ما نَجدُ صدَاه فيما كتبه ـ لاحقًا ـ بمذكِّراته هذه، إذ يقول: «وممَّا تَجدرُ مُلاحظته أنَّه في جميع سفراتي مع المسلمين سواءً كانت بحريَّة أو بريَّة إلا وكان فيها نساء، حقيقةً أنَّ ما تمليه نُصوص الدِّين يتَّسم بالحذر والاحتراس، لأنَّه يَنظر إليهن كأشباح أو كصرَّة من الأثاث موضوعة فوق جَملٍ أو مَركونة في زاوية المنزل»[٣]. نظرته هذه واستنتاجاته هي التي صبغت أحكامه وتعامله

(١) نفسه، ص ٢٤٦.

(٢) نفسه، ص ١٢٢.

(٣) الرحلة ط. مدريد، ص٣٢٢، ٣٧٥.

مع المرأة فيما كتبه عنها خلال رحلته تلك، فهو أوربيُّ الهوَى والهويَّة في عقليَّته وثقافته ونظرته للشَّرق بما فيه المرأة المسلمة، وهذه الأحكام المتحاملة التي كان يُداريها يبدو أنَّها فلتت منه هنا بزلَّة لِسان، وهي التي تُعبِّر عمَّا يُكنُّه في داخله.

أمَّا المرأة في الجزيرة العربيَّة فقد سبق أن أشرنا إلى نظرته إليها، ونترك الحديث لنصِّه المترجم عنها.

ـ **اليَهُود**: في ثَنايا حديث صاحبنا الكثير من الإعجاب والإطراء عن أولئك اليهود الذين اتخذوا من البلاد الإسلاميَّة لهم ملجأً ومَلاذًا بعدما تعرَّضوا له من اضطهاد وضغوط في أوربَّا وملاحقة محاكم التَّفتيش لهم في إسبانيا، كما يَتباكى على وضعهم والقيود المفروضة عليها في المغرب خاصَّة، مُتناسيًا الوضع الاقتصادي المتميِّز الذي يتمتَّع به هؤلاء وصرَّح به في مرَّاكش مثلًا؛ أمَّا في طرابلس ومِصر فالوضع مُختلف سواء في المعاملة أو الحريَّة التي أعطيت إياهم في لباسهم وعباداتهم وتجارتهم حتى أصبحوا يمسكون بزمام التِّجارة مع أوربا.

قد لا نَستغرب على باديا هذا الاهتمام بشأن هذه الأقليَّة بصفة خاصَّة وتخصيصها بجزءٍ ممَّا كتبه، نظرًا لوضعها بكونها أقليَّة في المجتمعات التي تعيش فيها من ناحية، لكن لا نَستبعدُ أيضًا أن يكون رحَّالتنا نفسه يَمتُّ إليهم بصلة نَسب أو دين كما أشرنا من قبل في الحديث عن إسلامه.

ـ **الحُكَّام**: هذه الفئة التي بيدها مَقاليد الأمور، لها في مَقاييس علي باي نَظرة ناقدة وربَّما مُتحاملة أحيانًا، فمثلًا حينما يتحدَّث عن الشَّعب المغربي بأنَّه ليس لديه مُلكيَّة خاصَّة فالسُّلطان هو المالك الحقيقي لكلِّ شيء[1]، نراها مُبالغةً واضحةً لا يقلُّ عنها قوله: «أنَّ بالمغرب ألفي شَريف كلُّهم يعتقد أحقيَّته بالعَرش المغربي... كلٌّ منهم يحمل

(١) الرحلة ط. برشلونة، ص ١٣٥.

السِّلاح، كما لو أن المغرب ليس لديه جيش»[١]. لكن نظرته تتَّسم بشيء من الموضوعيَّة عندما يَعرِض لمصر وصراع حكَّامها على السُّلطة، وكان ضحيَّته الشَّعب المسكين الذي يئنُّ مُكبَّلًا بالحديد تحت تسلُّط حكومته واستبدادها[٢]، ومع كلِّ هذا وذاك فهو يُثني وبمناسبات مُتعدِّدة بمزايا السُّلطان سُليمان، وما يتمتَّع به الشَّاب محمَّد علي من مُواصفات الحاكم الفذِّ الذي أنقذَ البلد من مُعاناته مع حكوماته السابقة.

أمَّا في الحجاز فقد وضع لنا صُورة تتَّسم بالانتهازيَّة والجشَع للشَّريف غالب الذي يُمسك بمقاليد الأمور فيها، يتجلَّى ذلك واضحًا أثناء حديثه عن شخصيَّته أو عن التِّجارة في الفصل السَّابع، وكأنَّه يُرحِّب من طرفٍ خَفيٍّ بالحكم الجديد الذي حلَّ محلَّه في الحجاز، ممثَّلًا بالدَّولة السُّعوديَّة الأولى، فهل نأخذ الأمور على ظواهرها ونسلِّم بما ادَّعاه باديا من اعتسافه للتُّجَّار واحتكاره للتِّجارة؟ أم أنَّ الأمر لا يعدو أن يكون تَحاملًا ونَقدًا غير بَريء لرجل تعاون مع الانجليز وله ارتباطاته التِّجاريَّة معهم؟ ولعلَّ في تعليقاتنا على أحكامه تلك في الفصل المذكور ما يُعطي الباحث المتجرِّد الجواب الكافي من خلال مقارنة النُّصوص التي وردت في أكثر من مصدر.

الشَّيء الذي يَتباهى به علي باي أنَّه يجد التَّرحيب والاستقبال في كلِّ مكان يحلُّ به من قبل هؤلاء الحكَّام، وتُفتَح له الأبواب المغلقة، ويتبسَّط معه وُلاة الأمر في تلك البلاد التي زَارها لدرجة توسُّلهم له بالبقاء في بلادهم، ولسنا على يقين هل هذه حقيقة مُؤكَّدة أم أنَّ صاحبنا أراد أن يعطي لنفسه وضعًا مُتميِّزًا ومقدرةً فريدة في الوصول إلى أعلى سُلطة في البلد الذي يحلُّ فيه أمام رؤسائه وقرَّائه على السَّواء؟

---

(١) نفسه، ص ١٣٦.

(٢) نفسه، ص ٢٦٢.

ـ **الشَّخصيَّات الدِّينيَّة**: تتَّسم نظرته إلى القائمين على الأمور الدِّينيَّة بالقسوة أحيانًا مع أنَّه قد أحاط نفسه بعددٍ من المشايخ، وحرص أن يكون في استقباله ووداعه جمعٌ منهم، حتى إنَّ منزله لا يخلو من حُضورهم، كلُّ ذلك أضفى عليه هَالةً دينيَّة في البلاد التي يحلُّ فيها، يظهر هذا بوضوح في المغرب. ويحمل بشدَّة على الدَّروشة والدَّراويش، محمِّلًا الفقهاء نتيجة تقصيرهم وترك المجال لهؤلاء ليخدعوا النَّاس ويَتلاعبوا بمشاعرهم الدِّينيَّة[1]، يتكرَّر ذلك في عدَّة مواضع من الجزء المخصَّص للمغرب، أمَّا في طرابلس فلم يحدِّثنا عن ارتباط يُذكر أو علاقات مميَّزة مع مَشايخها، وإن أشار إلى أنَّ فيها قاضيين أحدهما للمذهب المالكي والآخر للحنفي بخلاف المغرب ذات المذهب الواحد.

أمَّا النَّقد اللاَّذع فقد وجَّهه لهؤلاء في القاهرة، الذين استغلُّوا نُفوذهم ومكانتهم المتميِّزة وعاشوا في نعيم على حساب الشَّعب الذي يُعاني من ضَنك العيش. فهل لهذا النَّقد ما يبرِّره، أم لأنَّ الشرارة الأولى التي أشعلت الأرض من تحت أقدام الفرنسيِّين في مصر خرجت من تحت عباءات الأزهريِّين؟[2]

وعلى العُمُوم هناك قَضَايا مُتعدِّدة تعرَّض لها هذا الرَّحالة تَستحقُّ منَّا الوقوف والتَّحليل، لكن ذلك لا يمكن الوفاء به في ظلِّ موضوع محدود

---

(١) نفسه، ص ٣٦ ـ ٧.

(٢) قد نجد ما يدعم هذا التول عند استعراض حوليَّات الجبرتي بالنسبة للدَّور المتزايد للمشايخ في هذا الظرف بالذَّات، لكن في المقابل علينا أن نتذكَّر أنَّ الفرنسيِّين قد أهانوا الأزهر وضيَّقوا على طلابه وأساتذته، ممَّا اضطرَّ القائمين عليه إلى إغلاقه سنة ١٨٠٠م/ ١٢١٥هـ عقب اغتيال قائد الحملة الفرنسيَّة كليبر على يد سُليمان الحلبي طالب الأزهر آنذاك، وظلَّ مُغلقًا حتى رحيل الفرنسيِّين. كما يمكن استعراض كتاب أندريه ريمون: **المصريون والفرنسيون في القاهرة**، ترجمة بشير السباعي، القاهرة ٢٠٠١م، وبالذات ص ص ٢٣٨، ٢٧١، ٣٠٢ ـ ٣٠٤.

بزمنٍ وحيِّز مُعيَّن من الورق، ومع ذلك فإنَّ بقيَّة هذه الرِّحلة جديرة بالدِّراسة والتَّرجمة، لما تطرَّقت إليه من موضوعات متعدِّدة تجعل منها مَصدرًا مُهِمًّا لا يستغني عنه أيُّ باحث في تاريخ هذه البلاد التي قصدتها الرِّحلة في تلك الحقبة التي تلفُّها الغموض.

سابعًا ـ الظُّروف السياسيَّة السَّائدة زمن الرِّحلة:

عندما وصل دومنجو باديا إلى شمال أفريقيَّة كان الصِّراع والأطماع الاستعماريَّة على أشدِّها، خاصَّة مع بداية الضَّعف والتَّمزق الذي أصبح سِمَةً للخلافة العثمانيَّة في هذه المرحلة، مع انفتاح شهيَّة الدُّول ذات النَّزعة الاستعماريَّة مثل إنجلترا وفرنسا وإسبانيا لالتهام البلاد العربيَّة المسلمة التي انتابها الضَّعف والتَّفكُّك.

ففي المغرب كان الصِّراع الدَّاخلي والتَّنافس على الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة العلويَّة هو السَّائد، يُصاحبه مُؤامرات ودسائس، وتحفُّز نحو الانقضاض على شماله من طرف جاره وعدوِّه اللَّدود إسبانيا، تمتدُّ هذه الأطماع والتَّطلعات حتى الجزائر وتونس، يُشاركها في ذلك فرنسا التي دفعها طموح قائدها وإمبراطورها نابليون إلى البحث عن موطئ قَدَم لها في أفريقية العربيَّة، وذلك بدوافع سياسيَّة أو اقتصاديَّة أو دينيَّة أو بها مجتمعة.

أما مِصر فقد كانت ميدانًا استعماريًّا من نوعٍ آخر، أصبحت بموجبه حلبة للصِّدام والصِّراع بين قوَّتين مُتنافستين هما فرنسا وإنجلترا، فقد وصلت قوَّات الجنرال الفرنسي نابليون بونابرت إلى الإسكندريَّة في الثَّامن والعشرين من يوليه سنة ١٧٩٨م الموافق للثَّالث عشر من مُحرَّم ١٢١٦هـ قاصدةً الاستيلاء على مِصر، وتأسيس قاعدة استعماريَّة لها في شمال أفريقية، ومع نجاحها الباهر في الاقتحام وتحقيق الهدف بالاستيلاء على

القاهرة، إلا أنَّ حُلم نابليون تحطَّم أمام تَزاوج المصالح العثمانيَّة والإنجليزيَّة التي سَعَت مُنذُ الوهلة الأولى لطرد القوَّات الفرنسيَّة الغازية، فبعد صِراع مرير شارك فيه الشَّعب المصري بكلِّ فئاته، نجح هؤلاء في إخراج الفرنسيِّين من مِصر في مُنتصف سنة ١٨٠١م/١٢١٦هـ، ومع مُحاولة الإنجليز استغلال الفرصة والبقاء في مِصر، إلا أنَّ جُهود الخلافة وبالتَّعاون هذه المرَّة مع الفرنسيِّين نجحت هي الأخرى في إخراجهم منها أيضًا، وخَلا الجوُّ للعثمانيِّين مُمثَّلين برجلهم القويِّ محمَّد علي باشا الذي سيطر على الأمور بعد صراعٍ دامٍ مع المماليك، وصفا له الحكم باسمهم في مِصر.

أمَّا **في الجزيرة العربيَّة** فقد تأسَّست الدَّولة السُّعوديَّة الأولى عندما التقى المصلح الشَّيخ محمَّد بن عبدالوهَّاب مع الأمير محمَّد بن سُعود سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م بالدِّرعيَّة وتمخَّض هذا اللِّقاء عن قيام الدَّولة، ومع أنَّ مرحلة التَّأسيس التي امتدَّت طيلة حُكم الأمير محمَّد بن سُعود لم تخرج عن نطاق التَّعريف بالدَّعوة وأهدافها وإخضاع المناطق المجاورة، إلا أنَّ أيامِ حُكم ابنه الإمام عبدالعزيز بن محمَّد بن سُعود اعتُبرت نقلةً نوعيَّةً في سَير الدَّعوة والدَّولة، فقد استطاع إخضاع مُعظم مُقاطعات نجد وتهامة وعسير ووصل إلى الحجاز وحدود العراق والخليج؛ بينما كان عهد ابنه الإمام سُعود الذي آلت إليه الأمور بعد اغتيال والده سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م مرحلة التَّمكين واستقرار الدَّولة التي أكَّدت حُكمها لنَجد في جميع مُقاطعاته وبسطت نُفوذها وسيادتها على الحجاز وعسير وأغلب مناطق الخليج.

أمَّا الحجاز فقد كان يَخضع لسُلطان المماليك في مِصر حتى استولى العثمانيُّون عليها بعد هزيمة هؤلاء سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م فأرسل شَريف مكَّة آنذاك بركات بن أبي نمي مفاتيح الكعبة مع ابنه دليلًا للخضوع والطَّاعة،

فشكره الخليفة العثماني وأقرَّه على إمارة الحجاز، وظلَّ هؤلاء يتداولون الحكم فيه حتى ظَهَرَت القوَّة الجديدة في وسط نجد، مَدعومة بدعوة إصلاحيَّة لها توجُّهاتها ومبادئها التي لا تحيد عنها، وكان من الطَّبيعي أن تدخل العلاقة بين الدَّولة السُّعودية وبين أشراف الحجاز في شدٍّ وجَذْب، ابتدأ عندما أوفد الإمام عبدالعزيز بن محمَّد بن سُعود مندوبه إلى الشَّريف أحمد بن سَعيد سنة ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م لشرح أهداف الدَّعوة ومبادئها التي تقوم على مذهب أهل السُّنة والجماعة، وتدعو إلى مُحاربة البدع والخرافات ونبذ التَّبرك بالقبور والصَّالحين، ومع القبول الذي أبداه الشَّريف أحمد إلا أنَّ خَلَفه الشَّريف مَسعود قد اتَّخذ خطًّا أكثر تشدُّدًا عندما أودع الوفد الذي أرسله الزَّعيم السُّعودي لمناظرة عُلماء مكَّة حول بعض القضايا الدينيَّة في السِّجن، كما أمر قاضي مكَّة بإصدار فَتْوى تُكفِّر الدَّعوة وأصحابها، ممَّا يعني تأزُّم العلاقات ودخولها مرحلةً جديدةً من الصِّراع السِّياسي والعسكري، ابتدأت بمنع الحجَّاج النَّجديِّين إلا بعد أن يدفعوا الضَّرائب والمكُوس، وتطوَّرت في عهد الشَّريف غالب بن مساعد إلى إعداد حملةٍ عسكريَّة سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م قَصَد بها الدِّرعيَّة عاصمة الدَّولة الوليدة، مُفتتحًا مرحلةً من الصِّراع والنِّزاع، كانت نهايته خُضوع الحجاز لسُلطة آل سُعود.

ومع فشل هذه الحملة في تحقيق أهدافها إلا أنها آذنت للإمام عبدالعزيز بن محمَّد بالبدء في ضم الحجاز إلى الدولة السعودية، فأعدَّ حملةً كبيرةً انطلقت حتى وصلت إلى تُخوم الحجاز كجَسِّ نبضٍ واختبارٍ لمدى القدرة العسكريَّة للأشراف، وظلَّت المعارك والمناوشات سِجالًا بين الطَّرفين، حتى رأى الشَّريف غالب بن مساعد أن يعقد الصُّلح ويَجنح للمسالمة خاصَّة مع يأسه من وصول مَدَد عسكري عثماني سواء من مِصر أو من الآستانة، كما أنَّ أغلب عمليَّاته العسكريَّة مُنيت بالفشل أمام حماس القوَّة الجديدة وإصرارها على المقاومة بل والهجوم؛ وبعد

اتِّصالات ومُداولات جرَت بين الشَّريف وبين ابن سُعود، تمَّ الاتِّفاق سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م على إنهاء حالة الحرب والجنوح إلى الصُّلح والسَّلام على شَرطِ السَّماح بالحجِّ لوفود نجد، وعملًا بمُقتضى هذا الاتِّفاق فقد دخل الإمام عبدالعزيز بن محمَّد مكَّة المكرَّمة حَاجًّا يُرافقه موكب ضخم، عاد بعده إلى بلاده.

لكنَّ الأمور لم تستمر على حالها، فقد عادت إلى التَّأزُّم والصِّراع الذي انتهى بالصُّلح مرَّة أخرى، بعدها دخل الأمير سُعود مكَّة المكرَّمة مُحْرِمًا سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م فأدَّى فريضة الحجِّ، وأعطى الأمان لأهل مكَّة الذين أصبحوا تحت رحمة الإمام سُعود وجنوده بعد هرب الشَّريف غالب وتحصُّنه في جدَّة، كما هَدَم القباب والأضرحة عملًا بما تقضيه مبادئ الدَّعوة التي يحمل لواءها. على أنَّ الشَّريف غالب لم يتأخَّر كثيرًا في طلب الصَّفح والخضوع للطَّاعة، فاستجاب له الأمير سُعود وأقرَّه على ولايته[1].

ثامنًا ـ الجزيرة العربيَّة في ميزان قُوى الصِّراع والنُّفوذ:

عندما نتطرَّق إلى هذا الموضوع فإنَّنا نفتحُ ملفَّ العلاقات الواسع بين أقطاب الصِّراع آنذاك في بداية القرن التاسع عشر الميلادي وبين الجزيرة العربيَّة، لكن يَهمُّنا ما يلقي الضَّوء على الأهداف المحتملة للرِّحلة التي نحن بصدد الحديث عنها، فالإنجليز بعلاقاتهم المتشابكة ومصالحهم المتجذِّرة في المنطقة، وجدوا من يزيح الكثير ممَّا غَمض من أطماعهم،

(١) عن هذه المرحلة وما دار فيها من أحداث، انظر: ابن بشر: عثمان بن عبدالله؛ **عنوان المجد في تاريخ نجد**، ج١ ط. دارة الملك عبدالعزيز الرياض ١٩٨٢م. إسماعيل حقي جارشلي: **أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني**، بيروت ٢٠٠٣م. أمين سعيد: **تاريخ الدولة السعودية**. ط. دارة الملك عبدالعزيز. الرياض؛ ج.ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السعودية**؛ جيرالد دو غوري: حكَّام مكَّة.

فظهرت دراسات وبحوث تدرس علاقتهم بالمنطقة، لكنَّ الفرنسيِّين لم يجدوا الاهتمام الكافي، ولذا سينصبُّ جهدنا في تحديد ملامح هذه العلاقة.

لقد كان وصول نابليون بونابرت إلى حُكم فرنسا دافعًا قويًّا لتطلُّعاتها البعيدة المدى ودخولها مُنافسًا قويًّا ولدودًا للإنجليز في المنطقة العربيَّة، ونقصد ما عُرف أخيرًا بمنطقة الشَّرق الأوسط في ظلٍّ أفول شمس الخلافة العثمانيَّة، وقد تَوَّجت مُخطَّطها هذا باستيلائها على مِصر لمدٍّ نفوذها على كامل المنطقة التي شهدت تنافسًا محمومًا بين القوَّتين العظميين آنذاك وهما فرنسا وإنجلترا، فالفرنسيُّون بدؤوا في التَّخطيط لتوجيه ضربة حاسمة للإنجليز تقضي على مصالحهم في الشَّرق الأدنى والهند من خلال هزيمتهم في مِصر وقطع طريق البحر الأحمر الحيوي عليهم، ولعلَّ التفكير الفرنسي كان يهدف إلى أبعد من ذلك فتحطيم إنجلترا من خلال الاستيلاء على مِصر حسبما صرَّح به نابليون[١]، ليست هي النِّهاية بل هي البداية، وندعُ أحد مهندسي هذا الهجوم وقنصل فرنسا في مِصر يشرح لنا ذلك من خلال الوثيقة التي بعث بها لهذا الغرض، يقول ماجلون[٢] Magailon في رسالته لحكومته: «*إذا أصبحنا سَادة البحر الأحمر فإننا نستطيع أن نهدِّد*

(١) انظر: HOSKINS, **European Imperialism in Africa**, 1930, p. 22. نقلًا عن: شوقي عطا الله الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر**، ص ٢٠؛ كما أنَّ المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي تناول هذا الموضوع في ثنايا كتابه وبصفحات متعددة ومتفرقة. انظر: **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، ٣ج ط. دار الجيل بلبنان، بيروت. وانظر الفصل الذي عقده هنري لورنس بعنوان: «الانحدار العثماني والتدخل الأوربي» في كتابه: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر**. ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٩م، ص١٦٧ ـ ١٧٩.

(٢) كان أحد التجار الفرنسيِّين في مصر منذ سنة ١٧٧٧م وانتهى الأمر باختياره قنصلًا لفرنسا في القاهرة سنة ١٧٩٣م. انظر: الجمل: **سياسة مصر**، ص٢٠.

مصالح البريطانيِّين وأن نطردهم من الهند، فعن طريق السُّويس خلال الفترة المناسبة من العام يمكن إرسال عدد من القُوَّات للهند على عدد قليل من البواخر، ولا يحتاج جنودنا في ذلك الطَّريق لأن يبقوا في البحر لأكثر من ستِّين يومًا بدلًا عن طريق رأس الرَّجاء الصَّالح الذي يَستغرق ستَّة أشهر، وعن طريق السُّويس لن نكون معرَّضين لخسارة أكثر من ١٪ من رجالنا، بينما خسائرنا في الطَّريق الآخر لن تقلَّ عن ١٠٪ بأيِّ حالٍ من الأحوال»(١). إذنْ الفرنسيُّون قادمون ويريدون وضعًا مُستقرًا من خلال صداقةٍ مستقرَّة مع القُوى السِّياسيَّة الفاعلة والمطلَّة على البحر الأحمر في المنطقة، ولذا نجد نابليون حالما دخل إلى مِصر شرع في فتح قنوات حوارٍ وصداقة مع إحداها وهم الأشراف في مكَّة المكرَّمة، يتجلَّى ذلك واضحًا من خلال تلك المراسلات المتبادلة بينه وبين الشَّريف غالب بن مساعد يُطمئنه في إحداها على وضع حركة الحجيج وما تُقدِّمه مِصر للحجاز من مِنَح وهبات ورَيْع الأوقاف الخاصَّة بالحرمين، وأنَّه لن يطرأ عليها أيُّ تغيير(٢). لكن يبدو أنَّ الشَّريف يُدرك جيِّدًا أن وضعه مع الإنجليز أكثر ضمانًا على الأقلِّ لمراكبه التجاريَّة التي تعتمد على الهند في تجارتها، ولذا فقد وقف مع الإنجليز ضمنًا بدليل دعمه وتأييده للمقاومة الشعبيَّة التي تمثَّلت في حركة الشَّيخ الجيلاني قريب الصِّلة بالتَّاجر الذي سيرد اسمه في مدوَّنات باديا، هذا الشَّيخ كان يدعو للجهاد ضدَّ الفرنسيِّين عندما دخلوا مصر، فلبَّى نداءه الكثيرون، وتبرَّع له آخرون بالمال، وركبوا من جدَّة على مراكب صغيرة تحت سمع وبصر الحكومة التي لم تشارك

---

(١) انظر: CharlesRoux, L, Angleterre, I, sthme de Sucz et I, Egypte au 19e siecle, 1922, p 94. نقلا عن: شوقي عطا الله الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر**، ص٢٠.

(٢) محمد زكريا عناني: «مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد ونابليون» مجلَّة الدَّارة، عدد ٤، السنة الحادية والعشرون، ص٧.

رسميًا إلا أنها أيّدت من طرف خفي، وقد أبلى هؤلاء بلاءً حسنًا في القتال[١]. ليس هذا وحده فلو رجعنا إلى مُقابلة الشَّريف غالب لباديا عندما كان في مكَّة المكرَّمة[٢] ثمَّ مطالبته له فيما بعد بتحرير خطاب لنابليون لحلِّ مشكلة مراكبه المحتجزة من قبل الفرنسيِّين، لوجدنا أنَّ حجم المشكلة وتفاقمها مع الفرنسيِّين أكبر ممَّا نتصوَّر، وأنَّ علاقته بهم نَحَت مَنحى آخر يصبُّ في صالح الإنجليز، وهذا ما يُؤكِّده باديا نفسه حينما يقول في الفصل الثامن: «*يُنظر للإنجليز باعتبارهم أصدقاء مُخلصين للشَّريف بسبب الدَّعم المباشر الذي يحصل عليه من خلال التِّجارة مع الهند*»، من جانب آخر ومن مُعطيات المقابلة وإقحام باديا في مُشكلة الشَّريف الخاصَّة مع الفرنسيِّين فيما بعد، يَظهر لنا بأنَّ ارتباط باديا بالفرنسيِّين معروف ومكشوف لدى الشَّريف على الرغم من محاولته التَّهرُّب ونَفِي هذا الارتباط. ومحاولة من باديا للفصل بين موقف السُّلطة الرسميَّة وبين المجتمع المدني في الحجاز، نجده ينقل لنا إعجاب سكَّان جدَّة بالفرنسيِّين الذي يعزوه إلى حسن تصرُّفهم في مِصر، وكأنَّه يقول إنَّ هؤلاء هم الرَّصيد الباقي.

أمَّا الطَّرف الأهمّ في تشكيلة القوى المؤثِّرة في المنطقة التي اتَّجهت لها اهتمامات باديا في رحلته هذه فهي القوَّة الناشئة التي تُبشِّر بداياتها بمستقبلٍ واعد، هؤلاء أصبحوا محطَّ اهتمام الجميع بمن فيهم فرنسا، لدرجة دفعت جاكلين بيرن إلى القول: «*اعتقدَ البعض أنَّ علي بك كان في الحقيقة جاسوسًا إسبانيًّا لنابليون، ومن المحتمل أن يكون الإمبراطور قد رغب في أن يعلم شيئًا عن موقف مُسلمي الشَّرق الأدنى من الحركة الوهَّابية، وأن يكون قد فكَّر في استغلال هذه الحركة الجديدة لتحقيق*

---

(١) بوركهارت: رحلات، ص١٩٣.

(٢) انظر الفصل الثاني وكذلك الفصل الثامن عندما طلب منه تحرير خطاب لنابليون لحلِّ مشكلة مراكبه المحتجزة من قبل الفرنسيين.

مخطَّطاته في الشرق»[١]. ولعلَّ في هذا شيئًا من الصِّحَّة، فكسب هذه القوَّة الجديدة الفاعلة أو على الأقل تحييدها هو نجاح كبير للسياسة الفرنسيَّة؛ فمع أنَّ هذه الرحلة جاءت في أعقاب الفشل العسكري للحملة الفرنسيَّة على مصر، إلا أنَّ الآمال الفرنسيَّة ما زالت معلَّقة في المنطقة، وهزيمة معركة لا تعني خسارة الحرب في عُرف العسكريِّين من أمثال نابليون، ولذا نَلحظ في تقارير باديا التي حملتها مذكِّراته الدِّقة والشُّمول حول هذه الدَّولة الفتيَّة والقائمين عليها ومبادئها وطموحاتها، وحاول جاهدًا أن يصل إلى قائد حملتها ورئيس بعثتها إلى الحجِّ في هذه السَّنة التي كان فيها باديا ونقصد به الإمام سُعود، واقترب منه كثيرًا على الرغم من التَّحذيرات التي يُصدرها أصحابه، وكاد يلتقيه لولا خوفه من العواقب، فعيُون الشَّريف تُلاحقه وتَرمقه في كلِّ مكان يحلُّ به. «لقد وجدتُ الطَّريق للوصول إلى السُّلطان سُعُود مُيسَّرة سهلة كما تمنَّيتُ، وذلك للتَّعرف إليه بشكل أدقّ، لكنَّ ذلك سيُحرجُني أمام السُّلطان الشَّريف الذي لم يترك لي أيّة حركة ولو عفويّة إلا وعدَّها ذات بُعدٍ سياسيّ، هذا الاعتبار جعلني أتخلّى عن تحقيق هذا الهدف»[٢].

---

(١) اكتشاف جزيرة العرب، ص ١٨٥.

(٢) انظر الفصل الثالث، ص ١٧٢.

الجزء الرابع

الجزيرة العربية

نصّ الرّحلة مترجمًا
كما ورد في الجزء الرابع
من مذكّرات باديا

الفَصلُ الأوَّلُ

الطّريق إلى مكّة المكرمة

- الرِّحلة من القَاهرة إلى السُّويس
- سُفُن عربيَّة
- عُبور البَحر الأحمر
- مَخاطر السَّفر
- الوصول إلى جدَّة
- قضيَّة مع الحاكم
- مَدينة جدَّة.

مع انتهاء شَهر رَمضان في الحادي عشر من ديسمبر سنة ١٨٠٦م، أجريتُ الاستعدادات اللازمة لرحلتي إلى مكّة، فكتبتَ بعض أصدقائي إلى من لهم علاقة بهم سواء في السُّويس أو في جدَّة ومكَّة، لكي يُهيّئوا لي سَكنًا ويُؤمِّنوا لي الحماية في جميع الأماكن التي سَأزُورها[١].

خَرجتُ من القَاهرة في يوم الاثنين للخامس عشر من ديسمبر سنة ١٨٠٦م (الموافق للخامس من شوال ١٢٢١هـ) مَصحوبًا بكثير من الوجهاء.

وعلى مَسافة قصيرة من المدينة ودَّعتُ أولئك الأصدقاء الطيِّبين، ولم أُرد أن يسيروا أكثر في الصَّحراء، وبعد ساعتين أو ثلاث توقَّفتُ في عين شمس التي تقع على بعد نحو نصف فرسخ[٢] شمال المطرية[٣]، وقد

(١) يورد النَّاشر هنا ملحوظة مُفادها أنَّ الرَّحالة قد أضاع أوراقه الخاصة بالرِّحلة من القاهرة إلى جدَّة، ولذا فقد اضطرّ علي باي أن يُكمل ما نَقص من تلك الملحوظات المتفرقة التي بقيت مع الأرصاد الفلكيَّة. (**الرحلة**، ط. بلنسية، الفصل الثالث عشر، ص٢١٩).

(٢) أحد مقاييس الطول التي يُقدَّر الواحد منها بثلاثة أميال، أو ٥٥٧٢م في إسبانيا. انظر:
.F. CORRIENTE, Nuevo Diccionario Espanol-Arabe, Madrid, 1988. letra (L)

(٣) إحدى قرى القاهرة المشهورة. تتميز بشجر البلسان الذي يستخرج منه زيت خاص، وبها بئر له مزية خاصة. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ط. إحياء التراث العربي بيروت، ٥/١٤٩.

مكثتُ فيها يومين داخل خَيمتي انتظارًا لاجتماع القافلة الكبرى. وأثناء ذلك زارني بعض أصدقائي من القاهرة، من نَصارى ومُسلمين، ومن بينهم القنصل الأوّل لفرنسا(١) الذي حضر في موكب كبير مصحوبًا بخمسة من المماليك من المرتدّين الفرنسيين(٢) الذين يعملون في خدمة محمّد علي.

وقد سألتُ هؤلاء عن وضعهم، وعلمتُ أنّهم بعد أن تركوا الجيش الفرنسي استقرّوا مع عوائلهم بمصر في حالة جيّدة ولبسوا العمامة، ويتقاضى كلّ واحد منهم ما مقداره دورو إسباني(٣) يوميًا، وهم يقومون في أحيانٍ كثيرة بمهمّات بالقرى لجباية الضرائب ولأشياء أخرى، وهو ما يدرّ عليهم أموالًا كثيرة، كما أنّهم يسافرون على جياد جيّدة ومجهّزة تجهيزًا حسنًا.

وفي يوم الخميس الثامن عشر من ديسمبر (الثامن من شوال) وعند منتصف النهار أعطيتُ الإشارة للانطلاق، وظهرت في الحال من جميع جوانب الأفق أرتال طويلة من الإبل وهي تخرج من أماكن تجمّعها لتنضم

---

(١) أورد الجبرتي في حولياته خاصّة هذه السَّنة المُشار إليها ذِكر القنصل الفرنسي هذا، لكن دون أن يسميه، وكان هذا القنصل قد حضر إلى القاهرة للاستعداد للرَّحيل إلى الشَّام نظرًا لهجوم الإنجليز على مصر من ناحية الإسكندرية. **تاريخ عجائب الآثار**، ٣/ ١٧٨.

(٢) ويقصد كما هو واضح المهتدين إلى الإسلام.

(٣) المؤلف هنا يقارن الأسعار بعملة بلده إسبانيا، لكنه من ناحية أخرى يؤكّد وجود هذه العملة التي لم نجد لها ذكرًا في مصادر أخرى كما هو واضح هنا وفي مواضع قادمة (طالع ما كتبناه حول العملة في موضع حديث باديا عنها فيما بعد)؛ والدّورو الإسباني اسم لعملة إسبانيّة قديمة سادت منذ القرن السادس عشر وحتى التّاسع عشر الميلادي، لكنه ابتداءً من سنة ١٨٦٩م أصبح اصطلاحًا متعارفًا عليه لدى الإسبان لقطعة من فئة الخمس بيزتّات التي هي عملة إسبانيا. التي أُلغيت مع دخول إسبانيا السوق الأوربية المشتركة وتوحيد العملة بين دوله بـ «اليورو». انظر: Diccionario enciclopedico, LAROUSSE, ed. Planeta, Barcelona, Espana, 1984, t. 5, p. 788.

إلى القافلة الكبيرة التي لم تلبث أن انطلقت تِجاه الشرق عبر الصَّحراء[1].
ولم يكن لديّ غير أربعة عشر جملًا وحصانان، وذلك لأنّي تركتُ في مصر كل حاجيّاتي وبعض من خدمي؛ وكانت القافلة تضمّ خمسة آلاف جملٍ ومئتي أو ثلاث مئة حصان.

وقد كان هناك أُناس من كلّ أمم المسلمين قاصدين مكّة لأداء فريضة الحج.

وكانت الإبل تسير في أرتال وبخطوات متساوية ومنتظمة كدقّات السَّاعة، وقد خيّمنا بعد مضيّ جزء من الليل في وسط الصحراء.

١٩ ديسمبر:

ولمّا كانت القافلة تسير ببطء شديد، ودائمًا بالاتّجاه نفسه، فكنتُ أسير في مقدّم الركب برفقة اثنين من خدمي، كانوا يضعون لي سجّادة صغيرة ووسادة على جانب الطريق، وكنتُ أجلس أكثر من ثلاثة أرباع الساعة إلى أن تمرّ القافلة بأكملها، ثمّ أُعاود ركوب الحصان لأصل إلى المقدّمة من جديد، وهكذا كنتُ أكرّر هذه العملية ثلاث أو أربع مرّات، وهو ما جعل الطريق عليّ غير مملٍّ أو ثقيل.

هذه الصَّحراء تتشكّل بمجملها من تلالٍ صغيرة ذات رمال متحرّكة، دون ما يدلّ على وجود نبات أو حيوان، كما لا يُرى فيها حشرة ولا طير. ومن بعيد وعلى اليمين يُشاهد جزء من جبل المقطّم الواقع في القاهرة، ويمتدّ حتّى مناطق قريبة من السويس.

---

(١) تعجّل باديا ومن رافقه السَّفر وخرجوا قبل سفر الحملة الرسمية التي غادرت في الثاني من ذي القعدة تحمل معها كسوة الكعبة والمحمل وأمراء الحملة المصرية. انظر: **تاريخ عجائب الآثار**، ٣/ ١٤٠. وكانت قبل ذلك محددًا لها موعد للسفر إلى مكّة ١٨ شوال والعودة ٢٠ محرم. انظر: سيد عبدالمجيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، ص٨٩.

• ٢٠ ديسمبر:

انطلقنا في الصّباح الباكر، ولمّا بلغنا ربوة من الأرض رأيتُ مدينة السُّويس على مسافة بعيدة، عند ذلك انطلق جميع الخيّالة وكذلك العرب المسلّحون الذين يمتطون ظهور الجمال ذوات السنام والسنامين إلى مقدّمة القافلة وتابعوا مسيرتهم على هذا النحو.

بعد ذلك بقليل شاهدنا خروج كتيبة من الجنود تمتطي الخيول من مدينة السويس كانوا يتّجهون نحونا، وتهيأنا للدفاع عن أنفسنا عندما اكتشفنا أنّهم من الجند الأرناؤوط (الألبان) وأُناس من سكّان السويس خرجوا للقائنا، فزال الخوف وحلّ محلّه السرور، ومع التقاء المجموعتين بدأت مظاهر الفرح.

كنّا نسير أثناء الطريق بالنظام نفسه على ممرّ طويل، بينما راح بعض العرب وهم يتحرّكون يمينًا ويسارًا يتبارون ويتسلّون بالجري، وهم يطلقون النّار من بنادقهم بمحاذاة طريق مسيرنا، حتّى إنّنا كنّا نسمع صفير الطلقات أمامنا وقريبًا جدًّا منّا، وهو ما كان يبعث المتعة كثيرًا في القافلة كلّها.

إنّه انطباع مدهش حقًّا رؤية أولئك العرب وهم يخرجون من الصَّف وينطلقون بسرعة على أحْصنتهم أو جمالهم ضامّين الرِّماح إلى صدورهم أو موجّهين إيّاها إلى الأمام في اتّجاه موازٍ للصفّ أو قريب جدًّا منه، حتّى إنّ طرف الرُّمح كان يمرّ على بُعد أقلّ من خمسة أصابع[١] من خيولنا؛ وتصوّر أيّة نوع من الحركة كان يتوجّب عليهم القيام بها وهم على ظهور خيولهم نحو مبارزيهم لكي لا يُلامسوا الصَّف! ومع كلّ ذلك لم يكن هذا عائقًا إياهم عن مواصلة السير ومجاراة الرّكب، وكان ضروريًا أن يكون جريها مائلًا وسريعًا كالصاعقة؛ ما أروع الخيل العربيّة!

---

(١) مقياس طول يعادل ١٨مم.

وأخيرًا، وفي حدود منتصف النهار وبين دويّ الطّلقات وصرخات الفرح دخلت القافلة السويس حيث أنزلوني في بيت معدّ سلفًا.

السويس مدينة صغيرة في طريقها للاندثار، ويوجد فيها ما يقرب من خمس مئة مسلم وثلاثين نصرانيًّا. وبسبب موقعها عند طرف البحر الأحمر فإنّها مفتاح مصر السفلى من تلك الناحية، خصوصًا وأنّه لا وجود لمركز دعم آخر وسط تلك الصحراء.

وميناؤها سيئ جدًّا، وسفن البحر الأحمر التي تسمّى داو[(١)] daos، لا تستطيع الدخول فيه ما لم يكن ذلك في حالة المدّ العالي، وبعد أن تفرّغ حمولتها، وميناء السويس الحقيقي يقع على بعد نصف فرسخ نحو الجنوب على الساحل الأفريقي، وهو قابل للإبحار من قبل الفرقاطات[(٢)] الكبيرة. ويبلغ عرض البحر الأحمر أمام السويس ميلين عرضًا وقت المدّ البحري، أمّا في حالة الجزر فتنخفض تلك إلى ثلث هذه المسافة؛ وفي هذا المرفأ هناك رصيف مغطّى كلّه تقريبًا بالأصداف، وهو مناسب جدًّا لرسوّ البواخر.

وشوارع المدينة منتظمة، لكنها ليست مرصوفة بل أرضيتها رملية، أمّا فيما يتعلق بالبيوت فإنّ الجزء الأكبر منها يتساقط كما هو حال المساجد.

---

(١) مع أنه سيعطي تفاصيل عنها إلا أنه يجدر بنا أن نتوقف عند وسيلة النقل البحري هذه، يقول هانس كندرمان عنها: «*داو أو داوه وجمعها داوات، يرجع اشتقاقيا إلى الفارسية... تستخدم للحمولات في سواحل الجزيرة العربية الجنوبية والخليج العربي والبحار الهندية، وكانت تستخدم في الأغراض الحربية والقرصنة*». كما أنها ذات أكبر قعر بين السفن الشراعية. انظر: **مصطلح السفينة عند العرب**، ترجمة: نجم عبدالله مصطفى، أبو ظبي ٢٠٠٢م، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢) Fragata ويُعنى بها حسب المصطلح الإسباني البوارج الحربية الكبيرة. ومع أن الكلمة ورد ذكرها حسبما يقول هانس كندرمان في بلاد شمال أفريقية الناطقة بالعربية، إلا أن اللفظة منحدرة من اللاتينية aphractum وتعني السفينة من دون غطاء. **مصطلح السفينة**، ص ٢٠٠.

وجوّ البلد متقلّب، والسُّوق الشَّعبي مزوّد جيّدًا ببعض المواد، وتصل معظم المؤن بحرًا من جانبي الساحل في الجزيرة العربيّة وأفريقية. ويزوّد وادي الطُّور وجبل الطور أو جبل سيناء[١] السويس بالفاكهة الجيّدة والبقول، ويُعمل الخبز هناك على شكل كعكة سيئة العجن، واللحم نادر وعادة ما ينعدم وجوده، والسمك كذلك قليل.

إنّ التقاء القوافل والمراكب البحرية فيها تحرّك كمّيات كبيرة من الأموال، وهو زاد متواصل من النشاط للسكّان الذين هم في مجموعهم وبلا استثناء من التجّار والكسبة والعتّالين.

ليس في المدينة ماء، لذلك فهم يجلبونه من مكان بعيد، فبئر السويس ذو الماء المالح يقع على بعد خمسة أرباع الفرسخ على طريق القاهرة، أمّا عيون موسى[٢] ذات الماء النتن فهي أبعد من ذلك بكثير على ساحل الجزيرة العربيّة، والماء الوحيد الجيّد هو الذي يأتي من الجبال الشرقية، ولكنّه غالي الثمن وقليل جدًّا، حتّى إنّه في كثير من الأحيان يستدعي الحصول على قربة منه شجارًا وعراكًا. أمّا قحط تلك الرمّال التي تحيط بالسويس فهي من الشدّة بحيث لا ترى فيها أثرًا للحياة.

النَّصارى، وهم جميعًا من المذهب الإغريقي[٣]، لهم في السُّويس كنيستهم ورئيس ديني «بابا» خاص بهم.

ويُحيط بالمدينة سُور رديء، وبعض الخنادق وأبنية حربية أخرى بناها

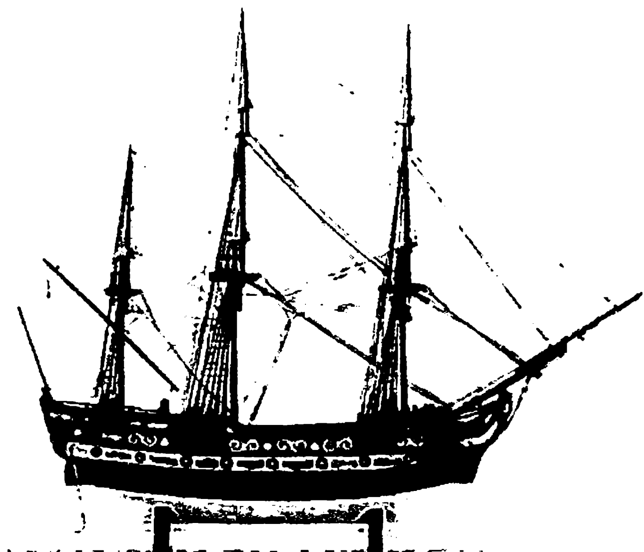
---

(١) هو اسم لجبل وواد وهو من توابع مصر، وقد فصل الحديث عنها ياقوت الحموي في: **معجم البلدان**، ٤/٤٧ ـ ٤٨.

(٢) تقع على الضفة الشرقية لخليج السويس، وهي منطقة زراعية، انظر: إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ٢/٦. سيد بكر: **الملامح الجغرافية**، ص١٠٩.

(٣) والمقصود: المذهب الأرثوذكسي.

الفرنسيّون، لكن ذلك جميعه لا يحظى إلا بحماية مدفعين أو ثلاثة مدافع صغيرة من ذوات الماسورتين.

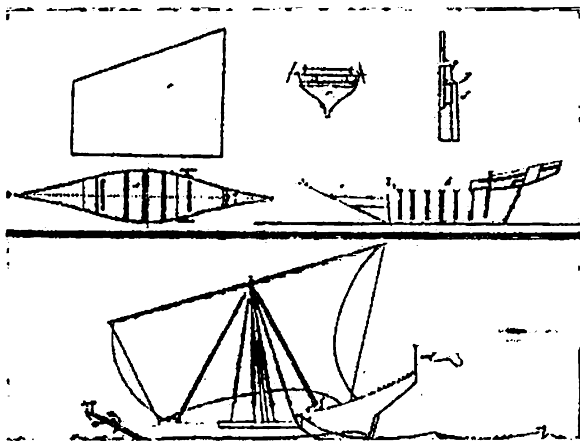


نموذج لإحدى الفرقاطات الحربيّة التي صنعت في القرن الثامن عشر كانت تجوب البحر الأحمر

كان حاكم السُّويس في ذلك الوقت رجل أسود من عبيد أحد رجالات القاهرة، يحمل لقب «الآغا»، ويأتمر بأمره ثلاثون جنديًّا من الأرناؤوط (الألبان)، أمّا نائبه فهو في الوقت نفسه قاضي المدينة، وجميع هؤلاء الجنود ورؤساؤهم يكسبون أموالًا طائلة عن طريق التّهريب الذي

يمارسونه عادة. ولا تحتوي السويس على صُنّاع غير بُناة المراكب.

لم أمكث هناك غير يومين، ففي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٠٦م (٢٣ شوال ١٢٢١هـ) صعدتُ في مركب «داو» للعبور إلى جدَّة عن طريق البحر الأحمر.



١ ـ أجزاء المركب، ظهر المركب، مقطع عرضي له وآخر طولي.

٢ ـ الدّاو: المركب الذي يستخدمه العرب في البحر الأحمر.

قياسات المركب الذي أبحرتُ فيه:

بالأقدام الباريسيّة	الأجزاء
طول القاعدة	٤٣
امتداد المؤخّرة	١٦
امتداد المقدّمة	٣٢
أكبر أطوال جسم السفينة	٢١
ارتفاع البدن	١٦
الصاري من قاع المركب	٦٠
قائم الشراع	٨٠
متوسّط عرض غرفة القيادة	١٤
طولها	١٤
ارتفاعها	٥,٥

والداو dao هي مراكب عربيّة ذات حمولة أكبر، تُبحر في ذلك البحر، وبناؤها فريد، وارتفاعها مساوٍ أو أكبر من ثلث طول بدن السفينة، ويزداد هذا الطول في الجزء العلوي بواسطة امتداد طويل في المقدّمة وامتداد آخر في المؤخّرة، كما هو حال سفن طروادة القديمة.

حبال هذه السُّفن مصنوعة من ليف النَّخيل، وأشرعتها من قُطن خشن جدًّا، وتحمل ثلاثة أشرعة احتياطيّة ذات أحجام مختلفة، وشراعين مثلّثين صغيرين، لكن لا يُرفع أبدًا من هذه الأشرعة غير واحد صغير أو كبير بحسب الحاجة. والمركب الذي ركبتُ فيه لم يكن يحمل غير الفضّة المسكوكة المعبّأة في أكياس مختومة من قبل تجّار السُّويس أو القاهرة ومرسلة إلى وكلائهم في جدَّة. وقد استأجرتُ غرفة لي وحدي، أمّا

خدمي فقد كانوا على ظهر المركب، حيث يُوجد كذلك أكثر من خمسين حاجًا؛ كان القُبطان من مُخا[١]، وكان البحّارة الخمسة عشر الذين يُشكلون طاقم القيادة، نحيفين وسودًا كالقرود، وبعد رُسوٌ استمرّ ثلاثة أيّام نُشر الشّراع في يوم الجمعة السادس والعشرين[٢] عصرًا.

السبت ٢٧ ديسمبر:

بعد أن أبحرنا طوال الليل وطيلة يوم السَّابع والعشرين ألقى المركب بمرساته في السَّاعة الرابعة عصرًا في أحد الموانئ على شاطئ الجزيرة العربيّة يُطلق عليه «حمّام فرعون[٣]»، كانت درجة الطُّول في ذلك المكان بحسب أرصادي هو: ٣٠° ٤٣َ ٢٥ً شرقًا من مرصد باريس، عند طرف رأس المرحى Almarhha، حيث يقع.

الأحد ٢٨ ديسمبر:

عند حلول الليل ألقينا بالمرسى على مسافة قريبة من مدينة الطُّور[٤] في ساحل الجزيرة العربيّة.

---

(١) مدينة مخا أو المخا أو موزا، أسماء تطلق على ميناء له شهرته قديمًا في اليمن على ساحل البحر الأحمر، تبعد عن تعز ١١٨ كم، قامت بدور فاعل في تصدير منتجات اليمن الزراعية. انظر لمزيد من الاستزادة لـ: أحمد حسين شرف الدين: **اليمن عبر التاريخ**، الرياض ١٩٨٠م، ص ص ٢٦(١)، ١٤٩.

(٢) ورد في الطبعات الثلاث خطأ السادس عشر والصحيح هو ما أثبتناه.

(٣) أشار إبراهيم رفعت إلى موقع يُطلق عليه «حمّام موسى» شمال مدينة الطور. **مرآة الحرمين**، ٢/ ٢٣٧. لكن حمّام فرعون لم أستطع التحقّق منه فيما توافر لي من مصادر.

(٤) قال عنها ياقوت بأنها كانت موثقة الأرجاء محكمة البناء، وأن الملك المعظم ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب قد بنى بها قلعة حصينة، حتى كان مجيء الصليبيين فخربها حتى لا يستفيدوا منها. **معجم البلدان**، ٤/ ٤٧؛ وفصّل إبراهيم رفعت عنها الحديث، فهي مدينة خُطّت منذ آلاف السنين على ساحل خليج السويس، وعلى بُعد ثلاثين ميلًا من مدينة السويس. **مرآة الحرمين**، ٢/ ٢٣٣ ـ ٢٤٠. وبهذا يتّضح أن هذه المدينة تقع في شبه جزيرة سيناء وليست على ساحل الجزيرة العربية.

الاثنين ٢٩ ديسمبر:

في الصَّباح دخل مركبنا في ميناء الطُّور، حيث مكثنا طوال النَّهار، وقد أعطتني أرصادي درجة طول قدرها: ٣١° ١٢′ ٥″ شرقًا من مرصد باريس.

الثلاثاء ٣٠ ديسمبر:

كنّا طوال هذا اليوم في البحر، ومررنا أمام رأس أبي محمّد(١) في ذلك السَّاحل نفسه.

الأربعاء ٣١ ديسمبر ١٨٠٦م:

بعد أن أبحرنا طوال اللّيل لعبور ذراع البحر الذي يلج في الجزيرة العربيّة، والذي يسمّونه بحر العقبة، أمر قبطاننا بإلقاء المرساة بعد غروب الشَّمس في ميناء صغير جيّد الغلق يقع في جزر النُّعمان أو النعّام(٢).

الخميس: الأوّل من يناير ١٨٠٧م:

أبحرنا طوال ذلك اليوم ورسونا في الليل عند شاطئ في الجزيرة العربيّة.

الجمعة ٢ يناير:

تكرَّر مسيرنا في هذا اليوم بنفس وتيرة حركة يوم الخميس.

---

(١) هناك جزيرة تحمل الاسم نفسه أيضًا وفيها مرسى، انظر: حمد الجاسر: **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**، الرياض ١٩٧٧م، ٣٢١/١. وقد ذكره البلادي رأس محمد بدون «أبي»، يقع على مضيق يعرف اليوم بمضيق تيران، وهو في جزيرة سيناء. انظر: عاتق بن غيث البلادي: **رحلات في بلاد العرب**، مكة المكرمة ١٩٨٣م، ص ١٣٦. علمًا أنّه سيرد ذكره في الفصل الأخير وبتفصيل أكثر ومعلومات أدق.

(٢) لا تزال معروفة، تقع بين الوجه وضبا شمال مقبض وادي الأزلم في البحر بنحو عشرة كم، وجنوب ضبا بنحو أربعين كيلو مترًا. انظر: حمد الجاسر: **المعجم الجغرافي**، ٣٢٣/١.

إنَّ الإبحار في البحر الأحمر مُروِّع، فهو دائمًا ما يكون بين شُعب صخريَّة ومرجانيَّة إلى جانب الصخور الظاهرة في أغلب الأحوال، ولذلك يتوجّب لقيادة المركب أن يكون هناك في مقدّمته أربعة أو خمسة حرّاس يراقبون خطّ السَّير بحذر، وينبّهون بصراخهم الربّان لكي ينحرف يمينًا أو يسارًا، ولكنّهم إذا أخطؤوا أو تأخّروا في الكشف عن الشعبة أو لم يُشاهد الربّان الصخور، ولم يبتعد عنها بما يكفي، أو رمى بالمركب على شعبة قريبة لم يلحظ وجودها، أو لم يسمع صرخة التحذير كما يحدث عادة، أو اعترضت الرّياح أو التيّار تغيير الاتّجاه في وقت قصير مثلما يحدث بين اكتشاف الصَّخرة ووصول المركب إلى نقطة الخطر، عندها تحدث الكارثة. أيُّ أخطارٍ تُحدق! ومن ذا الذي يمنع المخاطر التي تتكرر كلّ لحظة، ما بين الحياة والموت في ذلك الإبحار المشؤوم!

ولذا يكاد لا يمرّ عام دون حصول حوادث غرقٍ كثيرة في ذلك البحر الذي يبدو أنّه يقاوم جرأة البحّارة ويرفضها، ولكن ماذا يعني الخوف من الموت إلى جانب الرّغبة في الحصول على الثروات؟ المراكب العربيّة التي تحمل البضائع النفيسة من الهند وبلاد فارس وجزيرة العرب تشقّ دائمًا عُباب ذلك البحر الذي لا يشبع من الضَّحايا، والذي ربّما ينتظرها ليبتلعها هي الأخرى.

ولتجنّب تلك الحوادث بشكل من الأشكال فقد وُضعت في المراكب قاعدة ثانوية من الأسفل، تُخفّف من الصدمة في حال وقوعها وتحفظ المركب إن لم تكن تلك قويّة جدًّا. من ناحية أخرى، فإنّ الشراع القطني الكبير الذي يبلغ سمكه إصبعًا واحدًا تقريبًا، وسوء الشكل الذي تتطلّبه حركة الشراع المثلّث، بحيث يستلزم إطلاقه لتغيير الاتّجاه ليطوف عندها كراية كبيرة مُحدثًا اهتزازات مروّعة، والحبال الغليظة التي لا تنجذب إلا بصعوبة، كلّ هذه المعوّقات تجعل الحركة بطيئة ومثقلة ومتأخّرة، حتّى إنّني شخصيًا أستغربُ كيف لا يكون عدد الحوادث أكبر.

وفي مركبي هذا، لا يكفي دائمًا خمسة عشر رجلًا لتحريك الشراع، وفي حالات كثيرة يمدّ المسافرون أيديهم للمساعدة في ذلك.

السبت ٣ يناير:

مررنا وسط مجموعة جُزر الحمار[١] Hamara وألقينا المرساة عند واحدة منها.

الأحد ٤ يناير:

رسونا عند حلول المساء عند واحدة من الجزر الصغيرة الواقعة بين الشُّعب.

الاثنين ٥ يناير:

يوم فظيع حقًّا! فبعد مُنتصف اللَّيل هبّت عاصفة عاتية مع هواء بارد، حتى إنّ ضربات الأعاصير كانت في الساعة الثانية صباحًا تتواصل دون انقطاع بل بعنف مُتجدّد، وتناثرت أسلاك مراسينا الأربعة قطعًا في دقائق معدودة، عندها تُرك المركب وحده يواجه هجمة الرياح والأمواج، وانجرف نحو صخرة وأخذ يصطدم بها في ضربات مرعبة، وكان طاقم المركب وهم يظنّون أنّهم هالكون لا محالة يصدرون أصوات اليأس والذلّ. في وسط هذا الضجيج كان يرتفع صوت رجل ينتحب ويصرخ كالطفل، ولمّا سألتُ عن صاحبه قالوا لي إنّه القبطان، فأمرتُ بالبحث عن الدليل ولكن دون جدوى. كنتُ أرى البضائع المعدّة للتجارة تضيع في المركب الذي تُرك لمصيره المشؤوم وهو يواصل اصطدامه المروّع، فلم

---

(١) هذه حدّدها الجغرافيون جنوب مدينة حقل السُّعوديّة الحالية، .كانت عقبة كأداء أمام الحجاج في طريقهم البرّي، لكن ما ذكره باديا هو بعده بقليل، أخذ نفس الاسم للمُجَاورة ـ كما يقول الجاسر رحمه الله ـ وهو منزل رمل مُخضر، به جبال في أحد جانبيه والجانب الآخر في البحر. **المعجم الجغرافي**، ٢/ ٨٥٦.

أشأ أن أنتظر تحطمه بالصُّخور، فصرختُ بخدمي: الزورق. . .الزورق، وفي الحال سيطروا عليه، ومدّوا لي بأيديهم لأقفز إليه من فوق رؤوس المسافرين، وكان جميع الركاب يريدون التعلّق به، لكنّي أعطيتُ الأمر بالابتعاد عن المركب، إلا أنّ رجلًا كان والده على متن الزورق أوقفنا بواسطة حبل المركب وهو يصيح: أبي! أبي! واحترمتُ للحظة نوبة الحُبّ الصادر من الابن لأبيه، ولكنّي وقد رأيتُ مجموعة من الرجال يهمّون بالقفز إلى الزورق، صرختُ بذلك الولد الصّالح كي يطلق الحبل، ولكنّه لم يهتم بصراخي وواصل النّداء على والده، وعندها أجبرته على أن يُطلق الحبل بأن ضربته ضربة قويّة على يده، وفي تلك اللحظة نفسها ابتعد الزورق أكثر من مئتي تويسا[١] عن المركب.

لقد مرّ هذا المشهد في أقل من دقيقة. . . لحظات قصيرة، ولكنّها مرعبة. . . لقد خيّم علينا ستار من السُّحب السَّوداء، فأصبحنا في ظلمة حالكة، بدلًا من ضوء القمر الجميل الذي كان عليه إنارة طريقنا، وما كنّا نستطيع رؤية أيّ شيء، كنّا عُراة تقريبًا، وكانت موجات البحر تملأ الزورق بالماء، بينما كانت زخّات من المطر تنزل بين فَينة وأخرى. وحدث شجار حادّ، لأنّ بعضنا كان يريد التوجّه يمينًا، بينما أراد آخرون التوجّه يسارًا، وكأنّ بالإمكان تمييز طريقنا في خضمّ ذلك الظّلام الدّامس! ولما اشتدّ الجدال واحتدم قطعتُه بأن سيطرتُ على الدفّة وقلتُ لهم آمرًا: أنا أعرفُ أكثر منكم، وسأتكفّل بقيادة الزورق، وويل لمن يتجرّأ على مخالفتي.

كنتُ قد أبصرتُ جيّدًا موقع اليابسة عند حلول المساء، لكنّني لم أكن أعلم إلى أيّ اتّجاه أسير! ومع صعوبة معرفة الاتّجاه الصحيح وسط

(١) مقياس طولي كان يُستخدم قديمًا يساوي مترًا واحدًا و ٩٤٦ سم. انظر:
F. CORRIENTE, Nuevo diccionario, p. 1132.

الظلمة الحالكة المحيطة بنا، كنتُ أُحاول كلّما استطعتُ ذلك المحافظة على موقعي بالنسبة للمركب الذي ما زلتُ أميّزه، ولكي تكتمل المصيبة فقد أصبتُ بنوبة تقيّؤ شديدة بسبب الصفراء[١]، ومع ذلك لم أترك الدفّة.

أعطيتُ أمرًا بالتجديف، ولم يكن رفاقي يعرفون شيئًا من ذلك، فأشرتُ إلى مكان كلّ واحد منهم، وبعد أن وزّعتُ عليهم المجاديف شرحتُ لهم الحركة، وبدأتُ أغنّي مثل بحّارة البحر الأحمر لكي ألحّن لهم الوقع[٢]، وأجعلهم يتحرّكون بحركة واحدة. ما أروع المشهد! كنتُ شبه عارٍ مكشوفًا لموجات البحر وزخّات المطر والبَرد، مُتسمّرًا أمام الدفّة دون أن أعرف وجهتي، أُعاني من تقيّؤ مروّع، ومضطرًّا للإنشاد لتنظيم وقع الحركة!! وكان زورقنا وهو وسيلتنا الأخيرة والوحيدة يُلامس في بعض الأحيان الصُخور فيتجمّد الدَّمُ في عروقنا.

وأخيرًا، وبعد مرور ساعة كاملة من الاحتضار الرهيب بدأت الغيوم تصبح أكثر وضوحًا، وبصيص من شُعاع القمر كان أملنا لمعرفة وجهتنا، فحمل الفرحة إلى أعماق قلبي. لقد نجونا! صرختُ! عندئذٍ ثبّتُّ اتّجاه الزَّورق صَوب شاطئ الجزيرة العربيّة، مع أنّه لم يكن هناك وضوح كافٍ لرؤيته، وبعد ثلاث ساعات من التَّعب الشديد وجدنا أنفسنا عند انبلاج الصُبح قُرب اليابسة.

نزلنا مجموعة من خمسة عشر شخصًا، كنّا جميعًا شبه عراة أو بقمصان، وكان أوّل شيء فعلناه أن تعانقنا وهنّأنا أنفسنا بالنّجاة، ولم يكفّ رفاقي عن تعبيرهم ودهشتهم لنجاتهم غير المنتظرة، وكانوا

---

(١) هذه نوع من الحمّى تتفاوت درجاتها من خفيفة إلى شديدة تُصاحَب بقيء. للتعرف إلى هذا النوع من المرض، راجع: ثابت بن قرة: **كتاب الذخيرة في الطّب**، ط. بيروت ١٩٣٨م، ص ص ١٥٦ ـ ٧، ١٥٩، ١٦١.

(٢) هناك نوع من الأهازيج يرددها الحجاج وركاب المراكب في الطريق سواءً كان ذلك برًا أو بحرًا. انظر مثلًا: سيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، ص ٩٤ ـ ٩٥.

يسألونني: كيف تمكّنتُ أن أعرف - على الرّغم من العتمة - أنّ الأرض كانت في تلك الناحية؟ وفي حركة عرفان عفويّة تخلّوا لي عن بعض ملابسهم، وبها وجدتُ نفسي في الحال جيّد الهندام، بدوتُ نوعًا ما غريبًا، لكنّي صرتُ في حميً من تلك الرياح التي كانت تعصف. وما كان ينقصنا سوى أن نعرف الأرض التي خرجنا للتوّ إليها، فأرسلتُ لذلك أربعة من الرّجال ليصعدوا للاستطلاع، وعرفنا ممّا توصّلوا إليه أنّنا موجودون على جزيرة مقفرة لم تكن غير بطاح من الرّمال المتحرّكة من دون ماء أو صخور أو نبات(١).

كان السَّاحل يظهر على بُعد فراسخ، ولكن كيف نُواصل الإبحار في زورق، وفي بحرٍ هائج على الدّوام؟ وإن استمرّت العاصفة لعدّة أيّام، فكيف سنبقى في الجزيرة من دون أكل ولا شراب؟ لكنّ الجوّ الذي كان يتحسّن شيئًا فشيئًا جعلني أكتشفُ في الأفق سفينتنا يسحبها مركب آخر؛ وكم كانت فرحتنا حينما شاهدنا السفينة من جديد بعد أن ظننّاها في عداد المفقودين. من أين جاء المركب الآخر؟ وكيف وصل؟

ساءت الأحوال الجويّة من جديد وصار المطر يسقط بغزارة، وفي الوقت نفسه كانت الرّياح الجليدية تُفقدنا الإحساس، فالتصق كلّ منّا بالآخر ومددنا غطاءً واحدًا، هو كل ما نملكه فوق رؤوسنا، فنفعنا في اتّقاء ضربات الماء ومنحنا بعض الدِّفء.

وعند مُنتصف النهار هدأ الجوّ نوعًا ما، واقترب زورق المركب المنقذ الذي كان يبحث عنّا أمواتًا أو أحياءً، ليتأكّد من الإشارات التي أرسلناها إليه من قميص ربطناه إلى طرف مجداف، ولمّا صار قريبًا منّا أكّد لنا بحّارته أنّ المركب نجا، ولم يُصب بأيّ عطب يُذكر، نظرًا لقوّته

(١) ذكر باديا وهو في طريق العودة إلى مصر اسم هذه الجزيرة في الفصل الحادي عشر، وهي جزيرة Okâdi الصّغيرة.

وقلّة حمولته، وبما أنّه فقد كلّ مراسيه فقد أُنقذ لحسن الحظّ من قبل السفينة الأخرى التي كانت قد وصلت بالصدفة في لحظة الشدّة تلك، وأعارته مرساة وبعض الحبال.

ركبنا في كلا الزورقين وعُدنا إلى السفينة، ولكن كيف سنصف المشهد الذي حدث عند الوصول إلى متنها؟ جميع الركاب لم يسعهم الفرح وهم يرونني سالمًا، فألقوا بأنفسهم عند أقدامي يذرفون دموع السعادة، وراحوا يعانقونني، ولا يعرفون كيف يعبّرون عن سرورهم، لأنهم ظنّوا أنّ البحر قد ابتلعنا، كما اعتقدنا نحن أنّ الصخور قد مزّقتهم. لم يستطع قلبي تحمّل ذلك المشهد المؤثّر، وأثّرت فيَّ مظاهر الحبّ بعمق، حتّى فاضت عيناي بالدّموع.

في تلك اللحظة المروّعة وحين مغادرتي للمركب كان رجل قد سقط في البحر وهو يحاول القفز إلى الزورق، فكان بذلك الضّحيّة الوحيدة للعاصفة.

لقد بقينا متوقّفين ذلك النّهار والليلة التالية لإعادة الأمور إلى نصابها، والاستعداد للانطلاق في الصّباح التالي.

الثلاثاء ٦ يناير:

بعد الإبحار طوال ذلك اليوم، والمرور بجانب جزيرة جبل حسّان[١] Hazen، ألقينا المرساة مع حلول المساء عند ساحل الجزيرة العربيّة.

---

(١) سيعطي بادبا معلومات أوفى عن هذه الجزيرة في طريق عودته وذلك في الفصل الحادي عشر؛ عن موقعها في البحر الأحمر، انظر الخريطة ص٢٢٨ في: **أطلس المملكة العربية السعودية** الذي أصدرته وزارة التعليم العالي بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض ١٤١٩هـ. وتعرف أيضًا باسم جزيرة الحسّاني، وقد ورد ذكرها عند العبدري في رحلته المسماة **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي الرباط ١٩٦٨م، ص١٦٢. كما تحدّث عنها ابن عبدالسّلام أيضًا وذكر أنها سُكنى لـ «أعراب في أخصاص وكُهوف، وبه ماء عذب، وكثير عيشهم صيد السّمك...»

الأربعاء ٧ يناير:

نزلنا عند الغروب تقريبًا في ميناء يَنبع[١]، وهي مدينة مُهمّة بل الأهمّ من بين مدن شاطئ الجزيرة العربيّة بعد مدينة جدَّة.

الخميس ٨ يناير:

قرر الربّان إمضاء هذا اليوم في مدينة يَنبع لشراء مراسٍ وأشياء أخرى تنقصنا، ولإصلاح العطب الذي أصاب السفينة.

الجمعة ٩ يناير:

في هذا اليوم اجتزنا المدّار، وألقينا بالمرساة في الجار[٢] Algiar، وقد قمتُ ببعض الأرصاد التي ضاعت منّي فيما بعد.

= **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي**، عرض وتلخيص: حمد الجاسر، منشورات دار الرفاعي، الرياض ١٩٨٣م، ص٨٣. وقال عنها الجاسر بأنها: «جزيرة غرب ميناء أمّ لج وهي أكبر جزيرة بقربها، وهي التي ورد ذكرها في بعض كتب رحلات الحجّ بأنها قرب الحوراء». **المعجم الجغرافي**، ١/ ٣٢٢.

(١) مدينة لها شهرتها حاضرًا وماضيًا على ساحل البحر الأحمر، وهي تنقسم إلى ساحلية تسمى ينبع البحر وهي المعنية هنا، وبرية تعرف بينبع النخل. وقد خصّها العلامة حمد الجاسر بمؤلف استوفى فيه تاريخها وموقعها، سماه: **بلاد ينبع لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة**، دار اليمامة، الرياض ١٩٦٦م. كما أن **الرحالة** نفسه سيعاود الحديث عنها في الفصل العاشر من هذه الرحلة بتفصيل ومعلومات مهمّة.

(٢) هو ميناء المدينة المنوَّرة قديمًا، كانت له مكانة وشهرة قبل الإسلام وبعده بعدَّة قرون، لكن أفل نجمه بعد ظهور موانئ أخرى أخذت دور الرِّيادة منه كينبع وجدَّة. انظر لمزيد من التَّوسع: ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٢/ ٩٢ ـ ٩٤؛ أحمد حسين شرف الدين: **المدن والأماكن الأثرية في شمال وجنوب الجزيرة العربية**، الرياض ١٩٨٤م، ص٣٧ ـ ٣٩. وهي ما يعرف بالرايس حاليًا حسب: محمد أحمد الرويثي: **السكان وتنمية الموانئ السُّعوديَّة**، الرياض ١٩٨٢م، ص٣٨.

السبت ١٠، الأحد ١١، الاثنين ١٢ يناير:

كُنَّا نُبحر في هذه الأيام نهارًا ونتوقّف ليلًا في إحدى محطات ساحل الجزيرة العربيَّة، ولكنّ الملحوظات التي دوّنتها ضاعت منّي.

كما بدأتُ حينها أشعرُ بألم خفيف متواصل أسفل البطن، وانتفاخ بيّن في الجزء السُّفلي منه، فخشيتُ أن يكون فتقًا؛ مع ذلك تبيّن أنّه كان بسبب المجهود الكبير الذي بذلته عند القفز إلى الزورق ليلة العاصفة، وقد أرّقتني كثيرًا هذه القضيَّة، فصرتُ أخشى عدم القدرة على احتمال أيّ مجهود، أو حتى ركوب الحصان، في الوقت الذي أنا أحوج ما أكون فيه إلى كامل طاقتي.

ولأنّ ذلك الحادث لم يكن متوقّعًا، وبما أنّي لم أدوّن في مفكرتي أيّة معلومات عن ذلك المرض ولا كيفيَّة علاجه، واعتمادًا على الاستنتاج، فقد استعملتُ الضمّادات واللفّافات وبقيتُ ممدّدًا حسب الوضع الأكثر ملاءمة لحالتي.

وصلنا في أحد هذه الأيّام بحدود السَّاعة العاشرة صباحًا إلى رابغ(١) Araboh، الواقعة على الحدود الشَّمالية للبلد الحرام، وألقت السفينة بمرساها على الرّمال لتسهّل على الحجّاج أداء أوّل مناسك الحجّ، وهو «الإحرام»(٢). فلأداء ذلك يجب أن يُلقوا بأنفسهم في البحر للاغتسال

---

(١) مدينة تقع على البحر الأحمر يُحرم منها الحجّاج القادمون من الشّمال سواءً من الشّام أو من مصر، تجاوزًا لقُربها من الجحفة، انظر: إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ١٥، ٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣؛ وقد ذكرها ياقوت في **معجم البلدان** ٣/ ١١. ووصفها ابن عبدالسلام الدرعي في رحلته التي قام بها قريبًا من زمن رحّالتنا وعلّل السّبب في التحول إليها بالإحرام بدلًا من الجحفة. **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام**، ص ص ١٠٧ـ ١١١.

(٢) «يُحرموا» هكذا كتبها **الرحالة** بصيغة الفعل iaharmo

وإجراء وضوء عام بالماء العذب أو بالرِّمال[١]، ثمّ الصَّلاة مباشرة، عُراة إلا من قطعة قماش أو منشفة غير مخيطة، تُلفّ على الجسم من وسطه إلى الركبتين، وتسمّى «الإحرام[٢]»، ثمّ التوجّه بعدها إلى مكّة ـ بعد بعض الخطوات ـ مردّدين الدُّعاء الآتي:

«*لبّيك اللّهم لبّيك لبّيك، لا شَريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنِّعمة لك والملك، لا شريك لك*».

بعدها تُصنع أكوام من الرَّمل بالأيدي[٣]، ثم يَصعدون إلى السَّفينة باللِّباس نفسه على إثرها وهم يكرّرون الدُّعاء ذاته طوال بقيّة الرّحلة.

ولأنّي كنتُ مريضًا فلم أنزل إلى البَحر وتعفَّرتُ بالتُّراب، وقد أقام خدمي حاجزًا من أغطية الفراش والملابس لحمايتي من الرِّياح، بينما كنتُ أتيمّم، وأصلّي، وأبتهل، وأصنع كومة الرَّمل حسب ما تمليه العادات، دون أن أُخلَّ بالأمر القاضي بأداء كلّ ذلك في مكانه الخاص. وعدتُ فور النّداء للمغادرة إلى السَّفينة، مُستندًا إلى أذرع رجالي، كما فعلوا عند النُّزول.

ومهما تكن جِهة الوصول إلى البلد الحرام، فإنّ على الحاج أن يؤدي

---

(١) صيغة الإحرام وصفته شرحها الفقهاء، وهو سنّة مؤكّدة، كما أنه محلّ إجماع في المذاهب الأربعة، وما ذكره الرّحالة عن استخدام الرّمال بدل الماء استطراد قصد به إظهار حكم التيمّم في الوضوء إذا عُدِم الماء أو عند عدم القدرة على استعماله لمرضٍ أو جرحٍ أو غيره. انظر ذلك مفصّلًا في: عبدالرحمن الجزيري: **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، القاهرة ١٩٧٠م، ١/ ٦٤١ ـ ٦٤٣.

(٢) وهذا يتكوّن من قطعتين من القماش غير المخيط، إحداهما تلك التي أشار إليها، أما الثانية فتلفُّ على الصدر والظهر، آخذةً شكلًا معيّنًا عند الطواف، وسيعود المؤلّف للحديث عن هذا الموضوع فيما بعد.

(٣) لم أتوصل لتعليل لذلك، لكن ممّا يَظهر لي أنه من البدعيات المستحدثة.

المناسك ذاتها التي هي بداية لا بدّ منها لفريضة الحجّ، وإن كانت هناك فروق طفيفة في ذلك بين المذاهب الأربعة.

ومن تلك اللحظة لا يمكن حَلق الرّأس قبل الطّواف سَبع مرّات ببيت الله الحرام، وتقبيل الحجر الأسود(١) وشرب ماء بئر زمزم المقدّس(٢)، وأداء السّعي بين التّلّتين المقدّستين المعروفتين بالصّفا والمروة.

الثلاثاء ١٣ يناير:

ألقيت مرساة مركبنا بحبالها في ميناء جدَّة(٣) بنجاح، وهو ما يعني نهاية تلك الرّحلة البحريّة.

وفي الحال بعثتُ مع أحد أتباعي رسالة إلى ذلك التّاجر المكلّف بشؤوني سيدي محمد ناس(٤)، وبعد قليل من انتصاف النّهار جاؤوا بطلبي في قارب لينقلني إلى اليابسة حيث وصلتُ في حدود السّاعة الثالثة؛ وقد

---

(١) هنا خلط بين المستحب والواجب، لأنّ تقبيل الحجر ليس واجبًا ولا شرطًا للتّحلل الأول من الإحرام.

(٢) أيضًا هنا أدخل باديا شُرب ماء زمزم بصفته شرطًا للحلّ من الإحرام، وهو ما ينمّ عن خلط وجهل بأحكام الحج.

(٣) هي الميناء الأول والرئيس على البحر الأحمر بل في المملكة العربية السّعوديّة حاليًا، كما أنّها تُعد العاصمة الثانية للدّولة، خصّها عدد من الباحثين بالدراسة، نذكر من بينهم: محمد بن أحمد بن جبير: **رحلة ابن جبير**، ط. بيروت ١٩٦٨م، ص ٤٧ ـ ٨؛ محمد بن أحمد الفاسي: محمد بن أحمد الفاسي: **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، بيروت ١٩٥٦م، ١/ ١٤٠ ـ ٢؛ إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢١ ـ ٢٤؛ عمر الفاروق رجب: **المدن الحجازية**، القاهرة ١٩٨١م، ص ٤٨، ٥١، ٧٠ ـ ٣؛ محمد أحمد الرويثي: **المرافئ الطبيعية على الساحل السُّعُودي الغربي**، ط. اندارة الرياض ١٩٨٢م. نفس المؤلّف: **السكان وتنمية الموانئ السُّعوديّة على البحر الأحمر**. وسيعرّف بها الرّحالة نفسه بعد قليل بتوسُّع.

(٤) Nas هكذا كتبها، لذا فهي تحتمل قراءة أخرى كنعس مثلًا.

أحسنوا استقبالي في غرفة تحوي كل مظاهر الزينة المشرقيَّة وقدَّموا ليَ الطَّعام الفاخر.

وعند الغروب دخلت السَّفينة إلى الميناء، وفي اليوم التالي وبعد إنزال خدمي وأمتعتي توجّهتُ للإقامة في منزل اتخذته سكنًا لي ولأتباعي.

كنتُ أشعر بالمرض والضّعف لدرجة عدم القدرة ـ تقريبًا ـ على الحركة، وقد عانيتُ في الأيّام الأربعة الأولى لوصولي من حمَّى شديدة، ومع ذلك ذهبتُ لأداء صلاة الجمعة في المسجد حيث صادفتُ مشكلة يسيرة سأرويها.

في اليوم التّالي لوصولنا أرسل إليّ الحاكم الذي يدعونه «الوزير»، وهو عبد أسود من عبيد السُّلطان شَريف مكَّة[١]، مَن يُخبرني بأنّه نَما إلى علمه بأنّي جلبتُ سُروجًا يودُّ رؤيتها. وواضح أنّ الهدف من هذه الخطوة هو أن أُهديه واحدًا منها على الأقلّ، وبما أنّي لم أتلقّ من تلك الشّخصية أيّة اعتبار، ولم تكن لي حاجة به، ولا سبب يدعوني لخشيته، فقد أمرتُ خادمي أن يحمل إليه خمسة سروج من تلك التي أحملها معي، ولكن لكي يراها وحسب؛ وبعد أن عاينها الحاكم أطلق تعليقًا غير مُباشر أمام الخادم، ولكنَّ هذا تصنَّع عدم الفهم كما أمرته أنا بذلك وعاد بالسُّروج الخمسة.

ويبدو أنّ تلك الحادثة أصابت الحاكم في كبريائه، فحاول الانتقام بإثارة مشكلة لي، واختار لذلك يوم الجمعة في المسجد.

لقد اعتدتُ في جميع رحلاتي للبلاد التي أحلُّ فيها أن أؤدّي صلاة الجمعة بالمسجد، وأن يَسبقني أتباعي ليضعوا سجادتي بالقرب من

---

(١) يقول بوركهارت: «وفي أيام غالب الأخيرة كان وزيره في جدَّة عبدًا له أسود، وكان الناس يمقتونه بسبب غطرسته وسلوكه الاستبدادي». رحلات، ص٥٣.

الإمام، ولينتظروني هناك إلى حين وصولي، وكنتُ أجلس على السّجادة التي كانت ـ مهما بلغ عدد المصلّين ـ موضع احترام.

في تلك الجمعة سبقني خدمي ووضعوا ـ كالعادة ـ سجّادتي وعليها أدّيتُ تحيّة المسجد، ولم يلبث الحاكم أن وصل في جمعٍ من أتباعه وهم عبيد كذلك ومعه بعض الحرس الذين أجبروا مَن كان بقربي على الابتعاد، ليضعوا سجّادة الحاكم بحيث يُغطّي جزء منها سجّادتي، ولكن دون أن يتوجّهوا إليّ بأيّة كلمة.

وعندما جلس الحاكم على سجّادته تقدّم كبير عساكره بعد أن تردّد لحظات حتى مسَّ كتفي مسًّا خفيفًا، فالتفتُّ إليه فأشار إليّ بترك المكان، فغادرتُه في الحال كي لا أُحدث ضجّة، واحتلّ هو مكاني للصّلاة على سجادتي. كان الجميع يُتابعون قلقين نهاية المشهد وينتظرون ردَّ فعلي؛ فكيف لي وأنا الشّريف ابن عثمان باي العبّاسي أن أحتمل إهانة خادم! مع ذلك فقد كان هو من يمتلك القوة، وما كان يريد غير استثارتي، ولو أنّي تركتُ نفسي على هواها لتعسّف في استخدام سُلطته، لذلك اخترتُ الاتّجاه الآخر.

وحالما انتهت الصّلاة، وقبل أن ينهض أحد قلتُ لخدمي آمرًا: ارفعوا هذه السّجادة وقدّموها للإمام، وقولوا له إنّي أُهديها إليه لكي يستخدمها في المسجد، فلن أستطيع بعد الآن أن أصلّي عليها، احملوها. وسحب خدمي السّجادة بشدّة، وقدّموها للإمام الذي سُرَّ كثيرًا بالهديّة، وامتدح الجميع صنيعي، وبقي الحاكم وأتباعه من العبيد مذهولين. كما قدّمتُ بعض الصّدقات للمسجد وللفقراء، وعدتُ إلى بيتي برفقة أشخاص كثيرين، عدتُ إلى سكني لأندسَّ في الفراش وأنا أشعر بحمّى شديدة.

كان أولئك العساكر من العبيد، يلبسون أجمل الملابس الشرقية، إذ

يرتدون الشّالات الكشميريّة والقماش الفاخر المصنوع في الهند، ويحملون الأسلحة البديعة والعطور الطيّبة.

ومع اعتلال صحّتي فقد أجريتُ بعض الأرصاد الفلكيّة التي أعطتني درجة طُول من خلال الأبعاد القمرية قدرها: ٣٦° ٣٢َ ٣٧ً شرقًا من مرصد باريس، ودرجة عَرض من خلال مسير الشّمس قدره: ٢١° ٣٣َ ١٤ً شمالًا، وانحرافًا مغناطيسيًا قدره: ١٠° ٤َ ٥٣ً غربًا.

مدينة جدَّة هي مدينة جميلة بشوارع منتظمة، وبيوت لطيفة ذات طابقَين أو ثلاثة طوابق، مبنيَّة جميعها من الحجر، وإن كان بناؤها أقلّ متانة نوعًا ما، وفيها عدد كبير من النّوافذ الواسعة والسُّطوح المنبسطة، وفيها خمسة مساجد ليست بذات شَأن. ويُحيط بالمدينة سُور رائع ذو أبراج غير منتظمة، وعلى بعد عشر خطوات من الجانب الخارجي، هناك خندق غير ذي فائدة، إذ لا يرى فيه أي بناء يدعمه، وعوضًا عن الجسر المتحرك أمام بوابة المدينة، فإنّ هذا الخندق لا يملؤه غير التراب، وعلى الرّغم من البناء الحديث فلا يبدو أنّه سيُعمَّر طويلًا لأنّ جدرانه مقطوعة عموديًا من دون انحراف ولا نتوء، ويبلغ عرضه تسعة أو عشرة أقدام بينما عمقه اثنا عشر قدمًا.

الأسواق العامة في جدَّة تحتوي على الكثير من البضائع، لكنّ الأسعار فيها مرتفعة جدًّا: فسِعر الدّجاجة الواحدة يبلغ دورو إسبانيًا، وتُحمل البقول إليها من أماكن بعيدة، فليس بالقرب منها نهر ولا ينابيع، كما أنّها تخلو من الحدائق والمزارع والبساتين؛ والماء الذي يُشرب في جدَّة هو ماء الأمطار، وهو ماء عذب لأنّه يحفظ جيّدًا في الخزانات، ولكنّي لن أقول الشّيء نفسه عن الخبز الذي لم يبدُ لي أنّه جيّد النوعيّة.

وتنتشر في جدَّة دائمًا الرّوائح العطرة، ففي جميع الأماكن العامّة هناك أُناس يبيعون أقداحًا من الماء للشّرب، ويضعون دائمًا بالقُرب منهم

مواقد يُحرقون فيها البُخور والعطور الأخرى، ويحدث الشّيء نفسه في المقاهي والحوانيت والبيوت وفي كلّ مكان.

ويَقطن جدّة حوالي خمسة آلاف نسمة، ويمكن اعتبار هذه المدينة مركزًا لتبادل التّجارة الداخليّة للبحر الأحمر؛ فسفن مخا تحمل إليها القهوة وغيرها من البضائع من الهند ومن جميع بُلدان الشرق، حيث تُنقل في سُفن أخرى إلى السُّويس ويَنبع والقصير[١] Kosseir ومراكز أخرى في سواحل الجزيرة العربية وأفريقية.

ولو أنّ العرب كانوا على درجة أكبر من التّقدم في فنّ الملاحة لتمكّنت مخا بلا شكّ من أن تُرسل حمولاتها مباشرة إلى السّويس دون التّوقف في جدّة، وهو الأمر الذي من شأنه أن يرفع من قيمة التّجارة كثيرًا، لكنّ ذلك يُعدّ من المستحيل تقريبًا مع وضع أسطولها الحالي وسفنه التي هي دون أبراج ورديئة الصُّنع، وبقيادة بحّارة مغرقين في الجهالة، فرحلة عادية من مخا إلى جدّة بالنّسبة لهم، كأنّها نصف جولة حول العالم تقريبًا. ومصلحة العرب من ناحية أخرى تقتضي رفض أيّ تحسين في هذا المجال، فالبضائع المارّة في الوقت الحاضر تجلب إلى بلادهم منتجات فيها أرباح وعمولات ووسائط نقل وضرائب، وهو ما سيفقدونه لو حسّنوا سفنهم، وفي هذه الحالة لن تكون جدّة ميناء مهمًّا كما هو حالها الآن.

---

(١) هو ميناء مصري قديم على البحر الأحمر في طريق الحاج المصري. وترجع أهميته وقت الحجّ إلى ما قبل إعداد ميناء السويس وقبل استخدام السُّفن البخاريّة، ويقابل ميناء الوجه في الضّفة الأخرى للبحر الأحمر، للمزيد، انظر: حمد الجاسر: **المعجم الجغرافي**، ٣/١١٠٣؛ شوقي الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر**، ص٢٩٧. وقد تكرر ذكره في مذكرات فورستر سادلير بصفته ميناءً بديلًا لينبع تستعمله القوافل المصرية القادمة أو المغادرة إلى السويس. **رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م**، ص ص ١٢٣، ١٢٥، ١٣٥، ١٣٩، ١٥٣.

يشتري تُجّار جدَّة من مخا، أو بالأحرى فإنَّ تجّار مخا يبعثون ببضائعهم إلى جدَّة، ويُرسل تُجّار القاهرة عن طريق وسطاء السُّويس أموالهم إلى جدَّة للشِّراء. وتصل إلى جدَّة عن طريق السُّويس بعض الموادّ من أوربا وخصوصًا الأقمشة، لكنّها لا تكفي لسداد أثمان بضائع الهند وقهوة اليمن، وتُدفع معظم الأثمان بالدُّورو الإسباني أو بالإسكودو الألماني[١] السميك، وهذه العُملة الأخيرة هي المرغوبة في جدَّة لأنَّها تُعادل الكثير في اليمن ومخا.

وقد بدا لي أنَّ التَّاجر المكلَّف بشؤوني في جدَّة يقوم بتجارة واسعة، لكنّي كنتُ أدَّعي امتلاك القليل من النَّقد، فقد كان إنفاقه يُكلِّفني كثيرًا.

ويلحظ البذخ الكبير في الملابس والسّكن، ولكن هناك ممّن ينتمون للطبقات السُّفلى من الشَّعب، أفراد يسيرون شبه عُراة وفي حالة فقر مدقع.

تتألَّف الحامية من مئتي جندي من الأتراك أو العرب، ولكن لا يفكِّر أحد بأنَّ هؤلاء الجنود يقومون بالحراسة أو يُؤدُّون خدمة عسكريَّة ما،

---

(١) لم أجد ذكرًا لهذه العملة في المصادر التي درست الحجاز، والإشارة إلى ألمانيا هنا أيضًا في منتهى الغرابة، لأنّ الأسكودو كان عملة ذات أصل فرنسي سُكّت في عهد لويس التاسع عملة ذهبية، وظلّت سائدة حتى نهاية القرن الخامس عشر، فأُدخلت إلى إسبانيا في القرن الذي يليه حتى عام ١٨٤٨م. انظر:
Diccionario enciclopedico, LAROUSSE, t. 6, p. 859.
ولعلّ المقصود هنا هو الدولار الذي تردّد ذكره في مذكرات بوركهارت ـ كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن العملة في الفصل الخامس ـ وهو ما يُعرف شعبيًا بالرّيال الفرانسي، كان يُستخدم في الحجاز والجزيرة العربية إلى وقت قريب، هذه العملة ـ مجال الحديث ـ ضُربت في النّمسا سنة ١٧٨٠م/ ١١٩٥هـ. انظر عنها: الشَّريف مسعُود محمد آل زيد: **تاريخ مكَّة المكرمة في عهد الأشراف آل زيد**. القاهرة ٢٠٠٥م، ص١٧٧.

فعملهم يقتصر على قضاء النَّهار جالسين أو متسكِّعين في مقهى، يلعبون الشّطرنج ويدخّنون أو يتناولون القهوة.

ليس هناك من أوربيّين في جدَّة، لكن يُشاهد بعض النَّصارى الأقباط ممَّن أُلزموا بالإقامة في منزل أو في كهف قريب من المرسى(١).

أشهر شخصيَّات المدينة والتَّاجر الرَّئيس فيها هو سيدي العربي جيلاني، وهو رجل ذو نُبوغ وصاحب علاقة قويّة بالإنجليز، ومعهم يقوم بكل تجارته تقريبًا(٢).

وكان سُكان جدَّة حينها يشعرون باستياء شديد فقد كان الفرنسيُّون قد استولوا في العام السابق على سفينة للسُّلطان الشَّريف، وكانت محمَّلة بكل ما هو ثمين، كما استولوا على غيرها من السُّفن العربية، ومع ذلك لم يُطالب هؤلاء بالثأر، ولم يحقدوا على الأمَّة الفرنسيَّة، بل على العكس

---

(١) جون بوركهارت الذي زار جدَّة بعد باديا بحوالي سبع سنوات كان أكثر تفاؤلًا وحياديّة حول وضع النَّصارى في جدَّة، فلم يُشر إلى أيّة أقباط يقيمون في جدَّة لا في كُهوف ولا في غيرها، لكنّه ذكر أنَّ هناك عددًا قليلًا من اليونانيِّين ممَّن يُتاجرون بين مصر وجدَّة، ثم أكَّد وضع النَّصارى بأنه بشكل عام كان جيِّدًا، وأنهم يتمتعون بحريَّة كاملة بعد أن آلت الأمور في الحجاز إلى العثمانيِّين. (**رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٢٦). وفي وضع كهذا نعتقدُ أن تُجّارًا كهؤلاء ممَّن يعتنقون نفس مذهب الأقباط في مصر ـ وهو ما التبس على باديا ـ وغير مُقيمين، من الطَّبيعي أن يكون سكنهم قُرب الميناء لاستقبال بضائعهم وشحنها.

(٢) أكّد سادلير الذي كان في بلاط حاكم جدّة يوم السادس عشر من نوفمبر ١٨١٩م الموافق للسابع والعشرين من محرم ١٢٣٥هـ على أهميَّة هذا الرَّجل، وأنه التقاه في معيّة حاكم جدَّة الجديد، ويذكر أن سيّد عربي جيلاني أحد التّجار الذين اعتادوا على تبادل المحادثات مع الإنجليز، وأن أسرته قدَّمت خدمة فريدة من نوعها لهم، خاصة خلال الحملة التي قاموا بها على مصر، عندما تمكنوا من الحصول على تموينات ضخمة من المواشي ودعم الأسطول. (**رحلة عبر الجزيرة العربية**، ص١٣٥). وهذا بلا شكّ بمباركة من الشَّريف غالب الذي كان يطمح إلى الاستقلال أو التحرر من نفوذ محمد علي المتنامي.

من ذلك كانوا راغبين في الصُلح على الرغم من أنَّهم كانوا يجهلون كيفيَّة ترتيب ذلك؛ لكنِّي شخصيًا أعتقدُ أنهم بدؤوا يحبُّون الفرنسيِّين حقيقة، خاصة وقد رأوا تصرفاتهم في مصر.

لقد انخدعتُ فيما وصل إلى مسامعي من شهرة وصيت للخيول العربية، فبعثتُ بخيولي من السُويس إلى القاهرة، ولكن سرعان ما ندمتُ على فعلتي عندما رأيتُ أن ليس هناك من خيول في جدَّة، غير ما كان لدى أغنياء التُجَّار منها، وما كان هؤلاء يريدون الاستغناء عنها. كما لم أشاهد بِغالًا؛ أمّا الحمير فممتازة، إنها كبيرة وحسنة الهيئة، لكنّها ليست أطول من حمير مصر؛ وهناك عدد كبير من الجمال، وهي حيوانات النَّقل الوحيدة في البلاد. وتجول في الشوارع أعداد كبيرة من الكلاب السائبة، كما هو الحال في جميع المدن الإسلامية، وتبدو بالطبع وكأنّها منظَّمة أو موزّعة على عدّة فصائل أو عوائل، ويحدث أن يُبتلى الكلب أو يتجرّأ على الانتقال إلى جهة أخرى أو مجموعة غريبة، فتثور كلاب هذه المجموعة محدثة جلبة جهنّمية، ولا يتخلّص الكلب المتهوِّر منها إلا بعد أن يُصاب بجراحٍ متعددة.

وليس عدد القطط بأقلّ من عدد الكلاب، وهي شبيهة بقطط أوربا؛ وهناك أيضًا القليل من الذّباب، ولكن ليس هناك بَعوض ولا غيره من الحشرات.

وتخلو مدينة جدَّة من الفحم والوقود الوحيد الموجود هو الحطب الذي يُجلب من بعيد أو من نفايات المراكب. أمّا الدّقيق فيُؤتى به من أفريقية.

وقد بدا لي أنّ السّكان هم خليط من دماء عربيَّة وحبشيّة أو سوداء مع قليل من الدِّماء الهنديّة، ولقد شاهدتُ وُجوهًا فيها شَبه كبير من سحنة الهنود مع شيء من الدِّماء الصِّينية.

ومن الشائع هنا هو اقتناء الجواري من الحبشيَّات أو الأفريقيَّات السوداوات، وقد عرض عليَّ تاجري أوّل شيء وفي اليوم الأول من وصولي إلى جدَّة، شراء جارية حبشيَّة، لكنِّي امتنعتُ عن ذلك، مع أنَّ القانون لا يمنعه، لأنَّني كنتُ في حالة إحرام أثناء الحجّ.

هناك ما يقرب من مئة مركب تقوم بالنَّقل السَّاحلي البحري ما بين جدّة والسُّويس، كما أنّ هناك أخرى غيرها تعبر إلى مخا، وبما أنّ الموجود منها ـ كعهدها دائمًا ـ إمّا معطوبة أو يجري إصلاحها، فإنّ عددها باعتقادي سينخفض إلى الثمانين. والواقع أنّه لا يمرُّ عام دون أن يغرق عدد منها في شُعب البحر الأحمر، ولكن هناك صناعة مستمرة للسُّفن في السُّويس وجدَّة ومخا.

كانت هذه المدينة قديمًا أغنى مما هي عليه وقت مروري بها، لكنَّ حرب الوهابيين[1] جعلتها تتراجع بدرجة كبيرة، لأنَّ السُّكان وجدوا أنفسهم مُضطرِّين للقيام ليلًا ونهارًا ولوقت طويل بمهمَّة العسكر، كما أنَّ أوربا من ناحية أخرى قد أوقفت تجارة الشرق، وقطعت ثورات مصر والجزيرة العربية تجارة البلد، بينما مَنعت ثورات البربر أو أخَّرت رحلات الحجَّاج من الغرب، جميع هذه الأسباب تُؤثِّر بصورة مباشرة وقويّة في تقدّم جدَّة وازدهارها.

يوجد خارج أسوار المدينة من ناحية اليابسة تجمُّع كبير من الأكواخ المأهولة بالسكان بكثافة، وقد بدا لي أنّ هؤلاء هم من الفقراء، لذا لا يُشاهد هناك غير البقّالين وباعة المأكولات.

تقع جدَّة في سهل هو في الحقيقة صَحراء، وطقسها مُتقلِّب باستمرار،

---

(١) درج المؤلفون الغربيون على استخدام هذا المصطلح للدلالة على أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية والدولة السعودية. وهذا المصطلح بلا شك غير دقيق وجاء استخدامه من أعداء الدولة والدعوة واستمر بعد ذلك [المترجم].

فمن يوم لآخر كنتُ أرى مقياس الرُّطوبة ينتقل من أقصى درجات الجفاف إلى أقصى درجات الرطوبة. وتبلغ الرِّياح الشَّمالية التي تقطع صحراء الجزيرة العربية درجة من الجفاف تجعل الجلد ناشفًا، والورق يفرقع وكأنه وضع في بوابة فرن، كما يأتي الهواء محمَّلًا بالتُّراب، فإن تبدّلت الرِّياح لتصبح جنوبيّة، بدت فجأة الأعراض المعاكسة، فالهواء وكل ما يلمسه مشبّع برطوبة لزجة تجعل الغضاريف الحيوانية رخوة، وهو شديد الإزعاج على الرّغم من أن السُّكان يعتقدون أنه أكثر صحَّة من ريح الشَّمال الجافة. وأعلى درجة حرارة شعرتُ بها كانت ٢٤° في مقياس الحرارة. ولقد وجدتُ الجوَّ أثناء هبوب رياح الجنوب محمَّلًا نوعًا ما بالضَّباب.

وفي إحدى اللّيالي كان القمر في سمت الرَّأس، وفي ليلة أخرى كان ناحية الشَّمال، وبتأثير خطّ العرض فقد كنتُ على بُعد درجتين تقريبًا جنوب المدار.

ومنذُ لحظة وصولي كانت تُقدّم لي كل يوم جِرار صغيرة من ماء بئر زمزم العجيب، وكنتُ أشربُ وأدفَع أجرته.

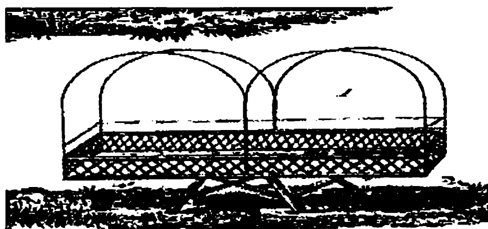
وفي عشيَّة سفري إلى المدينة المقدسة، وقد حضر قبطان سفينتي لزيارتي، انكسر مؤشّر مقياس الرُّطوبة.

الفصل الثاني

الوصول إلى مكة المكرمة

- مواصلة الطَّريق إلى الأماكن المقدَّسة
- بلدة الحدّة
- الوصول إلى مكَّة
- الطَّواف حول بيت الله
- السَّعي بين الصَّفا والمروة
- الدُّخول إلى الكعبة
- مُثولي أمام السُّلطان الشَّريف
- زيارة نقيب الأشّراف
- غسيل الكعبة
- اللَّقب الشَّرفي لعلي باي
- وُصول السعوديين.

بعد تَريُّثٍ قصيرٍ واصلتُ المسير إلى مكَّة على الرّغم من حالة الوهن التي أشعرُ بها، كان ذلك في يوم الأربعاء للحادي والعشرين من يناير (من سنة ١٨٠٧م الموافق للثَّاني عشر من ذِي القعدة سنة ١٢٢١هـ) في السَّاعة الثالثة مساءً، وكنتُ محمولًا على آلة معمولة من العصي المتماسكة، على هيئة كنبة أو عربة صغيرة على شكل أقواس، مغطَّاة بالقُماش وموضوعة على ظَهر الجمل، هذه الآلة تُعرف بـ«الشِّبرية»(١) وهي مُريحة جدًّا حيث



(١) ويَقصد بها الهودج أو المحمل كما هو ظاهر في الشكل المرفق، ويقال إنّ أوّل من استخدمها في الحجّ هو الحجّاج بن يوسف الثقفي. انظر: اللواء إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦؛ معروف الرصافي: **الآلة والأداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات**، تحقيق وتعليق: عبدالحميد الرشودي. بغداد ١٩٨٠م، ص ٣٣٧؛ كما عرض سيد بكر لأنواع أخرى منها، انظر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، ص٩٢ ـ ٣.

يُمكن الجلوس أو التَّمدُّد، ولكن حركة الجمل وهي حالة عايشتُها لأوَّل مرَّة في حياتي، أزعجتني للغاية لأنّي كنتُ منهكًا جدًا.

أخذ مُرافقيّ من العرب يتشاجرون في الطَّريق لأكثر من ساعة، وبصُراخ أذهل كلّ الحاضرين، ظننتُ أنّ خلافهم قد ينتهي، ولكن كانت تنتظرنا مُشاجرة أخرى وصُراخ أشدّ خارج الأسوار[١]، وهذا عرقل المسيرة لأكثر من ساعة ونصف، وفي النّهاية وعندما هدأت العاصفة وحُمّلت الجمال تحرَّكنا في السَّاعة الخامسة والنصف باتّجاه الشرق، مُخترقين سهلًا صحراويًا تتراءى فيه من خلال الأفق بعض الجبال المتفرّقة التي تقطع رتابة الصَّحراء.

وفي تمام السَّاعة الثَّامنة والنّصف ليلًا، وصلنا إلى تلك الجبال التي هي خليط من الصُّخور الخالية من النَّبات؛ كان الجوُّ هادئًا والقمرُ الذي يسير فوق رؤوسنا جعل من السَّفر متعة، وهذا أطرب أصحابي العرب الذين أخذوا يُغنُّون ويرقصون من حولي، لكنّي أبعد من أن أشاركهم فرحتهم بسبب اعتلال صحّتي وترنُّح الجمل بي، وهو ما جعلني شخصًا لا يمكن احتماله، ومع شدَّة الانزعاج والضَّوضاء، فقد كنتُ مُمدَّدًا مُنهارًا خاصة مع حالة الضَّعف التي أجدُ نفسي بها. وقد نِمتُ ساعتين، وعندما استيقظتُ ارتفعت عليّ الحمَّى من جديد، وقذفتُ بعض الدَّم من فَمي؛ أما رُفقاء الدَّرب فأخذهم النُّعاس فضَلّوا الطَّريق، لكنهم تنبَّهوا بعد مُنتصف اللَّيل إلى أنّهم يسيرون صَوب مَخا[٢] فعدَّلوا سيرهم باتّجاه

(١) يذكر إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري في حجّ ١٩٠٣م/ ١٣٢٠هـ أن الصّياح عند الأعراب في هذه المناطق يرمز إلى الاعتداء أو العدوان، وأنّ ذلك بمثابة نداء لأصحابهم لاستكثار الجمع، ومن ثمّ طلب الإتاوة أو مبلغ ما. **مرآة الحرمين**، ٢/ ٢٠٥. لكن هنا وكما هو واضح يبدو الخلاف على أمور تتعلّق بسير الحملة وترتيب أمورها وتقاسم ما تجود به محافظ المسافرين.

(٢) يقصد باتّجاه اليمن.

الشّمال الشرقي بين جبال متوسطة الارتفاع وقليلة الأشجار.

وأخيرًا سلكت القافلة الطّريق الصَّحيح، واستمرت بالمسير نحو الشرق حتى السَّادسة صباحًا من يوم الخميس للثّاني والعشرين من نفس الشَّهر، فتوقّفنا عند بلدة مكوَّنة من العشش اسمها الحدّة[1] تُوجد بها بئر ذات ماء مالح. لم أتمكن من تقدير المسافة التي قطعناها بالضّبط، لكن أظنُّ أنّنا كُنَّا على بُعد ثمانية أميال إلى الشرق من جدَّة.

أكواخُ هذه البلدة كلّها متشابهة ودائرية تمامًا، ومحيطها سبعة أو ثمانية أقدام، بسقف مخروطي يتشكَّل من صفّ من الأعواد بارتفاع سبعة أقدام آخذة شكل القفص، مغطّاة بسعف النَّخيل والشُّجيرات، وتتكوّن هذه البلدة ـ حيث يعيش هؤلاء الناس ـ من مجموعة من العشش، مُحاطة بالنِّفايات، مع صفّين من الأكواخ الخارجية الفارغة والمعزولة عن بعضها، خُصّصت لإيواء القوافل عند قدومها، حيث يأخذ كل واحد راحته في كوخ دون إذن من أحد. ويقع البئر بين هذه الأكواخ المحدثة، ويشكّل مُحيطه قدمًا ونصفًا من كل جهة، وعمقه ستّة أذرع، وفي فتحته حبل مع دلو من جلد لخدمة القادمين؛ وبما أنَّ أرضيَّة البئر تتكوَّن من

(١) يقول إبراهيم رفعت باشا: «. . . وصلنا حدّة (بالحاء المهملة) وهي بلدة صغيرة على اليسار، بها حُصن ومسجد ذو مئذنة وعين ماء حلوة وبئران على يسار الطَّريق، وبها نحو ٦٠٠ نخلة يملكها عون الرَّفيق باشا شريف مكَّة كما قيل لنا، وتجد بالأرض شجر الحرمل وأشجارًا أخرى صغيرة مختلفة الأجناس، وترى أمير الحجّ جالسًا على مقربة من شمسيَّة ألفت بها الرِّياح. وكان المحمل يبيت أولًا بحدّة ثمّ عُدل عنها إلى بحرة لما أن تعدَّى أهلها عليه». انظر: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٧. لكن جون بوركهارت يذكر أنه توقّف بهذه المحلّة بعد المرور ببحرة وبعد مسير ساعتين منها، ويقول إنَّ أهل جدَّة يُحرمون منها. انظر: **رحلات في شبه الجزيرة**: ص ٥٩. وتقع بين الحديبية وبحرة على الطَّريق بين جدَّة ومكَّة. انظر: عاتق البلادي، **معالم مكَّة التأريخية والأثرية**، دار مكَّة ١٩٨٣م، ص ٨١.

رمال هشَّة إلى مدى عميق، ولكي لا ينهدّ وتغمره الرّمال فقد كان عليهم أن ينضدوه بحاجز من أعلاه إلى أسفله. وفي الحقيقة فإنّ المكان برمّته ليس إلا وادٍ من الرّمال تنمو به بعض النّباتات غير المثمرة ولا حتى المزهرة مُمتد من الشرق إلى الغرب، ويقربه جبال ذات حجر رخام سُماقي أحمر تشتدّ كثافته حينًا وتقلّ أخرى.

وطريقة إعلاف الإبل بدت لي لطيفة، فهم يفرشون الأرض أولًا بحصيرة أو قطعة من القُماش دائرية الشَّكل قُطرها خمسة أقدام أو ستة، وبعد ذلك يضعون في الوسط كميّة من الحشائش الشائكة مُقطَّعة تمامًا، وبعد تجهيزها يسوقون الجمل إليها فيجثو ببطء أمام الأكل، وهكذا تأتي الجمال على التّوالي الثاني ثم الثالث والرابع، يفعل كل منها مثلما فعل الأول، وببعدٍ متساوٍ، ثم يبدؤون بالأكل بطريقة حضريّة وبانتظام يُثير الإعجاب، فيأكل كل واحد من الحشائش التي أمامه قليلًا قليلًا، وإذا أخلَّ أحدهم بالنّظام، نهره رفيقه بشكل لطيف، فيعود إلى مكانه، وبكلمةٍ واحدةٍ فإنَّ نظام مائدة الجِمال هي صورة صادقة عنها لدى أصحابها.

في هذا المكان كرَّرنا شعائر الطّهارة مثلما فعلنا في رَابغ، وهو الغُسل العام الذي فعلته بالماء الحارّ، ثم الدُّعاء الذي تجب تلاوته قبل ارتداء الإحرام[١]، وبعد ذلك يتدثَّر الشَّخص بقطعتين من القُماش غير المخيط، الأولى تُلفُّ على أسفل الجسم والأخرى يُلفُّ بها أعلاه، حيث تُوضع أعلى الكتف الأيسر وتحت الأيمن الذي يبقى مكشوفًا مثله مثل الرَّأس والرجلين والقدمين؛ وعلى هذه الهيئة يمشون خُطوات باتّجاه مكّة

---

(١) هنا تلطيف للعبارة التي أوردها المؤلف، بنصّ: «الدُّعاء الذي تجب تلاوته في حالة عُريٍ تامّ». وهو ممّا لم يرد في أثر ولا فعل ممن يعتدُّ بأقوالهم وأفعالهم من سلف هذه الأمّة. ولعلّه من تصورات الرحالة، أو مما يدخل في باب الإثارة والتَّزويق القصصي من جانب المؤلِّف.

دَاعين مُلبّين: لبّيك. . .إلخ، نستمر بهذه الملابس حتى المساء حسب ما تقتضيه المناسك[١].

إنّ سُكّان المخيَّم يبيعون ماءً حُلوًا نقيًّا، يأتون به من الجبال المجاورة من ناحية الجنوب، وعندما هممنا بالرَّحيل جاء رجل عربي من أهل البلدة يطلب أجرته، وقد استلم فعلًا مكافأة مقابل المأوى.

وفي السَّاعة الثالثة عصرًا تحرّكنا نحو الشرق، في طريق رحب ومنبسط، وللتوّ اكتشفتُ بعض الأحراش الصغيرة؛ وبعد أن غربت الشَّمس مررتُ بجبال بركانية مغطاة بالحمم السَّوداء، وهناك لحظت آثار بعض المنازل المهدّمة من قبل الوهابيين[٢]، ومنها اجتزنا بعض المرتفعات، وفي السَّاعة الحادية عشرة والنصف ليلًا وجدتُ نفسي في فجّ ضيقٍ وعميق تعترضه مدرجات ومنعطفات، يأخذ شكلًا رائعًا لموقع عسكري.

وفي مُنتصف ليلة الخميس للثالث والعشرين من يناير عام ١٨٠٧م المصادف للرَّابع عشر من شهر ذي القعدة من عام ١٢٢١ هجرية، وصلتُ ـ بفضل العناية الإلهيَّة ـ إلى مشارف المنازل الأولى للمدينة المقدَّسة مكّة (المكرَّمة) بعد مُضيّ خمسة عشر شهرًا لخروجي من المغرب.

وفي مدخل المدينة كان هناك الكثير من المغاربة أو عرب الغرب الذين أحاطوا بي وبأيديهم أباريق صغيرة مملوءة بماء زمزم، قدَّموها لي لأشربَ منها، راجين ألا أشرب من غيرها، وعرضوا عليَّ في الوقت نفسه

---

(١) ارتداء الإحرام بهذه الهيئة التي وصفها يستمرُّ حتى إتمام نُسك العُمرة أو الحجّ حسب نوع الإحرام: تمتّع أو إفراد أو قران؛ لذا فإنَّ ذكره حتى المساء هنا تبدو زيادة أو لبس من قبله، لأنه لم يُشر في الإحرام الأول برابغ إلى تحديده بزمن كما ذكر هنا.

(٢) بما أنَّه لم يوضح هنا سبب هذا التَّدمير، فربما كانت هذه مَواقع عسكريَّة تعرضت للهدم في المعارك التي جرت بين الجيش السُّعُودي وبين قوّات الشَّريف، أو أنها كانت تشتمل على ما كان يحاربه هؤلاء من بدع وشركيّات. ولا يُستبعد أيضًا أن من زوّده بالمعلومة كان مُغرضًا.

تأمين السَّكن، كما أسرُّوا إليَّ ألا أشرب أبدًا من الماء الذي يعرضه عليَّ شيخ الزمازمة[١].

كان في انتظاري كذلك عدد من شخصيَّات المدينة، وقد دخلوا في جدال فيما بينهم حول من سيستضيفني، إذ إنَّ السُّكنى من القضايا المهمَّة لهم مع الحجَّاج، لكن حَسم الموضوع ـ فيما يتعلق بسكني ـ أولئك الذين تحمَّلوا مسؤوليَّة حاجاتي الملحَّة خلال وجودي في جدَّة، إذ قادوني إلى بيت قد جُهِّز لي بجانب الحرم، مُلاصق لبيت السُّلطان الشَّريف.

يجب على الحجَّاج أن يدخلوا مكَّة سيرًا على الأقدام[٢]، لكن بسبب مرضي فقد دخلتُ محمولًا على جمل حتى مكان إقامتي. وحال وصولنا اغتسلنا ثم سِرنا في موكب إلى الكعبة مع كلِّ رجالي، وكان الرَّجل الموكل بنا يدعو خلال مسيرتنا بأدعية مختلفة وبصوت عالٍ ونحن نُردِّد وراءه كلمة بكلمة وبنفس النَّغمة، وكنتُ أُعاني من الضَّعف والهزال لدرجة أنِّي كنتُ مسنودًا من قِبل اثنين من خدمي.

على هذا النَّحو، وصلتُ إلى الحرم والتففنا مع الشَّارع الرَّئيس كي يكون دخولنا من «باب السَّلام» الذي يُعد الدُّخول منه ذا فألٍ حسن، وبعد أن نزعتُ حذائي دخلتُ من هذا الباب السعيد بجانب الزاوية الشَّمالية للكعبة، وعندما اجتزنا الرِّواق وهممنا بالدُّخول إلى السَّاحة الكبرى حيث يتراءى بيت الله، أوقَفَنا دليلنا مُؤشرًا بإصبعه نحو الكعبة قائلًا لي بنبرةٍ عالية: «شُوف شُوف بيت الله الحرام».

إنّ صورة الموكب المحيط بي، والرُّواق ذا الأعمدة الممتدة على مدى اتِّساع النَّظر، والسَّاحة الكُبرى، ثمّ بيت الله المغطَّى من الأعلى إلى الأسفل بالقُماش الأسود، والمحفوف بالمصابيح، في هذه اللَّحظات

(١) سيوضح لنا ذلك بالتفصيل فيما بعد.
(٢) ليس ذلك من واجبات الحجّ، ولا من مُستلزمات الدُّخول إلى مكَّة المكرَّمة.

المواتية مع هَدأة اللَّيل، ودليلنا الذي كان يتكلَّم أمامنا بكل ذلٌ وخُشوع، شَكَّل أمامي لوحة مهيبة سوف لن تُمحى من مُخيلتي إلى الأبد.

دخلنا السَّاحة من رصيف مائل بارتفاع قدم، حيث تنتهي بالزَّاوية الشَّمالية للكعبة، ولهذا فهي تقريبًا تُعدُّ وسط الحرم، وقبل الوصول إلى هناك مررنا عبر قوسٍ منعزلٍ على شكل أقواس النَّصر يُسمى «باب السَّلام» مثل الباب التي دخلنا منها من قبل؛ ووصلنا أمام بيت الله، وتلونا أدعية قصيرة، وقبَّلنا الحَجَر الأسود الذي جلبه الملك جبريل ويُسمَّى «الحجر الأسود أو الحجر السماوي». ثم قادنا دليلنا إلى الأمام مُصطفِّين بنفس التنظيم الذي دخلنا فيه مردِّدين الأدعية بصوتٍ جماعي، ثم شَرعنا بالطَّواف حول بيت الله.

إنَّ الكعبة بمثابة بُرج رُباعي الشَّكل، تقع وسط الحرم تقريبًا، وتُغطَّى بقُماش كبير أسود، لا يترك أيَّ مجال مكشوف، باستثناء قاعدة المبنى أو الجزء النَّاتئ منه، وكذلك المساحة التي يُوجد بها الحجَر الأسود، والآخر المشابه له في الزَّاوية الجنوبية، والذي هو من المرمر العادي؛ كما يوجد في الجانب الشَّمالي الغربي حائطٌ يرتفع إلى الأعلى بمقدار قَامة رجل، مشكِّلًا شبه دائرة، ومعزول عن المبنى يُسمَّى حِجر إسماعيل.

وإليكم تفاصيل مَراسم النُّسك المتلاحقة حسب ملحوظاتي لذلك المشهد الدِّيني كما فعلتُه أنا في ذلك الوقت:

بدأنا بالطَّواف حول الكعبة سبع مرات، وفي كلِّ دورة تبدأ من الحجر الأسود في الزاوية الشرقية، مُتابعين الخُطى نحو الواجهة الرَّئيسة للكعبة حيث يُوجد الباب، ومن هناك نلتفتُ نحو الغرب والجنوب خارج حِجر إسماعيل، وعند وصولنا إلى الزاوية الجنوبيَّة تُمدّ الذِّراع اليُمنى، وبعد إمرار اليد على مرمر الرُّكن، مع اتِّخاذ الحيطة والحذر لئلا يمس الجزء

الأسفل من اللِّباس قاعدة المبنى المكشوفة، وتَمسح الوجه واللِّحية قائلًا: «بسم الله، الله أكبر، الحمد لله».

وتستمر المسيرة نحو الشَّمال الشرقي مُردّدين: «الله أكبر، ربّنا آتنا في الدّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة»، مُلتفين في الوقت نفسه نحو الزاوية الشرقية مُقابل الحجر الأسود، رافعين الأكفّ داعين مُلبِّين بمثل ما بدأنا به: «بسم الله، الله أكبر»، مُضيفين مع خفض اليدين: «الحمد لله»، وبعد ذلك نُقبِّل الحجر الأسود، وبهذا تكتمل الدورة الأولى من الطَّواف.

والطَّواف الثاني مُشابهٌ للأوّل، ولكنَّ الأدعية تختلف ما بين الحجر الأسود والرّكن الجنوبي (اليماني)[١]، ولكنّها ابتداءً من الحجر الأسود هي نفسها في الدورات السَّبع؛ وهنا قاعدة عامَّة فإنَّ الإسراع يجب أن يكون في الأخيرة منها[٢]، لكن نظرًا لحالتي الصحيَّة الصَّعبة فإنّي قد اكتفيتُ بخطواتي البطيئة.

وبعد نهاية السُّبع الأخير من الطَّواف، وتقبيل الحجر الأسود، يُتلى الدّعاء الجماعي المختصر في هيئة القيام، وباتّجاه القبلة بين باب الكعبة والحجر الأسود، وبعد ذلك الذّهاب إلى مبنى معرَّش يُسمَّى «مقام إبراهيم»، الواقع بين الكعبة والقوس المعروف بباب السَّلام، وهناك تُؤدَّى الصَّلاة العادية. ومن ذلك الموقع يتمّ الانتقال إلى بئر زمزم، حيث يستخرجون دلاء الماء ويشربون حتى الارتواء.

---

(١) الدُّعاء المأثور في هذا الموضع يتكرَّر بصيغة: «اللَّهم ربَّنا آتنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذاب النَّار» انظر: سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب: **تحفة الناسك بأحكام المناسك**، ط. الدارة، الرياض ١٩٩٩م، ص٢٤.

(٢) الصَّحيح أنَّ الإسراع أو الرَّمل ـ كما يُطلق عليه الفقهاء ـ هو في الأشواط الثلاثة الأولى وليس الأخيرة كما ذكر باديا. انظر: الجزيري: **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، ١/ ٦٥٥ ـ ٦٥٦.

نخرجُ بعدها من خلال باب الصَّفا حيث يُصعد في زقاق يُؤدِّي مُباشرة إلى ما يُسمَّى جبل الصَّفا، وفي طرف الشَّارع الذي ينتهي بما يُشبه السَّاحة، مَبنى مُكَّون من ثلاثة أقواس على أعمدة، ومنها يكون الصُّعود بالدّرج إلى المكان المقدَّس المسمَّى «الصَّفا»، وعند صُعود الحاجّ يُحوّل وجهه نحو باب الحرم[١] الذي يكون أمامه، ويدعو دُعاءً قصيرًا واقفًا على قدميه.

عند ذلك يأخذ الشَّارع الرَّئيس[٢] باتّجاه جبل المروة، قاطعًا المسافة وهو في حالة دُعاء مُستمر حتى نهاية الشَّارع المقطوع بحائط ضخم، ومنه يصعد بعض الدَّرج مُولِّيًا وجهه نحو الكعبة، ولو أنَّ منظر البيوت المعترضة تحجب الرؤية، وفي كل الأحوال تستمر الأدعية القصيرة؛ وبعد السَّعي الثاني نحو الصَّفا يتبعه ثالث باتّجاه المروة، وهكذا وبشكل مُستمر حتى المرَّة السَّابعة، مع ترديد الأدعية بصوتٍ عالٍ، وترديد الابتهالات القصيرة في كلا المكانين المقدَّسين، وبهذا ينتهي الطَّواف سَبع مرَّات رواحًا ومجيئًا بين التلَّتين.

وعندما أنهيتُ السَّعي للمرَّة السَّابعة في المروة، رأيتُ عددًا من الحلَّاقين تمركزوا في ذلك المكان لحلاقة الشَّعر للحجَّاج، يُؤدُّون ذلك بمهارة عالية، ويهتفون بالدُّعاء بصوتٍ عالٍ يُردِّده الحاجُّ معهم كلمةً بكلمة. وكان من المتعارف عليه أنَّ كلَّ مسلم يترك خُصلة من الشَّعر تنمو في وسط رأسه، لكنَّ المصلح (محمد بن) عبدالوهَّاب أفتى بأنَّ ترك هذه الخصلة يُعد ذَنبًا؛ وبما أنَّ الوهابيين يسيطرون على البلاد[٣]، وكلّ الناس

(١) الصَّحيح هنا هو الاتّجاه إلى الكعبة.

(٢) سيأتي الحديث عن وضع ما بين الصَّفا والمروة لاحقًا.

(٣) يقصد بذلك الدَّولة السُّعوديّة الأولى، ومن الجدير ذكره هنا أنَّ الصَّحابة ومن جاء بعدهم ممن يُعتدُّ به من السَّلف، لم يُؤثر عنهم تَرك هذه الخصلة التي أشار إليها، لذا فإنَّ ما قام به أتباع الدَّعوة الإصلاحيَّة في إطار ما ذكره المؤلِّف لم يخرج عن منهج أهل السُّنة والجماعة.

يَحلقون رؤوسهم تمامًا، لذا وجدتُ نفسي مُجبرًا على ترك خُصلة شَعري الطَّويلة تسقط على يد ذلك الحلاق العديم الرَّحمة[١].

كان طُلوع الفجر يقترب عندما أكملنا كلَّ هذه الواجبات الأوّلية، بعدها قالوا بأنّني أستطيع الذَّهاب للاستراحة بعض الشَّيء، وبما أنّه لم يتبقَّ إلا القليل على صَلاة الصُّبح، فقد آثرتُ البقاء لأدائها والعودة إلى الحرم، بالرَّغم من تَعبي وهُزالي، ولذا لم أتمكن من دخول بيتي إلا السَّاعة السَّادسة صباحًا.

وعند مُنتصف النَّهار عُدتُ إلى الحرم لأداء صلاة الجمعة بعد أن طُفتُ للمرَّة الثانية حول الكعبة سبع مرَّات، والصَّلاة مُنفردًا ثم الإكثار من شُرب ماء زمزم.

وفي اليوم التالي، «السبت الرابع والعشرين من يناير سنة ١٨٠٧م الموافق ليوم الخامس عشر من ذي القعدة عام ١٢٢١ هجرية» فُتح بَاب الكعبة، وهي مسألةٌ لا تتكرَّر إلا ثلاث مرَّات، وفي أيَّام مُتفرقة من السَّنة، ففي المرة الأولى يستطيع الرِّجال كافّة في مكَّة من الدُّخول والصَّلاة في الدَّاخل، وفي اليوم التَّالي تُفتح للنِّساء وهذه هي المرَّة الثانية، أمَّا الثَّالثة فتُفتَح بعد خمسة أيَّام، وتُخصَّص لتنظيف بيت الله وتطهيره[٢]، لهذا

(١) في هذا الصَّدد يذكر بوركهارت أن أتباع المذهب الحنفي يحلقون رُبع الرَّأس فقط، ويُبقون ثلاثة الأرباع من الشَّعر حتى يعودوا من العمرة الأخرى. انظر: **رحلات** ص ٩٣.

(٢) يُحدِّد بوركهارت تواريخ أخرى لفتح باب الكعبة وهي: العشرون من رمضان، والخامس عشر من ذي القعدة، والعاشر من محرم، ويتَّفق معه في كونها ثلاث مرَّات في السَّنة. انظر: **رحلات**، ص ١٦٥. بينما يُؤكِّد جوزيف بيتز الذي كان في مكَّة ١٦٨٠م/ ١٠٩١هـ أنَّها فُتحت في يومين مُتتاليين يوم للرِّجال وآخر للنِّساء. انظر: **رحلة جوزيف بيتز إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ القاهرة ١٩٩٥م، ص٥٢. وقد فصَّل الحديث مُعززًا بالرِّوايات الدَّالة على

السَّبب فإنَّ الحجَّاج الذين لا يقيمون في مكَّة ـ عادةً ـ لأكثر من ستَّة أو ثمانية أيَّام التي هي مدة الحجّ[(١)]، يعودون إلى بلادهم دون أن يَروا داخل الكعبة.

يقع باب الكعبة في واجهة الشَّمال الشرقي، ويَبعد مسافة قليلة عن الحجر الأسود، وعلى ارتفاع حوالي ستَّة أقدام عن سطح ساحة الحرم، ولأجل الدُّخول إلى هناك وُضع في الخارج سلَّم جميل من الخشب محمولًا على ستِّ إسطوانات من البرونز.

في هذا اليوم[(٢)] أدخلوني إلى الكعبة، لكن نظرًا لوجود حشد كبير من النَّاس فقد أجلسوني تحت مظلّة عند حرس الكعبة مقابل الحجر الأسود، وهؤلاء الحرس هم من خِصيان الزُّنج. وعندما قلَّ عدد النَّاس قادني بعض أولئك الحرس مع مُرشدي إلى بيت الله، وقد اهتموا كثيرًا لكي أضع قدمي اليُمنى في الدَّرجة الأولى من السُّلَّم، وعند دُخولي إلى الكعبة أخذوني مباشرة إلى الزَّاوية المواجهة للجنوب حيث بقيتُ واقفًا ومسندًا جسمي ووجهي عكس الحائط، وبعد أن دعوتُ بصوتٍ عالٍ أدّيتُ الصَّلاة أمام الزاوية الجنوبية، ثمّ ذهبتُ بعد ذلك إلى الزَّاوية المواجهة للغرب، اتّجهت بعدها مُباشرة إلى تلك التّي تُواجه الشَّمال مُكرِّرًا ـ بالضبط ـ ما قمتُ به من قبل في الزاوية الجنوبية، وعند ذهابي إلى الزاوية المتَّجهة صوب الشرق ردَّدتُ واقفًا أدعية قصيرة فقط، وقبّلتُ المفتاح الفضِّي

- فضل الصَّلاة داخل الكعبة والآراء الواردة حول ذلك، حسين باسلامة: **تاريخ الكعبة المعظّمة**، تعليق يوسف الثقفي الرياض ١٤١٩هـ، ص ص ٤١٦ ـ ٤٣٣.

(١) حذفنا هنا كلمة «عرفات» التي أوردها الرَّحالة لتمييز هذا النوع من الحجّ بقوله: «حج عرفات» عن العمرة التي ربما أطلق عليها بعضهم اسم الحجّ تجاوزًا.

(٢) يقصد ما ذكره في الفقرة السابقة، «السبت ٢٤ يناير عام ١٨٠٧م الموافق ليوم ١٥ من ذي القعدة عام ١٢٢١ هجرية».

للكعبة الذي كان بيد ابن الشَّريف المتربِّع على الكرسي[١]. خرجتُ بعدها مَحميًا من قبل العبيد الذين كانوا يبعدون النَّاس ويدفعونهم لفتح الطَّريق لي، وعندما وجدتُ نفسي خارجًا قبَّلتُ الحجر الأسود، وطُفتُ سبع مرَّات حول بيت الله، دخلتُ بعدها في خندق صغير عند قاعدة الكعبة بجانب الباب حيث أدّيتُ الصَّلاة، وبعدها شربتُ من ماء زمزم ثم عُدتُ إلى مَخدعي.

وفي عصر ذلك اليوم نفسه تلقيتُ بلاغًا للمُثول بسرعة أمام السُّلطان الشَّريف، فجاء إليّ نقيب الأشراف ورافقني إلى القصر حيث صعد هو أولًا، وبقيتُ عند الباب مُنتظرًا الأمر بالدُّخول، ولم تمض سوى برهة يسيرة حتى نزل بعدها شيخ الزمازمة الذي أصبح صديقي للبحث عنّي، صعدتُ معه دَرجًا في مُنتصفه باب يقطع الطَّريق، لكنَّ مُرافقي نادى على اثنين من مُسلَّحي القصر، ففتحوا الباب، وواصلنا الصُّعود، وفي طريقنا عبرنا ممرًّا مُعتمًا، وما أن نزعنا خُفَّينا في تلك الفسحة حتى دخلنا إلى صالون جميل، يجلس فيه السُّلطان الشَّريف الملقَّب بـ«الشَّريف غَالب[٢]» بمحاذاة النَّافذة، مُحاطًا بسبعة أشخاص واقفين، وبعد السَّلام عليه بادرني بالأسئلة الآتية:

- هل تتكلمون العربيّة؟[٣]

- نعم سيّدي[٤].

---

(١) قد يكون الوصف الذي ذكره بوركهارت حول هذا الموضوع يحمل تفاصيل أدق. للمقارنة، انظر: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص ١٦٥.

(٢) سبق الحديث عن هذه الشَّخصية وسيعود إليها باديا معرِّفًا وناقدًا في فصول قادمة.

(٣) «الشَّريف كان يعتقد أنّي تُركي» من ملحوظات الرَّحالة.

(٤) يلحظ أنَّه يكتب «سيدي» هكذا «sire» كما أنَّ الخطاب لباديا كان يتمُّ بلغة الجمع وذلك من باب التَّفخيم والتَّقدير.

- والتُّركيّة؟
- لا يا سيدي.
- هل تتكلّم العربيّة فقط؟
- نعم سيدي.
- هل تتكلّمون لُغات النَّصارى؟
- بعضها.
- ما بلدكم؟
- حَلَب.
- هل خرجتُم منذُ سِنٍّ مُبكرة من وطنكم؟
- نعم سيدي.
- أين كنتم خلال مدة غيابكم؟

حكيتُ له قصّتي، وعندها قال الشَّريف للذي كان على يساره: «إنه يتكلَّم العربيَّة جيّدًا، ولكنته العربيَّة مُتقنة تمامًا».

واستمرّ متوجِّهًا إليَّ بالحديث: «اقترب»، عندها اقتربتُ قليلًا لكنَّه كرَّر: «اقترب»، فدنوتُ حتى وصلتُ إليه فقال لي: «اجلس»، فبادرتُ بالجلوس، وأمر أيضًا بأن يجلس الشَّخص الذي كان على يساره، وأردفَ قائلًا: «بلا شكّ لديك أخبار عن بلاد النَّصارى، قل لي آخر ما توصلتَ به من هذه الأخبار». حكيتُ له روايات مُختصرة عن حالة أوربا.

ثم سَألني بعد ذلك:

- هل تعرفون القراءة والكتابة بالفرنسيَّة؟
- قليلٌ يا سيدي.
- قليلٌ قليلٌ أو جيِّد؟

- قليلٌ قليلٌ سيدي.

- أيّة لغة تقرؤون وتكتبون بها بشكل جيِّد؟

- الإيطاليّة والإسبانيّة.

بقينا بعدها نتحدَّث لأكثر من ساعة، قدَّمتُ في نهايتها له هديَّة وفُرمانًا من الكابتن باشا[١]، ثم انسحبتُ بصحبة شيخ الزمازمة الذي رافقني إلى منزلي.

وقبل أن استطرد في الكلام أودُّ أن أُعرِّف بصاحب هذه الشَّخصية المهمَّة الذي أصبح صديقًا؛ كان شابًا بين الثانية والعشرين والرَّابعة والعشرين، حاضر البديهة، ذا نظرة ثاقبة ومظهر أنيق، رقيقًا جدًّا وذا طبع لطيف وجذّاب، وله العديد من الصِّفات الأخرى التي تجعل منه شخصًا لطيف المعشر؛ أصبح مَوضع ثقة كاملة للشَّريف، وهذا أهَّله لهذه المكانة المهمَّة وأقصدُ بها «رئيس التَّسميم!!» اطمئن أيُّها القارئ ولا تشعر بأيِّ خوفٍ من ناحيتي[٢]؛ هذا الرُّجل الخطير تعرَّف إليَّ مُنذ الوهلة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى زمزم، وكان باستمرار يفتعل لي أُبَّهة وولائم فاخرة، وفي كلِّ يوم يبعث لي بجرَّتين صغيرتين من مَاء البئر الرَّائع؛ كما كان

(١) ويقصد به القُبطان باشا حاكم الإسكندرية الذي زوَّده بثلاثة خطابات أحدُها: لمحمَّد علي في القاهرة والآخر لشريف مكَّة والثالث لباشا دمشق، وقد أورد نصّ الخطاب هذا ووصفًا له في الجزء الأول من رحلته وتحدث فيه عن مصر. انظر ص٢٥٢ من الرحلة، ط. برشلونة. وفي هذا الخطاب توصية وتعريف، يقول القبطان في مطلعه: «إنَّ حامل هذه الرِّسالة يُدعى علي باي وهو أحد الأشخاص الذين يعملون في خدمة جلالة السُّلطان مولاي إسماعيل ملك المغرب، جاء إلى هنا لإكمال ما يمليه عليه الدِّين، وأمضى بعض الوقت هنا في الإسكندريَّة وسيرحل إلى الجزيرة العربيَّة، طالبًا غفران ذنوبه وملبيا نداء الضمير والدِّين».

(٢) سبق أن أشار إلى تحذير بعضهم إياه من الماء المقدم من قبل هذا الشَّخص حال وصوله إلى مكَّة المكرَّمة.

يتجسّس عليَّ عند ذهابي إلى الحرم، ويتودَّد إليَّ بلُطف ودماثة مُتناهيتين، ويُقدِّم لي إناءً مملوءًا بالماء المعجزة، وأنا أرتشفه دون تردُّد حتى القطرة الأخيرة.

هذا الرُّجل كان يُراقب أيضًا تصرُّفات كلِّ الباشوات والشَّخصيَّات المهمّة التي تصل إلى مكّة، ولأدنى شكٍّ أو هوى، وبأمرٍ من الشَّريف، هذا الأجنبي التَّعيس يَختفي من الوجود، إذ إنّه من كُفران النِّعمة رَفض هذا الماء المقدَّس المقدَّم من رئيس البئر، لذلك أصبح هذا الرّجل وبهذه الوسيلة مُتحكِّما بحياة كلِّ الحجَّاج حيث تمَّت تصفية الكثير من الضَّحايا.

ومنذُ زمن قديم، كان لأمراء أشراف مكَّة شَخص مَسؤول عن التَّسميم في البلاط، وممَّا يُحمد لهم أنّهم لم يخفوا ذلك، وهو مَعروف في القاهرة وفي القسطنطينية، لدرجة أنَّ الدِّيوان بعث في عدد من المرَّات بباشوات وشخصيَّات مُهمَّة إلى مكَّة للتَّخلُّص منهم بهذه الطَّريقة[١]، وهذا يُفسِّر لماذا المغاربة أو أهل المغرب العربي الذين كانوا مُخلصين لي تمامًا بادروا بتنبيهي لأكونَ في حالة حذر عندما وصلتُ إلى هذه المدينة.

لقد ساور الهلع خدمي من هذا الغدّار، بينما تظاهرتُ له من جانبي بثقتي التَّامة تجاه ما يُقدِّمه لي من مَاءٍ وأطعمة، وتقبّلتُ ذلك بهدوء ورباطة جأش ودمٍ بارد، لكن من جانب آخر كنتُ مُحتاطًا دائمًا في حَمل ثلاث جرعات من سُلفات الزّنك المقيّئ، وهو ذو مفعول أقوى من الأقراص المقيّئة، ويُعطي مفعوله في الحال، وذلك كي أتناوله منذ اللَّحظة التي أشعر فيها بأيِّ علامة تُوحي بالخيانة.

كان الشَّريف ـ كما بدا لي ـ فيما بين السَّادسة والثَّلاثين والأربعين عامًا من العمر، يميل إلى السُّمرة وعيناه واسعتان وجميلتان ولحيته عادية،

(١) على النَّقيض من ذلك يُفيد آخرون أنَّ شيخ الزمازمة هو أحد عُلماء مكَّة الكبار. انظر: بوركهارت: رحلات، ص١٣٧.

وهو رجل خشن ومع ذلك فهو مرهف الإحساس، وملابسه تتكوّن من بنيش أو قُفطان خارجي وآخر داخلي على شكل نطاق وشال كشميري وآخر من نفس النّوع على شكل عمامة[(١)]، كان خلفه وسادة كبيرة وأخرى إلى جانبه، ووسادة أصغر أمامه عليها يتكئ أحيانًا. لم يكن في الصّالة أيُّ أثاث آخر ولا زينة، وإنّما هناك سجّادة كبيرة تُغطّي البلاط.

وخلال زيارتي للسُّلطان الشّريف كان يَشرب نرجيلة فارسيّة وُضعت فوق قطعة أخرى، وقصبتها الجلديّة تصل إلى فمه من خلال فتحة موجودة في الحائط، ونظرًا لكون المصلح (محمد بن) عبدالوهّاب قد نادى بأنّ استعمال التّبغ هو نوع من الخطيئة، ولكون أتباعه يبثّون الرّعب في النّفوس، لأنّهم يسيطرون على الجزيرة العربيّة، لذا فإنّ التّدخين يتمُّ بخفية وحذر شديدين.

وفي اليوم التّالي الأحد للخامس والعشرين من يناير (الموافق للسّادس عشر من ذي القعدة) زرتُ نقيب الأشراف وحملت له هديّة صغيرة، وقد غمرني بوافر الاحترام والتقدير والمحبّة.

كان هذا هو اليوم الثاني لفتح باب الكعبة ـ كما ذكرتُ ـ ولكنّه مُخصَّص للنّساء فقط، يدخلنَ هناك في مجموعات، ويُؤدّين صلاتهن، بينما يقوم الرِّجال بالطّواف خارج الكعبة.

وفي يوم الخميس[(٢)] للتّاسع والعشرين من يناير الموافق للعشرين من شهر ذي القعدة، غُسلت الكعبة وطُهّرت حسب المراسِم الآتية:

---

(١) يوضح بوركهارت بشيء من التفصيل ملابس الطبقة العليا في الشتاء، وأنّها تتكون من البنيش أو العباءة والجبّة أو المعطف السفلي الذي يشبه ما يرتديه الناس في كل أنحاء تركيا. حيث تربط الجبّة المزركشة بحزام من الكشميري الرقيق. انظر: رحلات، ص١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) ورد حسب نصّ المؤلف خطأ «الاثنين» والصّحيح حسابيًا ما ذكرناه.

بعد ساعتين من طُلوع الشَّمس ذهب السُّلطان إلى الحرم بصحبة ثلاثين شخصًا واثني عشر حارسًا، بعضهم من الزُّنوج وآخرين من العرب، كان باب الكعبة مفتوحًا ومُحاطًا بجموع غفيرة، لكنَّ السُّلم لم يُنصب بعد؛ ومع ذلك فقد صعد السُّلطان الشَّريف على أكتاف بعضهم وعلى رؤوس آخرين، حتى دخل الكعبة مع رؤساء أشراف القبائل، وبينما الآخرون يريدون فعل الشَّيء نفسه، إلا أنَّ الحرَّاس الزُّنوج منعوهم من الدُّخول بالعصيِّ واللَّكمات.

بقيتُ أنا بعيدًا عن الباب كي أتجنَّب الزِّحام، لكن وبأمرٍ من الشَّريف أومأ شيخ الزمازمة إليَّ بيده كي أتقدَّم، ولكن كيف أجتاز هذه الجموع وأمامي أكثر من ألف شَخص؟

كان كلّ سقَّائي مكَّة قد تقدَّموا بقربهم المملوءة بالماء، يمرِّرونها من يدٍ إلى يدٍ حتى تصل إلى الحرَّاس الزُّنوج عند الباب، وكذا يمرِّرون عددًا متزايدًا من مكانس السَّعف الصَّغيرة؛ ثمَّ بدأ الزُّنوج يرشُّون بالماء أرضيَّة الصّالة المبلّطة بالمرمر، كما رشّوها كذلك أيضًا بماء الورد، هذا الماء صار يمرُّ عِبر فتحة تحت عتبة الباب، ويتلقَّاه المؤمنون بلهفة، ولأنّه لا يَشفي غليلهم فإنَّ النَّاس الأبعد منهم يَصرخون، ويطلبون منه للشُّرب وللتَّغسيل، والحرَّاس السُّود يدفعون النَّاس بقوَّة، ويصبُّون الماء بكثرة على النَّاس بالأواني والأيدي. انتبهوا لي فأعطوني جرَّة صغيرة وإناءً، فشربتُ منه ما استطعتُ ورميتُ الباقي إلى الأعلى، لأنَّ هذا الماء ولو أنَّه وسخٌ جدًّا، إلا أنَّه يحمل البركة من الله، بالإضافة إلى أنّه مُعطَّر ومَخلوط بماء الورد.

كافحتُ للاقتراب، فحملني كثير من النَّاس فوق الجموع وعلى الرُّؤوس حتى وصلتُ في النّهاية إلى الباب، فساعدني الزُّنوج والحرس على الدُّخول، وكنتُ مُستعدًّا لهذه العمليَّة، فلم ألبس غير الكاشابا

caschaba وهو قميص صُوف أبيض بلا أكمام، وكذلك العمامة والحايك للتَّمنطق به.

كان السُّلطان الشَّريف يكنس بنفسه، وما أن دخلتُ حتى نزع الحرس منّي الحايك وأعطوني حُزمة من المكانس الصغيرة، فأخذتُها في كِلتا يديّ، وفي الحال سَكبوا كميَّة من الماء على البلاط، وبدأتُ بالتَّنظيف بيديَّ وبحرصٍ شديد على الرَّغم من أنَّ البلاط كان نظيفًا لامعًا مثل المرآة، وخلال العمليَّة وبعد أن أكمل الشَّريف عمليّة التنظيف وتعطير المكان اتّجه إلى الدُّعاء. ناولوني بعد ذلك إناء فضّة مملوءًا بمعجون مكوَّن من نشارة الصَّندل، وهو خشب ذو رائحة عطريَّة نافذة مخلوط بماء الورد، فأرقتُ هذا المعجون على أسفل الحائط المطعّم بالمرمر وتحت الفرش التي تُغطِّي الجزء الأعلى من الحائط وكذلك السّقف، بعد ذلك أعطوني قطعة خشب من نبات الصَّبر الذي أشعلته في الموقد لأجل تعطير داخل الكعبة(١).

عندها مَنحني السُّلطان الشَّريف لَقب «**خادم بيت الله الحرام**»، تلقيتُ بعدها التّهاني من كل الحاضرين، وفي الحال توجَّهتُ للدُّعاء في الزَّوايا الثّلاث من القاعة، مثلما فعلتُه عند دخولي بالمرَّة الأولى؛ وبذلك انتهت مُهمَّتي بالكامل؛ وبينما أنا أُنهي هذا العمل الخيِّر كان السُّلطان الشَّريف قد غادر.

لقد وُجد أثناء أداء هذه المهمَّة جَمع من النِّساء في السَّاحة، وعلى مسافة قريبة من باب الكعبة، كُنَّ يُزغردنَ فرَحًا بين الفينة والأخرى.

---

(١) حول عادة غسل الكعبة، انظر ما كتبه باسلامة الذي أشار إلى أنّ غسل الكعبة المعظّمة أصبح في الوقت الحاضر يجرى مرّتين: واحدة قبل الحجّ في أواخر ذي القعدة، والثانية بعد سفر الحجيج، وغالبًا ما تكون في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول. (تاريخ الكعبة، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٨).

وقد منحوني قليلًا من معجون الصَّندل مع مكنستين، احتفظتُ بها تذكارًا له أهميته، ثم أنزلني الحرَّاس من فوق الجموع الذين أخذوني وأنزلوني إلى الأرض، لأتلقَّى التَّهاني والتبريكات، ومن هناك ذهبتُ إلى مَقام إبراهيم للصَّلاة، ووضعوا عليَّ الحايك، ثم عدتُ إلى البيت وأنا مُبلَّلٌ تمامًا.

هناك عدد من العاملين في الحرم كانوا يُزوِّدونني باستمرار بماء الغسيل، وابن الشَّريف الذي لديه مفتاح الكعبة أرسل إليّ أيضًا بإبريق مع قرن مملوء بنشارة الصَّندل المخلوط بماء الورد، وقرن آخر مملوء بعطور مختلفة، وشمعة ومكنستين صغيرتين، وهكذا نلتُ العديد من المكرمات على أحسن ما يمكن[1].

وفي يوم الثلاثاء الثالث من فبراير المصادف للخامس والعشرين من ذي القعدة قُطِّع القُماش الأسود الكبير الذي كان يكسو الكعبة من الخارج، على ارتفاع ما فوق الباب قليلًا وحول كامل البناء، ولحسن الحظِّ فإنَّ القسم الذي بَقي مَكشُوفًا كان من الجهة السُّفلى، وبذلك اكتملت مَناسك إحرام بيت الله الحرام.

وخلال هذه العمليَّة كان كلُّ العاملين في الحرم يسعون للحصول على قطعة من القماش، وتقسيمه إلى قطع صغيرة لتوزيعها على الحجَّاج هدايا، وهم من ثم يمنحوهم بعض المكافآت، وقد حصلتُ على الكثير منها ولله الحمد.

في ذلك اليوم نفسه دخلت فِرقة من الجيش السعودي لأداء مناسك

---

(١) يبدو أنَّ هذه المراسم تقلَّصت فيما بعد، فبوركهارت يقول: إنه «لم يطَّلع على أية شعائر مقدَّسة عند غسل أرضيَّة الكعبة كما ورد في رحلة علي بك العباسي، فقد رأيت الطواشية يؤدون ذلك العمل بالطريقة ذاتها التي يغسلون بها ما حول الكعبة». رحلات في شبه جزيرة العرب، ص١٦٦.

الحجّ، وإثبات وجودهم في هذه المدينة المقدَّسة؛ لقد رأيتُهم يدخلون صُدفة، كنتُ في السَّاعة التَّاسعة صباحًا بالشَّارع الرئيس، عندما رأيتُ مجموعة كبيرة من الرِّجال قادمة، تخيَّل!! حَشدٌ من الأشخاص مُتلاصقين الواحد بالآخر، لا يضعون من الملابس غير حزام بسيط يحيط بالخصر، وبعضهم يضع إحرامًا فوق الكتف الأيسر وتحت اليد اليمنى، أما الأجزاء الأخرى من الجسم فهي عارية تمامًا؛ وهم مُسلَّحون ببنادق ذات فتيل ويتمنطقون بالخناجر.

ونظرًا لهذا السَّيل الجارف من الرِّجال العُراة[١] المسلَّحين، أخلى النَّاس الشَّارع هَربًا من هؤلاء الذين ملؤوه بالكامل، من ناحيتي صمدتُ في مكاني، وصعدتُ على كومة من الأنقاض كي أُراقب بشكل أفضل، لقد شاهدتُ رَتلًا عسكريًا يُشكِّل طابورًا مُكوَّنًا من خمسة أو ستَّة آلاف شَخص - كما بدا لي - مُتكدِّسين في طول الشَّارع وعرضه، ممَّا يستحيل معه الحركة، يتقدَّم القافلة اثنان من الفُرسان المسلَّحين برماح طولها قدمان، وتَنتهي هذه القافلة بخمسة عشر أو عشرين مُمتطين الجياد والجمال، يحملون الرِّماح بأيديهم كرفقائهم السَّابقين، ويلحظ أنّهم لا يحملون أعلامًا ولا أبواقًا ولا أيّة آلة أو إشارة عسكريَّة، كان بعضهم خلال هذه المسيرة يَرفعون أصواتهم بهذه المناسبة المقدَّسة، بينما آخرون يتلون الأدعية في صوت مُرتفع ومبهم كل على طريقته؛ وفي هذا الوضع المشار إليه صَعدوا بانتظام إلى أعلى المدينة، وهناك تفرَّقوا على شكل فَصائل كي يدخلوا إلى الحرم من باب السَّلام.

تزايدت أعداد شباب المدينة الذين يخدمون عادة بصفتهم مطوِّفين

---

(١) يلحظ على المؤلِّف إطلاق هذه الكلمة وتعميمها في استخداماته في مواضع عدّة من هذا الكتاب. والهدف فيما يبدو وكما ذكرنا سابقًا هو نشدُ القارئ من بني جنسه، وهي صور تعبيريَّة تكثر في كتابات الرَّحالة والمغامرين.

للأجانب، فخرجوا للقائهم، وقدَّموا أنفسهم بالتَّتابع للفصائل المختلفة لخدمتهم مُرشدين لهم لأداء مناسكهم، وقد لحظت أنّه لا يُوجد بين ذوي الأريحيّة من هؤلاء الذين يُوجِّهون هذه القافلة رجل واحد مُؤهَّل. ذلك أنَّ المجموعة الأولى كي تبدأ بالطَّواف حول الكعبة تُسرع لتقبيل الحجر الأسود، بينما آخرون انتظروا بفارغ الصَّبر فتقدَّموا بصَخب واختلطوا بالأوائل، وسُرعان ما وصل التَّشويش إلى قمَّته، ممَّا حجب أصوات الشَّباب المطوِّفين، وبهذا الارتباك والغُموض حدثت الفوضى، فالجميع يريد تقبيل الحجر الأسود بسرعة، وكثير منهم يفتح الطَّريق بعصاه الذي يحمله في يده، وذهبت جُهود أحد رؤسائهم هباءً، عندما صعد إلى أعلى بجانب الحجر المقدَّس لإعادة النِّظام، إلا أنَّ صيحاته وإشاراته ذهبت سُدى، لأنَّ الحماس الذي تضفيه قدسيَّة بيت الله، لا تَسمح بسماع نداء هذا الرَّئيس وتوجيهاته. وتزداد الحركة في دائرة التَّدافع المتبادل حتى إنّهم ليبدون وكأنّهم سرب نَحلٍ يَطير بشكل فَوضويٍّ حول الخليَّة، يَدورون بلا نظام حول الكعبة، وبحماسٍ واضطراب فيُحطِّمون ببنادقهم التي يحملونها على أكتافهم كلّ المصابيح الزُّجاجية حول بيت الله.

وبعد أداء المناسك المختلفة حول الكعبة كان على كل واحد من هؤلاء الشُّرب من ماء البئر المعجزة وتبليل جسمه منها، وبما أنّهم اتّجهوا بجموعهم مُسرعين وفي دقائق معدودة فقد تقطَّعت الحبال والدِّلاء والبكرات، وترك رئيس وعمّال زمزم أماكنهم للوهَّابيِّين الذين أصبحوا هم سَادة الموقف حول البئر، يُمسك أحدهم بيد الآخر، مُشكِّلين سلسلة تصل إلى قَعر البئر، ويستخرجون من الماء ما وسعهم.

إنَّ البئر وبيت الله يتطلّب دفع صدقة، والمطوِّفين يَطلبون أجورهم، وأغلبيَّة الجنود السعوديين لا يحملون عُملة نقديَّة، لذا يتحلَّلون من تلك الواجبات بدفع عشرين أو ثلاثين حبَّة من البارود، أو قطع صغيرة من الرَّصاص أو بعض حبّات القَهوة.

وفي نهاية المناسك، ولكون الشَّعر قد ازداد عن بوصة، لهذا فهم يَعتقدون بوجوب الحلق[١]، وهذه العمليَّة تتمُّ في الشَّارع، والحلاقون يُدفع لهم بنفس الأسلوب الذي دُفع فيه للمطوِّفين الشَّباب وخدم الحرم.

إنَّ رجال الدِّرعيَّة وهو المكان الرَّئيس للإصلاح لهم لونٌ نُحاسي، وعلى العموم فهم ذوو خِلقة حسنة ومُتناسقون، لكنّهم قِصار القامة، وقد ميَّزتُ بينهم بعض الوُجوه الجميلة التي يُمكن مُقارنتها بجماعة أبولُّو[٢] وأنطونيوس والمصارعين الآخرين من الرُّومان، فلهم عيُون حيَّة، وأنوفٌ وأفواهٌ مُتناسقة، وأسنانٌ جميلة، وملامح معبّرة جدًّا. إنَّ تصوُّر أيّ حشد من الرِّجال العُراة المسلَّحين دون أدنى فِكرة عن المدنيَّة لديهم تقريبًا، مع تخاطبهم بلُغة شديدة! مثل هذه الصُّورة تُفزع الخيال من الوهلة الأولى وتبدو مُرعبة[٣]، وإذا ما تمَّ التَّغاضي عن الانطباع الأوَّل، فإنَّ لديهم

---

(١) الحلق أو التَّقصير أحد واجبات الحجّ أو العمرة، إلا أنَّ الحلق أفضل بنصّ الحديث الصحيح عن النبي ﷺ الذي دعا للمقصِّرين بالرَّحمة مرَّة وللمحلِّقين ثلاثًا، فاختيارهم للحلق بدلًا من التَّقصير يعود لبحثهم عن الأفضل وليس لطول الشعر أو قصره دخل في ذلك.

(٢) هو إله الجَمال لدى الإغريق، ويُطلق هذا اللَّفظ على الرَّجل ذي الجمال المميَّز أيضًا. لكن ما يجب مُلاحظته هو أنَّ جيش الإمام سُعُود الذي حجَّ في هذه السَّنة هو خليط من كلِّ المناطق. انظر: ابن بشر: **عنوان المجد**، ١/ ٢٩١.

(٣) هذه الصِّفات التي أطلقها الكاتب هي بلا شكّ فيها شيء من التجنّي والازدراء والحط من شأنهم، فهم نَتاج مُجتمع كان يُهيمن على الجزيرة العربية آنذاك، وإذا كانت هذه الصِّفات التي أطلقها الرَّحالة على هؤلاء حقيقيَّة، فكيف انتشرت دعوتهم واكتسحوا الجزيرة العربية بظرف سنوات معدودة؟ هل يمكن أن يتقبَّل الناس وينقادوا لجهلة وهمجيِّين؟ نعتقد أنَّ المؤلِّف فتح أذنيه جيِّدًا لما يدور ضدّهم من إشاعات وأقاويل أطلقها خصومهم آنذاك، وردّوا عليها بكلِّ حزم ويقين. انظر مثلًا: الشيخ سليمان بن سحمان: **الضياء الشارق في ردِّ شبهات الماذق المارق**، الرياض ١٤١٤هـ. لكن يظهر أنَّ الكاتب أيضًا محتار بين ما يسمعه وما يشاهده من أخلاق هؤلاء، وهو ما يظهر من استدراكه الأخير، وما سنراه في ثنايا كتابه هذا وبالذَّات في الفصل الذي خصَّصه عنهم وفيه يُظهر بعض الإنصاف وإبراز محاسنهم.

صِفات فاضلة، فهم: لا يَسرقون على الإطلاق لا بالقُوّة ولا بالحيلة إلا عندما يَعتقدون بأنَّ هذا الغرض تعود ملكيَّته إلى العدوِّ أو الكُفّار[١]، وكلّ ما يَشترونه وأيّة خدمة تقدَّم لهم يدفعون ثَمنها بعُملتهم، وهم مُطيعون لرؤسائهم طَاعة عَمياء، ويتحمَّلون بصَمتٍ كلّ أنواع التَّعب، ولو تُركوا فسَيصلون إلى أقصى المعمورة؛ ويُمكن القَول بأنّ فيهم رِجالًا لديهم الاستعداد الأكيد للتَّحضُّر لو وُجدت الإدارة المناسبة.

بعد عَودتي إلى البيت عرفتُ بأنَّ كَتائب القوات السعودية مستمرة في الوصول لأداء فريضة الحجِّ. فماذا عَساه أن يفعل خلال ذلك السُّلطان الشَّريف أمام استحالة مُقاومة هذه القُوّات؟ هل يَبقى حبيسًا أو مُختفيًا وفي أحسن الأحوال خائفًا من أيَّة هُجوم؟

القِلاع مُجهَّزة بالتَّموينات، ومُستعدَّة للدِّفاع، والجنود العرب والتُّرك والمغاربة قد لزموا مواقعهم، لقد رأيتُ حرسًا وخفراء في الحصون قد أغلقوا أبوابًا كثيرة، وبكلمة واحدة: فإنَّ كلَّ شيءٍ قد أُعدَّ بسرعة لحالة اعتداء؛ لكنَّ اعتدالَ السعوديين، ومُفاوضات الشَّريف، بدَّدت هذه المخاوف.

---

(١) من المعروف أنَّ للإسلام سننًا وقواعد للتعامل مع الآخر سواء كان مستأمنًا، أو من غير المحاربين، وهؤلاء لهم حقُّ المحافظة على حقوقهم وأموالهم وأعراضهم مقابل دفع مبلغ حدّده الشَّرع، فلهم واجباتهم وعليهم حقوق، كما أنَّ المحاربين أنفسهم لهم أحكام معاملة خاصَّة بهم. ودعوة الشيخ لا تخرج عن هذا الإطار الذي حدَّده الإسلام حسبما ورد في كتب الشَّيخ وتلاميذه.

الفصل الثالث
الوقوف بعرفات

- الاجتماع الكبير للحُجّاج
- وصف عَرفات
- السُّلطان وجيش السعوديين
- شَعائر عَرفات
- العودة إلى مُزدلفَة
- الوصول والمناسك في مِنَى
- الرُّجوع إلى مكّة ونهاية الحجّ
- مُلحق

لقد حُدِّد يوم الثُّلاثاء السَّابع عشر من فبراير (الموافق التاسع من ذي القعدة سنة ١٢٢١هـ) يومًا للحجِّ الأكبر إلى جَبل عَرفات، أمَّا أنا فقد ذهبتُ في عصر اليوم السَّابق له مَحمولًا على شبريّة مشدودة فوق جمل، بنفس الطَّريقة التي وصلتُ بها من جدَّة. وبعد ساعتين من مسيري مررتُ بسكن الحرَّاس الزُّنوج والمغاربة الموجود عند طرف المدينة الشَّمالي، ومن هناك أخذنا اتّجاه الشرق، وبعد بضع دقائق وجدتُ نفسي أمام بيت كبير في مزرعة للشَّريف، بعدها بربع ساعة شاهدتُ جبل النُّور المشهور، حيث سلَّم الملَك جبريل لأعظم الأنبياء الفصل الأول من القرآن[١].

هذا الجبل مُرتفع على شكل قالب السُّكر، ومنعزل عن باقي الجبال التي تحيط به، وفي وقت سابق كان في قمَّته مُصلًى، وكان أحد مزارات الحجّ، لكنَّ السعوديين بعد أن هَدموه وضعوا حَرسًا في أسفل الجبل لمنع الحجَّاج من الصُّعود للصَّلاة هناك، وقد أمر (محمد بن) عبدالوهَّاب[٢]

(١) لقد ظهرت ضحالة معلومات باديا حول الإسلام هنا، فالقرآن الكريم نَزل على النَّبيّ المصطفى ﷺ مُجزءًا على شكل سُور وآيات وليس فُصولًا، ثم إنّه أوحاه إليه وَحيًا وليس تسليمًا. انظر حول بداية الوحي: محمد بن إسحاق: **سيرة ابن إسحاق المسمّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي**، تحقيق: محمد حميد الله. ط. الرباط ١٩٧٦م، ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

(٢) يُلحظ أنَّ الشَّيخ قد تُوفي قبل هذا التَّاريخ بسنوات عديدة، أي سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م، وهذا يَعني أنَّ الأمر جاء من بعده.

بهدمه بوصفه من المعتقدات الخرافيَّة. وحسب ما حدَّثوني فإنَّ الصُّعود إليه يتمّ بواسطة دَرج شُقَّ بين الصُّخور، وهذا الجبل يميل رُبع فرسخٍ نحو اليَسار، وقد شاهدتُه عندما مررتُ مع جموع الحجيج.



جبل النُّور في مكَّة المكرَّمة

واصلتُ طريقي صوب الشرق فالجنوب الشرقي، فرأيتُ في السَّاعة الثالثة إلا رُبعًا عينًا صغيرة من الماء العذب مع مصبِّها الحجري، وبعدها بقليل كنتُ في مِنَى؛ إنَّ أوّل شيء نراه عند الدُّخول إلى هذه البلدة هو العَين، ويُقابلها بناء قديم، بناه ـ حسب ما يقولون ـ الشَّيطان[١].

إنَّ بلدة مِنَى وآخرون يدعونها مُنى (بضم الميم) ليس فيها غير شارع

(١) من الواضح هنا أنَّه يقصد الجمرات، وسيعرِّج عليها مرة أخرى.

واحد، ولكنَّه من الطُّول بحيث احتجتُ لعشرين دقيقة كي أقطعه، ويمكن مُلاحظة البيوت الجميلة التي أغلبها تهدَّم وبقي بدون سقف، وهناك أيضًا قطع أراضٍ مسوَّرة بحائط من الحجر الصّلب بارتفاع خمسة أقدام، وهي تُؤجّر للحجَّاج أيَّام العيد[١].

وفي السَّاعة الثالثة والنِّصف توجّهتُ إلى أرض فضاء عند مخرج مِنَى من ناحية الشرق في سهل صغير، وهناك وجدتُ مَسجدًا مُحاطًا بسُور من نوع أسوار التَّحصينات[٢].

كلُّ المناطق التي مررتُ بها حديثًا تأخذ شكل سهل ضيِّق يقع بين جبلين من الصَّخر الجرانيتي الأملس، والطَّريق منبسطة تمامًا وذات أرضيّة رمليّة، وهي مليئة بالجِمال وبالنّاس من مُشاة وراكبي خيول وعدد مُتزايد من الهوادج.

كما قابلتُ كتيبةً من الهجَّانة السعوديين ممتطين جِمالهم ذات السَّنامين قُرب جبل النُّور، جاؤوا كي يخيِّموا في الجهة المقابلة لباب المسجد، وتبعتهم جماعات أخرى من نفس البلاد كانوا على الجمال كذلك، وبعد وقت قليل أصبح السَّهل غَاصًّا بالنّاس؛ وبعد غُروب الشَّمس وصل سُلطان السعوديين سُعُود، وقد نُصبت خيامه بجانب الجبل على مسافة قريبة من سَكني[٣].

توافدت قافلة من طرابلس في بلاد البربر وأخرى من اليمن، وجمع غفير من الحجَّاج السُّود من السُّودان أو من الحبشة، وعدد كبير من الأتراك الذين قدموا عبر السّويس، والكثير من المغاربة الذين وصلوا كذلك عن طريق البحر، وقافلة من البصرة وأُخرى من الشرق، وعَرب من

---

(١) كذا والمقصود أنه أيام الحجّ بعد وقبل يوم عرفة.

(٢) والمَعني هُنا هو مَسجد الخيف.

(٣) أكّد ابن بشر خبر حجّ السُّلطان سُعُود في هذه السَّنة وكان قائدًا لحملة الحجّ. انظر: **عنوان المجد**، ١/ ٢٩١.

أعلى مِصر وأسفلها، بالإضافة إلى أهل البلاد، والسعوديين الذين اجتمعوا أو بالأحرى تكدَّسوا في ذلك السَّهل الضيِّق حيث يجب المبيت للحجّاج[١]، لأنّه يُروى في الحديث أنَّ النَّبي[٢] ﷺ يفعل الشَّيء نفسه كلَّما ذهب إلى عَرفات.

لم تَصل قافلة دِمشق[٣] حتى الآن، ولو أنّها قد ابتدأت رحلتها مع قُوَّة عسكريَّة ومدفعيَّة، وعدد كبير من النِّساء، لتقديم السّجادة الفخمة التي تُقدِّمها القُسطنطينية كلَّ عام إلى قبر النَّبي ﷺ في المدينة، ولكنَّ السعوديين الذين يرون في هذه العادة مُخالفة شَرعية خرجوا للقائهم قُرب المدينة نفسها، وبيَّنوا لبَاشا دِمشق «أمير الحجّ» بأنّه لا يمكن قبول السّجادة المخصَّصة للقبر، وإذا أراد مُواصلة رحلته إلى مكَّة، فعليه أن يَصرف أوَّلًا الجنود والمدفعيَّة والنِّساء، ليُصبحوا بذلك حُجَّاجًا حقيقيِّين، وسوف لا تجد القافلة صُعوبة في مُواصلة سَفرها؛ لكنَّ الباشا لم يشأ الرُّضوخ لهذه الشُّروط، فوجد نفسه مُضطرًا للانسحاب، وقد ادّعى بعضهم أنّهم فرضوا عليهم ضريبة كبيرة من المال، لكنَّ آخرين كذَّبوا هذا الزَّعم[٤].

---

(١) المبيت الواجب هو بعد عرفات وليس قبلها.

(٢) يُورد لفظة قدِّيس ومُقدَّس بعد ذكر النَّبي ﷺ غالبًا، فأبدلناها بالصَّلاة والسَّلام عليه.

(٣) جرَت عادة الدَّولة العثمانيَّة إرسال قافلتين رسميَّتين للحجِّ كلَّ عام، واحدة من الشَّام والأخرى من مِصر. للمزيد انظر مثلًا: إسماعيل حقِّي جارشلي: **أشراف مكَّة المكرَّمة وأمراؤها في العهد العثماني**، ص ١٠٧ ـ ١١٤؛ سيد بكر: **الملامح الجغرافية**، ص ص ٨٦ ـ ٨٨، ١٨٠.

(٤) هذه الحادثة تناولتها مصادر تلك الحقبة، ولم تزد كثيرًا على ما أورده باديا هنا إلا باختلاف في التَّفاصيل؛ فابن بشر يُؤكِّد الحادثة، ويذكر أنَّ السُّلطان سُعُود أمر رجاله الذين أرسلهم إلى المدينة لكي يمنعوا الحاجّ القادم من الشّام وإسطنبول ونواحيهما، وكان أميره في هذه الحملة عبدالله العظم باشا. لكنَّ ابن بشر يجعل للمنع سببًا آخر، وهو خوف السُّلطان سُعُود من أنَّ الشَّريف غَالب سيَستغلّ فرصة مجيء هؤلاء ويُعرقل مساعي السّعُوديِّين لضم مكَّة. ولم يذكر شيئًا ممَّا أورده باديا هنا.

وفي يوم الثُّلاثاء السَّابع عشر من شهر فبراير من سنة ١٨٠٧م[١] الموافق التاسع من ذي الحجّة سنة ١٢٢١ هجرية، وفي تمام السَّاعة السَّادسة صباحًا كنتُ في طريقي صوب الجنوب الشرقي وبانحراف رُبع درجة نحو الشرق، وبعد مسافة قليلة من مكان مُغادرتنا تجاوزتُ على يميني بيت أحد الأشراف؛ وفي حوالي السَّاعة السَّابعة توقَّفتُ بمزدلفة، وفيها مُصلًّى صغير بمنارة رفيعة[٢]، وهي في وادٍ ضيِّق، وبعد أن اجتزنا مَمرًّا آخر أضيق بين الجبال تابعتُ مسيرتي نحو الجنوب الشرقي، في وادٍ ينتهي عند سفح جبل عَرفات، حيث وصلتُ إلى هناك في السَّاعة التاسعة صباحًا.

إنَّ جَبل عَرفات هو المقصد الرَّئيس للحجِّ لدى المسلمين، فعدد من العلماء صرَّحوا بالقول: إنّه إذا تمَّ الوقوف بعَرفات، فإنَّ الذَّهاب إلى بيت الله الحرام يكون زيادة في الأجر فالحجُّ عَرفة، مثلما لو قاموا بالطَّواف سَبع مرَّات حول الكعبة[٣].

وفي جبل عَرفات فقط، يُمكن أخذ فِكرة حول المشهد الهائل الذي

= انظر: **عنوان المجد**، ١/ ٢٩٢. بينما الجبرتي يفيد أنَّ «الوهَّابي» كما يُسمِّي أمراء الدولة السُّعوديَّة، أرسل إلى عبدالله باشا أمير الحجّ من يقول له: «لا تأت إلا على الشَّرط الذي شرطناه عليك في العام الماضي، وهو أن يأتي بدون المحمل وما يصحبهم من الطَّبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مُخالفًا للشّرع، فلما سمعوا بذلك رجعوا من غير حجٍّ ولم يتركوا مناكيرهم». انظر: **تاريخ عجائب الآثار**، ٣/ ١٨٨، محمد أديب غالب: **من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي**، دار اليمامة الرياض ١٩٧٥م، ص ١١١. وسيعرض لها مرّة أخرى في الفصل الثامن من هذه الرِّحلة بتفصيل أوسع.

(١) ورد في مذكّرات الرّحالة بطبعاتها الثلاث سنة ١٨٠١م وهو خطأ واضح صحّحناه.

(٢) هو مَسجد المزدلفة، انظر ما أورده الأزرقي عنه في: **أخبار مكّة**، ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٣) هنا يبدو بعض الخلط والخوض في أمور فقهيَّة، يَصعب على باديا إعطاء رأي فيها، فالفُقهاء أكّدوا الوقوف بعرفة وبدونه لا يتمُّ الحجّ، لكن هناك شُروط أخرى لابدّ منها لكماله وصحّته. انظر تفاصيل ذلك وعلى رأي المذاهب الأربعة في: الجزيري: **كتاب الفقه...**، ١/ ٦٣٨ ـ ٦٦٨.

يُمثّله الحجّ لدى المسلمين، إنّه حَشد لا يمكن إحصاؤه من البشر، من جميع الأمم ومن كلّ الألوان، يَصلون من أقاصي الأرض، مُجتازين أنواع المخاطر والصّعاب المتعددة كي يعبدوا مُجتمعين إلهًا واحدًا هو إله الفطرة، فسَاكن القَوقاز يَمدُّ يدَ الأُخوّة إلى الأثيوبي أو إلى الأسود الغيني، والهندي والفارسي مُتآخين مع البربري والمغربي، فكلٌّ واحدٍ منهم يَنظر إلى الآخر على أنّهم إخوة، أو كأفراد عائلة واحدة مُعتصمين بأواصر الدِّين، يتكلّمون جُزءًا كبيرًا أو على الأقلّ يفهمون قليلًا أو كثيرًا من نفس اللُّغة لغة الجزيرة العربيَّة المقدَّسة؛ أبدًا ليس هناك عبادة تُقدِّم عَرضًا لمفاهيمها أكثر من هذه البساطة واللُّطف والعظمة بل أكثر من هذا.

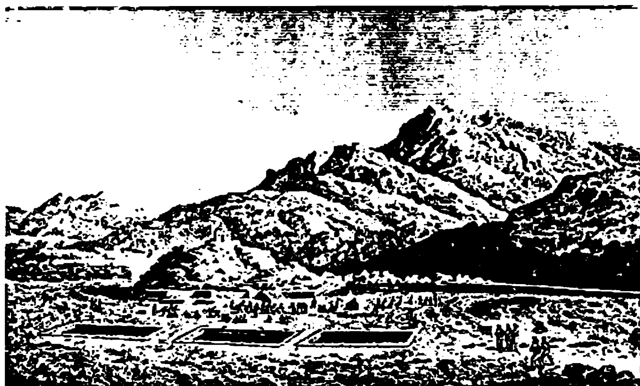
يَا فَلاسِفة الأرض اسمحوا لعلي باي كي يُدافع عن دينه كما تُدافعون أنتم عن الرُّوحانيَّات أو الماديات، الفارغ منها والمليان، فَرضيَّة الوُجود أو الخلق! هنا ـ مثلما سجّلتُ في حديثي حول رحلتي إلى المغرب[1]. ليس هناك وَسيط بين الإنسان وربِّه، فكلُّ البشر مُتساوون أمام الخالق، كلُّهم مُتحابُّون مُقتنعون بأنَّ أعمالهم فقط، هي التي تُبعدهم أو تُقرِّبهم إلى الله تعالى، بلا أيّة يَدٍ أجنبيّة تستطيع أن تُغيّر نظام هذه العدالة البديعة[2]، أيُّ

---

(١) هذه الرّحلة التي أشار إليها هنا تحتلّ مَساحة كبيرة من مُذكّراته التي نحن بصددها، حيث احتلت معظم الجزء الأوّل منها، وقد استعرضتُها مع بقيّة الرّحلة في أقاليم شمال أفريقيّة في بَحث قدّمته إلى مكتبة الملك عبدالعزيز العامَّة أثناء عقدها لمؤتمر «مصادر العالم الإسلامي» الذي عُقد في الرّياض سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٢) ما يشير إليه هنا أورده في الجزء الأول المتعلّق برحلته للمغرب، ص ٨٦ ـ ٨٧: بعد أن لَفت انتباهه عدم وجود قُسس ولا رُهبان بين المسلمين، وأنَّ أولئك الذين يَخدمون في المساجد ليس لهم أيّة امتيازات خاصَّة مثلما يَحدث لمسؤولي الكنائس من أخذ الاعترافات والضّرائب. ثمّ يقول: «من كلّ ذلك نستنتج أنّ الإسلام أو دين محمَّد سهل وواضح، فكلمة الإسلام معناها الاستسلام لله، وحول هذه القاعدة الرئيسة تقوم الدِّيانة، فالإيمان يرتكز على وجود إله واحد، الطهارة، الصلاة، الإحسان، وتزكية الجسد من خلال الصيام والحج. هذه هي الصّفات الجوهرية التي تقدرها كل الأمم

رادع ضدَّ الجريمة وأيُّ تشجيع للفضيلة!! لكن وللأسف مع كلِّ هذه الفضائل لم نكن أفضل من أصحاب الدِّيانات الأخرى!



منظر عَرفات ويبدو جبل الرَّحمة

إنَّ جبل عَرفات ليس إلا صَخرة من الجرانيت كما هو الحال في الجبال الأخرى المحيطة به، وارتفاعه يُقدَّر بحوالي مئة وخمسين قدمًا،

= والأعمار، وهو ما تتطلع إليه أنظار الفلاسفة الذين عرفوها عبر اتصالاتهم». ثم يوضح أنّ الإيمان برسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء الأوّلين هي شيء لا بُدّ منه للدخول في الإسلام، ويُبيّن موقف المسلمين من الأناجيل التي في أيدي النصارى، وأنّ التّحريف دخلها، ويشرح موقفهم من صَلب المسيح. ويذكر بعض الخرافات والاعتقادات الباطلة التي أدخلها بعض الناس في الإسلام مثل: قضيّة الأولياء، وبعد تعداد سلبيات أخرى في المجتمع يسأل: «لكن في النّهاية هل هناك ديانة في الأرض لا يوجد بها زيف المشعوذين وجهل الجاهلين من البشر؟ ثم يقول: «ولحسن الحظّ لا يوجد في هذا البلد دراويش الصّوفيين الذين يوجدون بكثرة في تركيا».

وهو مُغلق جُزئيًا بالأسوار، وبالقرب منه جبل آخر أعلى ارتفاعًا، وإلى الشرق والجنوب الشرقي منه هناك سهل بمحيط ثلاثة أرباع الفرسخ، مُحاط من كلّ الجهات بجبال جرداء.

وبعد الصُعود إلى قمّة الجبل بدرج، جُزء منها منحوت في الصَّخر والآخر مَبنيّ بالحجارة دون ترتيب، ستجدُ مُصلّى؛ وكان من المستحيل على أمثالي زيارته لأنَّ الأشخاص من أتباع المذهب المالكي وأنا منهم مَمنوعون من الصُّعود إلى القمّة حسب تعليمات الإمام مُؤسِّس المذهب[1]، ولهذا توقّفنا في مُنتصف التّلة لتلاوة الأدعية.

وقُرب هذا الجبل هناك مكان مُعدٌّ لهذا الغرض، اسمه «جَامع الرَّحمة[2]» حيث يُروى في الحديث أنَّ النَّبي ﷺ كان يُصلّي فيه.

وحول جبل عرفات هناك أربعة عشر صهريجًا كبيرًا أوقفها السُّلطان سُعُود، وهي تضخ الماء الجيّد للشّرب بوفرة، كما يُستفاد منها أيضًا لغسيل الحجّاج في ذلك اليوم فقط[3]. وبمحاذاة هذا الجبل باتّجاه

---

(١) المأثور عن النَّبي ﷺ أنه وقف عند الصَّخرات أسفل جبل الرَّحمة. انظر: الجزيري: **كتاب الفقه**، ١/ ٦٦٤. ويبدو أنَّ مرافقيه من المالكية كانوا يرون الاقتداء بالسّنة؛ وقد شرح ذلك محقق كتاب **منهج السَّالك**، ص٢٢١ ـ ٢.

(٢) المعروف أنَّ هذا الاسم يُطلق على الجبل نفسه وليس هناك مسجد بهذا الاسم، لكن ربّما يكون الأمر مُتعلقًا بمصلى يُطلق عليه هذا الاسم، وقد تناول عَرفة ومعالمها الكثيرون بالحديث، فالمسجد مثلًا يُطلق عليه مسجد إبراهيم ومسجد نَمرة، انظر على سبيل المثال: الأزرقي: **أخبار مكّة**، ٢/ ١٨٨ ـ ٩؛ إبراهيم باشا في **مرآة الحرمين** الذي أعطى تفاصيل أكثر دقة وتحديدًا، فذكر أنَّ الدّرج على شكل سلّم غير منتظم، به تسعون درجة... ١/ ٤٤ ـ ٤٥؛ محمد البيومي الدمنهوري: **منهج السالك إلى بيت الله المبجل في أعمال المناسك**، تحقيق ودراسة: صالح السدلان ط. دار بلنسية الرياض١٤١٧هـ، ص٢١٤ ـ ٢١٧.

(٣) يعكس ذلك مدى اهتمام الدولة السُّعوديّة الأولى بخدمة الحجّ والحجيج، مع أنها ما زالت في بداية تركيز نفوذها في مكّة المكرَّمة.

الجنوب الغربي تُشاهد دارًا للشَّريف، وعلى مسافة رُبع فرسخ نحو الشَّمال الغربي، يوجد مبنى آخر تُقام فيه الصّلاة ويسمى «مسجد إبراهيم».

وقد شَهد جبل عَرفات لقاء والد البشر آدم بأمِّنا حَوَّاء، أو التّعرف عليها بعد فراق طويل، ولهذا السَّبب عُرف هذا المكان باسم «عَرفات» ويُعنى به التَّعارف[1].

بعد صلاة العصر التي يؤدّيها كلٌّ في خيمته استعدَّ الجميع للمغادرة، وتَجهَّزوا لأداء الشَّعائر الدينيَّة أسفل الجبل حتى غُروب الشَّمس، وتنفيذًا لهذا الواجب نجد أنَّ الوهَّابيِّين الذين خيَّموا على مسافة بعيدة قد بَدؤوا بالاقتراب، وفي مُقدِّمتهم السُّلطان سُعُود وأبو نُقطة رئيسهم الثَّاني[2]، وفي مدة مَحدودة رأيتُ اصطفاف جَيشٍ من خمسةٍ وأربعين ألفًا من السعوديين، كلّهم ـ تقريبًا ـ كانوا رَاكبين على الجمال[3]، وفي مَعيَّتهم آلاف الجمال الأخرى التي تحمل المياه والخيام والحطب والأعشاب المجفَّفة لجمال القادة، ومجموعة تُقدَّر بمئتين من الخيول التي تحمل الأعلام المتعدِّدة

---

(١) تناقل ذلك بعض الرَّحالة والإخباريون، انظر مثلا: محمد بن محمد العبدري: رحلته المسماة: **الرحلة المغربية**، ص١٨٥.

(٢) هو حاكم إمارة عسير في المدة من ١٢١٥هـ/١٨٠٠م إلى ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م واسمه: عبدالوهَّاب بن عامر المتحمي الرفيدي العسيري من آل أبي نقطة، ومن أشد المؤيدين للدولة السُّعوديّة الأولى. انتدبه الإمام سُعُود بالسير أمامه مع آخرين من رؤوس القبائل ووجوهانها في حجّته هذه. انظر: ابن بشر: **عنوان المجد**، ٢/ ٢٩١؛ بيرين: **اكتشاف جزيرة العرب**، ص١٩٨. وقد تكرر ذكره في مؤلَّف قاضيه محمد بن هادي العجيلي المسمى: **الظلّ الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سُعُود الأوَّلين**. المنشور بعناية وتحقيق: عبدالله أبو داهش، أبها ١٩٨٨م انظر أغلب صفحات الكتاب وهامش المحقق (٣٢)؛ كما ورد اسمه وذكره في كتاب عبدالرحمن البهكلي: **نفح العود في سيرة دولة الشـريف حمود**، ط. الدارة، الرياض ١٩٨٢م، ص ص ١٦٨، ١٦٩، ٢٢٣، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٩، (مقتله) ص ٢٥٥.

(٣) دائمًا ما يُشير إلى أنَّ الجمل وحيد السنام تمييزًا له عن النوع الآخر ثنائي السنام الذي استخدمه في مصر وفي الحجاز في بعض المراحل.

الألوان مَرفوعة على الرِّماح، هؤلاء الخيَّالة يَنتمون ـ حَسب ما قالوا لي ـ إلى الرَّئيس الثَّاني أبي نُقطة؛ ويُمكن تَمييز سَبعة أو ثمانية أعلام منها من بين مجموعات أصحاب الجمال، ولكن بدون شِعار ولا طُبول أو أبواق، ولا حتى أيَّة آلةٍ عسكريَّة؛ ولأنَّ هؤلاء النَّاس يَمشون شبه عُراة وكذلك رُؤساؤهم، فيَستحيل عليَّ معها تعرف سُعُود وأبي نُقطة، ومع ذلك فقد تصوَّرتُ كما لو أنَّ السُّلطان شيخٌ محترم ذو لحية بيضاء طويلة يتقدَّم الرَّاية الملكيَّة[1]، تلك الرّاية ذات اللّون الأخضر التي تحمل شهادة التوحيد «لا إله إلا الله» مَرسومة بحروف كبيرة بيضاء.

تعرّفتُ بشكل أكيد من خلال الشَّعر الطَّويل المنتفش إلى أحد أبناء سُعُود، وهو طفل في السَّادسة أو الثامنة من عمره، أسمر كالباقين، يَلبس قَميصًا واسعًا أبيض، مُحاطًا بحماية خاصَّة ويمتطي فَرسًا أبيض فاخرًا ببردعة كبيرة[2]، ودون رِكاب حسب ما يَستعمله السعوديون الذين لم يعرفوا سُروجًا أخرى، هذه البردعة مُغطاة بطرحة حمراء، ومُطرَّزة بشكل رائع ومزينة بنُجوم ذهبيَّة.

وما هي إلا لحظاتٍ حتى امتلأ الجبل وما يحيط به بالسعوديين؛ واقتربت القوافل والحجَّاج الفرادى بعد ذلك منه، وعلى الرَّغم من تروِّي أصحابي، فقد جازفتُ بالتَّسلّل بين رجال الجيش السعودي، ووصلتُ إلى الوسط لتفحص السُّلطان عن قرب، ولكنَّ الكثيرين ممن أخذتُ بالكلام

---

(١) تذكر المصادر التي تناولت سيرته بأنّه: كان وسيمًا بلحية طويلة، كثُّ الشّارب، ذا صوت عميق وهادئ ونفَّاذ، كما أنّه صافي العقل، مُتواضع في ملبسه ومسلكه، اشتهر بالكرم. انظر: ابن بشر: **عنوان المجد**، ١/ ٣٤٢ ـ ٣٥٢؛ ج. ج لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة في دليل الخليج**، ص٣٥.

(٢) أشاد ج. ج. لوريمر بما يتوافر لدى الإمام سُعُود بن عبدالعزيز منها، وأنّ لديه أجمل مجموعة عربية أصيلة، إذ كان يحتفظ في الدِّرعية بأكثر من ثلاث مئة أو أربع مئة منها غير الموجود في الأحساء. (**تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص٣٦).

معهم، أكَّدوا لي أنَّه من المستحيل تحقيق ذلك خوفًا من أن يكون مصيره مثل سيئ الحظّ (الإمام) عبدالعزيز الذي اغتيل[١]، وهذا أدّى إلى مُضاعفة الحماية حول شَخص السُّلطان سُعُود[٢].

يجب عليَّ أن أعترف بحقّ أنّني وجدتُ الكثير من العقلانيّة والاعتدال لدى كل السعوديين (الوهَّابيِّين) الذين تحدثتُ معهم، والذين منهم أيضًا أخذتُ أكثر أخباري حول دعوتهم هذه، مع ذلك وبالرّغم من هذا الاعتدال فإنّه ليس باستطاعة أهل البلاد ولا الحجَّاج التّلفظ باسمهم دون أن يرتعشوا، وحتى بينهم هم أنفسهم لا يتلفّظون باسمهم إلا بصوتٍ مُنخفض. وهكذا يتهرَّبون منهم، ويتجنَّبون الكلام معهم ما أمكن، وعندما أريدُ الحديث مع أحدهم كان عليَّ أن أتغلَّب ـ دائمًا ـ على مُعارضة المحيطين بي وعنادهم.

أرسل السُّلطان الشَّريف كما هو الحال في كل عام جزءًا من جيشه مع أربع قطع من المدفعيّة، وقالوا أيضًا بأنه سيحضر شَخصيًّا ولكنه لم يظهر. وعادةً ما يصل إمام من قبل الشَّريف للوعظ على الجبل، لكنّ الذي جاء في ذلك اليوم طُرد من قبل (السُّلطان) سُعُود قبل أن يبدأ، وتولّى إمام

(١) هذا في تصوُّر المؤلِّف، لكن في واقع الأمر: هو نَال ـ رحمه الله ـ الشَّهادة كما نَال قبلها محبَّة النَّاس وثناءهم، لأنَّه أرسى دَعائم العدل والمساواة بين رعيته. وقبله كان مَصير من هو أعلى مقامًا وهو عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بنفس الأسلوب. وكان اغتيال الإمام عبدالعزيز رحمه الله على يد رجل قادم من العراق وهو يصلي العصر أواخر رجب من سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣م. انظر: ابن بشر: **عنوان المجد**، ٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥. وانظر الفصل الذي خصّصه محمد بن سليمان الخضيري حول هذا الموضوع بالذَّات في كتابه: **الدولة السُّعوديَّة الأولى والدولة العثمانية**، الرياض ١٤٢٠هـ، ص ص ٣٠١ ـ ٣٠٨.

(٢) أكّد هذه المعلومة ج. ج. لوريمر: «فقد ظلّ بعد اغتيال أبيه يرتدي سرًّا درعًا حديدية تحت ثيابه، وأثناء زيارته لمكَّة كان يحيط نفسه بإجراءات أمن غير عادية» (**تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص٣٦).

السُّلطان الوعظ بدلًا منه، لكنّي لم أتمكن من الاستماع إليه لأنّي كنتُ بعيدًا جدًّا، وعندما انتهت الخطبة أظهر السعوديون علامات الاستحسان والتَّشجيع.

لقد وجدتُ الطَّريق للوصول إلى السُّلطان سُعُود مُيسّرة سهلة كما تمنّيتُ، وذلك للتّعرف إليه بشكل أدقّ، لكنَّ ذلك سيُحرجني أمام السُّلطان الشَّريف الذي لم يترك لي أيّة حركة ولو عفويّة إلا وعدَّها ذات بُعدٍ سياسيّ، هذا الاعتبار جعلني أتخلّى عن تحقيق هذا الهدف.

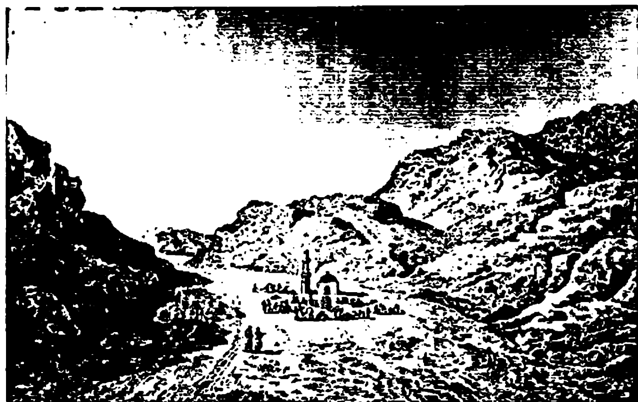
مَكثنا في جبل عَرفات حتى غربت الشَّمس حيث كانت لحظة الإعصار! تخيّل تجمّعًا يضمُّ ثمانين ألف رَجل وألفي امرأة وما يناهز الألف من الأطفال[1]، بالإضافة إلى ستّين أو سبعين ألفًا بين جَمل وحِمار وحِصان، كلٌّ هذه الجموع تَتجهّز للمسير مع حلول الظَّلام بخُطىً مُسرعة، حسب ما تقتضيه مَناسك الحجّ في وادٍ ضيِّق، أفواجًا تتبعها أفواج، مُثيرةً سُحبًا من الغبار، وسط غَابة مليئة بالرِّماح والبَنادق والسّيوف، تحثُّ الخُطى حيثما تستطيع، مُتراصةً مُتدافعةً في طريق العَودة إلى مُزدلفة[2] التي استغرق الوصول إليها سَاعة ونصفًا، بينما احتجنا إلى أكثر من ساعتين في صُعودنا لجبل عَرفات. إنَّ الهدف وراء هذا الاستعجال هو ما تقتضيه تَعاليم الدِّين الّتي تُؤكِّد أنه يتعيَّن أداء صَلاة المغرب في مُزدلفة وليس في عَرفة[3]، الشّيء نفسه مع صَلاة العشَاء التي يجب أن تُؤدّى مع غُروب

---

(١) هذا الرقم لحجّاج هذه السنَّة يتوافق تمامًا مع تلك الإحصائية التي ذكرها يفيم ريزفان في كتابه عن: **الحج قبل مئة سنة: الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي**، بيروت ١٩٩٩م، ص ٢٠.

(٢) انظر ما ذكره أبو الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي: **أخبار مكّة**، بيروت ١٩٧٩م، ٢/ ١٩٠ ـ ١٩٣؛ الدمنهوري: **منهج السالك**، هامش المحقق(٥٢٤)، ص٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) الأصل في هذا الجمعُ والقصرُ بين المغرب والعشاء في هذا الموضع، وذلك بما يُشبه الإجماع بين العلماء تأسّيًا بالرَّسول ﷺ. انظر: الدمنهوري: **منهج السالك**، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧.



مُزْدلفة ويبدو مَسجدها

الشَّفق، أي بعد ساعة ونصف من غُروب الشَّمس، هاتان الصَّلاتان لا تؤدَّيان في جماعة، بل كلٌّ عائلة وكل مجموعة تُقيمها مع بعضها، وقد أدّيناها على عَجل عندما وصلنا وقبل نَصب خيامنا، وتمّت هذه المرحلة بتبادل التّهاني على إتمام مَراسم الوقوف في جبل عَرفات.

وفي اليوم التّالي الأربعاء الثامن عشر من شهر فبراير الموافق العاشر من ذي الحجَّة أوّل أيّام عِيد الأضحَى رحلنا في تمام السَّاعة الخامسة والنصف صباحًا للتّخييم في مِنَى، وحال وُصولنا حططنا رَحلنا، وحثثنا الخُطى باتّجاه بيت الشَّيطان[1] الواقع أمَام النَّبع، وقد حمل كلٌّ منا سَبع

(١) يقصد بها الجمرات، وهنا يتّضح اعتماده الرّواية الشّعبية وما يتداوله العامّة في هذا الشَّأن حول الجمرات والرَّجم، انظر: الأزرقي: **أخبار مكّة**، ١/ ٦٩؛ الدمنهوري: **منهج السالك**، ص ٢٣٥ ـ ٢٤٧؛ الجزيري: **كتاب الفقه**، ١/ ٦٦٥ ـ ٦٦٥؛ إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ١٣٦ ـ ١٣٨.

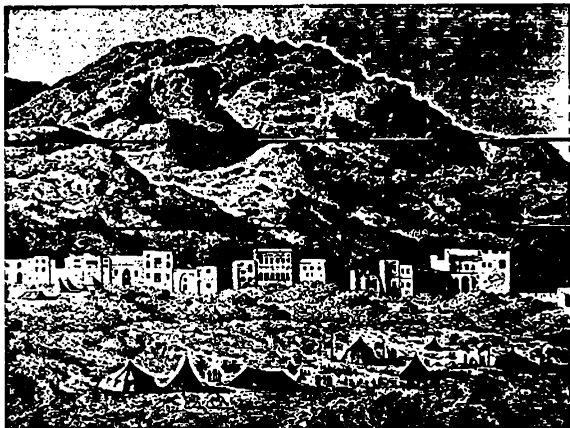
حصيات بحجم الحمّص الغليظ، التقطناها أثناء مَبيتنا بمُزدلفة في اللَّيلة السَّابقة، وذلك لرجْم بيت الشيطان بها من فوق الحائط. إنَّ المسلمين من أتباع المذهب المالكي أمثالي يَرمونها الواحدة تِلو الأخرى بعد تلاوة الكلمات: «بسم الله والله أكبر» مع كلِّ رمية، وكما أنَّ الشَّيطان بخبثه وضع بيته في هذا الموقع الضيّق الذي ربَّما لا يزيد في عرضه على أربعة وثلاثين قدمًا، بالإضافة إلى أنّه مغلقٌ بصُخور ضخمة، يستلزم معها الصُّعود للتّأكد من رَمي الجمرات؛ وبما أنّ جُموع الحجيج تصل في الأخير تَحدوها الرّغبة في أداء هذا الواجب حال وصولها إلى مِنَى، لذا تسود في الوقت نفسه حالة غريبة من الفوضى والاضطراب، لكن في النّهاية ومع شدّة الزّحام والفوضى فقد أدّيتُ هذا الواجب المقدَّس بمساعدة أصحابي، مع أنّي خرجتُ بجرحين في قدمي اليُسرى، ثم سحبتُ نفسي إلى خيمتي للرّاحة بعد الإجهاد الشَّديد الذي عانيته.

رجال الجيش السعودي هُمُ الآخرون جاؤوا لرَمي الجمرات وذلك اقتداءً بفعل النَّبي ﷺ، كما نَحرنا الأضاحي في هذا اليوم أيضًا.

يجب التَّنويه بحُسن سَير النّظام وانسيابه وتكامله، وهذا سهَّل ضَبط هذه الجموع الغفيرة من البشر التي تَنتمي إلى أمم مُختلفة، فأكثرُ من ألفَي امرأة اختلطت بهذا الحشد الذي لا حدَّ له، ومع ذلك لم يتسبَّبن في أدنى فوضى؛ ومع وُجود أربعين أو خمسين ألف بُندقيَّة إلا أنّه لم يُسمع أكثر من صَوت طلقةٍ واحدةٍ، خَرجت غير بَعيد منيّ، وفي الحال جاء زَعيم وهَّابي مُوبِّخًا الذي أطلقها قائلًا له بقسوة مَمزوجة بالحنان: لماذا أطلقتُم النَّار؟ هل جئنا إلى هنا للحَرب؟

مع الفجر التقيتُ في الطَّريق الابن الأكبر لسُعُود(١)، مُمتطيًا حصانه

(١) كان للإمام سُعُود رحمه الله اثنا عشر ولدًا، أكبرهم عبدالله. انظر: ابن بشر: عنوان المجد، ١/ ٣٤٢، هـ(١)؛ بوركهارت: مواد لتاريخ الوهابيين، ص٣٢.



منظر لمنى ويبدو مخيم علي باي بعد عودته من عرفات

أمام كوكبة من الجمال، قادمًا من مِنَى في نفس ساعة مجيئي، وأثناء مُروره بجانبي صَاح بمُرافقيه: «هيَّا يا أبنائي اقتربنا»، ثم عاد إلى اليسار مسرعًا ومُواصلًا المسير بجماعته إلى مقرٍّ إقامة والده الذي يقع مخيَّمه أسفل الجبل في نفس مكان اليوم السَّابق، بينما نُصب مخيَّمي بجانب جماعة الشَّريف.

وفي يوم الخميس الموافق التاسع عشر من شهر فبراير (الحادي عشر من ذي الحجَّة) نَهضتُ عند انبلاج الفجر لصَلاة الصُّبح، فلحظت أنّهم سَرقوا خِزانتي والكتب والورق وبعض أمتعتي، وكان داخل الخزانة مقياس الحرارة وبعض المجوهرات وبعض الأدوات الصَّغيرة وخَتمي الكبير، بالإضافة إلى الرُّسوم والملاحظات الفلكيّة؛ وقد اندهش خَدمي وهبُّوا للبحث في كلِّ الجهات خوفًا من عواقب الاهمال، لأنّهم تَهاونوا في الحراسة التي كلَّفتهم بها دائمًا في اللّيل؛ لكنّهم كانوا مُرهقين جدًّا من

تَعب الأيّام السَّابقة. وحُرَّاس جَيش الشَّريف من تُرك ومَغاربة المجاورين[١]، يُنتظر منهم سُوء الثِّقة.

من جانبي أدَّيتُ صَلاتي بهدوء أمَام جَماعتي، وعندما سمح الضَّوء بتَمييز الأشياء، وجدنا الأوراق مبعثرة في الجبل، فهبَّ خدمي لجمعها، ووجدوا خِزانتي مفتوحة وقد خُلع قُفلها، وعثروا على كُتبي وأوراقي مرميَّة، أمَّا الميقات والمجوهرات ولوحات اللوغاريتم[٢] التي كانت مَربوطة فقد سَرقها اللُّصوص مع المصحَف مُستغلِّين حلول الظَّلام لتنفيذ ذلك.

وقبل صَلاة الظُّهر ذهبنا لرَمي سَبع حَصيات، غُسلتْ بالماء، على عَمود صغير من الجير والحجارة، ارتفاعه ستَّة أقدام فوق قاعدتين مُربَّعتين، يقع في مُنتصف شارع مِنى. وحسب ما يروُوه فإنَّ الشَّيطان هو الذي بَنَاه[٣] وقد رميتُ سَبعة أحجار أخرى على عَمود ثانية مشابهة للسَّابقة، مَبنيَّة من قبل نفس المعماري، وموجودة على بُعد أربعين خطوةً من الأولى، وفي النِّهاية رميتُ بسبعٍ أُخرى على البناء الذي تحدثْتُ عنه أعلاه.

وفي يوم الجمعة العشرين من شهر فبراير المصادف للثاني عشر من شهر ذي الحجَّة، وهو اليوم الثالث من أيَّام عِيد الأضحى، وبعد إعادة مَراسم رَمي الجمرات السَّبع عُدتُ إلى مكَّة. وحال دُخولي المدينة ذهبتُ إلى الحرم حيث طُفتُ سَبع مرَّات حول بيت الله، أدَّيتُ بعدها مُباشرةً

(١) يقصد أنَّ هؤلاء كانوا مُجاورين له في مُعسكرهم، لأنّه أشار قبل ذلك إلى أنَّ الشَّريف هو من حدَّد له مكان السَّكن في مِنى، فاختار له هذا المكان المجاور له.

(٢) هو عِلم أصُول الأعداد.

(٣) هذا غير صحيح، وإنما هي علامات وضعت لتحديد مواضع الرمي التي نصّ عليها الدين.

الصَّلاة، وشَربتُ من مَاء زَمزم، ثم خرجتُ من باب الصَّفا لإكمال شعائر الحجِّ بالسَّعي سبع مرَّات بين الصَّفا والمروة، كما هو الحال في اللَّيلة التي وصلتُ بها.

هذا المشهد الرّائع كان يُصاحبه قديمًا وقائع أخرى من العبادات والمحطَّات، أضافها عُلماء مُتعدِّدون أو زهَّاد، لكنَّ السعوديين ألغوا كلّ هذه الإضافات التي عدُّوها من نَوع البدع والخرافات، ولم يتبقَّ منها أكثر ممَّا سجَّلته بتوسُّع في الملحقات الآتية.

وفي يوم الأحد الثاني والعشرين من فبراير (الرابع عشر من ذي الحجَّة) توجَّه كلُّ الحجَّاج ـ تقريبًا ـ إلى مَكان يَبعد فرسخًا صوب الشَّمال الغربي من مكَّة، وفيه مسجد آيل للسُّقوط يُدعى «العُمرة»[١] تُؤدَّى فيه الصَّلاة أولًا، وبعد ذلك يضع الحجيج بخُشوع ثلاث حصيات واحدة فوق أخرى على بُعد مسافة قليلة من المسجد، يذهبون بعدها إلى الموضع الذي كان يعيش فيه الحقير أبو جهل، العدوّ اللّدود لنبيِّنا المصطفى ﷺ[٢]، وهناك يشتمونه بحماسٍ عالٍ ويرمونه بسَبع حصيات؛ وعند العودة إلى المدينة، فطفنا سَبع مرَّات حول بيت الله، وكذلك سعينا سَبع مرَّات بين

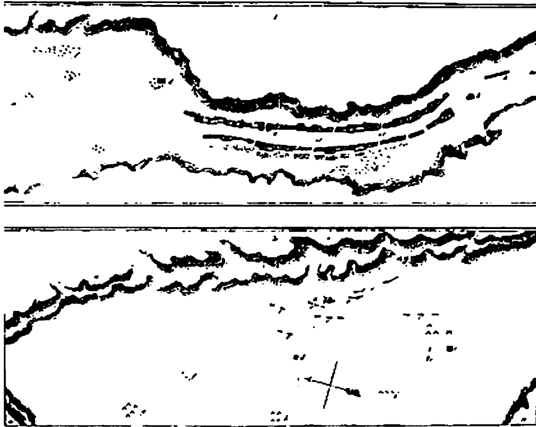
---

(١) أشار إليه ابن عبدالسَّلام الدّرعي في رحلته، وذكر أنَّ النَّبي ﷺ أحرم منه بعُمرة، ولذا فهو ميقات للعُمرة لمن أرادوا الإتيان بها. **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام**، ص١٣٩. ويطلق عليه أسماء أخرى كالتَّنعيم ومسجد عائشة. انظر: إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٤.

(٢) يعد أبو جهل من أبرز مُعارضي دعوة النَّبي ﷺ في مكَّة المكرَّمة، عُرف بأساليبه العنيفة ضدَّ الدَّعوة وصاحبها في بداية أمرها، وقُتل في معركة بدر الكبرى، وقد وصفه الرَّسول ﷺ بأنّه فرعون هذه الأمّة. وقد حدّد الأزرقي موضع هذه الدّار في كتابه: **أخبار مكّة**، ٢/ ٢٤٤، ٢٥٨. ولاشك أنّ هذه الإضافات من إحداثات الخلف ممّا لم يفعله السَّلف، وهو ما يُعدّ من باب البِدع التي نَهى عنها الإسلام، ولذا فقد أبطلها السُّعوديون حال دخولهم مكَّة المكرَّمة.

الصَّفا والمروة؛ وبهذا شَعرنا بالرَّاحة والرضا لأنّنا أتممنا كلَّ شَعائر الحجِّ[١].

يُروى في الحديث أنَّ هذه الإضافة هي من فِعل عَائشة أحبُّ زوجات نبيِّنا الكريم ﷺ إلى قلبه[٢].



مُخطَّط لمنى وعرفات

(١) هذه الأخيرة التي ذكرها ليست من الحجّ بل هي عُمرة مستقلَّة بذاتها، أما الحجّ فقد انتهت شعائره بطواف الإفاضة.

(٢) لا أدري مَا المصدر الذي اعتمد عليه الرَّحالة في مثل هذا الكلام؟ ويبدو أنَّ هذا اللَّبس والخلط جاء من قصَّة إرسال النَّبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها مع أخيها عبدالرحمن لتُحرِم بالعمرة من مكان بالتَّنعيم، أُطلق عليه فيما بعد «مسجد عائشة» كانت آثار جُدرانه قائمة في الوقت الذي زار فيه ابن عبدالسَّلام الدرعي مكَّة. انظر: **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام**، ص١٣٩ ـ ١٤٠. ويُعرف الآن بمسجد التَّنعيم. لمزيد من التَّفاصيل راجع: البلادي: **مَعالم مكَّة**، ص٢٦٩.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

وَصْفُ الحَرَم أو المَسْجِد الحَرَام في مَكَّة

- الكعبة أو بيتُ الله
- مَقام إبراهيم
- بئرُ زَمزم
- بَاب السَّلام
- المنْبَر
- اماكن الصَّلوات (لأئمَّة المذاهب)
- الأعمدَة البرونزيَّة والمصَابيح
- الأرصفَة
- حَمام الحرَم
- القُبَّتان
- الصَّحن
- الأروقَة
- الأبوَاب
- الصَّفا والمرْوَة
- العَامِلُون في الحرَم.

سَأفتَتِحُ حَديثي بوصف الحرم المكّي لكونه الهدف الرَّئيس للزِّيارة، وبعد ذلك سأنتقلُ بالحديث إلى المعَالم الأخرى للمَدينة والبَلد.

إنَّ مَسجد مكَّة يُعرف بين المسلمين باسم «الحرَم» أو الحرَم الشَّريف، ويتكوَّن من: بيْت الله الذي يُسمَّى أيضًا «الكَعبة»، وبئر زَمزم، والقُبَّة أو مَقام إبراهيم، والأماكن الأربعة للصَّلاة حسب المذاهب الأربعة الصَّحيحة، وهي: «المقام الحنفي والمقام الشَّافعي والمقام المالكي والمقام الحنْبلي»، ومن قُبَّتين أخريين، ومن قَوس مُنفصل على شكل أقواس النَّصر، وبجانب مَقام إبراهيم يُوجد بَاب السَّلام ومِنْبر خَطيب يوم الجمعة، والدَّرج الخشَبي الذي يُؤدِّي إلى داخل الكعبة، وكذلك ساحة كبيرة مُحاطة بثلاثة أنواع من الأقواس، وهناك نوعان آخران من الأقواس أصغر منها مُحاطة بالأروقة، وتِسعة عشر بَابًا وسَبع مَنارات، خَمسٌ منها مُلاصقة للبناء واثنتان مَوجودتان خارج الحرم بين الأبنية المجاورة، وسوف أُعطي وصفًا مُفصَّلًا لكلِّ قِسم من أقسام الحرَم هذه.

الكَعبة:

وتُسمَّى أيضًا «بَيْتُ الله»، وهي عبارة عن بُرج مربَّع الشَّكل، أطرافها وزواياها غير مُتساوية، ولذا فهي تأخذ شكْل مُعيَّن مُنحرف، ومع ذلك فإنَّ ضَخامة البنَاء، والقُماش الأسود الذي يُغطِّيها، تُخفي عدم التَّناسق المشار

إليه، وتُظهره كما لو كان مُربّع الشَّكل، وقد بَدَا لي ذلك مُنذُ الوهلة الأولى، لكن اكتشفتُ سَريعًا أنّي كنتُ واهمًا.

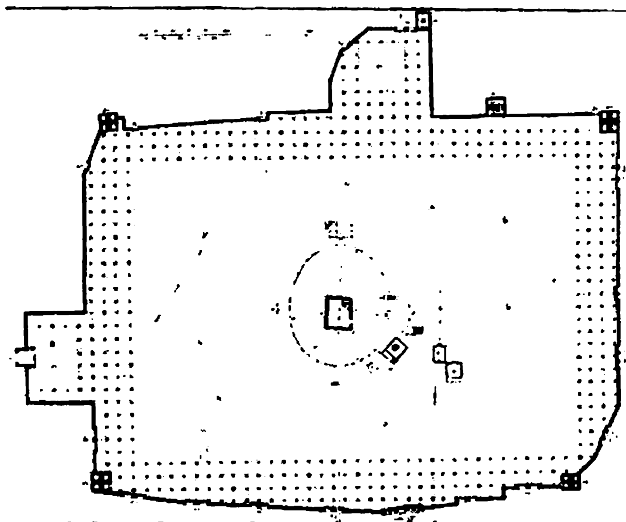
لقد حرصتُ جدًّا على أن أُعطي وصفًا دقيقًا لمقاسات هذا المبنى وأحجامه في جميع أقسامه، لكن كيف يُمكن ذلك دون الوقوع في شُكوك أهل دِيني ووساوسهم(١)؟ نعم، لقد تَمكَّنتُ من الوصول إلى بعض القياسات الجزئيّة والتّقريبيّة التي حَقّقت بعض النّتائج، فمع أنَّها ليست بالدِّقة المطلوبة التي تَقتضيها الأرقام، لكنَّها على الأقلّ تُعطي قياسًا يمكن معه القَول: إنَّ نسبة الخطأ فيه قَدَم واحدة فقط بحِساباتي.

المبنى لا يتّجه إلى أيّة جِهة من الجهات الأربع الأصليَّة، لكن مع ذلك يُعتقد بشكل عام بأنّ زاوية الحجر الأسود قد ضُبطت باتّجاه الشَّرق.

وهَاكم وَضع الكَعبة وقياساتها حسَب تَقديراتي:



(١) ويَقصد بهم المسلمين لأنّه أعلن إسلامه كما مرّ في الدّراسة لهذه الشّخصية والرّحلة؛ وما يعنيه واضح ولا يخفى خاصّة لمن اطّلع على الشُّكوك التي تُحيط بأهداف هذه الرِّحلة.



مخطَّط الحرَم المكّي الشّريف

إنَّها بُرْج معيَّن الشَّكل، مَبنيّ أو ملبَّس بالحجر المنحوت المربَّع دون جَلي، هذا الحجر من النَّوع البلُّوري الشَّفاف المستَخْرج من الجبال المجاورة[١]؛ واجهتها التي بها الباب والتي تُشكِّل أحد جَوانب زَاوية الحجر الأسود تُطلُّ نحو الشَّمال الشَّرقي بمقدار عشر درجات ونصف شرقًا، وبطول سبعة وثلاثين قدمًا وبوصتين وستّة خُطوط[٢] حسب

(١) حول بِنَاء الكعبة، انظر الفصل الرَّائع الذي وضعه مُحقِّق كتاب أخبار مكَّة للأزرقي، ١/ ٣٥٥ ـ ٣٧٣؛ وكذلك ما عرضه حسين باسلامة في: **تاريخ الكعبة المعظمة**، ص ص ٤٧ ـ ١٦٣.

(٢) الخطُّ: مقياس طُول يساوي ٢ مم.

المقياس الفَرنسي. أمَّا الواجهة التي تُشكِّل الجهة الأخرى لزاوية الحجر الأسود فتأخذ اتّجاه الجنوب الشَّرقي بمقدار خمس عشرة درجة جنوبًا وطول واحد وثلاثين قدمًا وسبع بوصات؛ وتتّجه الواجهة المعاكسة للباب نحو الجنوب الغربي بمقدار عشر درجات ونصف غَربًا[١]، وطولها ثمانية وثلاثون قدمًا وأربع بوصات وستَّة خُطوط. ويأخذ الوَجه الرَّابع من جانب حِجر إسماعيل اتّجاه الشَّمال الغَربي بمقدار سبع عشرة درجة ونصف شمالًا وطول تسعة وعشرين قدمًا.

أما ارتفاعُ الكَعبة فهو أربعة وثلاثون قدمًا وأربع بوصات، ويرتفع بَاب الكعبة ستَّة أقدام فوق مُستوى سَطح الأرض الخارجية، أمَّا طُوله فهو ثمانية أقدام وعَرضه أربعة أقدام وبوصتان، ويَبعد ستَّة أقدام من زاوية الحجر الأسود[٢]. ويتكوَّن هذا الباب من دُرفتين من البرونز المحلَّى بالذَّهب والفضَّة، وتُغلق بسلسلة ضخمة من الفضَّة.


الشكل لأطراف مفتاح الكعبة

ويُحيط بالكعبة إفريز من المرمر بارتفاع قدره عشرون بوصة وبروز عشر بوصات، وتُحيط به حَلقات غليظة من البرونز مُثبَّتة بالمرمر، يُربط بها الجزء الأسفل من القُماش الأسود الذي يُغطِّي الكعبة.

الحَجَر الأسود أو السَّماوي يَرتفع بعُلوّ قدره اثنتان وأربعون بوصة

---

(١) وردت حسب الكتاب «شرقًا» لكن صحّحناها حسب سياق الكلام إلى «غربًا».

(٢) الأزرقي في **أخبار مكّة** وضع قياساته الشاملة الوافية إلا أنّها مُتقدمة من ناحية، وتعتمد الذّراع والشّبر ونحوها من ناحية أخرى. انظر: ١/٣٠٧ ـ ٣١٠. ولهذا يُنصح بمراجعة: باسلامة في: **تاريخ الكعبة**، ص ص ١٦٤ ـ ١٧٣.

فوق مُستوى الأرض، وهو مُزخرف من حَوافه بنقشٍ غليظ من الفضَّة بعرض قدمٍ واحدة، والجزء المكشوف منه يشكِّل شُبه دائرة مِقدارها ستُّ بوصات فيِ الارتفاع، حول قُطرٍ قاعدته ثمان بوصات وستّة خُطوط.



هذا الحجَر المعجزة المشكَّل من الياقوت الشّفاف، جاء به من السَّماء الملك جبريل إلى إبراهيم عليه السلام بكونه هبَة إلهيَّة، وبما أنّه قد مَسّته امرأة غير طاهرة فقد تَحوَّل إلى حجرٍ أسود قاتم[1].

ويُمكن القَول بأنَّ الحجَر الأسود من الناحية المعدنيّة هو قطعة من

(١) كما قُلنا سَابقًا بأنَّ اعتماد باديا على الرِّواية الشَّفهية الشَّعبية التي يُوليها المستشرقون بشكلٍ عام عناية خاصَّة، هذه بلا شكّ أضعفت مرويّاته، لاسيَّما ذات العلاقة بالتَّاريخ البعيد. فما أورده المؤرِّخون بالإسناد إلى الأحاديث النّبوية وأقوال الصَّحابة البررة تقول غير ذلك؛ فمثلًا: يُروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «ليس في الأرض من الجنّة إلا الرّكن والمقام، فإنّهما جوهرتان من جَوهر الجنّة؛ ولولا ما مسّهما من أهل الشّرك، ما مسّهما ذو عَاهة إلا شفاه الله عزَّ وجلَّ». وما رُفع إلى النّبي ﷺ بأنّه: «ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنَّة، ولكنّ الله سبحانه وتعالى غيّره بمعصية العاصين، وستر زينته عن الظّلمة والأثمة، لأنّه لا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء كان بدؤه من الجنَّة». الأزرقي: **أخبار مكّة**، ١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣؛ كما ورد عند الترمذي: «نزل الحجر الأسود من الجنّة وهو أشدُّ بياضًا من اللّبن فسوَّدته خطايا بني آدم». **سنن الترمذي**، ٢/ ٣٦٧. كما أنَّ الحجر الأسود قد تأثّر بالحرب الأهليّة بين الأشراف أنفسهم قبيل وُصول باديا إلى مكّة المكرَّمة وسقط جزء منه، وهو ما ورد في رسالة أرسلها والي جدّة وشيخ الحرم إلى الآستانة. انظر: إسماعيل حقّي جارشلي: **أشراف مكّة المكرَّمة**، ص ١٩٥. وقد ورد العديد من الرِّوايات التي لا تخرج عن هذا الإطار والمعنى، ولم يرد فيها أيّ ذكر للمرأة التي حاول الرَّحالة إقحامها بالموضوع، والانتقاص من قَدرها على هذا النّحو.

البازلت البُركاني، زُرِعت على حَواشيها قطع من البلُّور على شكل مُكعَّبات صغيرة أو معيَّنات من القرميد الأحمر، على أرضيَّة سوداء داكنة جدًّا كالمخمل أو الفحمي مع بعض الجزيئات أو النتوءات التي فيها شيء من الحمرة؛ لكنَّ تقبيله ومُلامسته المستمرة من قبل المسلمين أدَّت إلى أن يفقد بشكل مُتفاوت شيئًا من سطحه، ومن حسن الحظِّ فإنّه اكتسب مَظهرًا عَضليًا، إذ إنَّ لديه خَمس عشرة عضَلة وندْبة كبيرة، وإذا قارنَّا ظَهر الحجر المغطَّى، والمحاط بالنّقش الفضِّي وجدنا أنَّ الجزء المكشوف منه قد فَقد من سُمك سطحه حوالي اثني عشر خطًّا بسبب اللّمس، ويمكن الاستنتاج بأنّه إذا كان سَطح الحجَر مُستويًا ومُتماسكًا في زمن النَّبي ﷺ فإنَّه قد فَقد خَطًا واحدًا في كلِّ قَرن[١].

أمَّا القسم الدَّاخلي من الكعبة فليس مُغلقًا بل هو عبارة عن صَالة أُقيمت فوق مستوى السَّطح ومثله الباب، وهناك عمودان في مُنتصف صَالة الكعبة، قُطر كلِّ واحد منهما أقلّ من قَدمين يَحملان السَّقف، ومَظهرهما من الدَّاخل يَستحيل عليَّ وصفه حيث يُخفيهما قُماش رائع مُمتدٌّ يُغطِّي كذلك الحيطان والأعمدة من الأعلى إلى الأسفل حتى يصل إلى ما فوق خمسة أقدام من الأرض، هذا القُماش من الحرير الوردي مُطرَّز بالزُّهور بخيوط من فضَّة ومُبطَّن بآخر لونه أبيض، وكلُّ سُلطان جديد في القسطنطينية مُلزم بإرسال واحدة منها عند تولِّيه منصبه، وفي هذه الحالة

(١) مُشكلة أخرى تُواجه الكاتب هنا هو عَدم اطِّلاعه على تاريخ الحجر الأسود والمشكلات التي مرَّ بها من كوارث طبيعيَّة واعتداءات بشريَّة، أسهب في ذِكرها مُؤرِّخو مكَّة المكرَّمة. انظر عن هذه المشكلات والكوارث على سبيل المثال: الأزرقي: **تاريخ مكَّة**، ١/٣٤٦، هـ(٤)، ص ٣٦١ ـ ٣؛ باسلامة: **تاريخ الكعبة**، ص ص ١١٥، ١٨٨ ـ ١٩٩. ويكفي أن نُشير فقط إلى اقتلاعه من قبل القَرامطة وبقائه في حوزتهم أكثر من عشرين سنة، هذه وغيرها مع الكوارث الطبيعيَّة التي مرَّت بها الكعبة لاشكَّ أنَّ لها تأثيرها، وهذا يُضاف إلى ما ذكره الكاتب هنا، لكن هناك أمور لا تقاس بهذه الدِّقة من أدوات الحسَّابين، وإلا لوجدنا الحجر الأسود قد اضمحلَّ مُنذ زَمن.

فقط يمكن تغييرها. ولكون الأعمدة بدأت تهترئ من الأسفل لأنها لم تُغطَّ بالقُماش الثَّمين فإنّهم ألبسوها شَرائح خَشبيَّة بسُمك بوصة أو بوصتين، وُضعت عموديًا الواحدة بجانب الأخرى، وثُبّتت بمسامير من البرونز المذهَّب.

والجزءُ السُّفلي من الحيطان هي كذلك مكشوفة ومرصَّعة بغطاء جميل من المرمر، بعضها مَلساء والأخرى مُزخرفة بالزهور المطرَّزة، أو الأرابسك[1] البارز، وبعضها عليه نُقوش كتابيَّة. وأرضيَّتها أيضًا مبلَّطة بمرمر جميل، وعلى ارتفاع سبعة أقدام أو ثمانية تُوجد عارضة تَمتدُّ من عمود لآخر، وثانية تَمتدُّ من كلِّ عمود إلى الحائط يدَّعون بأنّها من الفضَّة، وهناك عَدد هائل من المصابيح الفضيّة مُعلقة فيها، مُتراصَّة الواحدة فوق الأخرى، وفي الزاوية الشَّمالية من الصَّالة هُناك دَرج يُصعد منه إلى السَّقف يُغطِّيها حَاجز، وبَابُها مُغلق.

أمَّا سَقفها فهو مُنبسط فسيح في أعلاه، ليس فيه سوى مِيزاب واسع جدًّا في الجهة المتَّجهة صَوب الشَّمال الغربي حيث يَصبُّ الماء في الجزء المحاط بحِجر إسماعيل؛ يقولون إنّه من الذَّهب، لكن يبدو لي أنّه من البرونز المذهَّب.

قُلنا سَابقًا إنَّ بَيت الله مُغطَّى بالكامل من الخارج بقُماش كبير أسود يُسمَّى ثَوب الكعبة[2]، مُتدلٍّ من السَّطح، ومَشدود من الأسفل بحبلٍ

---

(١) هو زَخرفة أو نُقوش على الطّراز العربي، يعتمد النَّقش على الحجر أو الجصّ أو الخشب ثم تطوّر إلى التوريق أو الزَّخرفة على شكل أوراق وأشكال مُتعددة، ويُعرف بهذا الاسم لدى أصحاب الاختصاص. للمزيد، انظر: عبدالعزيز حميد وآخرين: **الفنون الزخرفية العربية الإسلامية**، بغداد ١٩٨٢م، ص٧٣.

(٢) تأخذ هذه أسماء أخرى تَعارف السَّلف والخلف عليها، مثل: سِتارة الكعبة، كِسوة الكعبة، ونحوها ممّا هو شائع ومعروف، لكنَّ المؤلِّف هنا يستخدم كلمة «ثَوب» بهذا اللَّفظ.

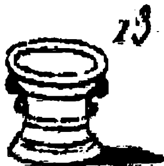
مَربوط بحلقات البرونز الموجودة حول الإفريز. وفي كلِّ عام يَجلبون من القاهرة قُماشًا جديدًا[١]، ومن هناك يُرسلون كذلك السَّتائر الرَّائعة المطرَّزة بالذَّهب والفضَّة والمخصَّصة لتغطية الباب؛ وعلى ارتفاع ثُلثي ثَوب الكعبة هذا يُوجد إفريز عَرضه قدمان مُطرَّز بالذَّهب، مع كتابات مُتكرِّرة في جوانبه الأربعة يُطلقون عليها «الحِزام»، ويُوضع الثَّوب الجديد كلَّ عَام في عِيد الأضحى، لكن في البداية لا يضعونه بالكامل مثل السّابق، وإنّما يرفعون الثّوب وستَارة الباب مَفرودة إلى الأعلى عند السَّقف، وهذا الفعل ليس له من هدف إلا حِماية الثَّوب من أيادي الحجيج، ولنفس الغرض يُقطّع الثّوب القديم في احتفال الإحرام لاغتنام هذه الفرصة لتسويقه، حيث يبيعون الذِّراع بخَمسة فرنكات[٢]؛ كذلك فإنَّ غِشَّ العاملين قد أنقص المقياس إلى أربع عشرة بوصة وخمسة خُطوط حسب القياس بالقدم الباريسي، وهو ما توصّلتُ إليه بنفسي.

في أيّامنا هذه هناك القليل من الحجّاج الذين يشترون، ولهذا فكلُّ عام يبقى منه كميَّة ليست بالقليلة، تَتراكم هذه لأنَّ هذا القُماش لا يمكن استعماله لشيء آخر بسبب النُّصوص القُرآنيَّة التي يَحملها؛ والحزام وستارة الباب هي من حقِّ السُّلطان الشَّريف، بخلاف إذا وَافق عِيد الأضحى يوم

(١) يجدُر التَّنبيه هنا، إلى أنَّ الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سُعُود ـ رحمه الله ـ قد أنشأ دارًا خاصّة لعمل كسوة الكعبة المعظَّمة في مكَّة المكرَّمة سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م أصبحت تقوم بكلِّ ما يتعلَّق بالكسوة من حياكة وتطريز مع ما يلزم الحزام وستارة الباب، ثم توالت الجهود على يَدِ أبنائه الذين تولَّوا الحكم من بعده وأولوا الحرمين بجميع مرافقهما جُلَّ اهتمامهم. لمزيد من التّفاصيل انظر: باسلامة: **تاريخ الكعبة**، ص٣٤٦ ـ ٣٥٤؛ عبداللطيف بن دهيش: **عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السُّعُودي**، الرياض ١٩٩٩م، ص ص ٢٣٩ ـ ٢٤٤.

(٢) حول كسوة الكعبة وتفاصيل ذلك، انظر البحث الوافي الذي أعدّه باسلامة في: **تاريخ مكّة المعظمة**، ص ص ٢٩٦ ـ ٣٦٢؛ وكذلك: ابن دهيش: **المسجد الحرام**، ص ص ٢٣٨ ـ ٢٤٤.

جُمعة، ففي هذه الحالة يُبعث بهما إلى سُلطان القسطنطينيَّة الذي يُرسلون إليه أيضًا الماء من بئْر زَمزم كلَّ عام(١).



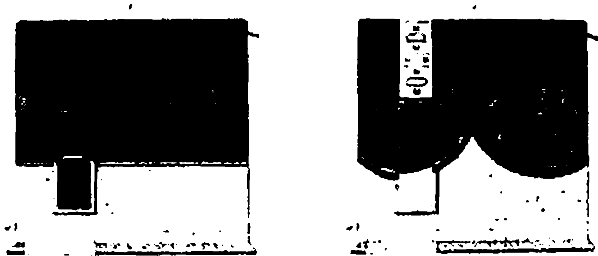
مبخرة داخل الكعبة

لديَّ اعتقاد قويٌّ بأنَّ الكعبة كان لها قديمًا بابٌ آخر من الجهة المقابلة، مُواجه بالضَّبط للباب الحالي، وهذا ما تُوحي به على الأقلّ المساحة الخارجية للحائط، ويبدو كذلك أنَّ ذلك الباب كان مُشابهًا تمامًا للباب الحالي(٢).

---

(١) هذه التَّفاصيل التي أفادنا بها باديا تبدو جديدة، إلا أنَّ قضيّة التّصرف بالكسوة بحثه العلماء واعتاده العاملون على الكعبة من مَسؤولين ومُشرفين. للمزيد: باسلامة: **تاريخ مكّة**، ص ص ٤٤٦ ـ ٤٥٠.

(٢) هذا الاستنتاج صحيح، فابن الزُّبير رضي الله عنه بعد أن رأى آثار الخراب الذي حلَّ بها جرَّاء ضَربها بالمنجنيق بعد مُحاصرته داخلها من قبل قوَّات يَزيد بن معاوية، وما أحدثه الحريق الذي اشتعل فيها في تلك المدة أيضًا؛ لذلك رأى ابن الزُّبير نقضها وإعادة بنائها على الأصول التي كانت عليها أيام إبراهيم عليه السلام؛ خاصّة وأنه اعتمد على حديث شَريف مرفوع إلى النَّبي ﷺ عن عائشة رضي الله عنها يقول فيه: «يا عائشة، لولا أنَّ قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرتُ بالبيت فهدم فأدخلتُ فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلتُ له بابين شرقيًا وغربياً فبلغتُ به أساس إبراهيم». رواه **البخاري في صحيحه** «باب فضل مكّة وبنائها»، ٢/ ١٥٦؛ لذلك كلّه فقد أنفذ ابن الزبير مشروعه وهدم الكعبة سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م واعتمد في بنائها الجديد ما ذُكر في الحديث الشَّريف، ومن ضمن ذلك البابان المذكوران أحدُهما بابها الحالي والآخر مُقابل له مَسدود. لكنَّ عبدالملك بن مروان وبنصيحة من الحجّاج أمر بأن يُسدّ الباب الغربي ويُهدم ما زاده ابن الزبير في الحِجر، ويُترك الباقي على ما عمله ابن الزبير. انظر حول هذه الإحداثيّات في الكعبة ما ذكره الأزرقي: **أخبار مكّة**، ١/ ٢٠١ ـ ٢٢١؛ إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٧١ ـ ٢٧٣؛ باسلامة: **تاريخ الكعبة**، ص١٠٦ ـ ١٢٣.



صورة كسوة الكعبة المشرَّفة أو ثوب الكعبة الجديد كما يسمِّيه باديا

كما يُلحظ أنّه أمَام الجهة الشَّمالية الغربيّة من الكعبة يُوجد نوع من السُّترة على ارتفاع خمسة أقدام وسُمك ثلاثة، يُسمَّى حِجر إسماعيل[(١)]، هذا الحاجز يُغلِق فضاءَ أحد عشريّ الأضلاع، يُشكّل نصف دائرة تقريبًا، وهو مُبلّط بمرمر جميل، تظهر فيه بشكل خاص بعض اللَّوحات الخضراء المميَّزة بوضوح، ومن هذا الجزء تبدو قاعدة الكعبة مُتقاطعة بالتَّدريج، مثلما هو الحال تحت الباب، أمّا باقي المحيط فهو سطح مُنحرف يُشكّل مُسطّحًا مائلًا.

وبين حِجر إسماعيل وهيكل الكعبة هناك فَراغٌ من ستّة أقدام تقريبًا، يُسهّل حركة المرور من كلا الجانبين، ويُعتقد أن هذا المكان يضمُّ قَبر إسماعيل عليه السلام[(٢)].

---

(١) المؤلّف ترجمه خطأً بـ«حجارة إسماعيل». وقد بسط فيه الحديث كلٌّ من: الأزرقي في: **أخبار مكّة**، ١/ ٦٤ ـ ٦٥؛ باسلامة: **تاريخ الكعبة** ص ص ١٩٩ ـ ٢٠٤؛ إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٦٦، ٣٠٥ ـ ٣٠٨.

(٢) أكّد هذه الرِّواية عدد من المؤرِّخين، كابن هشام في: **السِّيرة النَّبوية**، ط. القاهرة ١٩٥٥م، ١/ ٥.

وبالرّغم من أنَّ صالة الكعبة وبابها يعلوان ـ كما رأينا ـ ساحة صَحن الحرم، فلو تأمّلنا في طبوغرافية الموقع فسيكون من السَّهل الوصول إلى أنَّ تلك الصّالة وبابها، كانت في المستوى العام لأرضيّة السّاحة في الأزمان الأولى(١).

والكعبة هي المكان الوحيد القديم الذي بقي في الحرم المكّي، أمّا الباقي فقد أُضيف لاحقًا.

ويتمركز الحرَم في وسط المدينة تقريبًا، وقد بُني في وادٍ ذي انحدار تدريجي من الشَّمال إلى الجنوب.

ومن السَّهل مُلاحظة أنّهم عندما أرادوا تَصميم الصَّحن الكبير وأقسام الحرم الأخرى بدلًا من أن يحفروا من جهة واحدة، ويردمون الجهة الأخرى بالتّراب لتسوية الأرض وجعلها في مُستوى واحد، فإنّهم قد حفروا كل الجهات، بحيث إنّه إذا أُريد الدّخول للحرم من أيّة جهة كانت فيجب النّزول عدَّة درجات، لأنّه أصبح أكثر انخفاضًا بأقدام عديدة عن مُستوى الأرض والشَّوارع التي تُحيط به، وحتى الأرض الملاصقة للكعبة كذلك.

والصَّحن هذا يُشكِّل مُسطّحًا بيضاويًا مُبلَّطًا بالمرمر، وفيه يقوم الحجّاج بالطَّواف حول بيت الله؛ وهو الجزء الأكثر انخفاضًا في الحرم، ولو افترضنا أنَّ مُستواه الطَّبيعي قد ارتفع إلى ما يُوازي الأرض المحيطة بالكعبة وحتى مُستوى الشَّوارع المحيطة به، وهو ما كان في حالة البناء القديم المنفصل؛ الأمر الذي يُمكن معه القَول إنَّ ارتفاع صالة الكعبة وبابها يتناسبان مع المستوى العام، ولهذا لم يكن هناك حاجة لسلَّم

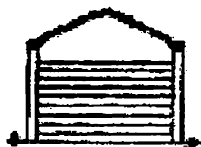
(١) سيأتي توضيح ما يريد قوله قريبًا.

الدُّخول[١]، والواقع في هذه الحالة يفرض أنَّ الحجر الأسود كان في مكان مُختلف عن الذي يُوجد فيه حَاليًا، إذ يُلحظ انخفاضه عن مُستوى الباب بمقدار قَدمين تقريبًا؛ وقد يقول كَافر باحتمال عدم وجوده، أو أنّه كان تحت الأرض، أمَّا بالنّسبة لي فلم يَخطر ببالي مثل هذا التَّفكير حول هذه الهبَة الإلهيَّة[٢].

---

(١) اجتهاد الكاتب هنا واستنتاجه يَستحقّ العناية، خاصّة لو توقّفنا عند حادثة جَرت أحداثها سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م عندما هَطلت على مكّة أمطار غزيرة، غَرقت على إثرها، وملأ الوحل والطّمي ساحة الحرم، وتضرّرت الكعبة نفسها، فهبَّ الأهالي واستغاثوا بالخليفة آنذاك السُّلطان العثماني مُراد خان فأُعيد ما تهدّم منها، وأزيلت تلك المخلفات وما راكمته السُّيول، ويمكن أن تكون الفكرة التي ذكرها قد نُفّذت آنذاك، لكن تُواجهنا مُشكلة قد تجعل من هذه الفكرة مجرّد تخمين، ذلك لأنَّ الحَجّاج لمّا أعاد بعضًا ممّا بناه ابن الزُّبير كان مما عمله أنه أغلق الباب الغربي ورفع الشّرقي إلى مِقدار النّصف، لأنَّ ابن الزُّبير جعل الباب من مستوى الأرض إلى الأعلى بطول أحد عشر ذراعًا، فترك الحجّاج منه ستة أذرع وشبرًا وسدّ الباقي من أسفله. (الأزرقي: **أخبار مكّة**، ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤؛ باسلامة: **تاريخ الكعبة**، ص ص ٢٣٦) وعندما بحثتُ عن تعليل لذلك لم أجد عند من اطّلعت عليهم من يُفيد بالسّبب الذي كان وراء رفع الباب، ولماذا سوّاه ابن الزُّبير رضي الله عنه بالأرض؟ فوجدتُ أخيرًا إشارةً في رواية مُوجزة أوردها الأزرقي تَنسف رواية رحّالتنا من أساسها، تقول هذه الرّواية في حديث مَرفوع إلى النّبي ﷺ: «أنه قال لعائشة رضي الله عنها: إذا فتح الله لي إن شاء الله، رددتُ الكعبة على ما كانت عليه على عهد إبراهيم، فأدخلتُ من الحِجر فيها، وجعلتُ لها بابًا بالأرض وجعلتُ لها بابًا آخر، فإنّ قريشًا إنّما جعلوا الدّرجة لئلا يدخل الناس إلا بإذن». **أخبار مكّة**، ١/ ٢١٤. كما أورد مُسلم ما يزيدها إيضاحًا ويقوّيها، فقد أخرج في صحيحه رواية نصُّها: «قال النّبي ﷺ لعائشة: وهل تدرين لِمَ كان قومك رفعوا بابها؟ قالت: قُلت لا، قال: تعزُّزًا أن لا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرَّجل إذا أراد أن يدخلها يدَعونه يَرتقي، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه، فسقط». **صحيح مسلم** (كتاب الحجّ) ٢/ ٩٧١. وهذا يعني أنَّ الباب وصالة الكعبة كانا فوق مُستوى سَطح ساحة الحرم منذ قديم الزمان، ورَفْع الباب جاء لأسباب احترازيَّة من قبل القائمين عليه لئلا يصبح مهيّئًا لدخول من هبّ ودبّ من الناس، ولتعزيز سيطرة القائمين عليه من القرشيّين ونفوذهم.

(٢) فيما ذكرنا بالملاحظة السّابقة، إثبات أنَّ تحليل باديا المنطقي في ظاهره، تُناقضه

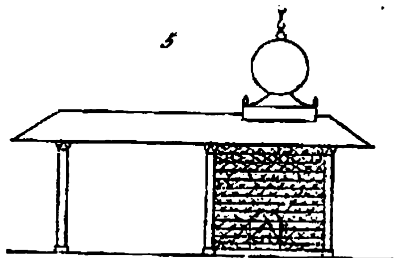


أمّا السُّلم الخشبي الموضوع أمام باب الكعبة للصُّعود خلال اليومين اللّذين تُفتح فيهما للعامّة فهو مُركّب من ستّ لفّات من البرونز، مع سِياج من الجهتين وعشر درجات بعرض ثمانية أقدام.

وبجانب باب الكعبة من الجهة المحاذية للحجر الأسود يُوجد تَجويف صغير بعمق قدم واحدة مُبلَّط بالمرمر، والدُّعاء عنده له مَزيّة خاصّة(١).

مَقام إبراهيم:

هو عبارة عن عَريش مُتوازي الأضلاع، وفي المقابل وعلى بُعد أربعة وثلاثين قدمًا ونصف القدم من النُّقطة المركزيّة لجدار الكعبة حيث يُوجد الباب، مُتوازي الأضلاع هذا طوله اثنا عشر قدمًا وتسع بوصات، وعرضه



= وترفضه حالة الحرم ووضعه مُنذ القدم، ففي حالة التّسليم بصحّة نظريته، بأنّ ساحة الحرم قد أُزيل تُرابها وخُفّض مُستواها عمّا حولها، فإنّ هذا يَشملها بكاملها بما فيها موقع الكعبة قبل بنائها، وعليه فإنّ وضع الحجر الأسود الحالي هو في موضعه المناسب لمستوى قامة الحاجّ والمعتمر والزائر منذ أن بُنيت الكعبة.

(١) هي ما يُعرف اليوم بالمعجن، وردت الرِّوايات في أصلها وفضلها، انظر: باسلامة في: **تاريخ الكعبة**، ص ص ٢٢٦ ـ ٢٣١؛ إبراهيم باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٦٧.

سبعة أقدام وثماني بوصات، وهو في مُواجهة الكعبة من جانبها الأكثر ضِيقًا، ويُسند سقفه سِتُّ دعائم ترتفع بأكثر قليلًا من طول الإنسان. ونصف المتوازي هذا من جهة بيت الله مُحاط بسياج جميل من البرونز، يُعانق أربعة أعمدة، وبابها مُغلق دائمًا بسلسلة كبيرة من الفضَّة، وينتهي هذا السِّياج بشكل مُغطًّى بقُماش رائع أسود مُطرَّز بالذَّهب والفضَّة مع التَّحلية بإطار غَليظ من الذَّهب، وهي ليست أكثر من صَخرة كبيرة كان يستعملها إبراهيم مصطبة عند بنَاء الكعبة، كانت هذه ـ حسب ما يقولون ـ تَتمدَّد للأعلى كلَّما ارتفع البناء، وذلك لأجل تَسهيل الأعمال وتَعجيلها. وفي الوقت نفسه فإنَّ هذه الأحجار كانت تخرج بإعجاز من الأرض، مُجهَّزة من نفس الموقع الذي تحتله الصَّخرة الآن، تمرُّ هذه الأحجار من يَدَيْ إسماعيل إلى يَدَيْ والده؛ ولهذا السَّبب فبعد الطَّواف حول الكعبة يذهب النَّاس إلى مَقام إبراهيم للصَّلاة هناك حَسب التَّعاليم الإسلامية. وممَّا يَلفت النَّظر أنَّ هذا المكان المحاط بالسِّياج مُتوَّج بقُبَّة رشيقة(١).

بِئْرُ زَمْزَم:

يقع بِئر زَمزم على بُعد واحد وخمسين قدمًا ونصف القدم إلى الشَّرق من الحجر الأسود، وبمقدار عشر درجات شمالًا منه، أمَّا قُطره فيبلغ نحو سبعة أقدام وثماني بوصات، وعُمقه حتى الماء ستَّة وخمسون قدمًا، وحَاجز البئر من المرمر الأبيض النّاصع الجميل وارتفاعه خمسة أقدام.

ولأجل استخراج الماء ينبغي الصُّعود فوق حاجز البِئر، وفي جُزئه الدَّاخلي يُوجد دَعامة حديديَّة مع قاعدة من النُّحاس لأجل إسناد القدم، ولعدم وجود دَرجات لأجل الصُّعود يجب القفز أوَّلًا إلى نافذة مُلاصقة

---

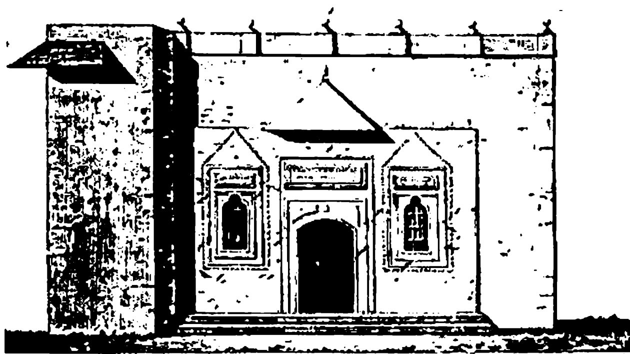
(١) لمزيد من التوسع، انظر: إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين ١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٧؛ البلادي: معالم مكَّة، ص٢٨٦.

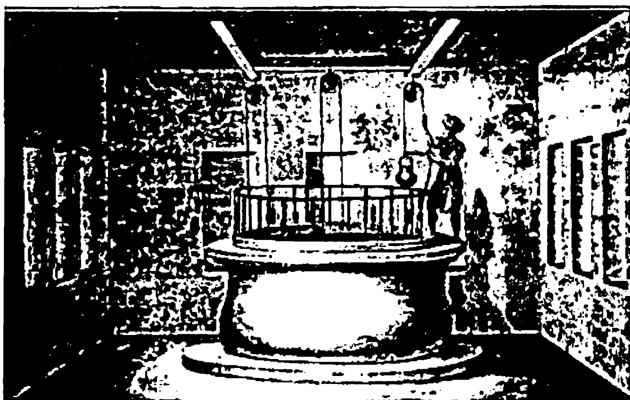
لأجل تَسلُّق الحاجز بعد ذلك؛ كلُّ هذه العقبات لا تهدف إلا لمنْع الحجَّاج من استخراج الماء بأنفسهم، ومن ثَمَّ حِرمان خَدم البئر من المكافآت الإضافيّة التي يحصلون عليها مُقابل عملهم. ويُستخدم لإخراج الماء ثلاث بكرات من البرونز، وحبال من القنّب ودِلاء من الجلد في طرف الحبال، وماؤها ثَقيل ومالح مع أنّه صَافٍ جدًا. وعلى الرّغم من أنَّ درجة حرارة عُمق البئر عند الخروج تكون أكثر دفئًا من حرارة الطَّقس الخارجيّة ممَّا يجعل مَاءها فاترًا، وهو يدلُّ على وجود مُسبِّب خاص لهذه الحرارة الشَّديدة في عُمق البئر، ومع كل ذلك فإنَّ مَاءها صحّيٌّ وكثير جدًّا، لدرجة أنّه في وقت الحجّ يُستخرج منه آلاف الدِّنان دون انخفاض مُستوى الماء فيه.

وقد ملأتُ من ذلك الماء الذي استخرجتُه بنفسي أربع زُجاجات، وأغلقتُها بكلِّ احتياط بعد الخروج من البئر مُباشرة، حسب ما تَتطلّبه العمليَّات الكيميائيَّة، وذلك بهدف عمل التَّحليلات اللَّازمة له عندما أتمكّن في يوم ما، وبعد ساعة من تَعبئتها في الزُّجاجات المغلقة بإحكام أغطيتها، مع غُلافها الزُّجاجي المختوم في الحال، ظَهرت فُقاعات من الهواء رقيقة جدًّا داخل الزُّجاجة وعلى السُّطوح الدَّاخليّة، مُشابهة لرأس الدَّبوس، وبتحريك هذه الزُّجاجة بهدوء صَعدت هذه الفقاعات إلى أعلاها، مُجتمعة كلّها في فقاعة ثخينة واحدة بحجم الحمّصة، وهذا بلا شكّ كان نوعًا من غَاز ما، وهو ما يكفي وحده لفهم هذا الاختلاف في درجة الحرارة[١].

---

(١) يقول مُحقّق كتاب أخبار مكّة للأزرقي رُشدي الصّالح ملحس: «ومَاء زمزم مَاء قَلويّ تكثر فيه الصُّودا والكلور والجير وحامض الكبريتيك وحامض الأزوتيك والبوتاس ممَّا يجعله أشبه شيء بالمياه المعدنيَّة». (١/ ٦). وقد وردت الأحاديث الشّريفة في فضل مَاء زمزم وأنه لما شُرب له، وقد بَسط ابن القيّم في كتابه **الطب النبوي** ط. بيروت، الحديث حول خوّاص هذا الماء وما له من مزيّة. (ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧).





١ ـ الواجهة الرئيسة للمبنى الذي يحوي بئر زمزم.

٢ ـ بئر زمزم.

لا أحد يُنكر بأنَّ البئر المذكورة قد فتحها بمعجزة أحد ملائكة الرَّب (تعالى) لهَاجَر في الوقت الذي أشرفت فيه على الموت عَطشًا في الصَّحراء مع ابنها إسماعيل بعد خروجها من بيت إبراهيم[١].

وحول البئر بُني مكان صغير رُتّبت فيه تلك الأشياء الموجودة هناك، وآخر أصغر منه كي يكون مَخزنًا للدِّنان، وسُلَّم للصُّعود إلى مَصطبة يحيط بها سِياج، مُقسَّمة قسمين: الأوَّل مُخصَّص لصلاة أتباع المذهب الشَّافعي، في أعلاه قُبّة أنيقة تتّكئ على ثمانية أعمدة، أمّا الثّاني فإنّه يحوي مِزولتين كبيرتين من المرمر مُخصَّصتين لتعيين أوقات الصلاة.

ويبدأ الميقاتي وهو الشَّخص المسؤول عن تحديد دخول أوقات الصّلوات بواسطة المزولتين المذكورتين، بالمنَاداة للصَّلاة من المقام الشَّافعي، وفي الحال يُردِّد سبعة مُؤذِّنين الصِّيغة نفسها من أعلى المنارات السَّبع[٢]، وللصُّعود إلى تلك المصطبة فقد وُضع باب آخر في السّلم، مُستقل عن مَدخل البئر ومَخزن الدِّنان، بمعنى أنَّ هذا البناء الصَّغير يضمُّ ثلاثة أبواب.

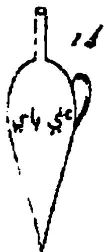
---

(١) بدايةً هَاجر لم تخرج من بيت إبراهيم عليه السلام، بل هو الذي أسكنها في هذا المكان وقد وردت هذه القصّة في العديد من كُتب السُّنة والسيرة، ومفادها أنَّ النَّبي إبراهيم عليه السلام لما ترك زوجته هاجر أمّ إسماعيل أشرف الغلام على الموت عَطشًا فصارت تسعى بين الصَّفا والمروة، وتنظر هل ترى من أحد، فهيّأ الله لها مَلكًا فنبش الأرض وكانت نَشأة بئر زمزم. انظر تَفاصيل ذلك في: ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ط. بيروت، ٧/ ٢٠٨ ـ ٢١٥؛ ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٣/ ١٤٧؛ إبراهيم باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٩.

(٢) إبرهيم رفعت باشا الذي زار هذا المكان، لكن بعد باديا بحوالي القرن، يُفيد بأنَّ: «شيخ المؤذِّنين أو الميقاتي يُؤذن فوق قبّة زمزم، فيتبعه باقي المؤذنين على المآذن، ومُثبّت على الحائط الجنوبي لهذه القُبّة مِزولة أعداها رجل مَراكشي إلى المسجد، وهي في غاية الضّبط والإحكام، وعليها ميقاتهم في النّهار». **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٣٥.

والمنطقة التي تُوجد فيها البئر مُربَّعة الشّكل في سبعة عشر قدمًا وثلاث بوصات، وفيها ثلاث نوافذ تفتح نحو الغرب حيث الكعبة، وثلاث أخرى تفتح نحو الشَّمال، ويفتح الباب ونافذتان نحو الشرق، وهي مَكسوة ومُبلّطة بالكامل بالمرمر الأنيق، كما يُشاهد في الجزء الجنوبي ثلاث فتحات في الحائط الذي يفصل مَخزن الدِّنان، ويُزيّن الجزء الخارجي واجهة صغيرة من المرمر الأبيض الجميل.

عَدَد دِنان البئر لا يُحصى، فليست هي فقط تلك التي تَشغل المخزن الصغير الذي تَحدَّثتُ عنه، وإنّما أيضًا في القُبّتين المجاورتين، وعدَّة مَخازن أخرى موجودة حول سَاحة الحرم. إنَّ شكل الدِّنان غريب، فلها رَقبة طويلة أُسطوانية، وبَطنها طويلة أيضًا مثل الرَّقبة، وتَنتهي من أسفل على شكل مَخروط، بمعنى أنّها ليست مُستوية، فهي تحتاج إلى أن تُسند إلى الحائط، وكلّها بنفس القياس، إذ يبلغ طولها الكلّي خمس عشرة بوصة، وأكبر عرض لمحيطها هو سبع بوصات وستّة خُطوط؛ وهي من الطّين دون أصباغ، ومساميَّة لدرجة أنّها تَنضح الماء باستمرار، وتَبرد في لحظات محدودة.



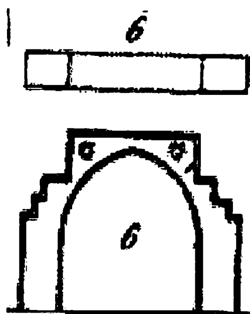
وما أن يصل إلى مكّة حَاجّ من ذوي المنزلة حتى يُسجّلوا اسمه في الكتاب الكبير لدى شيخ الزمازمة، وفي الوقت نفسه فإنَّ هذا الرّئيس يُعيّن خادمًا لتزويده بالماء، وإيصاله إلى بيته في مَواعيد مُحدَّدة، وعلى هذه الدِّنان يُكتب اسم هذا الحاجّ بالشَّمع الأسود، بالإضافة إلى بعض الكتابات الصُّوفيّة الأخرى.

وخارج نِطاق الدِّنان التي تُزوِّد الحجّاج بالماء، فإنَّ سَقّائيي زَمزم يتجوّلون باستمرار داخل الحرم لبيع هذه المياه أو توزيعها، ومع حُلول

المساء تُمدُّ فُرش الحصير الطويلة الضَّيقة في ساحة الحرَم بأعداد لا تُحصى وبشكل مُنتظم ومتناسق، وأمام كلٍّ واحدة منها يُوضع رَتْل من الدِّنان نصف مملوءة وبشكل مُنحرف، ويأتي النَّاس للجلوس على هذه الحصر، ليجدوا أمام كلٍّ منهم واحدة منها. وهو أمر لطيف جدًّا في بلد حارّ، ممَّا يَجذب الكثير من النَّاس إلى الحرَم حتى قبل وقت صَلاة المغرب، فهو وقت للاجتماع يُصلِّي فيه بعض الناس أو يدخلون في مُحادثات مُسليَّة حتى يَحين وقت الصَّلاة.

ويحمل خَدم زَمزم على أكتافهم اليسرى الدِّنان مُغطاة بنوع من الأعشاب اليابسة ممَّا يَمنع دُخول الغبار أو الحشرات، لكنَّها لا تَمنع خُروج الماء عندما يُريدون صبَّها، إذ يخرج دون الحاجة إلى إزالتها، وفي اليَدِ اليُمنى يحملون قَدحًا صغيرًا مَطلياً بالقصدير، يقدِّمون به الماء للَّذين يَطلبونه والَّذين لا يَطلبون.

بَابُ السَّلام:

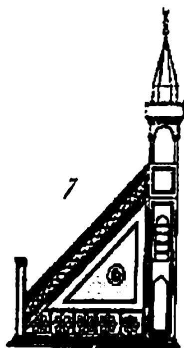


هو قَوْس مُعلَّق على شكل أقواس النَّصر، يقع على مسافة سبعة عشر قدمًا من مَقام إبراهيم ومُقابل له تَقريبًا، كما أنه في الجانب المواجه للكعبة، هذا القوس مَبنيٌّ من الحجر المنحوت يَنتهي بقائم، وارتفاعه خمسة عشر قدمًا وستّ بوصات، وعرضه تسعة عشر قدمًا وستّ بوصات، ويدخل ضمن ذلك سَماكة قائمي القَوس.

لقد قلتُ سابقًا: إنَّ الدُّخول من تحت هذا القوس فَأْل حَسن ومَزيّة

خاصة لمن جاز خلاله، لاسيَّما لمن قدم للطَّواف حول الكعبة للمرَّة الأولى(١).

المنبر



مِنْبَر خَطيب الجمعة(٢) يقع بجانب مَقام إبراهيم، وعلى بُعد أربعة عشر قدمًا قُبالة الزَّاوية الشَّماليَّة للكعبة؛ هذا المنبر مُكوَّن من المرمر الأبيض البديع، ومن أكمل مَرافق الحرم وأجملها، مَبنيٌّ على شكل مدرَّج، وينتهي في مُربَّع تَعلوه قُبَّة أنيقة هَرميَّة مُثمَّنة الشَّكل، ويبدو لي أنّها من البرونز المذهَّب، تَستند هذه القُبَّة على أربعة أعمدة قصيرة مُرتبطة بأقواس صغيرة، تَنتمي بعض الشَّيء إلى نظام الفَنّ الكُورنثي(٣) لكنَّها في الحقيقة لا تَنتمي إلى

---

(١) هذا الباب يُسمَّى بأسماء أخرى كبَاب بني شَيبة وهو باب المسجد الأصلي في عهد الرَّسول ﷺ، ويُعرف ـ أيضًا ـ ببَاب بني عبدمناف، وباب السَّيل، ومنه دخل النَّبي ﷺ في حجَّة الوَداع. انظر: الأزرقي: **أخبار مكَّة**، ١/ ١٧، ٣٣؛ إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٣٢ ـ ٣٣.

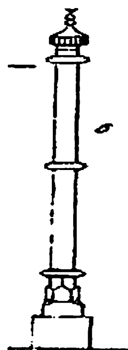
(٢) حول هذا المنبر والمراحل التي مرَّ بها سواءً في موضعه أو شكله وتركيبته وطريقة وُصوله إلى مكَّة، انظر: الأزرقي: **أخبار مكَّة**، ٢/ ٩٩ ـ ١٠٠؛ ابراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٥. وهذا المنبر الذي يتحدَّث عنه علي باي كان قد بَعثه السُّلطان سُليمان سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م حسب نفس المصدر الأخير، ١/ ٢٥٣.

(٣) نسبة إلى كورنثوس Corinto اليوناني، لمزيد من المعرفة حول هذا الاسم، والمصطلح؛ انظر: **موسوعة لاروس**. Larousse, p. 613, t. 4, ed. Planeta. Barcelona. Espana, 1984.

أيٍّ من الأنظمة المعماريَّة الخمسة، وجوانبه الخارجيَّة وسِياجه وبابه وقاعدته تُعدُّ من الأعمال الرائعة الصُّنع، وتَنتهي قاعدة المنْبَر بشبَّاك من البرنز، وعرض الدَّرج ثلاثة أقدام.

هنا كما هو الحال في جميع المساجد[1] لا يَصعد الإمام إلى الدَّرجة الأخيرة للمنبر لإلقاء خُطبته، وإنّما يبقى واقفًا فيما قبل الدَّرجة الأخيرة، ويُدير ظهره نحو الكعبة.

وهناك حَالة خاصَّة لم أجدها في مكان آخر، وهي أنَّ الإمام لكي يُلقي خُطبته ويُصلِّي الجمعة عليه أن يَلبسَ لباسًا خاصًا لهذا الغرض، هو قُفطان فِضفاض من قُماش خفيف من الصُّوف الأبيض، وشالٍ خفيف ومتواضع، يُغطِّي رأسه ثم يلفُّه بعد ذلك حول رقبته، ويصلحه بطريقة تجعل الأطراف تَتَدلّى إلى الأمام.



تَأخذ الكعبة وحِجر إسماعيل وضعًا مُتوسّطًا في الحرَم تقريبًا، وتَشغل مُرتكز شكل بَيضاويّ غير مُتساو، ممَّا يُشكِّل رقعة مساحتها تسعة وثلاثون قدمًا في عرضها، حولها يَطوف الحجَّاج لأدَاء مَناسكهم، في ساحة مُبلَّطة بالمرمر الجميل، وتقع كما قُلنا سابقًا في المكان الأكثر انخفاضًا في الحرم.

ويُحيط بالحرم مسطَّح بَيضاوي آخر غير مُتناسق، عرضه واحد وثلاثون قدمًا، ويَعلو المكان السَّابق بقدم واحدة، وهو مَرصوف بالحجر المنحوت البلُّوري المتناسق.

وحول المدرج الفاصل بين المكانين، يَرتفع صَفٌّ من واحد وثلاثين عمودًا رقيقة، أو دَعائم من البرونز، مع أخرى من الحجر في كلِّ طَرف،

(١) حكم متسرع لا يحقُّ للكاتب أن يطلقه بهذا التَّعميم.

وطول هذه الأعمدة يُقارب سبعة أقدام وستّ بوصات من طرفها الأسفل حتى طرفها الأعلى، مع تَاج صغير يستند إليه عدد من قُضبان الحديد المعترضة التي تَمرُّ من عمود لآخر، وعليها عُلِّق عدد وافر من المصَابيح حول بيت الله؛ ويحمل تَاجُ العمود زينة مُذهَّبة، بارتفاع حوالي القدمين وينتهي بهلال، هذه الأعمدة إسطوانيّة الشَّكل، مُحيطها ثلاث بوصات تقريبًا، ويُوجد نِطاق في مُنتصفها، وكلّ عمود يَستند على قاعدة صخريَّة إسطوانيَّة بقُطر وارتفاع قدم واحدة.

وتَأخذ المصَابيح شكلًا كرويًّا تقريبًا، وهي من الزُّجاج الأخضر، ذو السَّماكة العالية وقليلة الشَّفافية، وقد رُكِّبت بلا نظام أو تناسق مع أبعاد الأعمدة، وتُشعَل في كلِّ ليلة(١).





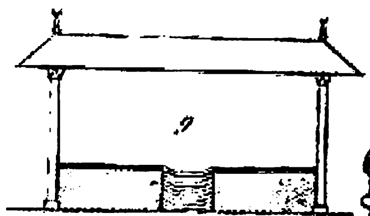
وحول المسطَّح الخارجي تُشاهد أمكنة للصَّلاة حسب المذاهب الإسلاميَّة الثّلاثة الأخرى المعروفة: المقَام الحنَفي، المقَام المالِكي، المقَام الحنبَلي(٢).

---

(١) قدّرها إبراهيم رفعت باشا بألف وثمانية وثمانين عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م. **مرآة الحرمين**، ٢٦٠/١. ومما يجدر ذكره هنا أنّ الكهرباء قد أضاءت الحرم في عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، وذلك بأمر من الملك عبدالعزيز آل سُعُود رحمه الله. انظر: ابن دهيش: **عمارة المسجد الحرام**، ص١٠٢.

(٢) هذه الأماكن التي أشار إليها، خاصَّة بالأئمة الذين يؤمُّون النَّاس بالصَّلاة حسب المذاهب الأربعة المعروفة، وقد سبق الحديث عن مكان الصَّلاة لأتباع المذهب الشَّافعي عند الحديث عن بئر زمزم والأماكن المحيطة بها؛ وقد بسّط لنا الحديث حولها ابن جبير، وكان أثناء حجّه سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م هناك مقام للزيديَّة أيضًا، انظر: **رحلة ابن جبير**، ص ٧٠ ـ ٧٢؛ اللواء إبراهيم رفعت باشا في: **مرآة الحرمين**، ٢٤٨/١ ـ ٢٥٢.

فالمقَام الحنَفي يقابل حِجر إسماعيل، ويُقيم فيه الأتراك شَعائرهم، وهو صَالة مَعزولة، تَعتمد على اثنتي عشرة دَعامة، وثلاثة أقواس في الواجهة وقوسين في الدَّاخل؛ والموقع مُتوازي الأضلاع، ضِلعاه الكبيران بطول تسعة وعشرين قدمًا وثلاث بوصات، أمَّا الصغيران فبطول خمسة عشر قدمًا ونصف، وارتفاع هذه الدَّعامات أطول بقليل من قَامة الرَّجل الاعتياديَّة. وتُوجد صَالة أخرى أعلى منها، مُساوية لها في المساحة، وللصُّعود إليها هناك دَرج في زاويتها الغربيَّة.

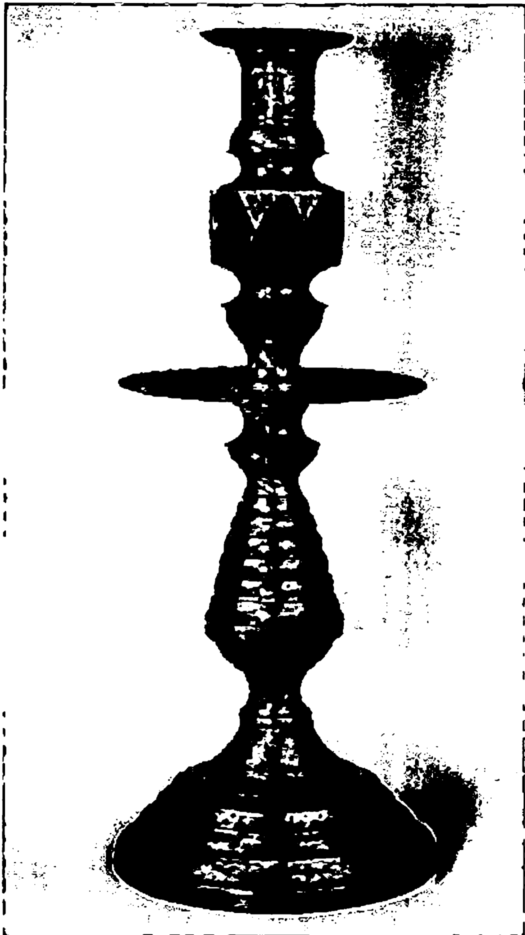


أمَّا المقَام المالِكي فموجودٌ قُبالة الكعبة في الجانب المواجه للبَاب، في مُربَّع ذي أربع دَعامات تسند السَّقف، بمساحة مُربَّعة قدرها أحد عشر قدمًا، وارتفاع الدَّعامات هو نفس ارتفاع المقام الحنفي.

والمقَام الحنبَلي مُشابه تمامًا للمقام المالكي، وهو مُقابل للحجر الأسود.

وأسقف هذه المباني مثلها مثل سَقف زَمزم ومَقام إبراهيم، مَطليَّة بالرَّصاص مع نُتوءات كبيرة، لإيجاد الظِّل ولنفس الغرض لا ترتفع الدَّعامات كثيرًا.

وكلُّ أمكنة الصَّلاة هذه لديها سترة في الأمام بارتفاع ثلاثة أقدام مع نوع من الكُوَّة في الوسط مُخصَّصة للإمام، لكن بما أنَّ كلَّ شيء قد تغيَّر بعد الإصلاحات الوهَّابيَّة، فأئمة الحنَفيَّة والحنابلة يُصلُّون أسفل الكعبة



شمعدان للإنارة في المسجد الحرام

مُقابل الباب، وإمام الشَّافعيَّة يُصلِّي في مَقام إبراهيم، وظَلَّ إمام المالكيَّة وحده هو الذي يُصلِّي في مَكانه، ويَؤمّ الإمام الحنْبلي صَلاة الصُّبح، أمَّا صَلاة الظُّهر والعصر فالإمام الحنَفي، وصَلاة المغرب يَؤمُّها الإمام الشَّافعي، بينما صَلاة العشَاء يُصلِّيها الإمام المالِكي(١).

ويَجلس الخدم وحُرَّاس الكعبة من الخصيان الزُّنوج في المقام الحنْبلي حيث يُوجد لديهم بعض الأثاث والسّجاد، وفي ساعات الصَّلاة الجهريَّة يُشكِّل المرتِّلون وهم من الزُّنوج الخصيان فِرقة للتَّرتيل في الصَّالة العُليا للمقام الحنَفي.

وعند دخولك إلى ذلك النِّطاق المرصوف ذي السِّتَّة مَمرَّات المبلَّطة كلّها بالمرو، والذي يحتوي على تلك المباني الآنفة الذكر، ثم تفترق ابتداءً من الأروقة الكبرى المقابلة لباب السَّلام والنَّبي والصَّفا والوَداع وإبراهيم والعُمرة؛ هذه الأرصفة تتَّسع لحوالي عشرة أقدام وستّ بوصات وبارتفاع قدم واحدة فوق مُستوى ساحة الحرم العامَّة، وتتَّصل هذه الممرات مع أخرى ثانوية، تَنتهي بنقاط مُختلفة من تلك الأروقة، أمَّا بقيَّة السَّاحة فليست بأكثر من رِمال خشنة تَجتذب عادةً أكثرَ من ألفي حَمامة تَعود للسُّلطان الشَّريف(٢).

---

(١) كان أئمَّة كلّ مَذهب يقيمون الصَّلاة وحدهم قبل هذا التَّنظيم والتَّوحيد الذي أحدثته الدولة السُّعوديَّة الأولى بعد دخولها مكَّة المكرَّمة، فكان أتباع المذهب الشَّافعي يُصلون أوَّلًا، ثم يأتي بعدهم الحنفيَّة فالمالكيَّة ثم الحنابلة، هذا في الصَّلوات الأربع غير المغرب، أمَّا هذه فكان يُصليها الأحناف والشَّافعية في وقت واحد، بينما المالكيَّة والحنابلة يصلُّونها مع غيرهم بلا أئمَّة. إبراهيم باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٥١.

(٢) لا ندري من أين استقى هذه المعلومة المغلوطة، لأنَّ حَمام الحرم كما هو مَعروف حرَّة طليقة، لا تتبع أحدًا وليست مُلكًا لأحد. ولعلَّ زميله بوركهارت أكثر وَعيًا وإدراكًا عندما قال: «ومكَّة بشكل عام والمسجد الحرام على نحو خاص، غاصٌّ بأسراب الحمام، يُنظر لها باعتبارها مُلكًا للمسجد، ويقال لها حَمام بيت الله، ولا يجرأ أحد على قتل حَمامة منها حتى لو دَخلت مَسكنه الخاص...». رحلات، ص١٤٢.

ويوجد فوق هذه الأرصفة باستمرار النِّساء والأولاد الذين يَبيعون البُرَّ في صُحون صغيرة وسِعر الصَّحن منها بَارة[١]؛ والحجَّاج لا يتوانَون عن تَخصيص بعض النُّقود من البارات العُثمانيَّة لشراء بعض صُحون القمح لحمَام الحرم، وهو عمل خيري نبيل من أجل الله ومن أجل الشَّريف.

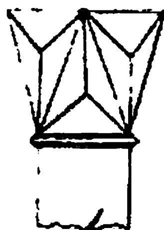
مُقابل بَاب بئر زَمزم وعلى مَسافة قليلة منها تُشاهد القُبَّتين وهما مُصلَّيان مُتلاصقان، كل واحدة منهما على شكل مُربَّع ضلعه ثمانية عشر قدمًا، ونقطة الاتِّصال بينهما تُشكِّل زاوية مُنحرفة، وشكل القُبَّتين وأبعادهما مُتطابق تمامًا، وتَجمعهما قُبَّة مُخدَّدة جميلة، ومعروف أنَّ القُبَّتين تُستعملان مخزنًا لدنان بئر زمزم، وتُستخدم إحداهما بالإضافة إلى ذلك مكانًا لوضوء الحجَّاج واغتسالهم من مَاء زمزم.

والفَضَاء الذي يُحيط بالمقام الحنَفي مبلَّط مثل الرَّصيف، ويأخذ شكل ذَيل سمكة مُمتد إلى القاعة الكبرى خلف ذلك المكان؛ ويُحيط بالسَّاحة الكبيرة أربعة أروقة، تَستند على أعمدة ودعامات مُمثِّلة مُتوازي أضلاع، ضلعاه الكبيران باتِّجاه الشرق بدرجة ٣٤ ونصف شمالًا، وإلى الغرب بدرجة ٣٤ ونصف جنوبًا، وطولها خمس مئة وستَّة وثلاثون قدمًا وتسع بوصات، أمَّا الأضلاع الصَّغيرة فتمتدُّ بطول ثلاث مئة وخمسين باتِّجاه الشَّمال، بدرجة ٣٤ ونصف غربًا، وصَوب الجنوب بدرجة ٣٤ ونصف شرقًا؛ وواجهتاه الكبيرة منهما تحتوي كلّ منها على ستَّة وثلاثين قوسًا أماميًا، أمَّا الجهتان الصَّغيرتان ففيهما أربعة وعشرون قوسًا. هذه الأقواس مُدبَّبة تقريبًا، وتَستند على أعمدة من المرمر الأبيض والرَّمادي وبتناسب

(١) عُملة عُثمانيَّة مَشهورة، سادت وتُدولت في الحجاز خلال النُّفوذ العثماني، سيأتي الحديث عنها عندما نصل إلى العُملة المتداولة في مكَّة المكرَّمة وقت زيارة هذا الرَّحالة.

مُختلف، ولو أنَّها عُمومًا تقترب من الطِّراز المعماري الدُّوري(١)، وبين كلِّ أربعة أقواس يرتفع بدلًا من العمود دعامة مُثمَّنة من الحجر المنحوت بقُطر ثلاثة أقدام.

تتكوَّن كلُّ جهة من القاعات الكبرى من ثلاثة أروقة أو ثلاثة أنواع من الأقواس اللَّهمّ إلا بعض النَّشاز، وكلّها مُستندة على أعمدة ودعامات؛ ومن الممكن تعداد أكثر من خمس مئة عمود ودَعامة، لإسناد أروقة الحرم ومَمرَّاته.



وتيجان الأعمدة التي تُشكِّل الواجهات الأربع للسَّاحة جميلة جدًّا، ولو أنّها لا تَنتمي إلى أيٍّ من الأنواع المعماريَّة الخمسة، أمَّا تِيجان الأعمدة الدَّاخلية للأروقة فكلّها من الطِّراز المعماري الكُورنثي أو المركَّب، وأغلبها عُمِل بمهارة فائقة.

أمَّا قواعد الأعمدة فهي بصورة عامَّة مرتفعة، لكن يُوجد من بينها ما هو أقلّ ارتفاعًا أو انخفاضًا، وأخرى بقواعد مزيَّفة، وبعضها الآخر عُمل بمزاج مِعماريّ غَريب الأطوار؛ وتيجان الأعمدة ذات طراز كورينثي مَقلوب.

والأقواس المطلَّة على السَّاحة مُتوَّجة بقُبَّة صغيرة، أمَّا الدَّاخلية منها فليس لها غير عِقد نصف كُروي، والواجهات الأربع للسَّاحة مُزيَّنة بأحجار تُشبه أزهار الزَّنبق.

---

(١) إحدى الطُّرز المعماريَّة المعروفة، ودوري نسبة إلى أحد أبناء غزاة بلاد الإغريق كان في حوالي القرن ١٢ ق.م، كما أصبحت تُنسب إلى هذا الاسم إحدى اللَّهجات اليونانية القديمة. انظر: F. CORRIENTE, Nuevo Diccionario Espanol-Arabe, letra (D).

وتلك الأروقة مَرصوفة مثل مَمرَّات الحرَم وجدرانه بصخُور الكوارتز (المرو) الممزُوج بالحجر الكهربائي chorlo والميقًا mica، وهو نوع من الصَّخر الذي يكثر في هذه البلاد(١).

والزَّاوية الشرقية للحرَم مَقطوعة أو مُحدَّبة للالتقاء بالشَّارع الرَّئيس، وتُصبح ضيِّقة جدًّا في ذلك الموضع من الرِّواق، وبالكاد يظلُّ مَمرّ بين الحائط والأعمدة الموجودة في زاوية الرِّواق.

أمَّا في جَناح أو رِواق الجنوب الشَّرقي لمبنَى الحرَم من جهة بَاب الصَّفا حتى بَاب زليخة فهناك طِراز رابع من الأقواس، وفيها يُلحظ أيضًا شَيء من عدم التَّرتيب.

وليس موقع الكعبة في وسط السَّاحة بالضَّبط، فالواجهة الشَّماليَّة الشَّرقيَّة تَبعد مئتين وخمسة وسبعين قدمًا وستّ بوصات عن الأروقة المشار إليها، بينما تَبعد الواجهة الجنوبيَّة الشَّرقيَّة مئة وخمسة وخمسين قدمًا وستّ بوصات، أمَّا الواجهة الجنوبيَّة الغربيَّة فتبعد مئتين وتسعة وعشرين قدمًا وثلاث بوصات، والواجهة المقابلة تبعد مئة واثنين وستين.

وبجانب الجهة الجنوبيَّة الغربيَّة للسَّاحة الكُبرى تُوجد سَاحة أصغر مُحاطة كذلك بالأقواس عند بَاب إبراهيم، كما تُوجد أخرى مُشابهة في الجناح الشَّمالي الغَربي، وهناك بابا الدريبة والزِّيادة.

وللحَرَم تِسعة عشر بَابًا مع ثمانية وثلاثين قَوسًا(٢)، تُحيط بالمبنى من الشَّمال إلى الشَّرق على الشَّكل الآتي:

---

(١) للتَّعرف إلى خَواص هذه الصُّخور يُمكن الاطلاع على كتاب: **الأحجار الكريمة**: الدَّليل المرئي للأحجار الكريمة على اختلاف أنواعها، الناشر: مكتبة لبنان، بيروت٢٠٠٢م، ص ص ١٥١ ـ ١٥٥.

(٢) للمقارنة ومعرفة المزيد، يُراجع في ذلك: الأزرقي: **أخبار مكَّة**، ٢/٨٦ ـ ٩٤؛ بوركهارت: **رحلات** ص ١٤٣ ـ ١٤٤ الذي نَقل عن بادبا هذا الفصل دون تغيير يُذكر؛ إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين** ١/٢٢٩ ـ ٢٣٤.

الجهة الشَّماليَّة:

اسم البَاب	عدَد الأقوَاس في كلِّ بَاب
باب السَّلام	٣
باب النَّبي	٢
باب العبَّاس	٣
باب علي	٣

الجهة الشَّرقيَّة:

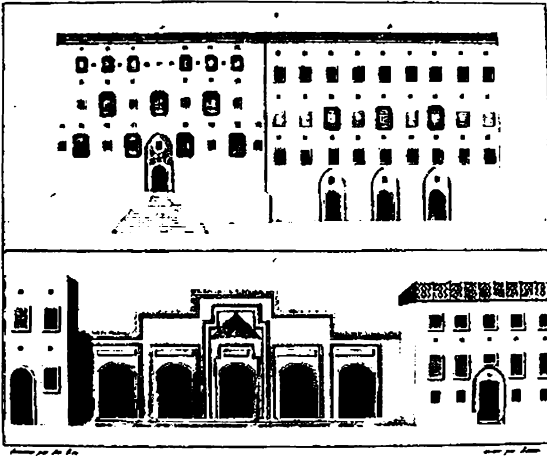
باب الزَّيتون	٢
باب البغْلة	٢
باب الصَّفا	٥
باب الرَّحمة	٢
باب مُجَاهد	٢
باب زليخة	٢
باب أمُّ هَانئ	٢

الجهة الجنُوبيَّة:

باب الوَداع	٢
باب إبراهيم	١
باب العُمرة	١

الجهة الغربيَّة:

باب عَتيق	١
باب الباسطيَّة	١
باب القُطبي	١
باب الزِّيادة	٢
باب الدُّريبة	١



ـ الصورة في الأسفل لباب الصَّفا.

ـ في الأعلى: قصر الشَّريف غالب في مكَّة المكرَّمة: (في الجهة اليسرى مكان إقامته مع عائلته، وفي الجهة اليمنى المكان المخصَّص لخدمه والعاملين لديه).

ومن بين جميع أبواب الحرَم يَظلُّ بَاب الصَّفا هو الوحيد الذي له واجهة حقيقيَّة منقوشة ومزيَّنة، أمَّا الأبواب الباقية فمتواضعة جدًّا.

ويُوجد في الحرَمْ سَبع مَنَارات، أربعٌ منها مُوزَّعة على الزَّوايا الأربع، والخامسة بين بَاب الزِّيادة وباب الدّريبة، والاثنتان الأخريان مُنفصلتان عن الحرَم بين البيُوت المجاورة في الجناح الشَّمالي الشَّرقي؛ هذه المنَارات كلّها مُثمَّنة وبثلاثة أجزاء، ولها نَفس الأشكال، لكنَّ أبعادها مُختلفة[١].

والجزءُ الخارجي للحرَم تُغطِّيه البيُوت بحيث لا تُوجد أيّة واجهة خارجيَّة، وفي بعض تلك البيوت يُلحظ بالإضافة إلى ذلك أنَّ نوافذها تُطلُّ على داخل الحرَم.

الصَّفا والمروَة:

التَّلتان المقدَّستان: الصَّفا والمروَة من الممْكن أن تُعدَّا مُستقلتين عن الحرَم، وذلك لوجوب زيارتهما من قبل كلّ حاجّ بعد الطَّواف سَبع مرَّات حول بيت الله[٢]؛ هذان الموقعان كانا خارج العمران زمن النَّبي ﷺ، وبسبب التَّوسع المتوالي أصبحا يَغصّان بالبيوت، وأصبحا يُشكِّلان في الوقت الحاضر طُرقًا[٣].

يَبعد الصَّفا قليلًا عن الحرم في الجهة الجنوبيَّة الشَّرقيّة، مُقابل الباب الذي يَحمل الاسم نفسه، لكن مع قليل من الانحراف، وأسفل جَبل (أبي) قُبيس، وهو المكان الذي سقط فيه الحجر الأسود من السَّماء[٤]. وفي

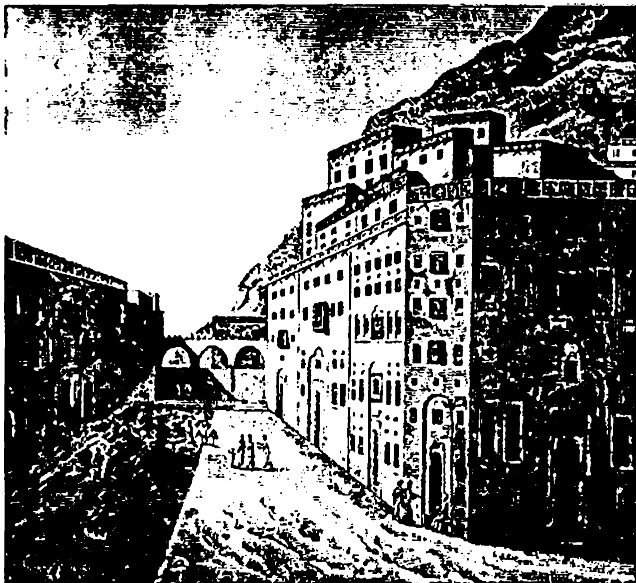
---

(١) عن هذه المنارات وتاريخها ومواقعها، انظر: الأزرقي: **أخبار مكّة**، ٢/ ٩٧ ـ ٩٨؛ إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) يتم ذلك بعد طواف الحج أو العمرة.

(٣) حول الصَّفا والمروة ولمزيد من الاطلاع، راجع: الأزرقي: **أخبار مكّة**، ٢/ ١١٤ ـ ١١٩؛ إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٤) في رواية الأزرقي أنه أُنزل مع آدم. **أخبار مكّة**، ١/ ٣٢٥، ٣٢٨.



الصَّفا مبني على ثلاثة أعمدة

نهاية شارع قصير وعريض ينتهي في التَّلّ مع انحدار سهل، يُوجد هناك رِواق من ثلاثة أقواس مُستندة على أعمدة غليظة، وعند الصُّعود أربع درجات مُمتدّة على طول واجهة الأقواس يقف هناك الحاجُّ للدُّعاء فوق الصَّفا.

أمّا المروَة فتقع في مكان مُنعزل نَوعًا ما عن الحرم من النَّاحية الشَّماليَّة[١]، وفي طرف شارع يُؤدّي إلى هضبة المروة تُوجد مصطبة ذات

(١) تقع في الشّمال الشّرقي للحرم.

مُسطَّح رباعي بأبعاد خمسة وعشرين إلى ثلاثين قدمًا، مُغلقة بجدار ضخم بجوانبها الثلاثة، وهو نفس المكان المقدَّس الذي يقف فيه الحاجُّ ليتلو دُعاء المروة صاعدًا بعض الدَّرج.

وفي ذلك الشَّارع توجد مَحلات الحلاقة التي يذهب إليها الحجَّاج لقصِّ شُعورهم، حالما ينتهون من السَّعي سبع مَرات بين التّلتين المقدَّستين، وخلف جُدران المروة تستمر البيوت في الارتفاع المتدرِّج حتى قمَّة الجبل.

وبما أنَّ الشَّارع الرَّئيس في مكَّة هو بالتَّحديد الذي يصل الصَّفا بالمروة، وفي الوقت نفسه هو السُّوق العَام، والنَّاس تَمرُّ فيه بلا توقُّف أو مُراعاة، وهو ما يُزعج الحجَّاج كثيرًا في سَعيهم بين التّلتين المقدَّستين، ويقطع عليهم خُشوعهم.

العاملون في الحرَم:

للحرَم مَسؤول أساس اسمه «شَيْخُ الحرَم»، وكذلك هناك مَسؤول لبئْر زمزم يُعرف بـ «شَيْخ زَمْزَم»؛ ويقوم بخدمة الكعبة أربعون خَصيًا من الزُّنوج يحرسون ويخدمون بيت الله، ويضعون فوق مَلابسهم العاديَّة تمييزًا لهم قُفطانًا أو قميصًا أبيض واسعًا مشدودًا من الوسط بحزام مع عمامة ضخمة بيضاء، وبصفة مستمرة يحملون بأيديهم العصيّ[1].

---

(١) أشار إبراهيم رفعت باشا إلى تعدادهم في وقته، وإن كان ـ فيما يبدو ـ غير دقيق، فقال: إنَّ عدد «الموظَّفين يُقارب السَّبع مئة، منهم مئة وسبعة مدرسين و٧٩ إمامًا وخطيبًا، للحنفيَّة وللشَّافعيَّة ٢٤ إمامًا وخطيبًا وخطباء المالكية ١٤، أما الحنابلة فخمسة فقط، وهناك ٥٢ خصيًا، و٤١ مؤذنًا و٨ وقّادين و١٢ فراشًا، و١٠ مراقبين و٢٠ كنّاسًا و٣٠ بوابًا و١١ سقّاءً و١٨١ غسّالًا لقناديل المسجد و١٨ خادمًا عامًا. (**مرآة الحرمين**، ١/ ٢٦٠) لكن يتَّضح في هذه الإحصائيَّة القُصور وعدم الشُّمول لأنَّ هناك آخرين لم تشر إليهم.



المرْوَة مُحاطة بثلاثة أسوار

ولبئر زَمزم عمَّال كثيرون وسقاؤون، مُهمَّتهم تنظيم الحُصر التي تُمدُّ كلَّ مساء على أرض سَاحة الحرم وأروقته، كما يوجد فضلًا عن ذلك عدد غير محدود من الموظَّفين، مثل عمَّال المصَابيح ونحوها، وخدَم مَقام إبراهيم والكعبة، وكلّ مكان من أمكنة الصَّلوات للمذاهب الأربعة، وحرَّاس الأبواب وعمَّال المنارات وخدم الصَّفا والمروة الذين يعتنون بالأمكنة الخاصَّة، كما أنَّ هناك أيضًا خدمًا مُهمَّتهم حِراسة أحذية الحجَّاج في كلِّ الأبواب المؤدِّية للحرم، وكذلك المؤذِّنون في المنارات، وأئمَّة كلّ واحد من المذاهب الأربعة والمؤذنون فيه، والقاضي وعُمَّاله، والمرتِّلون، والميقَاتي وهو الذي يُراقب الشَّمس لمعرفة أوقات الصَّلاة، والإداري وعُمَّال كِسوة الكعبة، وخازن مفاتيح الكعبة، والمفتي والمطوِّفون. . . . إلخ، بحيث يُمكن القَول: إنَّ نصف سكَّان المدينة تقريبًا يُعدُّون من مُوظَّفي الحرم أو خدمه. غير واضعين في الاعتبار تلك

الصَّدقات أو المنح المحتملة التي يَحصل عليها هؤلاء من قبل الحجَّاج، ولهذا السَّبب مَا أنْ يصل غَريب حتى يُسارع الجميع للإحاطة به، وكل واحد يحرص ويجتهد في بذل الاحترام والتَّقدير، وتقديم الخدمات له سَواء رضي أم أبى، وكلٌّ يُبدي اهتمامًا كبيرًا في سبيل صحَّته وسعادته، ويفعل كلَّ ما يُمكن لفتح أبواب السَّماء له من خلال الأدعية كلٌّ حسب طريقته.

في وقتٍ مَضَى كانت القَوافل التي تَصل من كلِّ بُلدان العالم التي يَسود فيها الدِّين الإسلامي تَسدُّ الحاجة بما تتركه من صَدقات في هذه المدينة، أمَّا في الوقت الحاضر فقد انخفض العَدد كثيرًا. من ناحية أخرى فإنَّ القليل من الحجَّاج الذين يصلون ممَّن هم في حالة تَسمح لهم بالمساهمة إلا فبالكاد يستطيعون دفع مَصروفاتهم الضَّروريَّة، كما أنَّ عدَد العاملين في الحرم لا ينخفض، وأعمال التَّعبُّد والتَّكاليف الدِّينيَّة تُكلِّف أكثر، لأنَّ كلَّ مُوظَّفي الحرم يتطلَّعون لأن يصبحوا أغنياء، ومع هذا فكلّ حاجٍّ لن يستطيع أن يتخلَّص من الحرَج دون أن يترك ما بين ألفٍ وخمس مئة إلى ألفي فرنك، بين صَدقات ومكافآت لأتباع الحرم ومُوظَّفيه، وحتى أفقر الحجَّاج الذين يُؤدُّون حجَّهم على النَّفقة العامَّة، أو حصلوا عليها صَدقة واستجداءً، فلن يتَحرَّروا من الحرَج دون تَرك بعض الإسكودات[١]؛ ولأنَّ تلك الصَّدقات شَخصيَّة فإنَّ كلَّ واحد من هؤلاء العاملين يَجمع ما أمكنه علنًا أو بطريقته، باستثناء الأغوات ومُستخدمي زَمزم الذين كوَّنوا مَجموعتين من نوع الجمعيَّات التَّعاونيَّة. وفي الواقع أنَّه مع هذا التَّنظيم الذي يُنظِّمها، ومع السِّجلات والصُّندوق العام لما يُستلم من أموال، فكلّ شخص من كلتا الجمعيَّتين يُحاول أن يختلس عندما يستطيع[٢].

كما كانت القَوافل تحمل فيما مَضى الكثير من الصَّدقات من قبل

(١) سيأتي الحديث عن ذلك عندما يتطرَّق الرَّحالة إلى العُملة في مكَّة المكرَّمة.

(٢) هذا تعميم ومبالغة واضحة من المؤلف حيث جعل الجميع يختلسون!؟.

مواطنيها، لكن في هذا الوقت لا يصل شيء يُذكر منها، وهي دلالة واضحة على تردٍّ مُؤسف؛ وفي ذلك الزَّمن نفسه كان رئيس الدَّولة أيضًا يَهب من قبله جزءًا من مَصروفات عُمَّال الحرم ومُوظَّفيه، لكنَّ الشَّريف المفتقر اليوم بسبب حربه مع السعوديين أبعد من أن يَهب شيئًا من ذلك، بل يستولي على كلِّ ما يستطيع أن يصل إليه.

كما كان سُلطان القسطنطينيَّة من جانبه يدفع لخصيان الزُّنوج لقاء حراسة الكعبة وخدمتها، وكذلك للمرتِّلين والمؤذِّنين.

وكذلك كان على الحجَّاج في القديم أن يتعبَّدوا بالعديد من الأماكن، وكان هذا يُدرُّ أيضًا منافع كبيرة على كثير من العاملين فيها من خدم ومُوظَّفين، لكنَّ كل ذلك قوَّضه السعوديون، وتتمثَّل تلك بالمسجد والمصلَّى الذي ولد فيه النَّبي ﷺ، وجَبل النُّور الذي تلقَّى فيه الوَحي لأوَّل مرَّة من السَّماء، وبيت أبي طالب الذي أمضى فيه جزءًا من حياته، بالإضافة لأماكن أخرى مُتعدِّدة تُقام فيها الصَّلاة كجبل (أبي) قُبيس حيث هَبط الحجر الأسود المعجزة، ومُصلَّى سيِّدتنا فاطمة بنت النَّبي ﷺ، ومُصلَّى سيدي محمود وصالحين آخرين[١]، وهي الآن لا تُوجد. وبذلك فَقَد الحجَّاج خُصوصيَّتهم الرُّوحية التي تَجتذبهم للزِّيارات التَّعبديَّة لأماكن مقدَّسة، كما فقَد السُّكان الطيِّبون للمدينة المقدَّسة المنافع الموسميَّة التي كانت تصلهم نتيجة مُمارسة هذه الأعمال التَّعبديَّة[٢].

---

(١) هذه الأماكن التي أشار إليها باديا لم يثبت عن النَّبي ﷺ أنه زارها أو حثَّ على زيارتها، بل هي ممّا ابتدعه المتأخِّرون وليست من شعائر الحجّ المشروعة. ولذا فقد عمد رجال الدعوة الإصلاحيَّة إلى إزالتها أو منع زيارتها، وهو ما حدَّ من أطماع القائمين عليها والمنتفعين من ورائها على حساب أولئك المضلَّلين، ممَّن كانوا يعتقدون بها الضُّرَّ والنَّفع، وطلب كشف الكربة ورفع الغمّة أو الشَّفاعة، والحجُّ عبادة خالصة لله وحده لا شريك له. كما أنَّها أماكن في غالبيتها لم يثبت نسبتها إلى مَن نُسبت إليه.

(٢) أشار في عناوين الفصل إلى أنَّ هناك مُلحقًا سيُضاف إليه، لكن هذا ما وجدناه، فهل يقصد الفقرات الأخيرة بعد الحديث عن مَرافق الحرم بأنها الملحق الموعود؟

الفصل الخامس

وصف مكة المكرمة

- مَوقعها الجغرافي
- طُبوغرافيَّتها
- المبَاني
- الأسوَاق العامَّة
- المأكولات
- الفُنُون والعُلوم
- التِّجارة
- الفَقْر
- عوامل الاضمحلال

إنَّ مدينة مكَّة المقدَّسة هي عَاصمة الحِجَاز أو الجزيرة العربيَّة المقفرة لدى الجغرافيِّين القُدامى، وهي مركز الدِّين الإسلامي نظرًا لوجود الحرم الذي شيَّده إبراهيم عليه السلام فيها لله تعالى، وهو الرَّمز الذي تَصبو إليه أفئدة المسلمين كافَّة.

كَثيرٌ من مُراقبي دَائرة خطِّ الزَّوال يُعطون مكَّة خطَّ العَرض ٢١ درجة ٢٨َ ٩ً شمالًا، وعدَّة أبعاد قمريَّة أعطتني خطَّ طُولٍ يُساوي ٣٧ درجة ٥٤َ ٤٥ً شرقًا من مَرصد باريس[(١)]. وفي البيْت الذي سكنتُ فيه، وفي سَطحه قُمتُ بالرَّصد. يعد في وَسط المدينة تقريبًا، وعلى بُعد خمس مئة وثلاثين قدمًا مع قليل من الانحراف إلى الشَّمال من الكعبة، وهو ما يُمكن معه القَول بأنَّ هذه النَّتائج هي التي تُحدِّد الموقع الجغرافي الحقيقي لمكَّة.

كما أنَّ رَصد عِدَّة شُموت أعطت انحناءً مغناطيسيًّا قدره ٩ درجات ٤٣َ ٥٢ً غربًا.

يُوجد في مكَّة وظيفة مُميَّزة تُعرف بـ«المنَجِّم الباشَوي» أو رئيس

---

(١) الجغرافيُّون المتأخِّرون أعطوا رَقمًا قريبًا، مثلًا: إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١٧٨/١. أعطاها أطوال باديا وأبعاده نفسها. أما محمود شاكر فأعطاها خطَّ العرض ١٩,٢١ درجة شمالًا، وخطَّ الطول ٣٩,٣٩ درجة شرقًا. (**شبه جزيرة العرب، ٣ الحجاز**، بيروت ١٩٨٦م، ص ٤٨)؛ أما ابن دهيش فهي لديه على خطِّ عرض: ٢١، ٢٥، ٢٠، وخطِّ الطول: ٣٩، ٤٩، ٣٥. (**عمارة المسجد الحرام**، ص ٢٧).

المنَجِّمين، لكنَّ شَاغلها ليس لديه من يعمل في خدمته، ويَجهل موقع المدينة الجغرافي تمامًا، وليس لديه أيّة فكرة عن علم الفَلك، وهو مع بقيَّة النَّاس يعدون هذا الفنّ بكلّ سهولة كالتَّنجيم؛ ومع ذلك يتمتَّع ذلك الشَّخص بتقدير كبير.

تُسمَّى هذه المدينة بالعَربي مكَّة، وتقع في وادٍ ذي سعةٍ مُتوسطة، تُقدَّر بمئة وخمسة وخمسين تُويسا[١] على خطٍّ مائلٍ يتَّجه من الشَّمال الشَّرقي صَوب الجنوب الغربي بين الجبال، ولهذا فالمدينة تتبع تعرُّجات الوادي، وتأخذ شكلًا فوضويًا غير مُنتظم، ويُساهم هذا النِّظام في وضع البيوت التي بُنيت في الوادي، وعلى مُنحدرات الجبال المحاذية.

إنَّ اللَّوحة التَّوضيحيَّة تُمثِّل مُخطَّط مكَّة[٢] الَّذي رُسِمَتْ فيه كلُّ شوارعها الرَّئيسة، ولكن ما يخصُّ شَوارع الاتّصال الفرعيَّة لم أرسمها لأنَّ الوقت لم يُسعفني لذلك[٣]؛ وقد أردتُ أيضًا أن أرسم لوحة كاملة لمكَّة كما فعلتُ في مدينة الإسكندرية، ولكن كان من المستحيل عليَّ الحصول على مَنظر مُتناسق، لأنَّ المدينة مُغلقة بالجبال، وإذا ما خَرجتَ إلى طرفٍ من أطراف المدينة لا تَكتشف سوى ثلاثة أو أربعة مَنازل، نعم ذلك مُمكن من جهة واحدة، لكن تأتي بعد ذلك عَقبة الجبال، حيث لا يمكن رُؤية أكثر من مَنظر غير مُتناسق من السُّطوح دون الخروج بشيء، الأمر الذي أجبرني على التَّخلي عن الفكرة.

إنَّ صُورة مكَّة المتوافرة في «أضابير الإمبراطورية العثمانيَّة» لها

---

(١) سبق التعريف به، وهو يساوي قرابة المترين.

(٢) يقصد اللوحة التاسعة في الملحق الخاص بصوره ورسوماته.

(٣) مع الأسف لم يصل إلينا هذا المخطَّط المذكور في الكتاب المطبوع بالإسبانية لأنَّه جعل الصُّور في ملحق خاص، وقد حاولتُ الحصول على تلك اللَّوحات التي رسمها، وأثبتُّ ما وجدته منها سواء في ثنايا مذكَّرات الرحلة بطبعاتها المتعددة أو في مصادر أخرى أشرتُ لها في ملحق الصور والخرائط.



تخطيط طولي لمدينة مكّة المكرَّمة ويبدو الحرَم في الوسط

أهميتها عندما لم تكن تَشغل المدينة أكثر من نصف الوادي، ولكن تلك ليست مكّة اليوم، فلا وجود لتلك النّافورة الجميلة التي تُرى في رَسم ذلك الفنّان الآن، والماء الوحيد الذي يوجد هو مَاء الآبار، ولا أقول شيئًا حول الحرم لأنَّ المخطَّط والصّورة التي أعطيتُها له تكفي لإثبات عدم دقَّة ما سطَّره م. أوسون (M.Osson)[١]، فبدون شكّ لقد هيَّأ لي صُورة لمكَّة رسمتها في مخيّلتي، ولكن لأنّي أردتُ أن أكون أكثر دقَّة في لوحاتي، مثلما هو الحال في كتاباتي فلم أعمله، لأنَّ الرَّسم سوف لن يُعطي أكثر من تَصوُّرات غير واقعيَّة، كما سيكون الحال مع المنظر العام لهذه المدينة.

---

(١) لم أتوصَّل إلى معرفته بما توافر لي من مراجع تتعلق بالمستشرقين.

وفضلًا عن ذلك يمكن ملاحظة تكدُّس البيوت المتراصة والمتنامية شمال الحرم، بينما امتدادها بشكل هلالٍ يَمتدُّ من الشَّمال الشَّرقي نحو الجنوب الغربي في جزئها الجنوبي؛ وتتّسع المدينة على خطّ طوله تسع مئة تويسا[1] تقريبًا، ومئتان وستَّة وستون عرضًا[2] في مُنتصف ما بين الشَّرق والغرب.

الشَّوارع الرَّئيسة مُنظَّمة بما فيه الكفاية، ومن الممكن أن نقول عنها إنَّها جميلة بفضل واجهات تلك المنازل المتاخمة لها، وهي تُرابيَّة ومُريحة جدًّا، مثلما هو الحال في المدُن الأفريقيَّة التي اعتدتُ العيش فيها[3]، لكنَّني اندهشتُ لمنظر مَباني مكَّة الجميلة؛ وأعتقدُ أنَّ هذه المباني أخذت طابعًا هنديًّا أو فارسيًا وصل إلى مكَّة خلال حُكم الخلافة في بغداد.

ويظهر في غرف المنازل صَفَّان من الشَّبابيك كما هو موجود في قُبرص، وكثير من الشُّرفات المغطَّاة بالمشربيَّات، وتُرى أيضًا بفتحات تَظلّ مفتوحة تمامًا كما هو الحال في أوربا، ولكنَّ القسم الأكبر منها مُغطَّى بستارة من سَعف النَّخيل الخفيف جدًّا كي يقي من حرارة الشَّمس دون أن يمنع دُخول الهواء، وتُرفع هذه إلى الأعلى بحريَّة كما هو الحال في تلك التي تُستعمل في أوربا.

وكلُّ البيُوت المكيَّة بُنيت بالحجارة بشكل متين، وتوجد فيها ثلاثة أو أربعة طَوابق وأحيانًا أكثر، وواجهاتها مُزخرفة بزخارف ناتئة ورسومات، ممَّا يُعطي مظهرًا جميلًا، لكنَّ الغريب في الأمر هو الأبواب التي لا تَحمل أيّة زخرفة، ولها قاعدة بدرج، ودكَّات من الجانبين، كما أنَّ

---

(١) أي ١٧٥١ مترًا و٤٠٠ سم.

(٢) أي ما يساوي٥١٧ مترًا و ٦٣٦ سم.

(٣) يتَّفق إبراهيم رفعت مع باديا في هذا الوصف إلا أنَّه يزيد عليه تفصيلًا وإيضاحًا. انظر: مرآة الحرمين، ١/ ١٧٨.

مشربيّات الشُّرفات ليست واسعة كما أنّها مُقطّعة إلى أجزاء مع فتحات صغيرة[١].

وسُقوفُ المنازل مُستوية، أو ذات سطوح مُحاطة بسياج يعلو سبعة أقدام، مُقطّع إلى أجزاء بفراغات تُشكِّل مناور بُنيت بالطُّوب الأحمر والأبيض، المرصوف أفقيًا، وبتناسقٍ يسمح للهواء بالمرور، وتُعطي كذلك جمالًا للواجهات، وتمنع رؤية النِّساء عندما يخرجنَ إلى السُّطوح.

وكلُّ السَّلالم التي رأيتُها ضيِّقة ومُظلمة، ودَرجها عالٍ جدًّا؛ ومَقاس الغرف جيِّد سواء في الطُّول أو العَرض أو الارتفاع. وفضلًا عن الشَّبابيك والشُّرفات الواسعة يُوجد في هذه البيوت صَفٌّ آخر من نوافذ أصغر مُحاطة برفٍّ خشبيٍّ كما هو الحال في الإسكندريَّة، يُستفاد منه في وضع مُختلف الأشياء.

وجَمالُ الأبنية يُؤكِّد الماضي النَّاصع لمكَّة، ومن ناحية أخرى فإنَّ سُكَّان هذه المدينة لديهم الرَّغبة الأكيدة في المحافظة عليها لجذْب الحجَّاج، حيث إنَّ إيجار البيوت يُعد موردًا رئيسًا لهم.



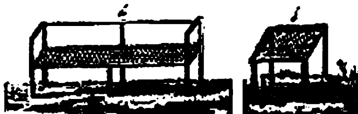
لا تُوجد في مكَّة أسواق بالمعنى المعروف للسُّوق، لأنَّ طبيعة الأرض وضيق المجال لا يسمحان بذلك، فالأسواق العامّة تحتلُّ الشّوارع الرئيسة على امتدادها. ويمكن القَول: إنَّ الشَّارع الكبير في قلب مكَّة هو سُوق مُستمر

---

(١) للمقارنة انظر ما سطّره بوركهارت حول الشّوارع والمباني في مكَّة المكرَّمة، في: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص ١٠١ ـ ١٠٣. ويُلحظ التَّقارب في الوصف مع اختلاف طفيف في التَّفاصيل. كما تطرّق لهذا الموضوع أيضًا إبراهيم رفعت باشا بشيء من التَّوسع. انظر: **مرآة الحرمين**، ١/ ١٧٨ ـ ١٨٤.

تلتقي فيه أطراف المدينة، والبائعون يجلسون في أكواخ من العصي والحُصر، وآخرون لا يملكون غير شمسيَّة كبيرة، مُستندة على ثلاثة أعواد تجتمع في الوسط(١).

هذه الأسواق يوجد فيها الزّاد والمؤن بما فيه الكفاية، وكذلك كلّ أنواع الأشياء العادية، وفي كلّ ساعات النّهار ترى السُّوق مُزدحمًا بالنّاس، وخاصّة في الحجّ، ويوجد أيضًا بائعو الأكلات الشّعبيّة المتجوّلون وبائعو الحلوى، وكذلك الصبّاغون والإسكافيُّون وصُنّاع آخرون من هذا النّوع.



والمـوادُّ الـغـذائـيّـة وإن كانت موجودة بوفرة، لكنّها غالية الثّمن باستثناء اللّحم، فكبشٌ كبير يكلّف سَبع فرنكات، أمّا الطُّيور فنادرة وبدرجة تالية يأتي البيض، ولكن لا يتوافر أيُّ نوعٍ من أنواع الصَّيد. أمّا القَمح أو يفضّل القول الدَّقيق فيأتي من أعالي مِصر، والبقول والرُّز تصل من الهند، والخضروات ترد من الطَّائف التي تُموّن أيضًا بالقليل من الحنطة، وإن كانت أقلّ جودةً من

(١) قد يكون لوضع عدم الاستقرار السّائد في هذه المدة أثر في انحسار القوّة الشّرائية لهذه الأسواق وتوافر المواد فيها، لكن نعتقدُ أنّها ليست بهذه الصُّورة التي رسمها باديا الذي انصبّ اهتمامه على الجانب السّياسي والوضع العمراني أكثر من اهتمامه بالنّواحي الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة. فوجود الأسواق وتعدّدها وتنوّع موادها أكّده أكثر من مصدر ودراسة، فبوركهارت الذي زار مكّة بعد باديا بسبع سنوات فقط أشار إلى هذه الأسواق وما فيها من حركة ومواد ونقابات، وهو ما فصّله دراسة الباحث الشّريف مسعُود محمد آل زيد أيضًا. انظر على التوالي: **رحلات في شبه الجزيرة**، ص ١٠٨، ١٠٩، ١١٢ ـ ١٢٢؛ **تاريخ مكّة المكرمة**، ص ص ١٦٥ ـ ١٦٩. كما توقّف اللواء إبراهيم رفعت باشا حول هذه الأسواق والبضائع منفردًا بذكر أسعارها وقت الحجّ وبعده. انظر: **مرآة الحرمين**، ١/٢٠٦ ـ ٢٠٧.

مثيلتها المصريَّة، والسَّمن الذّي يُحتفظ به في قربة أو عِكَّة وهي وعاء مُنتشر في هذه البلاد، ولكن بسبب الحرارة فإنّه يبقى سائلًا باستمرار مثل الزَّيت.

أمَّا أسعارُ المواد فهي مُتفاوتة للغاية بسبب انعدام الأمن في الجانب التِّجاري[1]. والقائمة الآتية تُوضح الأسعار، وكيف كانت عندما كنتُ هناك عام ١٨٠٧م (١٢٢١هـ):

أوقيَّة[2] السَّمن	٥ قُروش تُركيَّة
الدَّجاجة الواحدة	٤ قُروش تُركيَّة
نصفُ دَرزن من البيض	قِرش تُركي واحد
حِمل بعير من الماء العَذْب	قرشان تركيان
أوقيَّة الزَّيت[3]	٤ قُروش تُركيَّة

---

(١) أشار الجبرتي إلى ارتفاع الأسعار في هذه المدة وعزاها إلى عدم الاستقرار. انظر: **عجائب الآثار**، ٣/١١٦.

(٢) كتبها باديا بالشَّكل الآتي: Oka. وقد تصرَّفنا بالترجمة هنا خاصة وأنه كرَّر هذه الكلمة مع مواد أخرى مثل الفحم والخبز، وهذا يدلّ على أنّه قصد بها شيئًا آخر كأوقيّة مثلًا، وهو ما نستشفّه من الفصل الذي خصّصه أ. ج. سوانسن كوبر عن الأوزان والمقاييس في البلاد الخاضعة لنفوذ الأتراك، حيث أكّد أن الأوقية هي السائدة في الأوزان. انظر: **رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك**، ترجمة صادق الركابي، الأردن، عمان ٢٠٠٤م، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠. بينما نجد بوركهارت استخدم الرّطل في قائمته بدلًا من الأوقيّة، (**رحلات**، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣). ويُلحظ على قائمة بوركهارت غِناها وتوفر موادّ لم تكن موجودة على عهد باديا كالطّيور مثلًا، كما أنّها كانت أشمل وأدقّ، فبالإضافة إلى أسعار الموادّ شملت أسعار الخدمات وأجور العمّال، ولعلّ لفترة الهدوء التي جاءت خلالها رحلة بوركهارت أثرًا في توافر المواد واستقرار أسعارها.

(٣) لقد زادنا بوركهارت توضيحًا بهذا الزّيت، فقال: إنه «**الزّيت الذي يُستخدم لإضاءة المصابيح». فهو زيت السّمسم ويُستورد من مصر**. انظر: **رحلات**، ص٣٧.

أوقيَّة الخبْـز	١٢ بَارة
قِربة من ماء البئْر	١٢ بَارة
أوقيَّة الحطَب	٣ بَارات
أوقيَّة الفحْـم	٢٠ بَارة

أمَّا الأوزان والمقاييس فهي نفسها المستعملة في مِصر، لكنَّها أقلُّ دقَّة، بمعنى أنّه لا جدوى من تحرِّي الوزن الحقيقي[١].

والنُّقودُ المستعمَلة هي كما في مِصر كذلك، فالدُّورو الإسباني[٢] يُساوي في السُّوق خمسة قُروش تُركيَّة، وكلُّ قِرشٍ واحد منها يُساوي أربعين بَارة، وفي عمليّة الصَّرف يُساوي أربعة ونصفًا فقط؛ وفي مكَّة تُتداول نُقود من كلِّ الدُّول، ويُشاهد الصَّرافون يوميًّا، مُتربِّعين أمام طاولاتهم في الأسواق العامَّة، مع مِيزان صغير وهم مَشغولون في التَّصريف، وتتمُّ عمليَّاتهم في حقيقة الأمر بأسلوب فظّ، لكن في كلِّ الأحوال، يَستحيل التَّصور بأنَّ هؤلاء سيَصبحون ضَحيَّة لأيَّة أخطاء قد تَقع[٣].

---

(١) يؤكِّد هذا الحكم أيضًا أ. ج. سوانس كوبر، ويذكر أنَّ مردَّ ذلك إلى عدم معرفة الأجنبي القادم لهذه الديار حديثًا بمصطلحات الأوزان والمقاييس، لأنها تتفاوت من بضاعة لأخرى، فمثلًا حينما يتحدثون هنا عن أوقية اللحم أو الخبز ونحوها فالمقصود بها الأوقيَّة الكبيرة التي تساوي حوالي أوقيتين ونصف من أوقيات إسطنبول، فربما خدعوه وباعوه بأوقية إسطنبول وبنفس الثمن. انظر: **رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك**، ص٣٤٩.

(٢) سبق التعريف به والحديث عنه في هوامش الفصل الأول.

(٣) لم يوضح لنا باديا أنواع العُملة المتداولة بما فيه الكفاية، فما ذكره لا يتعدَّى العُملة الإسبانية الوحيدة المتداولة وهي الدورو، والأسكودو الذي ذكر أنه ألماني وأوضحنا مرئياتنا حوله في موضعه في هوامش الفصل الأول، ثم بعد ذلك العُملة العثمانيَّة. لكن

كما تُوجد أيضًا في أسواق مكّة، كلّ المنتجات الطبيعيّة والصناعيّة من الهند وفارس، وقُرب بيتي كان هناك صفّان من الدَّكاكين المتخصّصة فقط ببيع المواد العطريّة، وقد احتفظتُ بكتَالوجها ووصفها[١].

وفي مكّة كما هو الحال في غيرها من مُدن الجزيرة العربيّة، لا يُعمل الخبز بالشّكل المعروف، أو على الأقلّ حسب المتعارف عليه بهذا الاسم، بل يُعمل من طحين مُذاب في الماء بلا خَميرة، أو أحيانًا معها ولكن بكميّة ضئيلة بحيث يُشكّل عَجينًا بغُلظ ثلاثة خُطوط أو أربعة فقط، وبقُطر من ثمان بوصات إلى تسع، ويُباع الرَّغيف نصف مستوٍ ورقيقًا كالمعجّنات، ويُطلقون عليه «الخبْز».

المياهُ الحلوة التي تحملها الجمال باستمرار من الجبال المجاورة ومن

= بوركهارت وافانا بأنواع العُملات المستعملة آنذاك في الحجاز، فذكر من بين العُملات المعدنيَّة المتداولة: السُّكونيات البندقيّة والمجريّة والدولارات الإسبانيّة، والعملة المعدنية التي سُكّت في إسطنبول، لكن العملة المصريّة كانت مُستبعدة من التّداول في الحجاز حتى مَجيء محمد علي في حملته المشهورة حسب إفادته. انظر: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص ٤٩. لكن تَستوقفنا كثيرًا الدُّولارات الإسبانية هنا، فباديا أشار إلى هذا النّوع من العملة لكن سمّاه الدُّورو وليس الدولار وهو عُملة معدنيّة كانت مُتداولة وسبق التّعريف بها ولم نجد ذكرًا لدولار إسباني. لكن من جانب آخر وكما يفيد جوهان بوركهارت كان الدُّولار هو السّائد في تعاملات الدولة السُّعوديَّة الأولى بالإضافة إلى بعض العُملات الأوربية الأخرى وبعض قِطع العُملة اليمنيَّة قبل أن يُصبح لها عملة خاصة بها، خاصة وقد رفضوا التّعامل بالنّقود العثمانيّة. انظر: **مواد لتاريخ الوهّابيِّين** للرَّحالة جوهان لودفيج بوركهارت، ص ٥٤ ـ ٥٥. لكن يبدو الأمر واضحًا حينما يزيد بوركهارت نفسه الموضوع تجليةً في موضع آخر من كتابه بأنه «دولار ماريا تريسا» وهو ما يُعرف لدى العامّة بالرّيال الفرانسي. انظر: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٢٢٣. ولمزيد من التّوسع في هذا الشّأن يمكن مراجعة الفصل الذي خصّصه الباحث مسعود آل زيد في: **تاريخ مكّة المكرّمة**، ص ص ١٧٣ ـ ١٧٨.

(١) ذكر النّاشر لطبعة برشلونة ١٩٨٢م في ملحوظته ص٣٢١ أنّ هذا الكتالوج من المحتمل أنه قد ضاع.

مِني جيِّدة، وماء الآبار ولو أنّه مَالح بعض الشَّيء وثقيل إلا أنّه صَالح للشُّرب كماء زمزم، والعامَّة لا تَشرب من غيره. ولقد فَحصتُ كلَّ بئرٍ على حدة فوجدتُ أنَّ عُمقها واحد، والماء المستخرج منها له نفس حرارة مَاء زمزم وطعمه وشفافيته، وفي الشَّوارع الملاصقة للحرم يُوجد أربع آبار عُموميَّة مُتشابهة مع بعضها تمامًا، ومثلها أيضًا تلك الآبار الموجودة في مناطق أخرى مُتفرّقة من المدينة؛ وقد اقتنعتُ بعد تحليل دقيق لعمق الآبار وأوصافها ودرجة حرارتها وطعمها بأنَّ الماء يأتي من عين واحدة، مُستواها خمسة وخمسون قدمًا تحت مُستوى سَطح الأرض، تتجمّع مياهها من ترشُّح الأمطار. ومُلوحة الماء مردُّها إلى تحلُّل مادة من نوع الجبس selenita مُختلطة بالتّربة، ومنها يظهر بشكل واضح أنَّ ماء كلّ الآبار يحوي نفس طبيعة وأصل تلك الموجودة في مَاء زمزم، ولكن ليس لتلك الآبار الأُخرى خاصيَّة البركة التي وَهبتها العناية الإلهيّة لهذا البئر الرّائع فسبحان الله[١]!

واللَّحمُ الذي يُؤكلُ في مكّة أقلُّ جَودةً، فمع وجود الخراف الكبيرة إلا أنّها بشكل عام هَزيلة، أمّا السَّمك فمجهول تقريبًا مع أنَّ البحر لا يَبعد سوى اثني عشر فرسخًا[٢]، والخُضار التي تَصل من الطَّائف ومن المناطق الأخرى المجاورة خاصّة من (وادي) فاطمة[٣] تتكوّن من: الفجل واللّفت

---

(١) سبق أن عرضنا هامشيًا لزمزمٍ وخواصّها عند حديث الرّحالة عنها في الفصل السّابق. ولن نزيدَ على تعليقه هنا بأنَّ البركة الإلهيّة هي التي منحته صفَة التّميز عن غيره من المياه والآبار، فإيماننا بقُدسيّة المكان وخاصيّة التعبُّد فيه أخذناها بالتَّسليم والإيمان المطلق حسبما تلقّيناها في أصول ديننا الحنيف، وهي الكتاب والسّنة وما تواتر من أفعال الصَّحابة عليهم رضوان الله.

(٢) هذه الملحوظة أكّدتها قائمة بوركهارت الوافية بكلّ البقُوليّات والخضار واللحوم وحتى الجَراد المجفّف، ما عدا الأسماك التي لم يرد لها ذكر فيها، وهذا يعني ندرتها أو انعدامها. راجع: رحلات، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٣) الموجود في الأصل «ستّنا فاطمة» لكن يبدو أنَّ الرّحالة التبس عليه الأمر، وخطف

والقثّاء والرّجلة والكبار (الكرنب) ونوع من السَّلطة مكوَّن من ورق مُشابه لورق النَّجلي، وهذه النّبتة الأخيرة التي استحال عليَّ رؤيتها كاملة اسمها «الكُرَّاث».

أثناء إقامتي في مكّةلم أرَ زهورًا باستثناءِ واحدةٍ عند ذهابي إلى عَرفات، فأمرتُ واحدًا من خاصَّتي كي يَقطع النَّبتة ويأتي بها إليّ، لكن لاحظه بعض الحجّاج الّذين أبعدوه في الحال عنها وزَجروه، وقالوا له بأنّه من الخطأ اقتلاع أو قصّ نبتة خلال الحجّ إلى عَرفات[1]، فوجدتُ نفسي مُجبرًا على ترك تلك الزَّهرة الوحيدة التي رأيتُها.

ويُعمل في مكّة أنواع من الشَّراب: من الزَّبيب والعسَل والسُّكر والفَواكه، أمَّا الخلّ الذي يحضّرونه من الزَّبيب حسبما أفادوني فهو سيئ.

أعتقدُ بأنّه لا يوجد مدينة إسلاميَّة تَجهل الأعمال الحرفِيَّة مثلما هو حال مكّة، فليس فيها شَخصٌ يستطيع أن يصنع قُفلًا أو يشكِّلَ مفتاحًا، والأبواب تُغلق بمفتاح بدائيٍّ من الخشب، والصَّناديق والحقائب تُقفل بقفل مُستورد من أوربّا، ولهذا فمن غير الممكن استبدال مفتاح حقيبة، ولا حتَّى مفتاح صُندوق التّلسكوب الذي سرقوه منّي في مِنى[2].

- الاسم الأخير فقط مُضيفًا إليه ستّنا. لكن بوركهارت أكّد أنّ الخضار تصل مكّة وجدّة من هذا الوادي. انظر: رحلات، ص ٣٨. ويَبعد وادي فاطمة عن مكّة حوالي ٢٥ كيلو مترًا إلى الشَّمال الشَّرقي، يذكر بوركهارت أثناء مروره به أنه كان مليئًا بالينابيع والعيون، انظر: رحلات، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(١) المنع ينسحب على جميع منطقة الحجّ ما دام الإنسان في وضع الإحرام.

(٢) لعلّ مجيء باديا كان في وقتٍ انشغل فيه الجميع بالحجّ والحجّاج فتعطلت بعض أسواق الحرف اليدويّة، وهو ما يبدو ممّا كتبه بوركهارت قريب العهد الذي أكّد وجود سُوق للحدّادين ومحلاّت لصَانعي الأقفال، كما أنه من الواضح أن حكم باديا هذا ناتج عن عدم تمكنه من الحصول على شخص يساعده في استبدال مفتاح صندوقه. رحلات، ص١١٩.



بعض النَّباتات في بلاد العرب

تَأتي النّعال والأخفاف من القسطنطينيَّة ومن مِصر، لأنَّ أهل مكَّة لا يصنعون سوى القُبقاب الخشبي أو الجلدي بلا دباغة، وكذلك أحذية سيِّئة للغاية؛ ولا يُوجد مُتخصِّصون بالأعمال الدَّقيقة، ولا مَن يُجيد الرَّسم أو النَّقش على الحجر كما هو الحال في وقت مَضى. كما لا يُوجد بَائع

أسلحة يستطيع أن يعمل مسمارًا أو يضع قطعةً في صفيحة بندقيَّة أوربيّة؛ وبائعو الأسلحة هؤلاء لا يعرفون صُنع أكثر من البنَادق الشرارية البدائيَّة. والسَّكاكين المحدَّبة، والرِّماح التي تُستعمل في البلاد بأيٍّ منطقة كانت، ويتمّ التَّسليح بها لأيّ مُحترف بأيّة لحظة، فكلُّ أدواته هي حُفرة في الأرض كي تكون فُرنًا، وجلد أو جلدان لماعز، وأحد العاملين يحرِّك المنفاخ أمام المكان بالتّناوب، وحصيرتان أو ثلاث من سَعف النَّخيل، وأربعة عصيّ تُشكِّل الحيطان وسقف المعمل، ويُغيِّر مكانه كلَّما تطلَّبت الحاجة لذلك.

ويوجد عدد من الحرفيِّين الذين يطلون الأدوات النحاسيَّة بالقصدير، وإن كانت هذه المصنوعات تصل من الخارج، كما يوجد كذلك سمكريُّون يصنعون نوعًا من الأواني التي يستخدمها الحجَّاج لحمل مَاء زَمزم[١]، . . . .[٢] حتى أنّي وجدتُ نقّاش أختام نُحاسٍ سيئ.

كذلك الحال فيما يتعلق بالعُلومُ التي تبدو مهجورة في مكّة كما هو شأن الأعمال الحرفيَّة، وكلُّ قاطنيها يقتصرون على قِراءة القرآن، وتعلُّم الكتابة ولو بطريقة رديئة، ومنذُ الصّغر يتعلَّمون الصَّلوات ومَناسك الحجّ إلى بيت الله، والذَّهاب إلى الصَّفا والمروة للحصول على الكسب السَّريع بخدمة الحجَّاج مُطوِّفين، ولهذا فستجدُ أطفالًا في الخامسة أو السَّادسة من أعمارهم يقومون بهذه المهمَّات مَحمولين على أكتاف الحجَّاج أو

---

(١) تقع هذه المعامل على جانب جبل أبي قبيس، وتحتوي على حوالي اثني عشر فرنًا، معظم إنتاجها من الجرار، خاصة تلك التي تستخدم لحمل ماء زمزم، وتمدّ هذه المعامل وحدها كلّ الحجاز في الوقت الحاضر - حسب بوركهارت - ولا يعود إلا القليل من الحجّاج دون أن يحمل بعضًا منها محمّلة بماء زمزم بصفتها نماذج من صناعة مكّة. **رحلات** ص١١٨.

(٢) يُلحظ أنّ هناك كلمات أو جملًا ساقطة، ولعلّ المقصود أنّه تعب حتى وجد هذا النّقاش.

أذرعتهم، يكرِّر هؤلاء الأدعية التي يتلوها الأطفال كَلمة فكَلمة بصوتٍ عالٍ، وفي الوقت نفسه يوجِّهون مَسيرة الحجيج لأداء مَناسك الحجّ في مُختلف مَحطَّاته.

وقد أردتُ اقتناءَ ورد مَكتوب في مكَّة، لكن كان الحصول عليه من الصُّعوبة بمكان، وإذا ما توافر فهو سيِّئ للغاية، ومَليء بالأكاذيب ولا يُفيد بشَيء[١].

وليسَ في مكَّة مَدارس نظاميَّة، وإنّما هناك أمكنة لتعليم القراءة والكتابة، وما عدا ذلك فهناك بعض الطُّلاب أو الأساتذة يَذهبون بدافع الطُّموح أو الغرور أو الطَّمع في مُكافأة ما للجلوس تحت الأروقة أو في صَالات الحرم حيث يقرؤون بصوتٍ عالٍ لجذب المستمعين الذين يحضرون عادةً واحدًا بعد آخر ليصطفُّوا في حَلقة حول الأستاذ، وهذا معناه أن تقرأ أو تعظ كما يحلو لك، وأن تذهب وتعود متى شئت. هذه هي النُّظم السَّائدة والموجودة في هذه المدينة المقدَّسة، وفي كلِّ مَساءٍ يذهب اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الأساتذة إلى أروقة الحرم، ولكن لم أرَ مع أحدهم أكثر من اثني عشر شَخصًا[٢].

---

(١) من الواضح أنه يقصد ما توافر مما هو مكتوب من أدعية وتعاويذ ونحوها التي يدخل القرآن الكريم والأحاديث النبويَّة في صياغتها. ويعزو بوركهارت السَّبب في عدم وفرة مثل هذا النَّوع من الكُتب إلى إقبال الحجَّاج عليها باستمرار، بالإضافة إلى عدم وجود نُسَّاخ في مكَّة ينسخون نسخًا إضافية، ويذكر أنه يوجد في مكَّة رجل هندي من لاهور يكتب العربيَّة بخطٍّ جميل جدًّا، كان يجلس في دكَّان بالقرب من باب السَّلام، وينسخ للحجَّاج الدَّعوات التي يتعين عليهم ترديدها في الحجّ. انظر: **رحلات**، ص١٩٦.

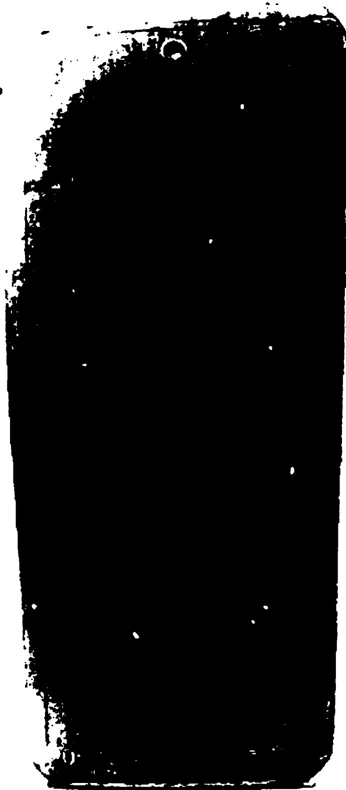
(٢) قريب من هذا الوصف نجده عند بوركهارت، لكنَّه يضيف بأنَّ عددًا من علماء مكَّة يُلقون محاضرات دينيَّة كلَّ يوم بعد الظُّهر في أروقة الحرم، وفي أيَّام الجمع يُفسِّر بعض العلماء الأتراك بتفسير القرآن لمواطنيهم. **رحلات**، ص١٤٢.

والنّتيجة من هذا كلّه هي أنَّ المكّيين هم أقل النّاس علماً[١]، حقيقة أنَّ للموقع الجغرافي لمدينتهم تأثيرًا كبيرًا في ذلك، فمكّة تقع في وسط صَحراوي، وليست كتَدمر[٢] حيث التّجارة المستمرة بين الشّرق والغَرب التي رفعت درجة التّحضُّر الذي نستَشفُّه من خلال آثارها الباقية، ولربّما استمرت لو لم يُكتشف رأس الرَّجاء الصَّالح، لكن على العكس، فالآن لا توجد أيّة حركة في معابرها.

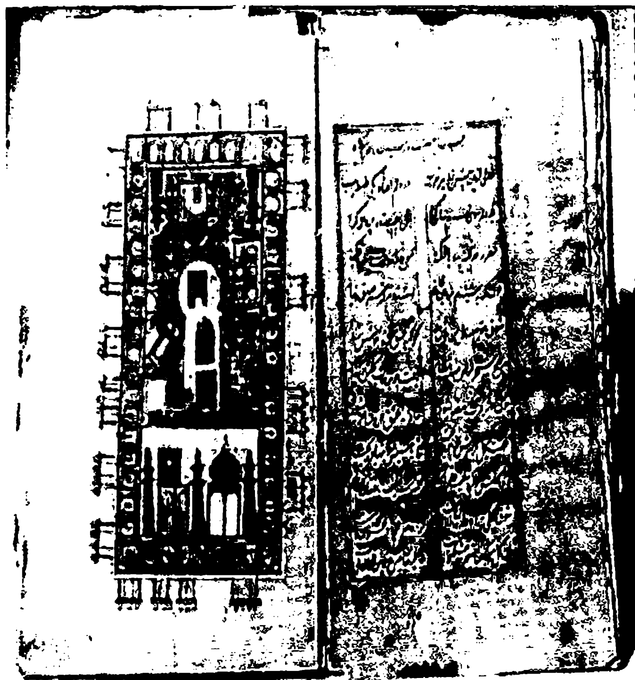
---

(١) هذا حكمٌ جائر بلا شكّ، صحيح أنَّ لظروف هذه الحقبة أثرًا واضحاً في مكّة في كلّ النّواحي، لكن أن نصل إلى هذا التّعميم والنتيجة بهذا الشكل، فهذا لا تتفق مع المؤلّف عليه لأنّ حلقات العلم التي لم ترق لكاتبنا هي محطّ أنظار طُلاب العلم في كلّ أنحاء العالم الإسلامي، وبوقفة مع تلك المؤلفات التي تناولت مكّة بالبحث والدراسة نجد أنها تشيد بهذا الجانب الذي جعل منها مركزًا علميًا يؤمُّه الكثيرون لينهلوا من معينه. انظر على سبيل المثال: الفاسي: **شفاء الغرام**، ١/ ٥٢٣ ـ ٥٣٨؛ آل زيد: **تاريخ مكّة**، ص ٢١٣ ـ ٢٦٥؛ عبدالعزيز راشد السنيدي: **الحياة العلمية في مكّة المكرمة**، الرياض ٢٠٠٣م، معظم صفحات الكتاب خاصة الفصل الخاص بالصّلات العلميّة بين مكّة وبقية أقطار العالم الإسلامي ص ٣١١ ـ ٣٨٠. ومع أنّ بوركهارت قد وافق باديا في أغلب هذه الأحكام إلا أنّه كان أكثر تحفظًا في الحكم بهذا التّعميم على المكيّين، إذ قال: «وأظنّ أن لديّ من الأسباب ما يجعلني أؤكد أنّ مكّة في الوقت الحاضر أقلّ درجة بكثير حتى في التّعليم الدّيني من أيّة مدينة أخرى مناظرة لها في عدد السكان، سواءٌ في سوريا أم في مصر». وبعد أن ذكر انشغال الناس بلُقمة العيش وتحوّل كثير من المدارس وأماكن العلم إلى سكَن للحجّاج؛ يذكر أنّه لا توجد مدرسة حُكوميّة واحدة، والمسجد الحرام هو المكان الوحيد للتّعليم وإلقاء الدروس. ويفيد بأنّ أهل مكّة أنفسهم ممن يريدون التزوّد بالعلم يتّخذون طريقهم إلى دمشق أو إلى القاهرة. (**رحلات**، ص ١٩٤ ـ ١٩٥).

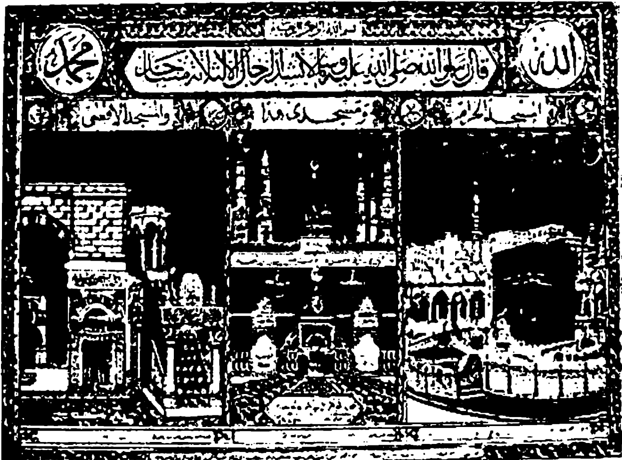
(٢) تقع هذه المدينة التاريخية في وسط بادية الشام (سورية حاليًا) كانت لها شهرتها قديما بصفتها أحد مراكز ومعابر التجارة القديمة خاصة تجارة الحرير، عنها وعن هذه المكانة التي تمتعت بها انظر: ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٢/ ١٧١٩؛ سعد زغلول عبدالحميد: **في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت ١٨٧٦م، ص ١٥٠ ـ ١٥٤.



السّبورة التي كانت تُستعمل في الكتاتيب آنذاك



صفحة من إحدى المخطوطات التي كانت مُتداولة



لوحة تمثّل المساجد الثلاثة التي تشدُّ لها الرِّحال كما هو واضح، وهذه ممّا كان يُباع للحجّاج في مكّة المكرَّمة

والجزيرة العربيّة مُحاطة من الشّرق بالخليج (العربي)، ومن الغَرب بالبحر الأحمر، ومن الجنوب بالمحيط، ومن الشّمال بالبحر الأبيض المتوسِّط، فوسط شبه هذه الجزيرة إذن لا يمكن أن يكون نقطة تَواصل مع الدُّول المجاورة التي يمكن الذّهاب إليها بحرًا، ويمكن ذلك عندما تستطيع مَوانئها أن تكون محطّة لتوقُّف البواخر التّجارية، مثل مَوانئ جدَّة ومَخا في البحر الأحمر، ومَسقط عند مَدخل الخليج (العربي).

ونتيجةً لذلك، فإنَّ مكّة لا تستطيع بحكم موقعها أن تكون مركزًا تجاريًا في وسط صحراء قاحلة[1]، كما أنَّ سُكّانها لا يمكن أن يكونوا

(١) لكن تاريخ هذه المدينة المقدّسة يؤكّد العكس، فقد كانت مركزًا تجاريًا مهمًا تؤمّه القوافل صيفًا وشتاءً، والأسواق تقام فيه في المناسبات وخاصة أيام الحجّ.

فَلاحين ولا رُعاة؛ إذن ما الوسائل التي بقيت للمكِّيين من أجل البَقاء؟ قُوَّة السِّلاح لإجبار الشُّعوب الأخرى لمنحها جُزءًا من مَحصولاتها؟ أو الحماسة الدِّينيَّة التي تدفع الأجانب ممَّن يفدون إليها ليتركوا فيها أموالهم؟ في عهد الخلافة كانت هاتان الوسيلتان مُجتمعتين قد جعلتا من مكَّة مَدينة ميسورة، لكن قبل وبعد تلك الحقبة المجيدة لم يبق لإعاشة هذه المدينة سوى الحماسة الدِّينيَّة، ومع الأسف فإنَّ هذا أيضًا بدأ بالفتور يومًا بعد آخر، وأدَّى إلى حياة مُضنية وغير مُستقرَّة كما هو الحال الآن وقبل بعثة النَّبي ﷺ.

كانت مكَّة باستمرار مركزًا للحميَّة الدينيَّة لشُعوب متعدِّدة، فأصل الحجِّ والتَّأسيس الأوَّلي لحرمها تَتلاشى أهميتها مع تَعاقب الأيَّام واللَّيالي المظلمة، ممَّا يبدو وكأنَّها سابقة للحقبة التَّاريخيَّة؛ وقد حطَّم الرَّسول ﷺ الأصنام التَّي دنَّست بيت الله، كما أكَّد القُرآن الحجَّ، وهكذا كان تديُّن الشُّعوب في كلِّ العُصور هو القاعدة لإعالة المكِّيين، لكن مثل هذا المورد لا يمكن أن يسدَّ جميع مُتطلَّبات سُكَّانها، فمكَّة كانت في فَقرٍ مُدقع قبل مَجيء النَّبيِّ ﷺ، وبعد مدة قصيرة من الجاه والغِنى كانت بقوَّة السِّلاح[(١)] عادت مرَّة أخرى إلى أحضان الفقر الذي يبدو وكأنَّه مِيراثها.

كيف إذن تَنهض الفنون والعلوم وتَزدهر؟ خاصَّة وأنَّ مَوقعها الجغرافي أبعدها عن خُطوط الاتِّصالات التِّجارية، وجعلها في منأى تام عن كلِّ الأخبار والاكتشافات والثَّورات والنَّشاطات الإنسانيَّة الأخرى.

سيبقى أهلُ مكَّة دائمًا شَعبًا منعزلًا على الرَّغم من تأثير الأجانب

---

(١) من الواضح هنا أنَّ المؤلف يقصد الجهاد، وهو بهذا يَسير في ركاب أُطروحات بعض المستشرقين والحاقدين على حركة المدِّ الإسلامي التي يعزونها إلى القوَّة والإكراه، مع أنَّ الردَّ على هذا التَّيار وافتراءاته يتمثل في أن مَسيرة انتشار الإسلام في شَتَّى أصقاع الأرض، فقد وصل إلى أفريقية الوسطى والغربيَّة والشَّرقية، وانتشر دون أن تُرفع راية أو يُسلَّ سَيف، وكذا الحال مع شَرق آسيا كما في أندونيسيا وماليزيا.



نَقْش فوق صورة الكعبة، ممَّا يُباع للحجّاج من زوّار مكّة المكرَّمة
(وهذا مما يدخل في باب البدع التي كانت منتشرة آنذاك)

الذين هم من جهة أخرى لن يظلّوا هناك أكثر من الوقت اللاّزم لإكمال مَناسك حجّهم وإجراء بعض المقايضات التّجارية، ومن ثَمَّ الرَّحيل إلى بلادهم.

إذَنْ مكّة فقيرة بطبيعتها، ولو لم يوجد فيها بيت الله الحرام فإنَّ ضَنك الحاجة سيجعلها مُقفرة قبل مُضيّ حَولين، أو على الأقلّ ستتقلّص إلى مُخيّم أو قرية، لأنَّ سُكّانها بصورة عامة لا يملكون وسيلة أخرى للعيش خِلال العام سوى ما يستطيعون الحصول عليه أيّام الحجّ. ففي هذه الأيّام تُصبح المدينة حيَّة في مَظهرها والتّجارة فيها منتعشة؛ فنصف سُكّانها يتحوَّلون إلى مُؤجّرين وتُجّار وسَائقين وخَدم... إلخ، بينما يُكرّس النّصف الآخر جُهودهم بالكامل لخدمة الحرَم، ويعيشون على صَدقات الحجّاج وهداياهم. هذه إذنْ هي وسائل الكِفاح من أجل البقاء لدى المكيّين، فحالتهم التي يُرثَى لها تُصوِّرها حالات البُؤس التي تُحيط بهم وتَرتسم على وُجوههم[١].

الإنسانُ العَربي بصفة عامّة نَحيل بطبعه، والمكيُّون أكثرُ هُزالًا، وبخاصّة عمّال ومُستخدمو الحرم، وقد اندهشتُ عندما شاهدتهم لأوّل وَهلة حال وصولي، ربّما يُحمل كلامي هذا محمل المبالغة لكنّي أؤكّد أنَّ هذا التّعبير قد لا يُصوِّر حقيقة الحال، وأستطيع الجزم بأنّه من المستحيل تَصديق فِكرة كهذه عن تجمُّع بَشري بهذه النّحافة، دون الرُّؤية بالعين المجرَّدة، وهو ما يمثّله وضع عُمّال الحرَم ومستخدميه بكل طبقاتهم باستثناء شيخ الزمازمة الوحيد الذي يَميل إلى السُّمنة قليلًا، واثنين أو ثلاثة

(١) نرى أنَّ باديا قد جعل من قضيّة إعالة سُكان مكّة همًّا حمله، وحاول أن يُشرك القارئ معه فيه، وكأنَّ مكّة نسيج فريد في مَنظومة من حولها تَنعم بالعيش الرّغيد، ولم يدرك أنَّ شبه جزيرة العرب كاملة لا تخرج عن هذا التّصنيف، وليس لديها أيٌّ من هذه الوسائل المتوافرة للمكّيين، ومع ذلك فقد قاومت عوادي الزّمن، وما زالت باقية مُزدهرة بهمّة أهلها الذين عَرفوا كيف يكيّفون أنفسهم مع ظروف العيش القاسية.

من الزُّنوج الخصيان الأقلَّ نَحافة من الباقين، ويبدو مُستحيلًا على تلك الأجساد أن تتمكَّن من البقاء لوقتٍ طويل في مثل هذه الحال، تخيَّل! أيّ واحد منهم، بعُيون واسعة غَائرة، وأنفٍ حاد، وخدٍّ محفورة حتَّى العظم، وأذرع وأقدام ناشفة تمامًا، ومثلها الضُّلوع والأوردة والأعصاب، وفي كلمة واحدة كلُّ أجزاء الجسم بارزة وشاحبة، وكم هو مُزعج مُشاهدة هؤلاء التُّعساء، بما يصعب معه على العين الاعتياد على مثل هذا المنظر الحزين.

أثناءَ إقامتي في مكَّة لم أسمع إلا آلة موسيقيّة واحدة، ولم أسمع مُطلقًا إلا لصوت عازف ذكر، لكن في بعض الأحيان ولو أنّها نادرة يتبادر إلى مَسامعي غِناء امرأة فأُبادر بالإصغاء إليه، وتغلب عليها نَبْرتها الاكتئابيَّة دائمًا، كما تُثيرها أيّة مُضايقة.
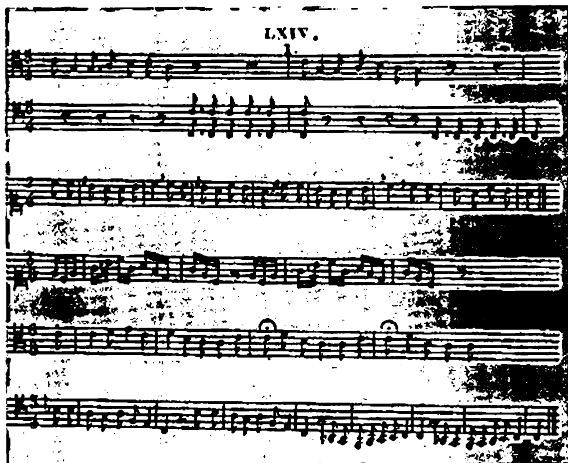
والقلَّة الموجودة من العبيد في مكَّة هم أكثر الأرقَّاء المسلمين(١) شَقاءً من خلال المعاملة السيِّئة التي يُقاسونها، وقد استمعتُ وأنا في بيتي إلى أحد السُّكان يضرب عبده ضربًا مُبرحًا خلال رُبع ساعة، يتوقَّف كلَّ ثلاث أو أربع دقائق كي يستريحَ ساعده ثمَّ يُعاود الضَّرب من جديد.

من هنا يَسهل الاستدلال بأنَّ أهلَ مكَّة سيقلُّ عدَدُهم بشكل حادٍّ، فهذه المدينة التي كان تعداد سُكَّانها أكثر من مِئة ألف ساكن لا يصلون اليوم لأكثر من ستَّة عشر إلى ثمانية عشر ألفًا، وأحياء بكاملها على أطراف المدينة هي الآن مَهجورة تمامًا أو مهدَّمة، وثلثا بيوتها فارغة تقريبًا، وأكثر سُكَّانها يتَّجهون إلى الدَّاخل على الرَّغم من صلاحيَّة مَساكنهم، وواجهات المنازل هي الوحيدة التي ظلَّت في حالة جيِّدة بدافع

---

(١) إعطاء صفة المسلمين هنا تُوحي بأنَّ هناك أرقَّاء غير مُسلمين في مكَّة، وهو ما يُستبعد حدوثه، وتركيب الجمل هنا بشكل عام فيه شيء من الارتباك، ممَّا يبدو معه سقوط بعض الكلمات أو خلل في الصِّياغة.

جذْب الحجّاج، ولكنّ البيوت ستسقط بسبب قلّة التّرميمات الضّروريّة لها، وعدم تشييد أخرى جديدة، وفي كلّ المدينة لم أتذكر أنّني شاهدتُ بناءً جديدًا ما عَدا واحدًا بُنِي آنذاك، وتمّ ذلك ببطءٍ شديد. وإذا ما استمرت هذه الحالة فخلال بَحر قَرنٍ من الزّمن سيقلُّ سُكّان هذه المدينة إلى العُشر مُقارنةً بما هي عليه الآن[١].



١ ـ لحن أنشودة البحّارة في البحر الأحمر.

٢ ـ أغنية سمعها باديا من امرأة في مِنى.

٣ ـ نشيد جماعي لمجموعة من النّساء في مكّة.

٤ ـ نشيد لمجموعة من الرّجال في جدّة.

٥ ـ أنشودة البحّارة في البحر الأحمر.

(١) هذه النظرة التشاؤمية لباديا بشأن سكان مكة وعمران مكة تدحضها الأحوال التي تعيشها مكة المكرمة اليوم من الازدهار والبناء وارتفاع مستوى المعيشة لسكانها.

الفصل السادس

النِّساء - الأطفال - اللُّغة - الملابس - الأسلحة - الغطاء النَّباتي - الزَّواج - الولادة والجنائز - الطَّقس - الطِّب - بلسم مكَّة - تشريط الوجه (الوشم).

تَتمتَّع المرأةُ المكيَّةُ بحريَّة أكبر من تلك التي نجدها في مُدن إسلاميَّة أخرى، رُبَّما كان لحالة الازدهار وكذلك توافد الأجانب المكثَّف دور في هذا الانفتاح، كما أنَّ لحالة الفقْر والبؤس التي يعيشها النّاس أثرها أيضًا، فكلّ ذلك حدَّ من مُحافظتهم على خُصوصيَّتهم بتفاوُت اقترب من الهجران، والحقيقة أنَّ الغِنى والفَقر هما على السَّواء طرفا نقيضٍ فيما يتعلَّق بالمحافظة على العَادات والتَّقاليد.

تُغطِّي النِّساء وُجوههن بقُماش، فيه فتحتان للعَين كما هو الحال في مِصر، لكنَّ هاتين الفتحتين من السَّعة بما يمكِّن من رُؤية نصف الوَجه، ومع ذلك يبقى القسم الأكبر منهن مَكشوف الوجه. وكلُّ النِّساء يَرتدين نوعًا من الأردية الضَّافية، المخطَّطة بالأزرق والأبيض على طوله وعرضه كما هو مَوجود في الإسكندريَّة، وهي مُصمَّمة تصميمًا حسنًا؛ ولكن عندما تنظر إلى وجوهِهنَّ تفقد الرَّغبة التي كانت قد وُجدت، لأنّهن بشكل عام غير جميلات، وألوانهنَّ صَفراء تميل إلى الخضرة كالرِّجال[1]، وأياديهنَّ ووجوههنَّ تحمل خِضابًا بالسَّواد أو باللَّون الأزرق والأصفر، وهذا يُبرز صُورة مُفزعة جعلتها العادة جميلة، وقد رأيتُ بعضهن يضعن حلقة في غُضروف الأنف متدلية فوق الشَّفة العليا[2].

(١) سيُناقض الكاتب نفسه في فقرةٍ تاليةٍ، وسيُضفي على المرأة المكيّة صفات أخرى.

(٢) هو ما يطلق عليه الزّمام في لهجة أهل البادية الدارجة.

إنّهن يتمتّعن بالحريّة بما فيه الكفاية، وأستطيع القوْل إنّهن مُلتزمات بالعادات الإسلامية نِسبيًّا. كنتُ أرى النِّساء اللّواتي يَسكن بجواري باستمرار مُطلّات من النَّوافذ وكثير منهن مُتبرِّجات تَمامًا، إحداهنَّ كانت تَقطن في الطَّابق العُلوي الذي يعلو بيتي، وكنتُ كلّما صعدتُ إلى السَّطح لرصْد النُّجوم تُظهر رقَّة ومُجاملة وبوجهٍ مكشوف[١]؛ الأمر الذي جعلني أشكُّ في استطاعة تلك النِّساء من أن يكُنَّ عامل دفع نحو الأحسن لأهل مكّة المسَاكين[٢].

كُلُّ مَن رأيتهنَّ ظريفات جدًّا، وفوق ذلك عُيونهن الجميلة، لكن تلك الخدود الناتئة وعادةَ الوشْم باللّون الأصفر المائل إلى الاخضرار هو ما يُعطي لملامحهنَّ مظهرًا غير جميل، فكأنّهنَّ مُصابات باليَرقان أو بالاستسقاء. أمَّا طريقتُهنَّ بالكلام وأسلوبهنَّ بالتَّعبير فهي جيِّدة، وأنوفهنَّ عاديَّة لكنَّ أفواههنَّ واسعة؛ ويَشِمْنَ البشرة برُسوم لا تُمحى، ويكْحلن بالأسود محيط عُيْونهنَّ، ويَصبغْنَ الأسنان بالأصفر[٣]، أمّا الشِّفاه والأيدي والأقدام فبالأحمر القرميدي، كما هو الحال لدَى المصريّات اللاتي يتبعن الطَّريقة نفسها وبنفس الموادّ.

ملابسهنّ تَتكوَّن من سراويل فضفاضة تصل إلى أقدامهنَّ أو مُنتصف أحذيتهنَّ الطويلة الصَّفراء؛ وتَستعمل الفقيرات منهنَّ عادةً السَّراويل من القُماش الأزرق، أمّا مَيسورات الحال فيرتدين قُماشًا هِنديًا مُخطَّطًا. كما

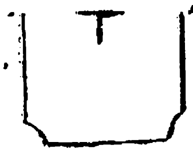
---

(١) تظل المرأة دائمًا مثار اهتمام الرجل، وتبقى محط أنظار الغرباء منهم والرحالة والمستكشفين بالذات، لذا لا نستغرب ما يسوقه الرحالة هنا أو في مواقع أخرى عن المرأة من أحاديث وقصص تظل محلّ شكّ، وتدخل في سياق التشويق والإثارة.

(٢) هذا هو أسلوب المؤلف بحيث يستخدم حالة واحدة ويقوم بتعميمها على الجميع!!

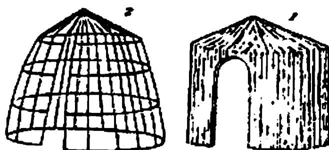
(٣) يصعب مجاراة الرحالة هنا في قضية صبغهن لأسنانهن بالأصفر، لكن قد يكون لعوامل بيئية سواء من مشروب أو مأكول دخل في ذلك خاصّة القادمات من أفريقية، أو ربما كنَّ يضعن تلبيسة ذهبيّة على هذه الأسنان.

ترتدي النِّساء بالإضافة إلى ذلك قُمصانًا ذات أطوال وأشكال غريبة، تَصوَّرا أيَّة قُماش مربَّع بستَّة أقدام عرضًا، وأكثر من خمسة أقدام طولًا، وكلّ ذلك لا يعدو أن يكون نصف قَميص، ثم نفس المربَّع للنِّصف الثَّاني، وتجتمع القطعتان في الجزء الأعلى مع تَرك فتحة في الوسط لإدخال الرَّأس، أمَّا من جهة الطَّرفين السُّفليين فيتركنَ فتحةً على شكل دائرة في سبع بوصات، وبهذه الطَّريقة ما كان يُشكِّل الزَّاوية يتحوَّل إلى تقوُّس نَاتِئ أو تحدُّب، ويتمُّ فقط خياطة ذلك التَّحدب، ويَبقى القَميص مفتوحًا من الجزء السُّفلي كلّه ومن طرفيه العلوي والأسفل. والغَنيّات منهنَّ يعملن القُمصان من الحرير الخفيف النَّاعم كالشَّاش، ولونه بنفسجي سَادة أو مقلَّم، وهو يُستورد من مِصر، ولِلُبسه يطوين القُماش الزَّائد من عرضه على الكتف، ويُربط على الجسم بالحزام، وفوق القميص ترتدي الموسرات القُفطان الهندي. أمَّا الرَّأس فلم أُشاهد أبدًا زينة أخرى سوى المنديل، لكن في اليدين والسَّاعدين والسَّاقين والقدمين يَحملن خَواتم وحِلقًا وأساور كبقيَّة النِّساء في البُلدان الإسلاميَّة الأخرى[١].



إنَّ التِّجارة المتواضعة في مكَّة تَنحصر بتلك القَوافل التي تصل في مَوسم الحجِّ، وقد لحظتُ كم ينخفض عددها سَنويًا، ممَّا يسهل معه تَقدير حَجم التَّدهور التَّدريجي لهذه المدينة المقدَّسة. فهم يستلمون عن طريق جدَّة مُنتجات أوربَّا التي تأتي عن طريق مِصر والبحر الأحمر، ومن الميناء نفسه تصلهم بضائع أخرى مُتعدِّدة من الهند، ومن اليمن تُشكِّل القهوة المنتج الرَّئيس، أمَّا قوافل دِمشق والبصرة ومِصر واليمن فتأتي

(١) للمقارنة انظر: بوركهارت: رحلات، ص١٧٣.



بالباقي، ويقومون بالتَّبادل المشترك.

يتناقصُ استهلاك المدينة يومًا بعد يوم بسبب قلَّة الموارد، وبشكل عام فإنَّ الفقْر المدقع هو العامل المشترك بين سُكَّان هذه البلاد الذين يُشكِّل السعوديون والبدو والعرب جلّهم، ويَقتصر نصيب الفرد على امتلاك جَمل وبعض رُؤوس من الماشية، وهم أشباه عُراة، يعيشون في خيام أو أكواخ بلا أثاث، غيرُ إناءٍ من خَشب، وأحيانًا قِدر صغير وجرَّة ووعاء من فخار وحصيرة يستعملوها فراشًا، ورَحىً لطحن الحبوب، وقِربة أو قربتين لحفظ الماء. فأيُّ شيء يمكن أن يُقدِّمه هؤلاء لسُوق التِّجارة سَلبًا أو إيجابًا؟ لكن من جانب آخر يُشاهَد من بينهم بعض الشَّخصيَّات ممَّن يلبسون ببذخ كالقماش الهندي والشَّال الكشميري أو الفارسي.

أمَّا النِّساء البَدويَّات أو القَاطنات داخل البلاد فيظهرن وكأنَّهنّ من طبقة أكثر تحضُّرًا، إذ يرتدين ثوبًا من القُماش الأزرق، وشالًا أحمر حول الوَجه، وعَباءة سَوداء من الصُّوف، وخَواتم وأسَاور وأشياء أخرى.

من الواضح إذنْ أنَّ أعدادًا من النَّاس ذَوي مُتطلَّبات مَحدودة جدًّا لا يستطيعون استهلاك مواد جديرة بالاعتبار في سُوق التِّجارة، ما دامت لم تصلهم المدنيَّة بعد، الأمر الذي يزداد صُعوبة في بلد صَحراوي، مُقيَّد بطبيعته بالاعتقادات الخرافيَّة والجهل والفقر، نعم استطاعت الانعتاق من حالة التَّوحش والخيبة لبُرهة قصيرة من الزَّمن، لكنَّ هذا التَّحوُّل المفاجئ مردُّه لموجة الاندفاع الدِّيني؛ إلا أنّه مع ذلك يَستحيل الاعتماد على مثل تلك الدَّولة المجيدة طويلًا، إذْ سُرعان ما يعتريها الفتور، لتغرقَ من جديد في حالتها القديمة من التَّخلُّف والفقر اللذين يبدوان وكأنَّهما إرثًا لها.

يَحتفل المؤرِّخون بنُبل الأمَّة العربيَّة التي لم تحنِ رأسها أبدًا لسُلطان اليُونان أو الرُّومان، لكنَّ هذا الاستنتاج غير صحيح اعتمادًا على الوقائع، فإذا كانت الجزيرة العربيَّة قد حافظت على استقلالها من كلِّ سيطرة أجنبيَّة، فإنَّ هذا الامتياز يعود إلى طبيعة البلد أكثر من طبيعة أهلها؛ فأيُّ قائد يمكن أن يُضحِّي بالرِّجال والمال لفتح صَحراء شاسعة، وشُعوب غير قادرة على صُنع هيكل سِياسي[1]؟

لكن عندما تَتوحَّد الأفكار الدِّينيَّة هُنا فإنها تتَّحد كلُّ الأهداف التي لا تستطيع أن تَجمعها أيّة رَوابط أخرى بسبب انعزال كلِّ قبيلة وجَفاف الأرض، ورَفض ثقافة الآخر، وهذا يَنتج معه التَّقوقع على الأعراف الاجتماعيَّة التي عليها نَشؤوا وترعرَعوا.

حقيقةٌ أنَّ مكَّة والمدينة هما مَهْد اللُّغة العَربيَّة، لكن نتيجة للجهل السَّائد فإنَّ هذه اللُّغة تَتدهور وتَتَغيَّر حتى في النُّطق، وبدرجةٍ كبيرة وأكثر وضوحًا عند الكتابة بلا حَركات، خاصَّة وأنَّ هُناك حُروفًا حَلقيَّة مُتعدِّدة كلٌّ يَنطقها على طريقته بسبب عدم وجود نِظام وطني لضَبط النُّطق، ووسائل لحفظ الموروث الأصلي وديمومته. وهكذا تبتعد الأمور عن إصلاح أوضاعها، وتتَّجه اللُّغة يومًا بعد يوم إلى الانحدار بسبب دُخول التَّعابير الفاسدة الخاصَّة بكل قبيلة، وبسبب الاتِّجار مع الأجانب[2].

مَلابِسُ المَكِّيِّين مثل مَلابس المصريِّين، فهي بنيش أو قُفطان خارجي مُنفصل عن آخر داخلي يُربط بحزام، وكذلك القُمصان والسَّراويل

(١) يتجاهل المؤلف هنا انتصارات العرب والمسلمين وفتوحاتهم وهزيمتهم للفرس والرومان وغيرهم.

(٢) تبدو نظرة زميله بوركهارت أكثر تفاؤلًا بشأن هذا الموضوع، فاللّغة العربيَّة - بنظره - ما تزال في مكَّة أكثر نقاءً وأناقة في التَّعبير والنُّطق من أيِّ بلد آخر يتحدَّث العربيَّة. انظر: رحلات، ص١٩٧.

والأخفاف، لكن مثل هذه الملابس تَبقى للمُتمكِّنين منهم كالتُّجار ومُوظَّفي الحرَم. . .إلخ، أمَّا عامَّة النَّاس من طبقات الشَّعب الدُّنيا فيقتصر لباسهم على القُمصان والسَّراويل(١).

أمَّا البَدوي من العَرب فيرتدي فوق ملابسه عادةً مِعطفًا كبيرًا بلا رِدن، مع فتحتين لإخراج ذراعيه. وهو عبارة عن قُماش غليظ خشن، أو قُماش خفيف جدًّا، ألوانه الداخليَّة تُعطي نفس المظهر الخارجي؛ هذه المعاطف عادةً ما تكون ذات نطاق أبيض وبنِّي بالتَّناوب، كلٌّ منها بعرض قدم واحد تقريبًا(٢).

أمَّا سُكَّان المدينة فيضعون على رُؤوسهم نَوعًا من القلنسوة أو الطَّربوش ذات اللَّون الأحمر مع العمامة، والبدو لا يستعملونها عادة، فهم يُغطُّون رؤوسهم بمحرَمة أو شَال أصفر مُخطَّط بالأحمر والأسود، مَطوي بشكل مُنحرف آخذ شكل مُثلَّث، وموضوع على الرَّأس بحيث إنَّ طرفي الزَّاويتين الحادَّتين يتدلَّيان أمام الكتف، والباقي على الرَّقبة والظَّهر(٣)، والبدو المتمكِّنون يضعون فوق ذلك الشَّال قطعة من النَّسيج الموصلي المدوَّرة على شكل عمامة، أمَّا الفُقراء الذين يُشكِّلون الأغلبيَّة فيمشُون شُبه عُراة.

وبعيدًا عن مُوظَّفي الحرم وقلَّة من التُّجار، فإنَّ السُّكان دائمًا مسلَّحون؛ والأسلحة الأكثر شُيوعًا هي الخنجر الكبير المعقوف والرُّمح ذو الرَّأس المفلطح والهراوة، كما تُوجد البنادق لكن بقلَّة. وتَركيبة غِمد

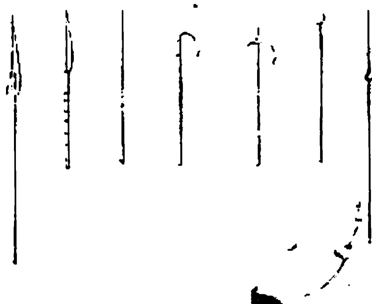
---

(١) لقد أعطانا بوركهارت معلومات تتعلَّق باللِّباس أكثر دقَّة وتفصيلًا، فَوَصَف ملابس الطبقة العليا وكذلك الوسطى والسُّفلى؛ وفرَّق بين ملابس الشِّتاء والصَّيف. لمزيد من التَّفاصيل، انظر: **رحلات**، ص ١٧٠ ـ ١٧٣.

(٢) مما يظهر أنه يقصد ما نُطلق عليه الآن: الفَروة في حالة الثقيل الخشن، والمشلح أو البِشت في حالة الخفيف.

(٣) من الواضح أنه يقصد الشماغ أو الغترة في عُرفنا الحالي.

الخنْجَر غريبة، ففضلًا عن المساحة التي يشغلها النَّصل، فإنَّ هناك امتدادًا مُنحنيًا شُبه دائري، ومُنتهٍ بكُرةٍ أو تزويقٍ مُتداخل. ويُوضع الخنْجر مائلًا أمام الجسم، والمقبض نحو الجانب الأيسر، والعَقْفة بالاتِّجاه المعاكس، ورَأس الخنجر نحو الأعلى، وهذا الوضع يُعيق كثيرًا حركةَ اليدين، ومع ذلك فقد ظلُّوا مُتمسِّكين به بحكم العادة، فكم هو صَحيح أنَّ البشر في جميع الأحوال والأمكنة خَاضعين لنَزوة الموضة!!



الرُّمْحُ ذو الرَّأس المفلطح يتكوَّن من عَصًا بطول أربعة أقدام ونصف إلى خمسة أقدام ونصف، مُجهَّز برأس حديديٍّ، مع قطعة أصغر منها في الطَّرف السُّفلي، والرَّأس العُلوي يكون دائمًا أطول من قدمٍ واحدة وله أشكال مُختلفة منها الطَّويلة ومنها الضَّيقة، أو مثل رُمح الرَّمي أو حَربة البندقيَّة... إلخ؛ وبعض هذه الرِّماح مُزيَّنة عصيّها من الأعلى إلى الأسفل بمسامير صغيرة وحِلق من النُّحاس.

أمَّا الهِرَاوة فهي تتشكَّل من عصًا بطُول قدمين، وبقُطر خمسة عشر خَطًّا، وتنتهي ببكرة من الخشب نفسه، وبسُمك ستَّة وعشرين إلى ثلاثين خَطًّا، ويُوجد كذلك من يعملها من الحديد.

بَنَادق البشتُون وهي غَريبةٌ وثقيلةٌ جدًا، وأكثر ما تُوجد بالفَتيل، كما أنَّها ذات نِظام خَشن، لكنَّ مقبضها مصنوع بشكل جيِّد، وقد رأيتُ بنفسي إحْداها بديعة جدًّا ومَطليَّة بكاملها بالعَاج، وقد طلبوا منِّي مَبلغ مئة وعشرين فرنكًا ثمنًا لها.

ويَحمل بعضُ العَرب الفُؤوس سلاحًا بطول قدمين تقريبًا، وآخرون يتَسلَّحون بعصًا كبيرة ذات قُطر يزيد على البوصة، وطول أربعة أقدام ونصف، وهي ملبَّسة بالحديد في طرفها السفلي.

أمَّا سِلاح الفُرسان فهو الرُّمح الطَّويل ذو العشرة أقدام والنصف، مُزيَّن بخُصلة من الرِّيش الأسود في المنطقة الحديديَّة، والطَّرف الآخر من العَصا مُزوَّد برأس صغيرة، به يثبِّت الفارس الرُّمح في الأرض بشكل عموديّ عندما يترجَّل.

والعَرب في اليمن يستعملون السَّيف والدِّرع، فالسَّيف مُستقيم ونصله عريض، والدُّروع بعضها من المعدن وبعضها الآخر من الخشب الصَّلب جدًّا، وأخرى من جِلد فَرس البحر، والأخيرة هذه هي الأفضل، لكن بعضها مُحلَّى بالزَّخارف والرُّسوم، ولا يزيد قُطرها على قدم واحد.

إنَّ وضع البلاد على حالة شديدة من القَحْط، فلا وُجود لنباتات حول المدينة، ولا حتى في الجبال المجاورة. وقد قلتُ سابقًا: إنَّ البقول تأتي من بعيد، والأنواع الأربعة أو الخمسة من النَّباتات التي وجدتُها قد شكَّلت مَجموعتي؛ ومن الممكن أنَّ فُصول السَّنة الباقية قد تتوافر على أنواع أخرى، لكن لا أحد يأملُ بوجود شيء يُشبه المرج، أو على الأقلّ من ذلك حديقة في مكَّة، بل كلُّ ما هنالك رِمال وصُخور؛ فلا تزرع الحبوب لأنَّ التُّربة فقيرة ولا تُعطي بما يتناسب مع جُهد الفَلاح، والأرض تَأبى العَطاء، حتى لتلك الأنواع التي تخرج تلقائيًّا وبشكل عَفوي في مناطق أخرى.

وأخيرًا، لا يُوجد أكثر من ثَلاث أو أربع من الأشجار في المكان الذي كان قديمًا بيت أبي طالب عمّ الرَّسول ﷺ، وستّ أو ثمان أخرى مُتفرِّقات هنا وهناك، هذه الأشجار شوكيَّة وتُنتجُ ثمرةً تشبه ثَمرة العنَّاب، ويُطلق عليها العَرب أشجار النَّبْق. وبجانب بيت يملكه الشَّريف خارج المدينة بمسافة قليلة صَوب الشَّمال يوجد حقْل مَزروع بالنَّخيل، يُسقى بماء البئر، فليس هناك سَقي من غيره.

وقد أكَّد لي أهل البلاد أنَّ طُقوس الزَّواج والولادة لا تُرافقهما حَفلات فرح ولا ابتهاج كما في بقيَّة البلاد الإسلاميَّة، ولذا لم أُشاهد أيَّة حفلات من هذا النَّوع(١).

أمَّا مَراسم الوَفاة والدَّفن فلا يُصاحبها أيَّة طُقوس، وكلُّ ما هنالك أنَّهم يحملون الميِّت مشيًا إلى الكعبة حيث يوجد المصلُّون، ثم يُؤدُّون عليه صَلاة قصيرة، وبعد هذه الصَّلاة الخاصَّة المعتادة يحملون الميِّت للدَّفن في حفرة خارج المدينة؛ ولهذه الخدمة يوجد أمام أحد أبواب الحرم في الشَّارع العام نُعُوشٌ كثيرة، تَبعث عائلة المتوفَّى في طلب أحدها حيث يضعون الجثمان مُغطًّى بملابس المتوفَّى العاديَّة دون أدنى زينة، وعادةً ما ينقلونه مَكشوفًا وبلا تَابوت، وبعد الدَّفن يعيدون النَّعش إلى مكانه.

الطَّقس في مكَّة حارٌّ، وليس ذلك بسبب امتدادها الجغرافي فقط، وإنَّما بشكل خاص لوضعها الطُّبوغرافي بين الجبال، وانعكاس ذلك في جعل المدينة فُرنًا. إنَّ أشدَّ حرارة لحظتُها خلال مدَّة إقامتي، كانت ثلاثًا وعشرين درجة ونصفًا في اليوم الخامس من شهر فبراير (شباط) عندما

---

(١) هذا التعميم الذي أطلقه المؤلف هو بلا شك مجانب للحقيقة، لكن قد يكون للظروف التي وافقت مجيء باديا بمكة المكرمة أثر في عدم إقامتها لانشغال الناس بالحج ومتطلباته.

تغيب الشَّمس، وأقلُّها كانت ست عشرة درجة في اليوم السَّادس عشر من الشَّهر نفسه في السَّاعة السَّابعة صَباحًا[١].

أردتُ تَركيب مِقياس الرُّطوبة، ولكن مَنعني من ذلك استحالة وجود شعر لمؤشِّر المقياس، سيبدو ذلك أمرًا صَعب التَّصديق، لكن هذا هو الواقع، فضمن عدد كبير من النَّاس وفي مركز العاصمة لم أستطع الحصول على شيءٍ منه، فالرِّجال حَليقو الرُّؤوس تمامًا، والنِّساء بسبب المعتقدات الخرافيّة، فإنّهن لا يعطين شَعرةً واحدةً، فهنَّ مُقتنعات بأنَّ الرَّجل يَستفيد منها لعمل سحر يُوقع الضَّرر بهن؛ ولهذا السَّبب فعندما يمشطنَ شُعورهنَّ يأخذنَ كامل الحيطة والحذر، وذلك بدفن الشَّعر السَّاقط سِرًّا، ولنفس السَّبب عندما يُقلِّمنَ أظافرهنَّ يعملنَ على إخفائها.

والكثير من الرِّجال كذلك يَعتقدون بخُرافات مُشابهة، ولكنَّ السعوديين لهم طريقة أخرى مُتباينة في التَّفكير، ففي وقت الحجّ رأيتُهم يَحلقون في الشَّوارع، ويُصبح المكان الذي حلُّوا فيه مُغطَّى بالشَّعر الذي حَلقُوه، ويمكن أن يملأ نَضيدة بلا صُعوبة، ولكنَّ هذا الشَّعر كان قصيرًا وأقلَّ بقليل من بُوصة طولًا.

ولعدَم تَمكُّني من استعمال مِقياس الرُّطوبة بقيتُ بعيدًا عن أحد أجهزة الرَّصد، لَكن أستطيع القَول مع ذلك إنّه خلال إقامتي هناك كان الهواء بشكل عام جَافًا، والرِّياح تعصف باستمرار من الجنوب الغربي، باستثناء بعض الأحيان الهادئة، وكنتُ دائمًا ما أعمل أرصادي خلال الرِّياح العالية، فأرصدُ اتّجاه الغُيوم لأنَّ الواطئة منها تتحول بلا توقُّف، وذلك

---

(١) لقد وضع لنا إبراهيم رفعت باشا قائمة بدرجات الحرارة طوال أشهر السَّنة في مكّة المكرَّمة مع وصف لهطول الأمطار. انظر: **مرآة الحرمين**، ١/٢٠٦. كما كانت محلّ اهتمام الباحثين حديثًا، انظر على سبيل المثال: عبدالله بن صالح الرقيبة: «الأماكن المقدسة والحج»، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي** الذي نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٩٩م، م٣ ق١، ص ٢٦٤.

لوجود الجبال المحيطة بالمدينة التي تُظلِّل الرَّاصد، ولهذا السَّبب فعندما لا توجد غُيوم أو ضَباب أو رُطوبة بارتفاع مُعيَّن لتحديد تيَّار الرِّياح العالية لا أستطيعُ تسجيل أيَّة مَلحوظة في لوائح الرَّصد الجوِّية.

وطِيلةَ مدة إقامتي في مكَّة كانت السَّماء تَتناوب فيها الغُيوم، مع رطوبة في اللَّيل كما هو الحال في البلدان المعتدلة، ولم ألحظ تغييرات فُجائيَّة في الحرارة أو الرُّطوبة كما يحدث في جدَّة.

يَبدُو أنَّ جَوّ مكَّة صِحِّي، فليس هناك الكثير من المرضى ولا حتى الأمراض المزمنة، ولكن لا يُوجد في الوقت نفسه شُيوخ بعُمرٍ مُتقدِّم، كما لا يُوجد عميان، ولا أمراض عُيون مثلما هو شَائع في مِصر.

ومن خلال ما ذكرتُ يَسهل تكوين فكرة حول الحرَارة العَالية خلال الصَّيف، ففي شهر يناير (كانون الثاني)، والشَّبابيك مفتوحة ليلًا، بصعوبة أتحمَّل شَرشفًا يُغطِّيني، وفي الوقت نفسه فإنَّ الزِّبدة تبقى دائمًا سَائلةً كالماء.

ماذا يَحدثُ في شَهري يُوليه وأغسطس؟ إنَّ المدينة تقع داخل المنطقة الشَّديدة الحرارة بمقدار دَرجتين، فالشَّمس عَموديَّة تقريبًا، أو عندما تزيد دَرجتين يختلف موضعها في السَّمت لمدة شهرين ونصف، أيْ من مُنتصف شهر مايو وحتى نهاية شهر يوليه. وإذا أضفنا لهذا مَوقع المدينة في عُمق وادٍ تُرابي، ومُحاطة من جميع الجهات بالجبال الصَّخريَّة الملسَاء، ودون مياهٍ جارية، فلا نَهر ولا عُيون ولا أشجار ولا نباتات، ولا أيّ غِطاءٍ نَباتيّ؛ فلك أن تَتخيَّل الحرارة السَّائدة هناك في فصل الصَّيف! بلا شكّ، الله تعالى تكرَّم بوضع حَرمه هناك رَحمةً بقاطني هذه المدينة الذين لولاه لاختفوا تمامًا من على وجه البسيطة.

ليس في مكَّة كما هو الحال في بُلدان أخرى أطبَّاء بما تعنيه الكلمة، وقد وجدتُ مع ذلك اثنين، كانت لديهم الجرأة في أن يُسمُّوا أنفسهم

أطبّاء، أحدهما كان عليه أن يبدأ بعِلاج نفسه، هؤلاء المتَطبِّبون يُوظِّفون باستمرار الأدعية والممارسات الخرافيّة في علاج مَرضاهم. ونتيجةً لذلك لا يمكن أن يُؤمَّل بوجود صَيدليّات أو بائعي أدوية وعقاقير؛ وعندما يقع أحد السُّكان طَريح الفراش يقوم حلّاقه بعمل مَشروب فَواكه له، ويُعطونه كميّات من ماء الزَّنجبيل، ويُسقى كذلك من ماء زمزم المعجزة ويغتسل منه، كما يُناولونه الكثير من القِرفة والقَرنفل وغيرها من الأفاويه، والمريض يُشفى أو يموت حسَب إرادة الله.

ولأنّي أحملُ خزانة أدوية فقد كنتُ أُعالج خَدمي عندما يَمرضون، وعندما تعرَّض الخازندار أو رئيس خدمي لنوبة من الحمَّى، أعددتُ له مُقيِّئًا تناوله فكان عِلاجًا ناجعًا، ولكن في اليوم التّالي، وعِوضًا عن أن يتحسَّن كما كان مُتوقَّعًا فإنّه أصيب بنوبة حُمَّى أشدّ، ولم أعرف لماذا حدَث هذا التَّدهور غير المُتوقَّع؟ ثم عرفتُ صُدفةً بعد أن صعدتُ في تلك الأمسية إلى الحرم بأنّهم كانوا قد نَقلوه خلال اللَّيل إلى بئر زمزم، وبلَّلوه كثيرًا بالماء البارد، وأعطوه من ماء زمزم ليشرب منه ما استطاع، وعند عودتي إلى البيت زَجرتُ معنِّفًا من قاموا بهذا الفعل دون إخباري، وعاودتُ مُداواة الخازندار الذي عاد إلى صحَّته العادية.

أمَّا بَلسَم مكَّة المشهور فهو ممَّا جادت به هذه المدينة، وقبل ذلك كان نادرًا ما يُعرف، ولا يتوافر إلا عندما يَأتي به البدُو صُدفة من أماكن أخرى من الجزيرة العربيَّة، أحد هؤلاء الجالبين لهذا البلْسم ويبدو أنّه من غير أهل مكَّة فهو على شيءٍ من الاطّلاع والمعرفة قال لي: إنَّ هذا البلْسم يُستخرج بصورة رئيسة من مَنطقة المدينة واسمه «بَلْسَم»، لكنَّ أهل بلده لا يعرفون الشَّجرة التي تُنتجه، وهي التي تحمل اسم شجرة خيلياد[1].

---

(١) ورد ذكره لدى النّباتيّين وأطبّاء الأعشاب، وإن أطلقوا عليه اسم «بَلَسَان» حسب مُحقّق كتاب القُولنج لأبي بكر الرّازي، تحقيق وترجمة: صبحي حمامي، ط. جامعة

لقد لفتَ نَظري تَصرُّفٌ فَريد في كلِّ الجزيرة العربيَّة، وهو عَمل ثلاثة شُقُوق عَموديّة على طُول كلِّ خَدٍّ، بحيث إنَّ أكثر الرِّجال يَحملون ستَّ ندبات في وُجوههم(١)، وقد سَألتُ أكثر من واحد عن تَفسير لهذه العادة، فقال لي بعضهم: هي لأجل نَزْف الدَّم، وآخرون قالوا: بأنَّها إشارة إلى عُبوديَّته لبيت الله، ولكن في الحقيقة هي التَّقليعة أو الموضة، تلك التي حَملت هؤلاء على مثل هذا العمل لأنَّهم يَرونه جُزءًا من الجَمال، كما هو الحال مع الألوان الزَّرقاء والسَّوداء والحمْراء التي تَتزيَّن بها النِّساء لصَبْغ وجوههنَّ؛ وهي نفسها التي تُجبرهنَّ على وضْع حَلقةٍ في الأنف، والرِّجال على حَمل الخنْجر الذي يُعيق كلَّ حَركة؛ عجيب أمر هذا الإنسان!!

= حلب ١٩٨٣م، ص ٢٠٩. انظر للمزيد، مثلًا: داود بن عمر الأنطاكي: **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**، بيروت، ١/ ٨٢؛ وتحدَّث عنه بوركهارت، وذكر أنَّ البلسم المكّي يُستخلص من بذور الشَّجر، وأنه شائع الاستخدام للإجهاض أيضًا. انظر: **رحلات**، ص١٧٤. أما المحدثون ممن اهتمّ بهذا النّوع من النّبات، فقد ذكروا أنّه: شَجر له زَهر أبيض صغير كهيئة العناقيد، وأنّه يُفيد لعلاج الصّداع وعدّة أمراض أخرى. انظر: **التّداوي بالأعشاب والنباتات قديمًا وحديثًا**، جمع مواده ونسقها وقدم له: أحمد شمس الدين، بيروت، ١٩٩١م، ص ٩١ ـ ٩٢.

(١) هذا هو ما يُعرف بـ «الوَشم» وقد رأى ذلك أيضًا بوركهارت، وأعطى توضيحًا أكثر مع شيء من الاختلاف عمّا أتى به باديا، فالشُّقوق لديه هي ثلاثة أو أربعة. لكن من جانب آخر فالمكيون ـ حسب تعبيره ـ يَفخرون بهذا التّفرُّد الذي لا يشاركهم فيه البدْو، كما يَمنع سكّان الحجاز الآخرين من ادّعاء شرف أنّهم وُلدوا في المدينة المقدَّسة. انظر: **رحلات**، ص ١٧٠.

الفصل السابع

الخيْل - الحمِير - الجمال - حَيوانات أخرى - السجاد - السّبَح - الجِبال - الحُصون والقِلاع - بُيُوت الشَّريف - السُّلطان الشَّريف - الحالة السّياسيَّة في مكَّة - تَغيير في السُّلطة - البَلد الحرَام أو أرضُ الإسلام المقدَّسة - جِبَال الحِجَاز.

سيَنتظرُ منِّي القارئ قبل أن أُنهي حديثي عن وصف مكَّة أن أُضيف شيئًا عن الخيول العربيَّة المشهورة جدًّا في العالم، ولكن ماذا أقول؟ بصعوبة أجدُ في كَنف عاصمة الجزيرة العربيَّة هذه مئةً منها عند حَرس السُّلطان الشَّريف، ثم حوالي الستَّة على الأكثر عند الخاصَّة، وهي نادرة بين البدُو، فالسُّلطان سُعُود وهو على رأس خمسة وأربعين ألفًا من السعوديين لا يملك أكثر من مئتين أو ثلاث مئة منها، ومع ذلك فهي من اليَمن[1].

والخيول التي رأيتُها قبيحة وصغيرة وخشنة، باستثناء حوالي ستَّة مقبولة، واثنين أو ثلاثة جميلة؛ وإذا ما تكلَّمنا بشكل عام فإنَّها قويَّة للغاية وتَجري بسرعة كبيرة، وتَتحمَّل الجُوع والعطَش، وهذه هي مَحاسن الخيول العربيَّة، أمَّا لونها فهو بصورة عامة أشهب، ورأسها جميل جدًّا، والجزء السُّفلي من السَّاق قليل الخشونة، والذَّيل نحيل والعين تَلمع والأذن رقيقة.

(١) يبدو أنَّ الرَّحالة اعتمد هنا على معلومات غير دقيقة، فقد كان لدى الإمام سُعُود بن عبدالعزيز خِيرة الخيول العربيَّة الأصيلة، إذ كان يحتفظ في الدِّرعية وحدها بأكثر من ثلاث مئة أو أربع مئة منها، غير ما هو موجود في مناطق أخرى كالأحساء. (ج. ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص٣٦).

والفُرسان يعاملون خيولهم بقسوة، وهم يستعملون ـ كما هو الحال في المغرب ـ ألجمة قويَّة للغاية، وهذا يُؤدِّي إلى جَرح أفواهها.

وباستثناء بعض جُنود الشَّريف ممن لديهم سُروج، فبقيَّة العرب يمتطونها دون رِكاب، وعلى مثل هذه ينطلقون بسرعة البَرق، وكلُّ السعوديين وحتى أولاد السُّلطان سُعُود فإنّهم يستعملون بَردعة دون رِكاب.

لعلَّ السِّر في نُدرة الخيول في هذه البلاد يعود إلى حرارة الأرض الصَّحراويَّة وجفافها، والجمل وحده هو مَن يستطيع العيش والسَّفر بلا مشقَّة. وتتغذَّى الخيل بالأعشاب الجافَّة مثلها مثل الجِمال، وقليلًا ما يُضاف لأكلها الشَّعير أو غيره من الحبوب.

ليستْ مكَّة هي مَوطن هذا الحيوان النَّبيل صَديق الإنسان، وإنَّما اليمن وما حول سُورية كذلك، حيث توجد الخيول العربيَّة الجميلة، ومن هناك يَحملونها إلى القُسطنطينيَّة، ولهذا فسأتحدَّث عنها بعد ذلك(١).

والحمِير في مكَّة ولو أنَّها صغيرة لكنها رائعة، ومع ذلك فإنَّ ما وجدته في مِصر يُعدُّ أفضل منها.

أمَّا الجَمل فهو الحيوان الوحيد الذي يتحمَّل الصَّحراء، وهبته الرحمة الإلهيَّة لقاطنيها الذين يتنقَّلون في أرجائها القاحلة، فكيف ستكون الجزيرة العربيَّة دون جِمال؟ وأيُّ قوَّة إنسانيَّة كافية لجمع اثنين وثمانين أو أربعة وثمانين ألفَ شخص عند جبل عَرفات في يوم الحجِّ دون طلب النَّجدة من هذه الحيوانات النَّفيسة؟

---

(١) أفرد لها حديثًا خاصًا في الجزء المتعلِّق برحلته إلى سوريا، وقسَّم أنواعها وفئاتها إلى ستَّة أنواع لكل منها خصائصها وأصولها، وأكَّد أن هذا النوع يوجد لدى قبيلة عنزة بشكلٍ رئيس. انظر الرحلة: Peregrino a la Meca، ط. مدريد، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢.

لنتجاوز الخيلَ والحميرَ وغيرها من حيوانات النَّقل الآن إلى تلك البلاد التي يتوافر فيها الماء، وتَنعم بالمراعي الخصبة، إلى الصَّحاري العربيَّة الأخرى التي يُطلق عليها قُدماء الجغرافيِّين «البتراء» أو «الصَّحراء»، وإلى الصَّحراء الكُبرى في أفريقيَّة التي من أجلها خَلق الله الجمل، هذا الكنْز لقاطني تلك الأقاليم.

ومع توافر الحمير التي تتردَّد بين مكَّة وجدَّة باستمرار، وتقطع المسافة في اثنتي عشرة ساعة[1]، وأحيانًا تُشارك مع الخيول في القوافل الكبرى أيضًا، لكن في الحقيقة كلُّ ذلك لا يعني شيئًا على الإطلاق، مقارنةً بالعدد الكبير من الجمال التي تتجوَّل في تلك الصَّحراء.

وتَلقَى الجِمال من أصحابها مُعاملة لطيفة، ويعتنون بها كثيرًا، لكنَّها في المقابل مُلزمة بالخدمة حتى النَّفس الأخير، وتَنفق وهي تحت وَطأة العمل، وعِظامها تَملأ الطُّرقات، ولم ألحظ فرْقًا واضحًا بين الجِمال في الجزيرة العربيَّة أو في المغرب العربي.

ولتغذية هذه الحيوانات الرَّائعة من الخيول والحمير يُباع في كلِّ الأسواق حَشائش يابسة بحزم، أو مَفتول بربطة كبيرة.

ويُوجد في مكَّة نوعٌ جميلٌ من البَقر بلا قُرون مع سَنام في الظَّهر، تأتي - حسب ما قالوا لي - من جهة الشَّرق، وتفيد في الرُّكوب والتَّحميل، وتُسافر بخفَّة كبيرة، وتدرُّ الكثير من الحليب.



(١) في الفصل التَّاسع يقول بأنهم قطعوا الطريق ما بين مكَّة وجدَّة أثناء عودتهم في ثلاث وعشرين ساعة على الجمال، لكنهم توقَّفوا بالحدَّة.

ويُلحظ في مكّة قلّة الكِلاب، وما يوجد منها يبدو وكأنّه نوع قريب من جنس كلاب الصَّيد أو الرُّعاة. وكما هو الحال في بُلدان إسلاميَّة أخرى تَمشي الكلاب سائبة حرَّة بلا صاحب.

أمَّا القطط فهي من ذلك النَّوع الشَّائع في أوربا وإن كانت أصغر قليلًا.

وتُوجد في مكَّة أكباش رفيعة، ذات إلية غليظة، لكنَّها ليست بحجم تلك الموجودة في الأقاليم الجنوبيَّة.

كما شاهدتُ نوعًا من الماعز لطيفة جدًّا، ذات حجم ليس بالضَّخم، ولها قُرون طولها أكثر من أربع وعشرين بوصة.

وكذلك عجول وبقر بحجم صغير، وذات قرون قصيرة مثلما هو موجود في المغرب.

يَطير في مكَّة عدد غير محدود من الحَمَام بحرية تامَّة، ودون أن تكون مُلكًا لأحد[1]، وهي تَصنع أعشاشها في السُّقوف وفي ثُقوب الأسوار.

الحشَرات غريبة، وقد أخذتُ بعضًا منها فقط، ورأيتُ في أحد الأيّام بساحة الحرَم الكبرى عَقربًا كبيرًا جدًّا يمشي وذَيله مُتقوِّس إلى ظهره، فقتلوه بالأحجار، وعندما نَشر ذيله ظهر لي أنَّ طوله أكثر من ستّ بوصات.

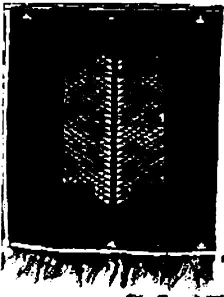
لم أرَ ـ أبدًا ـ أكثر جراءةً من جُرذان مكَّة، فقد كان سَريري على الأرض، وفي كلّ يوم كانت هذه تقفز وتلعب حولي، وبمجرَّد أن أُظهر أيَّة حركة تهرب؛ ولكن في ليلة دهنتُ فيها أحد خَدمي ببَلسَم العرعر، وعلى الرَّغم من أنّني نشَّفت يديَّ جيّدًا بمنديل، فإنَّ رائحته قد جذبت

(١) قارن مع ما ورد في فقرة سابقة في الفصل الرابع، وكيف أكَّد هناك أنَّ هذا الحمام يتبع الشَّريف.

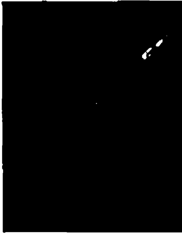


الفئران، وبينما كنتُ مُستغرقًا في النَّوم، عضَّت إصبع يدي اليمنى عضَّتين قويَّتين فأيقظتني وأنا فَزِع، وفي تلك اللَّحظة ظننتُ بأنَّ العضَّة كانت لحشرة سامة، فكشطتُ القسم المجروح، ووضعتُ مادة قلويَّة طيَّارة. لكن لم أتأخَّر في التأكُّد بأنَّ العضَّة كانت من قبل الجرذان؛ عند ذلك رفعتُ سريري إلى الأعلى، ومع ذلك لم تنفع الاحتياطات، فالجرذان وجدت طريقًا للصُّعود بالقفز على الأثاث الملاصق لسريري. وأحدها يبدو أنّه قد كوَّن علاقة منزليَّة معي، ففي كل السَّاعات يأتي لزيارتي، ويصعد بهدوء إلى مكتبي، وينظر إلى وجهي وكأنَّه ينتظر أن أتكلَّم معه، دون أن يوافق ـ مع ذلك ـ أن أمسَّه. أمَّا ماعدا ذلك، فليس هناك أيُّ فرق بين فئران هذه البلاد المنزليَّة وفِئران أوربَّا.

رأيتُ القليل من البعُوض، لكن هناك الكثير من الذُّباب العادي، أمَّا البرغُوث فهو نادر، ولكنَّه موجود في الحرم أيَّام الازدحام الكبير، وواحد منها كفيل بإحداث ما يكفي من الحكَّة، وخاصَّة من ذلك النَّوع المعروف بالقمْل الإنساني.



ومن الأشياء التي رأيتُها من بَقايا الغِنى القديم في مكَّة، هي ذلك العدد الكبير من السَّجاد والوَسائد الوثيرة، الموجودة في البيوت. وبما أنَّ هاتين الحاجتين تعبِّران عن حضور الحجَّاج المعتاد، فقد تراكمت باستمرار في المدينة، إلى درجة أنّه حتى في بيوت ذوي الفقر المدقع، توجد سَجاجيد ثمينة ولو أنّها قديمة.



السعوديون منعوا استعمال السُّبحة لكونها جُزءًا من الاعتقادات الباطلة، وبذلك حرَموا أهل مكَّة من قسطٍ من تجارتهم المربحة، ومع ذلك فهم مُستمرون في صُنعها سِرًّا للحجَّاج من عدَّة أنواع من خشب الهند واليمن، ومن خشب الصَّندل المعطَّر جيّدًا[1].

تتكوَّن جِبال مكَّة من صُخور الشَّست أو صَفائح الكوارتز، وفي بعض أجزائها من البازلت أو من نوع صُخور مجزَّعة، وهي بعمومها تقريبًا من الكوارتز في كلِّ البلاد، فالرِّمال ليست أكثر من حُبيبات الكوارتز، والقاعدة الأساسيَّة لجميع الصُّخور هي الكوارتز الصَّافي؛ أمَّا الكبريت الزِّنكي المتبلور أو الصُّخور المجزَّعة والفلسبار والميكا والتشرلو، فهي أجزاء عرضيَّة تختلف باختلاف الجبال، لكن الكوارتز يشكِّل التركيبة الرئيسة.

وسطح هذه الجبال مُنحرف تحت زوايا مختلفة وبانعطاف شبه طبيعي بمعدل بين ثلاثين إلى خمس وأربعين درجة وبارتفاع نحو الشَّرق[2].

ومركز المدينة أو الحرَم مُحاط بأربعة جبال رئيسة هي:

جَبل (أبي) قُبيس إلى الشَّرق.

جَبل جِياد إلى الجنوب.

---

(١) هذا غير دقيق وإنما كانت الملاحظة التي أبديت على استعمال السبحة ضمن العقائد بعد كل صلاة ورئي أن ذلك بدعة، ولم يمنع بيع السبحة.

(٢) يصنِّف الجغرافيون طبيعة مكَّة الجغرافية على أنها تتألَّف في مُعظمها من صخور القاعدة الأركيّة القديمة الناريّة والمتحولة، تمتدّ هذه وسط مجموعة معقَّدة من الأودية والشِّعاب الغرينية التي تُحيط بها تلال جرانيتيّة جرداء شديدة الانحدار، انظر: عبدالله بن صالح الرقيبة: «الأماكن المقدسة والحج»، ضمن: **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي**، م٣ ق١، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

جَبل عُمر إلى الغرب.

جَبل هندي إلى الشَّمال[١].

هذه الجبال قليلة الارتفاع، وقد أخذتُ معي قِطعًا من أنواع الصُّخور التي تُكوِّن هذه الجبال، ومن المحتمل أنَّ البلاد مليئة بالمعادن، ومع ذلك فهذه الكنُوز سوف تبقى مخفيَّةً ما دام الجهل سَائدًا بين النَّاس، ويُستفاد فقط من نوع من أنواع الكبريت التي هي في طريقها إلى الاكتشاف[٢].

مكَّة مدينة مَفتوحة بلا أسوار، ويوجد على جبل جِياد قلعة[٣]، ونظرًا لإستراتيجيَّة الموقع فالنَّاس تَنظر إليه وكأنَّه جبل طارق ثانٍ، ولكن مع ذلك فهو ليس أكثر من مجموعة أبراج وأسوار مُتلاصقة ومشوَّهة، وأظنُّ أنَّها بُنيت مجزَّأة وفي أزمنة متفرِّقة بلا نظام وبدون مُخطَّط مُوحد، وهي الحصن الرَّئيس للشَّريف، وعنده قلعتان أُخريان أقدم منها، بُنيتا على شكل مُتوازي الأضلاع، مع وضع برجٍ في كل زاوية، و تستند تلك القِلاع على جبلين، واحد في الشَّمال والآخر في الجنوب.

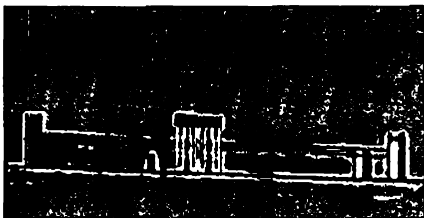
ومعسكرُ الجنود المغاربة والزُّنوج التّابعين للشَّريف يقع عند مَخرج

---

(١) هو اسم لمعظم جبل قعيقعان وله شهرة بهذا الاسم، ولا يُعرف الاسم القديم عند أهل مكَّة، انظر: عبد الله بن خميس: **معجم جبال الجزيرة**، ج ٥، ص ٢٢١. ط١، الرياض١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. أما الجبال الثلاثة الأولى فانظر: البلادي: **معالم مكَّة**، ص ١١، ١٤، ١٩٤.

(٢) لمزيد من الاطلاع راجع: عبدالله ناصر الوليعي: «البنية الجيولوجية والتضاريس»، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي**، م٣ ق١، ص ٤٣٦.

(٣) أمدّنا إبراهيم رفعت باشا بمعلومات في غاية الأهميّة حول هذه القلعة، وفيها يقول: «قلعة جياد التي أنشأها في سنة ١١٩٦هـ الشَّريف سرور بن مساعد أمير مكَّة بعد أن اشترى ما حولها من البيوت وأنفق في عمارتها مالًا كثيرًا». كما ذكر قلعتين أُخريين بناهُما الشَّريف غالب، أولاهما قلعة الهندي والأخرى قلعة لَعلع التي أنشأها أيام مُحاربة السعوديين ـ حسب قوله ـ وغالب نفسه هو الذي أقام الأبراج بأطراف مكَّة انظر: **مرآة الحرمين**، ١/ ١٨٣.



المدينة من جهة طريق عَرفات، وتوجد كذلك أبراج لحراستها، لكن موقعها في عُمق الوادي وأسفل الجبل يجعل من عمليَّة الدِّفاع أمرًا مُستحيلًا.

وممرَّات الوادي تظلُّ مَحروسة من قبل عدد من الأبراج المدوَّرة المنعزلة التي لا تتَّسع إلا لخفير واحد.

يمتلكُ الشَّريف قصرًا قُرب الحرَم، أسفل القلعة الكبيرة في جبل جِياد، وقد هدَمه السعوديون، ويَسكن الشَّريف الآن في مبنىً كبير، أو يحسنُ القَول في مجمَّع سَكني مكوَّن من ثلاثة منازل مُلاصقة للجبل، ومقابلَ هذا السَّكن أُقيمت مجموعة من أربعة مَدافع ميدانيَّة صغيرة من النُّحاس مع عرباتها.

كما يَملك الشَّريف كذلك منزلًا عاش فيه قبل توليه الحكم، اختيرت ألوانه على أكمل وجه، ويُجاور مُعسكر الجنود المغاربة والزُّنوج مُقابل الموضع الذي يُسمَّى «أبو طالب»، وله أيضًا بيت رِيفيٌّ لا يبعد كثيرًا عن المعسكر المذكور، فيه بِئرٌ وحديقة مزروعة بالنَّخيل(١). كما يَملك بيتًا في

(١) لعلّه هو الذي حدّده بوركهارت في طرف الجانب الشّرقي لنهاية المعابدة، حيث يُوجد بستان للشّريف غالب فيه قصر منيف تعوّد أن يقضي به ساعات القيلولة، وهو محاط بأسوار وأبراج عالية، ويشكّل نقطة حصينة متقدّمة لمكّة، ويضمّ هذا البستان نخيلًا وأشجار سدر وقليلًا من أشجار الفاكهة. انظر: **رحلات**، ص١٢٣.

مِنى وآخر في عَرفات وثالثًا في جدَّة حيث يذهب إلى هناك باستمرار، وكان لديه أيضًا قَصر في الطَّائف، ولكنه هُدم. كلُّ هذه البيوت هي على شكل قِلاع مُحاطة بالأسوار والأبراج(١).

السُّلطان الحالي شَريف مكَّة اسمه الشَّريف غَالِب، وهو ابن الشَّريف مُساعد(٢) سابقه في الحكم، ومُنذ سنوات استطاعت عائلته السَّيطرة على البلد الحرام والحجاز عامَّة، وقد جَرت العادة أنّه إذا مات السُّلطان الشَّريف فإنَّ الصُّعود إلى العرش يُحتكم فيه إلى السِّلاح كما هو الحال في المغرب، حتى يَفرض المنتصر سَيطرته على البلاد والعباد، وهذا في حال عدم الاتّفاق على وليٍّ للعهد.

الشَّريف غَالب رجل ذكي داهية وسياسيٌّ شُجاع، لكن تنقصه الحنكة والإدراك، وينقادُ إلى رغباته فيتحوَّل إلى أنانيٍّ يسعى لإرضائها؛ فليس هناك من مُضايقة إلا واستعملها ضدَّ النَّاس وضدَّ الأجانب أو الحجَّاج، وهو لا يعفو عن أصدقائه، ولا حتَّى عن أخلص النَّاس إليه عندما يَظنُّ بأنّه يستطيع أن ينتزع منهم شيئًا ما. وخلال إقامتي القصيرة في كَنف دولته

---

(١) أحد هذه البيوت كان بالمعابدة حسب إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين**، ١/ ١٨٢. وآخر مُنعزل ذو حجم جيّد وبناء قويّ شمال شِعب عامر حسب بوركهارت: **رحلات**، ص١٢٢. وبعده بقليل وإلى الجنوب من حيّ المعابدة ـ حسب المؤلف نفسه ـ كان هناك قصر ضخم للشَّريف غالب محاط بأسوار عالية وعلى جانبيه أبراج، ويشتمل على باحة كبيرة، وخلال حروبه مع السعوديين كان غالبًا ما يقيم في هذا القصر، ومنه تنطلق سراياه الدفاعية. (ص ١٢٣). ولعلّه المسمَّى بالبيَّاضيَّة حسبما ورد في: أحمد السباعي: **تاريخ مكَّة**، مكة المكرمة ١٣٩٩هـ، ص٥٠٤.

(٢) هو: مُساعد بن سعيد بن سعد، وقد تولّى إمارة مكّة سنة ١١٦٥هـ/ ١٧٥٣م وبعد سبع سنوات قضاها في الحكم عُزِل إلا أنه عاد مرة أخرى إلى الحكم حتى وفاته سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م. (انظر: حقي: **أشراف مكّة**، ص١٨٠ ـ ١٨٦)؛ مسعود آل زيد: **تاريخ مكّة المكرمة**، ص ١٤٤.

كنتُ شاهدًا على هذه الإساءة التي كلَّفت أحد تُجَّار جدَّة أكثر من مئة ألف فرانك، وهو واحد من أخلص المقرَّبين إليه[١].

والضَّرائب المفرُوضة على التِّجارة والنَّاس متعسِّفة للغاية، فهي تتصاعد يوميًّا، والسُّلطان يخترع طُرقًا جديدةً لرفعها، وبكلمةٍ واحدةٍ: فإنَّ الشَّعب مَخنوق تمامًا، ففي كلِّ الديَار المقدَّسة لم أجد من يتكلَّم عنه بكلمة حسنة، ما عدا ذلك التَّاجر الذي تحدثتُ عنه آنفًا[٢].

وفضْلًا عن تلك الجِبايات التَّعسُّفيَّة التي تُعرقل التِّجارة وتُتعب التَّاجر وتضع قيدًا على الصَّفقات التِّجاريَّة، فهو نفسه يَستأثر بجزءٍ مهمٍّ من هذه التِّجارة بواسطة مَراكبه، ولا أحد يستطيع أن يشحن أو يفرِّغ حُمولة سَفينة شَخص ما إلا بعد تحميل أو إنزال حُمولة مراكب الشَّريف التي هي من المتانة والجودة وكبر الحجم بما يُؤهِّلها لاستيعاب أكبر قسم من تجارة

(١) سبق الحديث عن شخصيّة هذا الرّجل وعهده بالدراسة.

(٢) قد نجد دافعًا لهذا الهجوم الكاسح على الشَّريف غالب في الفقرة الآتية التي تنطوي على علاقته الأكيدة بالإنجليز وتعاونه معهم، مما يُدخله ضمنًا طرفًا في الصّراع والتنافس الفرنسي الإنجليزي على المنطقة. وهو ما أوضحناه في فصل الدراسة بمقدمة هذه الرحلة. لكن في المقابل نجد آخرين أكّدوا ما سجّله باديا هنا، فهذا الجبرتي بعد أن ذكر بعض الأشياء التي عدّها عليه، قال: «*وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم التي أحدثوها على المبيعات والمشتروات... ومصادرات الناس في أموالهم ودورهم، فيكون الشّخص من سائر النّاس جالسًا بداره فما يشعر على حين غفلة منه إلا والأعوان يأمرونه بإخلاء الدّار وخروجه منها، ويقولون إنّ سيّد الجميع محتاج إليها، فإمّا أن يخرج منها جملة وتصير من أملاك الشّريف، وإمّا أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقلّ أو أكثر*». **تاريخ عجائب الآثار**، ١/١١٦. وفي المقابل نجد بوركهارت بعد أن عرّض به باضطهاده لتجّار جدّة وفرض الضّرائب على بضائعهم ومنافسته القويّة لهم، قال: «*لكن لم يُعرف أبدًا أنه ابتزّ أموالهم، فإذا اقترض مالًا أعاده في وقته المحدد*». ثمّ يقول: «*ويجب ألا يُفهم سلوكه هذا على أنه نابع من حبّه للعدل فقد كان حكمه يتّصف بأسوأ أنواع الاستبداد، لكنّه كان يعلم جيّدًا أنّ التّجار إذا شعروا بعدم الاطمئنان في جدّة فلن يأتوا إليها، ومن ثمّ تتحول جدّة إلى مدينة تافهة*» **رحلات**. ص ٣١.

البحر الأحمر على حساب التُّجار الذين تقلَّص نشاطهم، ووصلوا إلى أحطِّ درجات الاستعباد(١).

يُنظر للإنكليز بوصفهم أصدقاء مُخلصين للشَّريف بسبب الدَّعم المباشر الذي يحصل عليه من خلال التِّجارة مع الهند، ومع ذلك فهو لن يوفِّرهم عندما تحين له الفرصة لأداء دورٍ ما ضدَّهم. ففي العام الفائت وصلت إلى جدَّة شحنة إنجليزيَّة ضخمة من الأرز، وعندما نزل القُبطان إلى الأرض وجد السِّعر منخفضًا جدًّا فقرَّر الذَّهاب إلى مكان آخر، لكنَّ الشَّريف أراد إلزامه بِدفع كلِّ ما عليه من ضَرائب، كما لو أنَّه قد أفرغ الحمولة وباعها في ذلك المكان، وبعد مُحادثات حادَّة جدًّا، وجد القُبطان نفسه مُضطَرًّا للخروج من الميناء بسرعة كي يهرب من جَشع الشَّريف.

وفي العام نفسه ارتطم مركب إنجليزي آخر بصخرة، وكان بقيادة قُبطان إنجليزي أيضًا ويتبع م. بطرسي M Petrucci، نائب قُنصل بريطانيا في مدينة رَشِيد(٢) وهذا الشَّخص كان صديقًا خاصًّا للشَّريف، وعند

---

(١) كان يملك سفينتين حمولة كلٍّ منهما أربع مئة طن لتجارته مع الهند، كما كان يملك عددًا من المراكب التي يشغِّلها في تجارته مع اليمن وخاصَّة في تجارة البنّ، كما كان تاجرًا بارعًا في كلِّ فرع من فروع تجارة البحر الأحمر. انظر: بوركهارت: **رحلات**، ص ٣١.

(٢) مدينة رشيد ميناء مصريّ على مصبّ نهر النِّيل الغربي عند التقائه بالمتوسط، كان لها دور فاعل في الأحداث التي شهدتها مصر في هذه المدة، ومرّ بها هذا الرّحالة أثناء وجوده في مصر وكان له فيها توقّف ووصف. انظر: **الرحلة**، الجزء الخاص بمصر. وقد استعرضنا هذه **الرحلة** في بحث تقدّمنا به إلى ندوة: «**العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة**» التي أقامها اتحاد المؤرِّخين العرب في مؤتمره الذي عُقد بالقاهرة في تاريخ ١١ ـ ١٢/ ١٠/ ١٤٢٥هـ الموافق ٢٤ ـ ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٤م وذلك بعنوان: «مصر في مذكّرات الرحّالة الإسباني دومنجو باديا أو علي باي العبّاسي في بداية القرن

وُصولي قدَّمتُ له رسالة من م. بطرسي نفسه. وكان العرب قد هجموا على المركب واستولوا على محتوياته، بينما استولى حاكم يَنبع على السَّفينة وأدواتها، وقد أطلعني القُبطان الانجليزي على ذلك عندما كنتُ على أرض الشَّاطئ حين مروري بيَنبع، هذا القُبطان المِسكين صَرخ وتوسَّل، لكي يُعطوه أيّ شيء من المركب، لكنّهم لم يتجاوبوا حتى لِسماع شكواه، فطلب من الحاكم الصُعود لظهر السَّفينة لأخذ الأوراق التي يمكن الوصول إليها، لكنَّه مع ذلك لم يتمكَّن، وفي النِّهاية طلب أن يحصل على وثيقة كي يُثبت أمام صاحب المركب ما حدَث له من كارثة، ولكنَّهم لم يستجيبوا لطلبه فقرَّر الذَّهاب إلى جدَّة كي يُثبت السَّلبية التي قابلوه بها، عندما طلب النَّجدة والعون قبل وقوع كارثة المركب، ولم يتلقَّ إجابة أكثر من ضحكات الاستهزاء والسُّخرية والشَّتائم. وفي هذه الوضع اليائس له ولمرافقيه الثَّلاثة أو الأربعة من البحَّارة الذين كانوا معه جاء إليَّ طالبًا شهادةً بما حصل بخطِّ يَديَّ، فبادرتُ لقضاء حاجته بعد أن حصلتُ على اعتراف من البحَّارة، الأمر الذي كان نوعًا ما عزاءً لهذا القُبطان الإنجليزي المسكين.

وعند وفاة قُبطان آخر بعد مرضٍ ألمَّ به في جدَّة حيث كانت سفينته راسية، وكان يقود سفينة كبيرة من جُزر المالديف[١] Maldivias محمَّلة بأشياء ثمينة، سيطر الشَّريف على هذه السَّفينة وعلى كل محتوياتها بحجَّة

= التاسع عشر الميلادي» ص ٢١، ٢٨، ٢٩. ولمزيد من المعرفة، انظر: الحسن بن محمد الوزان: **وصف إفريقيا**، ترجمة: عبدالرحمن حميدة، نشر: جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٩هـ ص٥٧٤ ـ ٥٧٥.

(١) تتكوّن هذه من مجموعة من الجزر التي تشكلت منها جمهورية إسلاميّة بعد أن استقلت من الاستعمار البريطاني، وتقع في المحيط الهندي إلى الجنوب الغربي من الهند وسيرلانكا. للمزيد راجع: محمد السيد غلاب وآخرين: **البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر**، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سُعُود الإسلامية الرياض ١٩٧٩م، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٨.

أنَّ قُبطانها قد مات في أرضه، ولهذا يجب أن يعود إليه كلُّ ما ترك؛ وبعد مُضيٍّ بعض الوقت أرسل الشَّريف تلك السَّفينة إلى الهند مع سفينة أخرى يملكها، وبصحبة قوافل تُجّار جدَّة، وكانت السَّفينتان محمّلتين بأشياء ذات قيمة، لكنَّ الفرنسيِّين أسَروا السَّفينتين، ولم يتركوا إلا واحدة بعد أن أفرغوها تمامًا من حُمولتها.

أخبارُ الأسر هذه أثَّرت كثيرًا في نفسيَّة الشَّريف، فتحدَّث معي حال وُصولي إلى مكَّة بشأنها[1]، وقبله حدّثني ـ أيضًا ـ عنها تُجّار جدَّة حالما نزلتُ إلى الأرض، لأنّهم لا يجهلون علاقاتي بأوربًا. وقد كان الشَّريف حريصًا جدًّا على أن أُخبر أصدقائي، لكنِّي أجبتُه بأنَّ المسألة تَتطلَّب أن يكتبَ هو شخصياً للحاكم الفرنسي؛ وفي النِّهاية وبعد مُحادثات طويلة أجبرني على أن أكتب أنا الرِّسالة، وترجَّاني أن أُرسلها عن طريق آمنٍ إلى أحد مُراسليَّ كي يمرِّرها إلى يدِ الإمبراطور نابليون.

مثل هذه المراسلات كانت تَجري في نفس الوقت الذي كان فيه السعوديون يُهدِّدون بالاستيلاء على مكَّة نِهائيًّا، فخَاف الشَّريف من مَعرفتهم أنَّه كان يُقيم علاقات مع النَّصارى فتُعزى هذه الخطوة لغرض سياسيّ فيكلِّفه ذلك غاليًا، ولهذا السَّبب ألحَّ كثيرًا في أن أكتب أنا مُباشرة، لأنّه ـ كما قال ـ لديه ثقة كاملة بي، وأنِّي أُدرك جيّدًا ما يُريد قوله، وأبدى شُكوكه بأنَّ مترجمي الإمبراطور لا يستطيعون نقل مُحتوى

---

(١) استعرض أمر هذه المقابلة في الفصل الثاني من هذه **الرحلة**. وهذه الحالات لم تقتصر على عهد الشريف غالب، فقد ذكر بوركهارت حالة مماثلة وقعت بعد دخول الحجاز تحت سيطرة محمد علي باشا المباشرة، فقد أجبر شريف مكَّة آنذاك قبطان إحدى السفن الإنجليزية المتَّجهة إلى السويس على بيع حمولتها بثمن بخس وألزمه بدفع الضرائب على الرغم من توقيع اتفاقية تجارية معهم تنصُّ على احترام هذه البواخر وحمايتها. انظر: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٣٠.

الرِّسالة بشكل أمين. وقد ناقشتُ الأسباب التي قدَّمها، أو بالحقيقة حُججه التي أبداها، وعزمتُ عليه أن يكتب هو شخصيًّا.

وقد وجَّه في الوقت نفسه رسالتين إلى حاكم الجزيرة الفرنسيَّة التي تُسمى بالعربيَّة جزيرة مُوريشيوس[١]، مُتوسِّلًا إليه أن يُرسل السَّفينة وحمولة السَّفينتين، ولكن عدم الجواب من قبل الحاكم يعني ماذا فَعل بالرَّسائل.

ومع كلِّ هذه الأخطاء التي يَقترفها الشَّريف وسُلطته المتسمة بنوعٍ من الصَّلف، والتي يقوم السعوديون بتقليصها يومًا بعد آخر، فإنَّ تأثيرَه لا يزال قائمًا في مَوانئ الجزيرة، وفي القُصير من خلال علاقاته مع المماليك ومع سُكَّان الصَّعيد أو أعالي مِصر، وأيضًا في سَواكن ومَصوع التي يحكمها على سواحل الحبشة باسم السُّلطان العثماني في تركيا[٢]، وقد تفاجأتُ أيضًا بأنَّ هذا الأمير ليس لديه أدنى قَلق في شأن بلاده.

كانت الحالةُ السِّياسيَّة للبلاد فَريدة من نوعها عند وصولي، فالشَّريف هو الحاكم الفعلي والمباشر، وعلى الرَّغم من الاعتراف بمملكته إلا أنَّه يُعد مُمثِّلًا ساميًا فيها لسلطان القُسطنطينيَّة، وكان يدعو له في خُطبة الجمعة، في الوقت الذي كان فيه (السُّلطان) سُعُود يُسيطر على البلاد مع

---

(١) تقع هذه الجزيرة في المحيط الهندي إلى الشَّرق من جزيرة مُدغشقر، وهي جزيرة بركانيَّة، وصلها المسلمون عن طريق التجارة، وأصبحت تضم نسبة تقترب من الثُّلث من المسلمين، تناوب عليها الاستعمار الأوربي. للمزيد انظر: محمد السيد غلاب وآخرين: **البلدان الإسلامية والأقلِّيات المسلمة في العالم المعاصر**، ص ٦٧٤ ـ ٦٧٦.

(٢) كانت الحجاز تتبع لمصر أيَّام المماليك، لكن حينما ظهر العثمانيّون، تركوا للأشراف سلطة ذاتية وتبعيّة مباشرة لهم في الآستانة، بل زادوا على ذلك بأن جعلوا من جدَّة إيالة ألحقوا بها بعض الموانئ الواقعة على ساحل البحر الأحمر الأفريقي الخاضعة لهم كسواكن ومصوع، وظلَّت الأمور على هذه الحال حتى ظهر نجم محمد علي فيما بعد فضُمَّت إليه سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م. انظر: شوقي عطا الله الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر**، ص ٤٠ ـ ٤٢.

جماعته، وقد مُنع ذكر سُلطان القُسطنطينيَّة في خطبة الجمعة التي سبقت عيد الأضحى[(١)].

وكان الباب العالي قد أرسل أحدَ باشواته إلى جدَّة، لكنَّ هذا الباشا أمضى الوقت في مكَّة يأكلُ على نفقة الشَّريف دون أن يُمارس أيَّ عمل رسميّ، حيث كان الشَّريف يتجاهل وجوده تقريبًا.

كان سُلطان (القُسطنطينيَّة) يُرسل كلَّ عام إلى مكَّة وجدَّة والمدينة قُضاة كي يقوموا بمهمَّة القضاء، لكنَّهم لم يستطيعوا التَّكيف أبدًا مع ما يتعلَّق بموضوع الإدارة، لأنَّ هذه كانت تحت سُلطة الشَّريف بالكامل، الذي كان يَحكم وكأنه سُلطان مُستقل بواسطة وُلاته الذين يَحملون لَقب «وزير» مع أنَّهم كانوا من عبيد الشَّريف الزُّنوج.

السُّلطان سُعُود فرض طاعته هناك، ولكنَّه لم يكن قد أَحكم سيطرته تمامًا، ولم يفرض الإتاوات، ويبدو لي مع ذلك أنَّه ما زال يحترم سُلطة الشَّريف.

وبينما كان الشَّريف يُزاول مهامَّه بكونه سُلطانًا مُستقلًا، كما لو كان المتحكِّم المطلق بحياة النَّاس وأموالهم، وحسب مشيئته كان يُملي السَّلام أو الحرْب، ولديه حوالي ثلاثة آلاف رجل من الجيش بين أتراك وزُنوج ومَغاربة. وهذا كلُّه لم يكن كافيًا للوقوف في وجه طُموحات السعوديين، فكان يُجبَر على احترام أوامرهم، وتنفيذ القوانين التي يفرضونها تاركًا العمل لهم بحريَّة، ومع ذلك فقد كان حريصًا على أن تكون قِلاعه مُغلقةً، وفي حالة دفاعيَّة كي يُحافظ على قوَّة كبيرة باستمرار.

مثلُ هذا الصِّراع على السُّلطة نتجَ عنه أنَّ مدينة مكَّة لا نَعرف من هو صاحبها الحقيقي، فالسُّلطة المتنازع عليها من قبل العديد من المتأمِّرين

---

(١) وهو ما يوافق الخامس من ذي الحجة سنة ١٢٢١هـ/ ١٣ من فبراير ١٨٠٧م.

ستُلحق الضَّرر بشؤون العدل وحقوق الأفراد وحريَّتهم الشَّخصية، ومن ثم سيؤدِّي ذلك ويخُطى حثيثة إلى انهيار سعادة الرعيَّة.

ليس للشَّريف عَلاقات سِياسيَّة مع أيٍّ من الحُكَّام الآخرين ما عدا علاقته بتُركيا، فلا يوجد في البلاد قُنصل ولا مُفوَّض لدولة أجنبيَّة، والإنجليز هم وحدهم الذين لهم حُضور بين وقت وآخر في ميناء جدَّة، لأنَّ لهم حظوة لدى النَّاس، فهم يُتاجرون معهم في الهند. وقد قُلنا: إنَّ الشَّريف هو الممثِّل الرَّئيس لهذه التِّجارة، فسُفنه تُبحر من جدَّة، وتصل إلى مَخا، ومن هناك تُواصل إلى مَسقط فسَرات[1].

كانت هذه هي الحالة السَّائدة في البلاد عندما أعْلَنَ السُّلطان سُعُود في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٨٠٧م (١٨من ذي الحجَّة ١٢٢١هـ) في كلِّ السَّاحات والأمكنة العامَّة بأنَّه يجبُ على الجنود الأتراك والمغاربة التَّابعين للشَّريف الخروج من مكَّة في عَصر اليوم التَّالي، والرَّحيل إلى خارج الجزيرة العربيَّة، ويَشمل هذا القرار الباشا التُّركي الموجود في جدَّة، وكلّ القُضاة القُدماء والجدد في مكَّة والمدينَة والأماكن الأخرى؛ وقد نُزع سلاح الشَّريف، وبهذا انهارت سُلطته، وانتقلت السُّلطة القَضائيَّة إلى يَدِ السعوديين[2].

لقد قالوا بأنَّ السُّلطان سُعُود سيقتفي أثر هذا الحرس والحجَّاج حتى الحدُود السُّوريَّة، ثمَّ يعود في الحال ليُوطِّد استقراره في مكَّة، أو على الأقلّ يُنصِّب أحد أبنائه على حُكومة هذه البلاد، وفي هذه الحالة تُصبح المملكة العربيَّة الجديدة للسعوديين قد ارتفع شأنها، وأصبحت مُماثلةً للخلافة القديمة.

---

(١) ميناء تجاري هندي مشهور.

(٢) لقد أكّد هذا الكلام ابن بشر في حوادث سنة ١٢٢١هـ وإن كان ذلك بإجمال دون تفصيل. انظر: **عنوان المجد**، ١/ ٢٩٢.

وفي ليلةِ السَّادس والعشرين وحتى السَّابع والعشرين من شهر فبراير (١٨ ـ ١ من ٩ ذي الحجَّة ١٢٢١هـ) انسحبَ إلى جدَّة كلُّ الجنود الأتراك، وقَافلة صغيرة من طرابلس كانت في مكَّة، أخذت طريقها في مُنتصف النَّهار، ورحلت دُون أخذ الاحتياطات اللاَّزمة لسَلامتها.

ولا يَزالُ البَاشا والقُضاة والحجَّاج الأتراك لا يَعرفون حتى الآن مع أيِّ طرفٍ يقفون في هذه الفوضى إذْ إنَّ الجميع يتصرَّفون بسُوء نيَّة.

وفي اللَّيلة التَّالية التحقَ في خِدمة (السُّلطان) سُعُود مئتان وخمسون من جُنود الشَّريف الزُّنوج؛ أمَّا الباقون فقد انسحبوا في يوم الثَّامن والعشرين من الشَّهر نفسه (٢٠ من ذي الحجَّة)، وتوجَّه السُّلطان سُعُود إلى المدينَة مع قُوَّاته بعد أن نَصَّب قُضاته في مكَّة تاركًا ـ حسبما قالوا ـ خمسة وعشرين ألف فرانك صَدقةً للذين يعملون في الحرَم ولفقراء المدينة، وهكذا انتهت هذه الثَّورة السِّياسيَّة دُون إراقة الدِّماء.

البَلدُ الحرَام أو أرضُ الإسلام المقدَّسة التي عَاصمتها مكَّة تَمتدُّ فيما بين البحر الأحمر وخطٌّ غير مُنتظم يتَّجه من رَابغ شَمال جدَّة بحوالي واحد وعشرين فرسخًا، يأخذ شكلًا مُنحنيًا من الشَّمال الشَّرقي وحتى الجنوب الشَّرقي مَارًا بيَلمْلم[1] بمسافة مَرحلتين إلى الشَّمال الشَّرقي. وتبعد مكَّة من هناك مرورًا بقَرن[2]، واحدًا وعشرين فرسخًا تقريبًا إلى الشَّرق منها، وثمانية فراسخ إلى الشَّرق من الطَّائف حيث أصبح خارج حدود الحرم، ثمّ يلتوي باتّجاه الشَّرق فالجنوب الغربي مرورًا بذات عرق[3] ومُتوقِّفًا في المحرَم على السَّاحل الذي يقع فيه الميناء المعروف

---

(١) هو ميقات أهل اليمن، يقع إلى جنوب مكة؛ على بعد ٥٤كم منها.

(٢) قرن المنازل: هو ميقات القادمين من نجد ومن خلفها ويعرف الآن بالسَّيل الكبير. وبينه وبين مكَّة ما يقرب من ٨٠ كم.

(٣) هو ميقات القادمين من الشرق، ويبعد عن مكَّة ٩٤ كم. وللمزيد عن هذه المواقيت انظر: محمد البيومي الدمنهوري: **منهج السالك**، ص ١٢٢ ـ ١٢٩.

بمَرسى إبراهيم على بُعد اثنين وثلاثين فرسخًا أكثر أو أقلّ منها إلى الجنوب الشّرقي من جدَّة، ولديه إذن سبعة وخمسون فرسخًا على طول الشَّمال الغربي وحتى الجنوب الشَّرقي، وعرض ثمانية وعشرين من الشَّمال الشَّرقي وحتى الجنوب الغربي.

هذه المنطقة التي تدخل ضمن نِطاق شبه الجزيرة العربيَّة تُعرف باسم «الحِجَاز» أو «أرض الحجّ»، وحدُودها ليست معروفة بالدِّقة الكافية لكي أصفها.

ومع أنَّ المدينَة والطَّائف تُشكِّلان جزءًا من الحِجَاز لكنَّهما لا تَدخلان ضمن نطاق الحرَم.

وهذه البلاد لا يتوافر فيها أيُّ مياه جارية ما عدَا بعض العُيون غير المهمَّة، ومياه بعض الآبار المالحة والعميقة جدًّا. فأراضي الدِّيار المقدَّسة هي صَحراء حقيقيَّة، وفي مكَّة وجدَّة فقط أوجدوا أحواضًا لحفظ مياه الأمطار، ولهذا فمن المستغرَب جدًّا وجود مزارع في طول هذه البلاد وعرضها، والأراضي البُور إمَّا أن تكون رَمليَّة أو ذات تُربة سيِّئة، ولهذا فهي مهجورة تمامًا، وبما أنَّهم لا يَزرعون الحبوب في كلِّ الدِّيار المقدَّسة فهم يقْتاتون الحبوب أو الطَّحين الذي يَصلهم من أعالي مِصر، ومن اليمن والطَّائف ـ حيث تُعطي الأرض القليل من المحصول ـ وكذلك من الهند.

كلُّ البلدِ الحرام مُغطًّى بالجبال التي أظنُّ أنّها مكوَّنة من الصُّخور الحمراء المائلة إلى السَّواد، ولكن لا تُوجد سلسلة جبال عالية، فالأعلى منها تُشاهد في المدينَة والطَّائف اللَّتين تقعان خارج نطاق الحرم، وفيهما أراضٍ غنيّة بالمياه ومغطّاة بالنّبات والمزارع.

والمدُن الوحيدة المعتبرة في البلد الحرام هي مكَّة وجدَّة، وما عداها من مناطق السُّكنى فهي مجرّد أحياء فقيرة من الأكواخ والخيام، مُقامة

بشكل عام قُرب الآبار أو العيون، باستثناء بعض تلك الأماكن التي ورد ذكرها في رَسائلي الجغرافيّة(١).

عندما يصل الحجّاج من كلّ البُلدان إلى تُخوم البلد الحرام، عليهم أن يتطهَّروا بتلك المحارم وينووا الدخول بمناسك «الإحرام»، وارتداء المَلابس الخاصة به.

وعلى الرّغم من أنّه أصبح من الطَّبيعي أنَّ السُّلطان سُعُود هو رَئيس البلاد، ومع ذلك فهو لا يَستلم الضَّرائب إلا من مكّة وجدَّة، أمّا الباقون فيدفعون العُشر إليه؛ وقد سمعتُهم يقولون بأنَّ سُكَّان المدينة لا يدفعون أيّة ضَرائب.

كما فَرض السُّلطان أيضًا الضَّرائب على يَنبع البحر، وهي مدينة تقع ضمن إطار سُلطته على الرَّغم من أنّها خارج نطاق الحرم، ويقبض كذلك من أهل جزيرة سَواكن على السَّاحل الأفريقي، ومن مَصوع على السَّاحل الحبشي، وبعض الجزر الأُخرى باسم سُلطان القُسطنطينيَّة(٢).

إنَّ جِبال الحجَاز العالية تُشكِّل خَطًّا مُنحنيًا أو زاوية مع ساحل الجزيرة العربيَّة حول البحر الأحمر، وحسب ما استطعتُ مُلاحظته فإنَّها

(١) لا نعرف هل يقصد بهذه الرَّسائل مُذكراته هذه التي نحن بصدد الحديث عنها، أم أن هناك أخرى كانت تُرسل على شكل تقارير أو نحوها، مثلما كان يفعل أيّام وجوده في المغرب؟ فالمصادر احتفظت لنا بتقاريره هناك، لكنها لم تشر إلى شيء يتعلّق بالجزيرة العربيَّة حسب ما توافر لي منها.

(٢) هكذا يقول النّص، لكن المعنى لا يستقيم لأنّ السُّلطان سُعُود لا يمكن أن يكون ممثّلًا للخلافة بالقسطنطينية، وهو الذي طرد مُمثِّليها في الحجاز، كما ورد بنفس النّص قبل قليل. لكن يبدو أنّ المؤلف ما زال ذهنه معلّقًا بالشَّريف وما يتبعه من موانئ على ساحل البحر الأحمر من جهة أفريقية. انظر ما كتبناه حول ذلك في ملحوظة سابقة؛ ولعلّه استنتج أنّ هذه آلت إلى الإمام سُعُود بصفتها تركة استولى على قلبها في الحجاز ومن ثم أذيالها وتوابعها.

تبدأ من الطَّائف التي تبعد ثلاثين فرسخًا عن السَّاحل، وتُلامس حُدود البلد الحرام، ثم تمرُّ في (محار) بالقرب من أرخبيل جُزر الحمار، أمَّا جزيرة جَبل حزن فقد بدت لي جزءًا أو استمرارًا لتلك الجبال.

وبينها تقع كلٌّ من الطَّائف والمدينَة والجديْدة والحمار وينبع النخل[1].

وبمحاذاة الجبال المذكورة، وقياسًا عليها يُفترض أنَّها كلّها من الجرانيت. وتظهر منظومة أخرى من الجبال ذات الصُّخور الحمراء المائلة إلى السَّواد والحجر السُّماقي وحجر بلون اليَشت، وبين هذه الجبال تقع مكَّة. وهي تخلو من الماء تقريبًا، ولكن أظنُّ أنها غنيّة بالمعادن، وباقي البلاد أراضٍ مُستوية لكنَّها رمليَّة أو جيريَّة انحسر عنها البحر في الحقبة الأخيرة، وتتَّسع يوميًّا بسبب عمليَّة انحسار البحر الأحمر عنها.

---

(١) سبق التعريف بجزر الحمار في ص. ١٣٣، وسيأتي التعريف بالجديدة في ص. ٣٢٥، وينبع النخل في ص. ٣٣٧.

الفَصْلُ الثّامِنُ

أَخْبار السعوديين - المبَادئ الدِّينيَّة لهؤلاء النَّاس - الحمَلات العَسكريَّة المميَّزة - الأسْلحة - العَاصمَة - التَّنظِيم - توقُّعات.

إنَّ مَسيرة السعوديين يُمكن أن تكون في يوم مَا ذات أهميَّة كُبرى من خلال نُفوذها الذي من الممكن أن تفرضه في عمليَّة التَّوازن مع الدُّول المحيطة، خاصَّة إذا ما خفَّفوا من تَشدُّد مَبادئهم، والتزموا نظامًا أكثر مُرونة، لكن لو أصرُّوا على التَّمسك بصرامة بما نَصَّ عليه المصْلح فسيكون من شبه المستحيل عليهم أن يحملوا تلك الأمم التي لديها بعض مَبادئ الانفتاح على قَبول دعوتهم، وأن يمتدَّ نُفوذهم لأبعد من حُدود صَحاريهم، وسيُصبحون عند ذلك بلا أيَّة أهميَّة لبقيَّة العَالم[١].

وسأسوقُ هنا تلك الأخبار التي حَصلتُ عليها حول هؤلاء المصْلحين كما روَوْها لي بأنفسهم، أو استقيتُها من بعض سُكَّان البلاد، مُضيفًا عليها فقط مَلحوظات دوَّنتُها حول الأمكنة حسب الأحداث التي كنتُ شَاهدًا عليها.

وُلد الشَّيخ محمَّد بن عبدالوَهَّاب[٢] في ضَواحي المدينة، ولم أتحقَّق

(١) يعبر المؤلف هنا عن رأيه تجاه الدعوة الإصلاحية من منظور غربي، وأثبتت الأحداث التي تلت انتشار الدعوة في أماكن كثيرة، واستمرار الدولة السعودية إلى يومنا هذا معتمدة على المبادئ الإسلامية.

(٢) يُعد باديا من القلائل من بين من كتبوا عن الشَّيخ، وصَاغ اسمه كاملًا، فبوركهارت يُسمِّيه عبدالوهاب ومثله نيبور أيضًا. انظر: **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين**، للرحالة جوهان لودفيج بوركهارت، ص٩.

من معرفة المكان الذي رأى فيه النُّور، ولا التَّاريخ الدَّقيق لولادته[1] التي أظنُّها كانت خلال سنة ١١٣٢ هـ/ ١٧٢٠م.

وقد درس في المدينَة، وعاش فيها سَنوات طويلة[2]؛ وكان يتمتَّع برُوح ليست عادية، أدرك مُبكِّرًا بأنَّ هُناك مُمارسات أُدخلت على الدِّين من قِبل العُلماء، وكذلك بعض المعتقدات الباطلة التي انحرفت به قليلًا أو كثيرًا عن يُسْره ونقائه، وما كان عليه النَّبيّ ﷺ، ولم تكن أكثر من إضافات مُتعسِّفة خارجة عن إطار نصِّ الوحي النَّقي بحاجة للإصلاح عاقدًا العزم على العودة بالدِّين إلى بداياته الأولى مُحاولًا تطهيره من المعتقدات الخاصَّة بالعُلماء، حاصرًا له بالنَّص القرآني[3].

---

(١) ولد الشَّيخ في مدينة العُيينة من نَجد سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م حسب أهمِّ المصادر التي أرَّخت لحياته. انظر على سبيل المثال: حسين بن غنام الأحسائي: **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وغزوات ذوي الإسلام**، ط. القاهرة ١٣٦٨هـ، ج١ ص٢؛ ابن بشر: **عنوان المجد**، ١/ ٣٣؛ مسعود الندوي: **محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه**، ترجمة وتعليق/ عبدالعليم البسنوي، ط. جامعة الإمام محمد بن سُعُود الإسلامية، الرياض ١٤١١هـ، ص٣٠؛ إسماعيل محمد الأنصاري: «حياة الشَّيخ محمد بن عبدالوهَّاب وآثاره العلمية»، ضمن «**بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب**» الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سُعُود الإسلامية بالرياض بتاريخ ٢١ ـ ٢٧/ ٤/ ١٤٠٠هـ الموافق ٨ ـ ١٤/ ٣/ ١٩٨٠م، ١/ ١٢٠. ويتَّضح الخطأ الذي وقع فيه الرَّحالة سواء في تاريخ مولده أو مكانه.

(٢) نعم كان للشَّيخ رحمه الله رحلة وإقامة وتحصيل في المدينة حيث تتلمذ على علمائها في بدايته الأولى؛ انظر: ابن بشر: **عنوان المجد**، ١/ ٣٥ ـ ٣٦. لكن المدّة ليست بالطويلة إذ حدَّدها سليمان بن سحمان في كتابه: **الضياء الشارق في ردِّ شبهات الماذق المارد**، بشهرين فقط، ص١٤.

(٣) لم يحصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب دعوته في النص القرآني فقط بل على القرآن والسنة وأقوال السلف. للتعرف والاطلاع انظر على سبيل المثال: **بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب** الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سُعُود الإسلامية بالرياض ٢١ ـ ٢٧/ ٤/ ١٤٠٠هـ الموافق ٨ ـ ١٤/ ٣/ ١٩٨٠ في مجلّدين؛ عبدالله صالح العثيمين: **الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره**.

كانت المدينَة ومكَّة على قدر كبير من الاهتمام بالتَّمسك بالطُّقوس القَديمة، وكذلك أيضًا الارتباط بالممَارسات والاهتمامات الشَّعبيَّة التي تُغذِّيها، فلم تكن هذه مُتوائمةً مع ما ما دعا إليهالمصْلح. ولذا فقد قرَّر الاتِّجاه نحو الشَّرق في سبيل مَدِّ خُطواته لنشر دعوته بين القبائل العربيَّة البدويَّة لأنّها لم تكن تختلف معه فيما يتعلَّق بالعبادات، كما أنّها كانت على قدرٍ كبير من الجهل، وهذا يَجعلها قليلة التَّمسك أو الدِّفاع عن طُقوسها الخاصَّة، ولكونها من جهة أُخرى غير مُهتمَّة بالانحياز لأيِّ جهة كانت فقد مَنحته تَسهيلات كبيرة كي يُواصل مَسيرته، وينشر مَبادئه دون عَوائق[١].

وبالفعل فقد حَصل (ابن) عبدالوهَّاب على نصير له تمثَّل ذلك في شَخصيَّة ابن سُعُود الأمير أو شيْخ العَرب الكبير المقيم في الدِّرعيَّة، وهي المدينة التي تَبعد سبع عشرة مَرحلة إلى الشَّرق من المدينة في الصَّحراء، ومنذ ذلك التاريخ «١٧٤٧م» بدأت حَركة إصلاح (ابن) عبدالوهَّاب[٢].

لقد قُلنا بأنَّ هذه الإصلاحات كانت مُلتزمة بشكل دقيق بالقرآن، وترك كلّ إضافات الشُّراح والأئمة وعُلماء الشَّريعة، ونتيجة لذلك ألغى المصْلح الفوارق بين المذاهب الأربعة المعتمدة المعروفة: الشَّافعيَّة والمالكيَّة

---

(١) يخلط المؤلف هنا بين رحلات الشيخ محمد بن عبدالوهاب لطلب العلم في المدينة وبين بداية دعوته التي كانت أولًا في العينية ثم في الدرعية. وما ذكره هنا عن اتجاه الشيخ إلى الشرق وإلى القبائل فهذا غير دقيق.

(٢) حول التقاء الشَّيخ بالأمير محمَّد بن سُعُود انظر: ابن بشر في **عنوان المجد**، ١/ ٤١ ـ ٤٢. لكن التَّاريخ الذي حدّده الكاتب ليس بالدِّقة المطلوبة، فالباحثون في تاريخ الدَّعوة والدَّولة السُّعوديَّة يحدِّدون لها سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م. انظر: عبدالرحمن بن علي العريني: **الإمام محمد بن سُعُود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى**، مطبوعات المتوية، الرياض ١٤١٩هـ، ص٨٢.

والحنبليَّة والحنفيَّة[1]، ولكن مع ذلك فقد شاهدتُ من بين أتباع هذه الدعوة من يتَّبع أحد هذه المذاهب الخاصَّة لأنَّهم لا يعتقدون بإلغائها. وكل مُسلم صحيحُ الإيمان يعتقد بأنَّ رُوح النَّبي ﷺ وجسده قد اجتمعا بعد وفاته ودفنه، وصعدا إلى الجنَّة بجسد وروح على فَرسٍ للملك جبريل المسمَّى بالبُراق الذي له رأس وصدر امرأةٍ جميلة؛ والحقيقة أنَّ هذه ليست من العقيدة، ولكنَّ المسلم الذي لا يَعتقد بذلك يُنظر إليه ويُعامل بكونه كافرًا، ولكن (ابن) عبدالوهَّاب قال بأنَّ هذا قولٌ زائف، وأنَّ رُفات النَّبي ﷺ بقيتْ في القَبر كما هو الحال مع أيِّ شخص آخر.

ومن بين المسلمين هناك مَن يكتسب شُهرة، إمَّا لصَلاحه أو زُهده فيُقام له ضَريح خاصٌّ بعد وفاته يُزَخرف ويُعتنى به، ويَبنون حول قَبره قُبَّة حيث يَرتاده النَّاس لطلب الشَّفاعة لهم من الله لأنَّه يُعد من أوليائه، ومن كانت له مَكانة من بين هؤلاء الأولياء الجدد فإنَّ تقديسَ النَّاس له يَزداد، وقُبَّته تَتَّسع، وسُرعان ما يتحوَّل ضَريحه إلى مكان للعبادة، له إداريُّوه وعُمَّاله الذين يُختارون بشكل دَوري من بين أفراد عائلته، وبهذه الوسيلة يَقترب أقرباء هذا الوَليِّ من الغِنى. لكنَّ الغَريب الذي يصعب تفسيره هو ما يَحدث باستمرار من أنَّ النَّاس يتَّفقون على مَنح صفة القُدسيَّة لمجنون أو

---

(١) هذا الكلام مُجانب للصَّواب، لأنَّ الدَّعوة الإصلاحيَّة ركَّزت جهودها على الجانب العقدي دون الدُّخول في المسائل الفقهيَّة والتَّعبديَّة. ولعل باديا اعتمد في حكمه هذا على ما يتداوله البعض حينها عن هذه الدَّعوة. انظر ما أورده في هذا الشَّأن: محمد كمال جمعة: **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربيَّة**، ط. الدارة، الرياض ١٩٨١م، ص ٥٤ ـ ٥٥، ٦٠ ـ ٦١. ولعل أقرب ردٍّ على هذا الكلام أنَّ الشَّيخ ابن عبدالوهَّاب نفسه التزم مَذهب الإمام أحمد بن حنبل فيما يخصُّ الأحكام. انظر مثلًا: عبدالعزيز بن محمد آل الشَّيخ: «اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب على الكتاب والسنة»، **بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، ١/ ٢٠٠. كما أنَّ الشيخ رحمه الله احترم هذه المذاهب وعدَّها من مذاهب أهل السنة والجماعة، وأخذ بأقوال أئمَّتها في بعض المسائل التي يدعمها النَّص.

مَعتوه ممَّن يُنظر إليه على أنَّه مُصطفىً من قبل الله، لأنَّه قد حَرمه العقل. وليس غريبًا أن نَرى تعظيم ضَريح سُلطان أو حتى صعلوك اختاره النَّاس كي يكون وليًا دون أن يَعرف هو نفسه لماذا!

ويَزدري مُثقَّفو المسلمين أمثال هذه الخرافات لكن بشكل سرِّي على الرَّغم من تَظاهرهم باحترامها أمَام أعين النَّاس، ولكن (ابن) عبدالوهَّاب أعلنَ بصوتٍ عالٍ بأنَّ هذا النَّوع من صَرف العبادة لأولئك الأولياء هو إثمٌ كبير عند الله فهو وحدَه أحق بها. وتماشيًا مع ذلك فقد هدم أتباعه تلك الأضرحة والقُبَب والمحاريب المشيَّدة لتقديس هؤلاء.

ونتيجةً لمثل هذا الاعتقاد حرَّم (ابن) عبدالوهَّاب كلَّ مَظاهر التَّقديس أو العبادة لشخص النَّبي ﷺ وعَدَّه إثمًا كبيرًا[(١)]، ولا يعني ذلك عدم الاعتراف برسالته وإنَّما باعتباره شخصًا كالآخرين، أرسله الله كي يقوم بنشر الرِّسالة الإلهيَّة بين النَّاس، وبعد أداء المهمَّة يُصبح كأحد الأفراد من بقيَّة الخلق. ولنفس السَّبب مَنعَ أتباعه من زِيارة قَبر النَّبي ﷺ في المدينَة[(٢)]، ولذلك نَراهم عند الكلام عنه ﷺ فإنَّهم بدلًا من استعمال العبارات التي يَستعملها باقي المسلمين من قبيل «سيدنا محمَّد» أو «سيدنا نبيُّ الله»، فإنَّهم يقولون فقط «محمَّد»[(٣)].

---

(١) لم يكن ذلك بدعًا جاء به ابن عبدالوهاب بقدر ما هو تنفيذ لما أمر به الرسول ﷺ عندما طلب من أصحابه ألا يُطروه كما أطرت النَّصارى ابن مريم.

(٢) هذا غير صحيح على إطلاقه، فالمحظور هو شدُّ الرحال لزيارة القبر، وليس مجرَّد الزيارة؛ وللتأكد يمكن مراجعة رسائل الشيخ وما حرَّره تلامبذه في هذا الشأن.

(٣) بل يصلُّون ويسلِّمون عليه أخذًا بالآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾. فهم لا يقولون محمدًا فقط، أما عبارة «سيدنا» فليست من القضايا التي يقف عندها علماء الدعوة، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «أنا سيِّد ولد آدم». وردَّ على من قال له أنت سيِّدنا بقوله: السيِّد الله، والمحدِّثون كافة في كتب السنة لا يذكرون لفظ «السيادة»؛ ولمزيد من الاستيضاح حول هذه المسألة، انظر: بكر أبو زيد في: **معجم المناهي اللفظية**، الرياض ١٤١٧هـ.

إنَّ للنَّصارى ـ بشكل عام ـ أفكارًا زائفةً أو غامضةً تَتعلَّق بالدعوة الإصلاحية (الوهَّابيّة)، إذ يَتصوَّرون بأنَّهم ليسوا بمُسلمين، ويطلقون هذا الاسم على الأتراك فقط مازجين باستمرار بين «مُسلم» و«عُثماني». ولأجل توضيح هذا أكتبُ لكلِّ القُرَّاء على اختلاف طَبقاتهم بأنَّه يجب الملاحظة بأنَّ «عُثماني» يعني أنَّه من نَسل عُثمان، وهو اللَّقب الذي اتَّخذه الأتراك تخليدًا لسُلطانٍ بهذا الاسم، كان الأساس لعظمتهم وظُهورهم، وهذا الاسم لا علاقة له على الإطلاق بلفظ «مُسلم» الذي يعني "رجل الإسلام" أو «الإنسان الذي يَعبد الله»، ولحسن الحظِّ فإنَّ الأتراك يمكن لهم أن يتنصَّروا دون أن يُفارقوا لَقبهم بكونهم «عُثمانيِّين»[(١)].

يُطلق أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لفظ «مُسلمين» عندما يتحدَّثون عن الإسلام الكامل على الأشخاص الذين يعتنقون مَذهبهم فلا يعدون غيرهم بهذا المعنى مُسلمين حقيقيِّين، وبناءً على هذه النَّظرة فإنَّ الأتراك وبقيَّة المسلمين هم «مُشركون»، بمعنى أنَّهم يعبدون مع الله شركاء، لكنَّهم لا يتعاملون معهم بصفتهم وثنيِّين أو كُفَّارًا[(٢)].

وبكلمةٍ واحدةٍ فإنَّ الإسلام هو «دِين القُرآن» أي عبادة إله واحد لا شَريك له، هذا هو دين أتباع الدعوة الذين هم بناءً على ذلك المسلمون الحقيقيُّون، مثلما كان ـ حسب القرآن ـ المسيح عيسى وإبراهيم ونوح

(١) يحمل كُتّاب هذه الحقبة من الغربيين حقدًا دفينًا ضدَ الأتراك سواءٌ في أصلهم أو دينهم، ولعلّ ما يُفهم من عبارة باديا أنّ هؤلاء سيظلّون متميّزين بهذا الاسم حتى لو زالت الفوارق الدينيّة بينهم وبين الغرب.

(٢) ليس هذا الكلام دقيقًا ولا صادقًا، فأتباع الدعوة الإصلاحية يُطلقون هذا الاسم على أصحاب البدع والشركيّات من عبادة قبور وتقديس الأموات ونحو ذلك، أما الموحّدون من أتراك وغيرهم فلم يثبت لا في كتاباتهم ولا في ممارساتهم وتعاملهم أن أطلقوا هذه الصفة على أحد من أهل القبلة؛ انظر: سليمان بن سحمان: **الضياء الشارق في ردّ شبهات الماذق المارد**، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

وآدم عليه السلام وكلُّ الأنبياء السَّابقين حتى محمَّد ﷺ الذي ينظرون إليه بصفته آخر نبيٍّ حقيقيّ أو مُرسل من الله، وليس مجرَّد عالم كما يقول النَّصارى. وحينما نَتحدَّث عن اعتقاد الوهَّابيِّين هذا فإنّه فِعلًا إذا لم يكن محمَّد مبعوثًا من عند الله فلا يمكن أن يكون القرآن كلام الله، وحينئذٍ يقع أتباع الدعوة في تناقضٍ مع أنفسهم(١).

إنَّ أتباع هذه الدعوة لم ينفوا الإقرار أبدًا بالشَّهادة «لا إله إلا الله محمَّد رسُول الله»، ومُؤذِّنوهم الرَّسميِّين يَرفعون أصواتهم بها على التَّمام من أعلى مَنائر مكَّة التي لم يهدموها، مثلما هو الحال أيضًا مع المسجد الحرام الذي يقع الآن تحت نُفوذهم؛ لكن كيف لا يفعلونه، والقرآن نادى بهذه الشَّهادة مئة مرَّة، وأنّه لا بُدَّ منها لفَلاح المسلم ونجاته؟ حقيقة أنَّهم اعتمدوا بالإضافة إلى ما سبق صيغة أخرى للدعاء:

«لا إله إلا الله وحده لا شَريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو على كلِّ شيءٍ قدير». هذه الشَّهادة الإيمانيَّة الخاصَّة التي اعتمدها النَّبي ﷺ بهذه الصِّيغة لا يَمنع أن يُدعى بها يوميًّا بكونها بداية في كلِّ الخطب والمواعظ في المناسبات الدينيَّة.

---

(١) يبدو هنا وفي الفقرة الآتية، أنّ الرّجل مُقتنع بما يتردّد ويُشاع آنذاك من شُبه واتّهامات لدعوة الشَّيخ محمد بن عبدالوهّاب رحمه الله، ومنها أنّه ألغى السُّنة واعتمد القرآن فقط، وعلى هذا بنى أحكامه هذه، وحاول أن يُظهر لقارئيه معارفه حول الإسلام والرّد على رفض الأخذ بالسُّنة. لكنّ كُتب الدَّعوة تنفي هذه الفكرة، وتُؤكّد أنَّ الإسلام كلٌّ لا يتجزّأ، ومصدره بالدَّرجة الأولى هو القرآن والسُّنة، ثم الإجماع والقياس. والغريب أن هذه التهمة أثيرت وجاء رد تلاميذ الشيخ قويًا وحاسمًا بردِّها انظر: سليمان بن سحمان: **الضياء الشارق في ردِّ شبهات الماذق المارد**، ص ٨٧ ـ ٨٩. وكذلك ما كتبه الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ: «اعتماد دعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب على الكتاب والسنة»، **بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، ١٩٨/١ ـ ٢٠٧. ولمزيد من الاطلاع تُراجع رسائل الشيخ وكتبه وما سطّرته أقلام تلاميذه، وهي موجودة متوافرة.

إنَّ (ابن) عبدالوهَّاب لم يقدِّم نفسه بصفته نبيًّا مُرسلًا أبدًا البتَّة كما أراد بعضهم تصوير ذلك، وإنَّما اقتصر على كونه شَيخًا مُصلحًا، أراد تَصفية العقيدة من كلِّ الإضافات التي أضافها الأئمة والشُّراح أو العلماء، وإعادتها كما كانت في بدايتها النقيَّة وكما جاءت بالقرآن. ولكن لكون الإنسان إنسانًا دائمًا وهذا يعني أنَّه قاصر فإنَّ (ابن) عبدالوهَّاب قد وقع في قضايا جانبيَّة لم يكن لها علاقة بالعقيدة ولا بالأخلاق، وسأُعطي بعض النَّماذج[١]. :

ـ إنَّ المسلمين يَحلقون رؤوسهم، وحسب العادات السَّائدة يَدَعون خُصلة تطول من الشَّعر، وكثير منهم مع ذلك لا يتركونها، ولكنَّ القسم الأكبر يحتفظون بها دون أن يُعطوها أهميَّة وربَّما للعادة دورها في ذلك. ومن بين هؤلاء النَّاس مَن يعتقد بأنَّ النَّبي ﷺ سيأخذ النَّاس من خُصلهم تلك يوم القيامة كي يحملهم إلى الجنَّة؛ مثل هذه العادة لا تستحقُّ أن تكون هدفًا لإصدار حُكم بشأنها كما يبدو لي، ومع ذلك فإنَّ (ابن) عبدالوهَّاب قد حكم فيها بطريقة أخرى، والخصلة قد أُزيلت.

ـ أكثر المسلمين يحملون سُبْحةً في اليَد، تُداعب حبَّاتها الأصابع، سواءً كانت للتَّسلية أو بفعل العادة، وفي أكثر الأحيان لا يتفوَّهون بشيء أثناء مُزاولة هذه العادة، وحتى عندما يتحدَّثون مع أصدقائهم، وأحيانًا يذكرون اسم الله، أو يَلهجون بأدعية قصيرة وبصوتٍ خافت مع حركة كل حبَّة، وقد حرَّمها (ابن) عبدالوهَّاب بصفتها نوعًا من المعتقدات الباطلة.

ـ عَدَّ المصْلح عادة التَّدخين إحدى الآثام الخطيرة، وكذا استعمال الحرير والأقمشة الثَّمينة، سواء كان ذلك من أجل ارتدائها أو استعمالها

(١) النماذج التي سيذكرها الرحالة باديا تعكس موقف أهل البدع المعادين للدعوة السلفية، التي قامت على إخلاص العقيدة لله وحده، وإقامة شرائع الإسلام على هدي القرآن الكريم، ومن السنة النبوية المطهرة.

أثاثًا. لكنَّ قضيَّة سَلب شخص من دين أو من ملَّة أخرى لم يعده ذنبًا[١].

ـ مَنعَ السعوديون الحجَّاج من الوصول إلى جَبل النُّور وإلى مواقع أخرى في مكَّة لكون زيارتها نوعًا من الخرافات، ومع ذلك فهم يَزورون (مَسجد) العُمرة، ويذهبون إلى مِنَى ويرمون الشَّيطان بالحِجارة[٢]، أيُّ إنسان هذا!!

وعندما تَبنيَّ (محمَّد) ابن سُعُود فكرة (ابن) عبدالوهَّاب اعتنقت كلُّ القبائل الخاضعة لسُلطته هذه الفكرة، وكذلك القبائل المجاورة التي وجدت نفسها شيئًا فشيئًا إمَّا في وضع التَّسليم لمبادئ الدَّعوة الإصلاحيَّة، أو مواجهة المصْلح[٣].

---

(١) هذا القول يخالف ما نادى به الشيخ في وصاياه وتعاليمه لتلاميذه التي حفظتها مؤلَّفاته ورسائله، حيث التزم بأحكام الإسلام التي أقرَّها في هذا الشأن.

(٢) الكاتب هنا يلتقط ما يدور من احتجاجات بعض الممارسين لتلك العادات البدعيَّة وحتى الشركيَّة منها في هذه الأماكن المشار إليها، لكنَّه حينما يحتجّ على جماعة الدَّعوة الإصلاحيَّة في مُمارسة طقوس هي جزء من عمليَّة الحجّ كرمي الجمرات، أو ينتقدهم في ذهابهم إلى التنعيم أو ما يعرف بالعُمرة فهو بهذا يضع نفسه في موقف الجاهل بأمور الحجّ ومُستلزماته، لأنّ الأولى معروف حكمها وموقعها من الحجّ، أمّا الأخرى فالموضوع ليس المقصود منه الزيارة بحدّ ذاتها بل لأجل الإحرام بالعمرة، وهو موضع تواترت فيه الآثار من قول أو فعل لهذا الغرض، وسبق أن أشرنا لذلك في موقع سابق. هذه الإشاعات والشبهات التي كانت تثار آنذاك لقيت ردودًا وتفنيدًا لها من قبل العديدين؛ انظر على سبيل المثال: سليمان بن سحمان: **الضياء الشارق في ردّ شبهات الماذق المارد**، جميع صفحات الكتاب؛ مسعود الندوي: **محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه**، ص ص ١٦٣ ـ ١٨٥؛ عبدالرحمن عميرة: «الشبهات التي أثيرت حول دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب» **بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب**، ٢/ ١٩ ـ ٩٧.

(٣) يبدو تأثّر الرحالة بما يُشاع ضدّ الدعوة الإصلاحيَّة من قبل خصومها واضحًا هنا، ففكرة انتشار الإسلام بحدّ السيف قد تكون قضية شبه مسلَّم فيها لدى كتَّاب الغرب ومستشرقيه.

وبعد وفاةِ ابن سُعُود استمرَّ خليفته عبدالعزيز موظِّفًا تلك الوسائل بهمَّة ونشاط وثِقة، لا تقبل المهادنة ضدَّ أيَّة مُقاومة، مُهاجمًا لها بحزم واقتدار، وكان من الطَّبيعي أن تنتقل أمتعة المغلوبين ومُمتلكاتهم إلى أيدي السعوديين، لكن إذا لم يُقاوم الخصم أو إذا اعتنقت القبيلة الأفكار الإصلاحية فإنَّها تَدخل ضمن سُلطة عبدالعزيز أمير المؤمنين، وهذا كان دائمًا مَصدر قوَّة للحركة.

وعندما وجد (الإمام) عبدالعزيز نفسه مُسيطرًا على الأجزاء الداخليَّة للجزيرة العربيَّة أدرك سريعًا أنَّ عليه أن يَمُدَّ نَظره إلى ما يليه من بُلدان، وقد استهل ذلك بغَارة على أطراف بغداد، ففي سنة ١٨٠١م (١٢١٥هـ) اتَّجه على رأس كتيبة من الجمَّالة إلى الإمام الحسين، مدينة على بُعد مسافة قليلة من بغداد حيث يُوجد قبر إمام بنفس الاسم؛ إنَّه ضَريح رائع مليء بالتُّحف التُّركيَّة والفارسيَّة، فهَجم عليها ولم يجد إلا مُقاومة متواضعة من سُكَّان المدينة، أمَّا المنتصر فقد أمر بقتل جميع الرِّجال والصِّبيان من جميع الأعمار، وبينما كانت المجزرة البشعة مُستمرة[١]

---

(١) من المعروف في تاريخ الدولة السعودية الحرص على الأمن والسلم والصلح وعدم سفك الدماء، لكن المبالغة في بعض المصادر، ولا سيما كتب الرحالة والمؤلفين الأجانب عملت على تضخيم الحوادث دون ذكر لأسبابها وحفائقها. وقد بالغ باديا كثيرًا في وصف الحادثة. وما ذكره من أن المدينة أبيدت عن بكرة أبيها غير دقيق. ويبدو أنه انساق وراء الإشاعات وتضخيم الأحداث من قبل الأتراك لكونهم أعداء سياسيين للدعوة، والشيعة من ناحية أخرى لكونهم خصومًا مذهبيين، ولا ننسى في هذا الصدد الدور القبلي الذي أجج الموقف. والواقع أن القتلى ليسوا بهذا القدر، والهدم والتدمير ليس بهذا الحجم الذي صوره أيضًا.

كما أن باديا لم يذكر أسباب الحادثة التي كانت ردًا على عدوان قام به بعض قبائل العراق ضد مجموعة كلفهم الإمام سعود بحراسة قافلة من حجاج الفرس كانوا في طريق عودتهم إلى أوطانهم كما ذكر ذلك بوركهارت وموزيل. ويشير مؤلف دوحة الوزراء إلى جهود الإمام عبدالعزيز للصلح بطلب ديات القتلى أو السماح للقبائل السعودية بالرعي في جهات العراق لكن جهوده لم تثمر. =

صَعد عالم وهَّابي وصاح من أعلى المنَارة: «اقتلوا واذبحوا كلّ الكفَّار الذين يجعلون لله شُركاء». وقد استولى عبدالعزيز على كُنوز الضَّريح وهدمه، وسلب وأحرق المدينة وحوّلها إلى صحراء[١].

= ويشير الشيخ رسول الكركولي مؤلف كتاب دوحة الوزراء وهو مؤرخ معاصر لتلك الأحداث، وكان كاتبًا لوالي بغداد، وكذلك الغزاوي مؤرخ العراق أن حادثة قتل ثلاث مئة رجل من أتباع الدولة السعودية وعدم دفع دياتهم السبب في نقض الصلح والحوادث التي تبعت ذلك كما أشار هذان المصدران والمصادر الأخرى المعاصرة إلى أن حادثة كربلاء لم تكن كما صورها باديا.

(١) كان صدى هذه الحادثة ما زال يتردّد حينما زار باديا الحجاز، وهنا نحبُّ أن نُوضِّحَ بعض الأمور ونصحِّحَ بعض الأخطاء التي وقع فيها الرَّحالة:

١ ـ هذا الهجوم يقع في سلسلة هجمات مُتبادلة بين الدّولة السُّعوديَّة من ناحية وولاة العراق العثمانيين والقبائل الموالية لهم من ناحية أخرى، ولم يكن حدثًا بِدعًا من أمراء الدولة الناشئة.

٢ ـ كان قائد الحملة هو سُعُود بن عبدالعزيز بتكليف من أبيه وليس الأب عبدالعزيز كما يروي باديا.

٣ ـ كان تاريخ الحملة فيه أخذ وردّ وما أورده محدِّثنا أحد الأقوال وأكثرها تداولًا، لكن أحد الباحثين المحقِّقين يرى أنها كانت في ١٨ من ذي الحجة عام ١٢١٦هـ الموافق ٢٢ من أبريل ١٨٠٢م (الخضيري: **الدولة السُّعوديَّة**، ص٢٥٠).

٤ ـ المدينة التي يُطلِق عليها «الحسين» هي مدينة كربلاء التي تحوي ضريح الحسين رضي الله عنه كما يعتقد الشيعة.

٥ ـ بالغ كثيرًا في وصف المذبحة وأنّ المدينة أُبيدت عن بكرة أبيها ودُمِّرت، ويبدو أنّ باديا قد انساق وراء الإشاعات وتضخيم الحدث من قبل الأتراك من ناحية لكونهم أعداء سياسيين للدعوة، والشيعة من ناحية أخرى لكونهم خصومًا مذهبيِّين، ولا ننسى في هذا الصدد الدور القبلي الذي أجَّج الموقف. والواقع أن القتلى ليسوا بهذا القدر الذي قدّره باديا، والهدم والتدمير ليس بهذا الحجم الذي صوّره أيضًا.

وقد تناول هذه الأحداث العديد من الباحثين، نشير إلى بعض منهم: ابن بشر: **عنوان المجد**، ١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨؛ جان ريمون: **التذكرة في أصل الوهَّابيِّين**، ص ٦٧ ـ ٧١؛ ج. ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة في دليل الخليج**، ص ١٢٨ ـ ١٣٤؛ وقد أشبع هذه القضية بحثًا ودراسة محمد الخضيري: **الدولة السُّعوديَّة**، ص ص ٢٤١ ـ ٢٧٤؛ أمين سعيد: **تاريخ الدولة السُّعوديَّة**، ١/ ٦٢.

وعند عودته من تلك الغَارة الدَّامية وجَّه عبدالعزيز أنظاره إلى مكَّة، مُقتنعًا بأنَّه إذا تمكَّن من السَّيطرة على مدينة تُعد مركز الإسلام فسيَحصُل بذلك على لَقب جديد يتفوَّق به على البلدان الإسلاميَّة المجاورة؛ وبسبَب خَشيته من انتقام وَالي بغداد بعد غارته ضدَّ الإمام الحسين فإنَّه لم يبتعد عن مَوطنه، وبعث ابنه سُعُودًا على رأس جيش قوي ليفتح مكَّة، فاقتحمها عام ١٨٠٢م (١٢١٦هـ) بعد مَعركة سهلة، أمَّا السُّلطان الشَّريف غَالب فقد انسحب إلى المدينَة وتحصَّن فيها، ثم انتقل إلى جدَّة للمقاومة(١).

وقد أمر سُعُود بهدم كلّ المصلَّيات والقُبب المقامة لأجل تقديس النَّبي ﷺ وأهل بيته، وهَدَّم كذلك أضرحة الأولياء والأبطال التي كانت محلَّ تعظيم وإجلال(٢). ولم يكن نصيب بيت السُّلطان الشَّريف بأحسن حَظًا من الباقين، فلم يبق منه من أثرٍ إلا أكوام مشوَّهة، ولم يُستثنَ من ذلك سوى الحرَم الذي احتُرم واحتُفظ به سَليمًا.

ولم يتأخَّر سُعُود في مُهاجمة جدَّة مُرسلًا في الوقت نفسه قوَّة عسكريَّة لمفاجئة المدينَة؛ ولكنَّ الغارتين ضدَّ هاتين المدينتين المحصَّنتين فشلتا تمامًا، ووجد سُعُود نفسه مُجبرًا على الانسحاب إلى الدِّرعية مع بقيَّة جيشه الذي تَناقص بشكل واضح لهرب عدد من القبائل، أو بسبب الطَّاعون والحروب، ومع ذلك فقد ترك حَامية صغيرة في مكَّة للمُحافظة على فِكرة سيادة والده على هذه المدينة المقدَّسة؛ ولكنَّه لم يستطع المحافظة على استمرارية هذه الحامية عندما عاد السُّلطان غَالِب(٣).

---

(١) وقفنا عند هذه الأحداث بنوع من التفصيل في الدّراسة المقدّمة لهذه الرِّحلة.

(٢) ذكرنا في أكثر من مُناسبة وتعليق أنَّ الهدم أو الإزالة لم يكن مَقصودًا بها المكان بحدّ ذاته، بقدر ما يدُور فيه من تجاوزات تخالف العقيدة، ومُمارسات تصل إلى حدّ الشّرك.

(٣) تَتطابق هذه الرِّواية إلى حدّ كبير مع ما أورده ابن بشر، سواءٌ في الأحداث أو في

وبعد مُضيِّ بعض الوقت وبالتَّحديد في نوفمبر من عام ١٨٠٣م (رجب ١٢١٧هـ) قُتِل عبدالعزيز من قبل شَخص كان قد وضع نفسه في خدمته، ليُحْكِم الخطَّة ويُنفِّذها بإتقان حيث أمضى وقتًا طويلًا ليضفي على مَشروعه النُّضج ودقَّة التَّصويب، ومن ثَمَّ يَضرب ضربته[١].

تَولَّى ابنه سُعُود الحكم من بعده فوضع جُلَّ عنايته في توسيع وتعزيز سيطرته على السَّواحل الشَّرقية المطلَّة على الخليج (العربي)، واستطاع أيضًا أن يُخضع إمام مَسقط لسُلطته[٢]، ومن ثَمّ يستولي على المدينة عام ١٨٠٤م (١٢١٨هـ).

لم يُسمح لقافلة الحجَّاج الكُبرى القادمة من دمِشق بالدُّخول إلى المدينَة عام ١٨٠٥م (١٢١٩هـ) إلا ببذل تَنازلات مُتعدِّدة، إذ أظهر (السُّلطان) سُعُود للباشا أمير الحاجّ أنّه لا يُسمح أن تُرافق القافلة أيَّة حِماية تُركيَّة، ولا بإحضار تلك السِّجادة الفاخرة التي يَبعث بها الباب الأعظم كلَّ سنة لتغطية قَبر النَّبي ﷺ حيث يعدُّها السعوديون من كبائر الذُّنوب، كما طلب أخيرًا أن تَضمَّ القافلة الحجَّاج الحقيقيِّين فقط، فلا جَيش ولا سِلاح ولا رَايات ولا أيَّة آليَّات أخرى ولا زِينة، ودون مُوسيقى أو نِساء[٣].

وبالرَّغم ممَّا أعلنَه سُعُود ففي العام التَّالي «١٨٠٦م» (١٢٢٠هـ) أصرَّت قافلة دِمشق على الحجّ حسبما اعتادت عليه، دون أن تلتزمَ بأوامر

= تفاصيلها من هَدم القباب ومُنازلة جدَّة، لكنّه لم يُشر لسبَب رحيل الأمير سُعُود. انظر: **عنوان المجد**، ١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣. لكنَّ الأمور في واقع الحال قد استقرَّت للدَّولة السُّعودية وأصبح الشَّريف غَالب ممثلًا لها فيها وقد عرضنا لذلك في الدراسة.

(١) سبق أن علّقنا على هذا الحدث في الفصل الثالث.

(٢) انظر حول هذا المشروع ما حرَّره ج. ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص ٥٥ ـ ٥٧؛ ٧٧ ـ ٨١؛ ١٠٩ ـ ١٢٠.

(٣) توقّفنا عند هذه القضيَّة في الفصل الثالث.

المنتصر بدقَّة، وما أن وصلتْ إلى أبواب المدينة حتى أُجبرتْ على الانسحاب بشكل عَشوائي، فقد تتبَّعها السعوديون وضَايقوها حيث كانوا قد استولوا على المدينَة وضواحيها[١].

وفي النِّهاية فإنَّ هذه الأحداث المشار إليها في الفصل السَّابق[٢] قد وقَعت على مَشهد منِّي؛ ومن هنا فإنَّ سُعودًا أصبح هو المالك المطلق للجزيرة العربيَّة ما عدا مدينة مَخا وبعض المدن الأخرى الحصينة في اليمن أو بلاد العَرب السَّعيدة. وبهذا امتدَّت دولته لتشمل الصَّحاري التي تتوسَّط ما بين دِمشق وبَغداد والبصْرة.

وفي تلك المسَاحات الشَّاسعة لا تُوجد إلا مُدن مَحدودة، خاصَّة إذا لم تكن على ساحل البحر. ومع ذلك يُشاع بأنَّ عدَّة مَلايين من النَّاس يعيشون في خِيام وأكواخ تحت سيادة السُّلطان سُعُود، وهم يُطيعونه بشكل أعمى، ويدفعونَ العُشر من مَواشيهم وغَلاتهم، وهي الضَّريبة المفروضة من قبل القُرآن[٣]. ولم يفرض سُعُود ضريبة أخرى غيرها، وعلى جميع رعيَّته أن يقوموا بحملها إليه عندما يَطلبها مُتحمِّلين مَصروفات إحضارها، ومُستعدِّين لأيِّ طارئ، وهذا أمرٌ أوجبه الدِّين أيضًا.

ومن حسنِ حظِّ سَلاطين الدولة السعودية أنَّ لديهم جَيشًا جَرَّارًا باستمرار ودون أيَّة تكلفة، ففي الغزوات يحمل كلُّ جملٍ عادةً شَخصين مع الماء والزَّاد الضَّروري للثَّلاثة؛ وعندما يحتاج السُّلطان قُوَّات فإنَّه يكتب إلى مُختلف القبائل مُحدِّدًا لهم عدد الرِّجال الذين عليهم أن يُرسلوهم، والوقت ومكان اللِّقاء، ويَحضرون في اليوم المعيَّن مع الزَّاد

---

(١) سبق أن أشار إلى هذا الحدث في الفصل الثالث، وتناولناه بالعرض والتعليق.

(٢) يَقصد بذلك أحداث قافلة دمشق التي نوّه بعدم حُضورها في الفصل الثالث.

(٣) يقصد بذلك الزكاة.

والسِّلاح والمؤَن الضَّروريَّة، والسُّلطان لا يلزمه أيّ شيءٍ قِبلهم[١]. هذه هي مَكمن قوَّة الأفكار الدينيَّة.

الأسلحة التي يَستخدمها السعوديون هي السِّلاح نفسه الذي يَستخدمه أهل مكَّة؛ فهم يَستوردون من أوربًا وتُركيا بنَادق ذات مواسير غليظة ويستخدمونها بخشونة، وهم أنفسهم أيضًا يَصنعون البارود وطلقات الرَّصاص ولكن بقدرات ضعيفة، والبارود يخرج كلُّه تقريبًا على شكل حبَّات، الغليظة منها كحبَّة البازلا، أما الطلقات فليست أكثر من حجارة مغلَّفة بطبقة خفيفة من مادة الرَّصاص، ويشترون هذا المعدن والكبريت من مكَّة ومن بقيَّة المدُن السَّاحليَّة في شبه الجزيرة العربيَّة، بينما يجدون مِلحَ البارود مُتوافرًا في بلادهم.

ومَلابسُ السعوديين مثل مَلابس العرب الآخرين، وقد لحظت أنّ وَلَدي سُعُود هما الوحيدان اللَّذان لهما شَعر طويل، ممَّا يُميِّزهما بكونهما أحد أفراد العائلة المالكة؛ وكما قالوا لي فإنَّ السُّلطان يَتظاهر بأُبَّهة غير عادية، ولكنِّي رأيتُه عَاريًا تمامًا منها في وقْت الحجّ.

أمَّا الدِّرْعيَّة العَاصمة، فهي مدينة كبيرة، تقع على بُعد مئة وثلاثين فرسخًا إلى الشَّرق من المدينة، وتَبعد مئة فرسخ إلى الجنوب الغربي من البصْرة، ومئة وستين فرسخًا إلى الجنوب الشَّرقي من القُدس[٢].

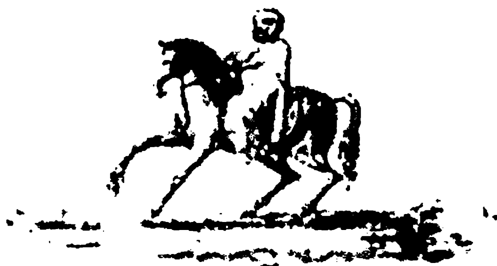
---

(١) حول هذا النِّظام العسكري انظر: ج.ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص ٤٢ ـ ٤٤. وقريب من هذا المعنى الذي ورد في كلام باديا ذكره جان ريمون في: **التذكرة في أصْل الوهَّابيِّين**، ص ٥٥ ـ ٦. وينطبق ما قاله بوركهارت في: **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين**، ص ٦٥ ـ ٨ مع ما أورده صاحب الرحلة وإن كان بتفصيل أوسع وإيضاح أشمل. وقد أورد لويس دو كورانسي تفاصيل تخدم هذه الفكرة، انظر: **الوهَّابيُّون...**، ص ١٥٩ ـ ١٦١.

(٢) حول مدينة الدِّرعية انظر ما كتبه حولها عبدالله بن محمد المطوع في: **مجتمع الدرعية في عهد الدولة السُّعوديَّة الأولى**، نشرته الجمعية التاريخية السُّعوديَّة ضمن سلسلة بحوث تاريخية، الرياض ٢٠٠٣م. ويُلحظ عدم دقَّة الأرقام التي ذكرها باديا هنا.







الفارس العربي ممتطياً صهوة جواده
(إحدى لوحات باديا التي صوَّرها في مذكَّراته)

أمَّا جُزر البحرين حيث يصطادون اللُّؤلؤ في الخليج (العربي)، فإنَّها تقع على بُعد خمسين فرسخًا إلى الشَّرق[١]، وبانحراف يصل إلى الرُّبع شمال شَرق الدِّرعيَّة، وفيها يوجد أيضًا أتباع لسُعُود[٢].

أمَّا نَهر Altan[٣] فهو على بُعد أربعة عشر فرسخًا إلى الجنوب الشَّرقي من الدِّرعيَّة، وهو يَصبُّ قُرب هذه المشار إليها، وحسب الرِّوايات التي قصَّها عليَّ السعوديون فإنَّ عاصمتهم تقع بالقُرب من ثلاثة جبال مُرتفعة، والبلاد مليئة بالحبوب والمؤن، وبيوت الدِّرعيَّة مبنيَّة من الحجارة.

وليْسَ للسعوديين تَنظِيم عَسْكَري، وكلُّ مخططاتهم العسكرية تَعتمد على تَجمُّعهم على شكل أفواج تحت إمرة قائد يتَّبعون كلَّ حركاته بلا ترتيب أو تشكيلات، وحقيقة تَنظيمهم العسكري هو إسبرطي[٤]، طاعته مُطلقة، وتكفي إشارة صغيرة من قادته كي تفرض السُّكوت والاحترام، أو إخضاعهم لأشقِّ الأعمال وأقساها[٥].

---

(١) على هذا الأساس تُصبح المسافة بين البحرين والدرعيَّة مئتين وثمانية وسبعين ونصف كيلو مترًا حسب المقياس الذي اعتمده باديا، أي أنّ الفرسخ يساوي ٥٥٧٢ مترًا حسب المقياس الإسباني كما أشرنا إليه سابقًا؛ وهو كلام غير دقيق.

(٢) شَهدت علاقة الدولة السُّعوديَّة الأولى بالبحرين أزمنة مُتقطعة من الولاء والعصيان، انظر حولها: : ج.ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص ٩٥ _ ١٠٥.

(٣) هكذا! وقد حاولتُ قراءة الاسم حسب الحروف التي اعتمدها الكاتب والوصول إلى قراءة صحيحة ومع الأسف لم أستطع، لكنَّ أسماء أودية هذه المنطقة التي أشار إليها قد عرض لها ابن خميس بالشَّرح والتفصيل دون أن نجد من بينها هذا الاسم، أو ما يمكن أن يقترب منه نهجئة. انظر: **معجم اليمامة**، الرياض ١٣٩٨هـ، ص١٨ _ ٢٥.

(٤) إشارة إلى إحدى الحكومات الأرستقراطيَّة التي حكمت اليونان من ٩٠٠ _ ٦٠٠ قبل الميلاد. واشتهرت بقسوة نظامها العسكري. انظر: **موسوعة تاريخ العالم**، إعداد مجموعة من الباحثين، ط. القاهرة، ص ١١٩.

(٥) هذه المعلومة التي أوردها باديا حول النظام العسكري للدولة السُّعوديَّة لم نجدها في

أمَّا نِظامهم المدَني فليس في أحسن حالاته، فلا يُوجد من بينهم مُوظَّفون، وبدرجة أقلّ كثيرًا المحاكِم العُليا أو الصُّغرى؛ وكلُّ شيخٍ أو رئيس قبيلةٍ هو مَسؤول عن دفع العُشر، وتوفير فِرقة من الرِّجال للحَرب؛ ويُرسل (الإمام) سُعُود قُضاته إلى تلك المدن التي تَخضع لسيادته[١]، ولم يكن لديه قُضاة أو ولاة أو باشوات أو وزراء أو حتى موظَّفين آخرين[٢].

إنَّ المصْلح (ابن) عبدالوهَّاب نفسه لم يحمل أيَّة ألقاب سواءً كانت فَخريَّة أم سياسيَّة، وكان دائمًا هو رَئيس المذْهب[٣]، ولم يطلب أبدًا أيَّ تمييز أو اعتبار شَخصي؛ وقد حافظ ابنه الذي خَلَفَه بعد وفاته على نفس رُوح البَساطة[٤].

وكما يبدو فإنَّ الشَّخص الذي يَتمتَّع بقوَّة أكبر وتأثير أقوى مع سُعُود هو أبو نُقطة الشَّيخ الكبير الذي يَملك تحت إمرته عددًا كبيرًا من القوَّات، وقد حدَث لي في أكثر من مرَّة أن سألتُ بعض السعوديين: هل تَتْبعون سُعُودًا؟ فقال: أبدًا، نحن ننتمي إلى أبي نُقطة، يُجيبونني بفَخر. وهذا

= مصدر آخر، إلا أن ج.ج. لوريمر أشار إلى معاقبة المتهرِّبين من الخدمة العسكرية بفرض الغرامات الباهظة عليهم. (**تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص ٤٢)؛ كما نوّه جان ريمون بهذا النِّظام الذي اتبعه الأمام سُعُود في تنظيم وإعداد قوّاته. انظر: **التذكرة في أصل الوهَّابيِّن**، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(١) وهذا وحده يوضِّح التَّناقض الذي وقع فيه الكاتب، ليس لديه قضاة ثمّ يرسل قضاة؟ يقول ج. ج. لوريمر: «أما القانون وتطبيق العدالة فكانت من عمل القضاة الذين يتم اختيارهم اختيارًا دقيقًا في الدرعية، وإرسالهم إلى حيث يمارسون عملهم في الأقاليم». (**تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص ٣٨).

(٢) حظيت الدولة السُّعوديَّة الأولى بلا شكّ بتنظيمات مدنية وإدارية، جعلت منها دولة بما تعنيه هذه الكلمة من معنى. انظر: ج.ج. لوريمر: **تاريخ البلاد السُّعوديَّة**، ص ٣٧ ـ ٤٢.

(٣) ليس مَذهبًا بالمعنى المتعارف عليه بل هي حركة إصلاحيّة.

(٤) كان ابنه حسين هو أكبر أولاده وخليفته، وكان قاضيًا في الدِّرعيَّة وإمامًا في جامعها، توفي سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨١٠م. انظر: ابن بشر: **عنوان المجد**، ١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

يُبيِّن كم هم مَسرورون بانتمائهم إليه، وهو مَا يَدفعني إلى الاعتقاد بأنَّه بعد وَفاة سُعُود، إذا كان أبو نُقطة ما زال على قَيْد الحياة فإنَّه سوف يَحدث انشقاق بينهم، فبعضهم سوف يُؤيِّد ابن سُعُود وآخرون سيُؤيِّدون أبا نُقطة[1]، ومُنذ ذلك الحين سيبدأ انحسَار نُفوذ أولئك المصْلحين[2].

وبغضِّ النَّظر عن مثل هذا الاحتمال، فإنِّي أرى أنَّ هُناك مَانعًا قويًا من انتشار هذه الدَّعوة خارج صَحارى الجزيرة العربيَّة، فالتَّزمُّت الشَّديد قد يكون مُتَعارضًا مع عادات الأمَم التي لديها بعض الأفكار الحضَاريَّة، وما اعتادت عليه من الملذَّات التي يَنعمون بها، فإذا لم يُخفِّف السعوديون من صَلابة مَبادئهم، فيبدو لي أنَّه من المستحيل انتشَار دعوتهم في البلدان التي تحيط بالصَّحراء[3]. عندئذٍ فإنَّ هذه الجموع الغفيرة التي بصعوبة تُنتج

---

(١) صاحب هذا الاستنتاج يَجهل تركيبة الدولة السُّعوديَّة والدَّعوة الإصلاحيَّة آنذاك، وقد سبق أن عرضنا لأبي نُقطة في الفصل الثالث، ومن الجدير ذكره أنه تُوفي قبل الإمام سُعُود وذلك في سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨١٠م في معركة قادها بتكليف من أميره سُعود بن عبدالعزيز ضدَّ بعض زعماء القبائل في المخلاف السليماني، ويبدو أن باديا سأل أشخاصًا من عسير في الجيش السعودي وهم قادمون تحت إمرة أبي نقطة ولم يفهم باديا معنى هذا. انظر: ابن بشر: **عنوان المجد**، ١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٢) مما يدل على عدم معرفة باديا بأحوال القادة التابعين للدولة السعودية أن عبد الوهاب بن محمد أبا نقطة المتحمي الذي ذكره باديا حينما قتل عام ١٢٢٤هـ كلف الإمام سعود بن عبدالعزيز طامي بن شعيب المتحمي الذي قاد رجال عسير وألمع والقبائل الأخرى بشجاعة وإخلاص، ووطد نفوذ الحكم السعودي في منطقة عسير وتهامة وبعض قبائل اليمن، ثم قاتل محمد علي بشجاعة، لكنه لم يلبث أن قبض عليه وأرسل إلى مصر ومن هناك إلى إسطنبول حيث أعدم وصلب بعد أن شهر به في الأسواق. انظر: ابن بشر، عنوان المجد ١/ ٢٤٨ وتعليق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف.

(٣) انتشار الدَّعوة الإصلاحيَّة كان على خلاف توقُّعات الكاتب، فقد وصل تأثيرها إلى جميع أصقاع البلاد الإسلاميَّة، بل وإلى مناطق الأقلِّيات المسلمة. للتَعرُّف إلى حجم هذا الانتشار والتأثير انظر: محمد كمال جمعة: «انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية»؛ **بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهَّاب** ٢/ ٢٩١ ـ ٥٠٤.

أو تَستهلك ستَستمر دائمًا في حالةٍ من شَظفِ العيش في عُمق الصَّحراء دون أيَّة ارتباطات بالعالم، فيما عدا غَاراتهم على القَوافل أو السُّفن التي تقع تحت أيديهم، والصُّعوبات التي من الممكن أن تَبرز عند مَوسم الحجِّ إلى مكَّة.

لكنَّ الزَّمن كفيل بإرشادهم إلى أنَّ الجزيرة العربيَّة لا تَستطيع أن تعيش دون علاقات تجاريَّة من خلال القَوافل ومَواسم الحجِّ. والحاجة وحدها سوف تَدفعهم إلى بعض التَّخفيف من غَلوائهم تِجاه الأمَم الأخرى، والتِّجارة مع الأجانب ستَكشف لهم سَلبيَّات التَّشدُّد التي هي تَقريبًا ضِدَّ الطَّبيعة.

وشيْئًا فشيئًا سوف يَفتر الحمَاس، وتَستردُّ الممَارسات الخرافيَّة إمبراطُوريتها، فهي دائمًا سَند وسَلوى وأمل الإنسان الضَّعيف الجاهل أو اليائس؛ وعندها سوف يَتلاشى إصْلاح (ابن) عبدالوهَّاب قبل أن يتمكَّنَ تأثيره[١]، لكن بعد أن تكون قد أُريقت دِمَاء آلاف الضَّحايا نتيجة التَّعصب الدِّيني، هكذا هي تقلُّبات الزَّمن التَّعسة في أحوال البَشر[٢].

---

(١) توقُّعات الكاتب لم تتحقَّق بحمد الله، وما زالت الدَّعوة الإصلاحيَّة باقية في مبادئها وأفكارها، سامية في أهدافها وما تدعو إليه، بعيدًا عن التَّشنج والعصبيَّة التي يردِّدها المؤلِّف.

(٢) ما ذكره باديا عن انتشار الدعوة السلفية وامتداد الدولة السعودية التي وصفها بأنها متواضعة ومعزولة في الصحراء غير صحيح. والمصادر السعودية وغيرها أشارت إلى امتداد للحكم السعودي في شبه الجزيرة العربية، وانتشار الدعوة السلفية وما تحقق من أمن قوافل الحجاج والتجار الذين يأتون من العراق وعمان وبلاد العجم ويحجون ويرجعون إلى أوطانهم ولا يخشون أحدًا إلا الله. كما أنه في عهد الدولة السعودية زالت الأتاوات وما يفرض على الحجاج والمسافرين من ضرائب. وكان الراكب يخرج من اليمن وتهامة والحجاز والبحرين وعمان والشام لا يحمل سلاحًا، ولا يخشى كيد عدو أو قاطع طريق. وذكر ابن بشر في كتابه عنوان المجد في تاريخ نجد مثالًا على انتشار الأمن بأن عمالًا جاؤوا من حلب قاصدين الدرعية، وهم أهل ست نجائب

من جِهَةٍ أُخرى فأعتقدُ أنَّ السعوديين في عُمق صَحرائهم سيظَلُّ النَّصر دائمًا حليفهم، ليس ذلك بسبب قُوَّتهم العسكَريَّة وإنَّما لطبيعة بلادهم التي لا تَصلح لسَكن أيَّة أُمَّةٍ أخرى، ولسُهولة اختفائهم والهرَب من قَبضة أعدائهم[١].

سيتمكَّنُ هؤلاء من فتح مكَّة والمدينَة والمدُن السَّاحليَّة مُؤقَّتًا، لكن هل تَستطيع حاميةٌ متواضعة ومَعزولة في وسط صَحراء مُرعبة البقاء لمدَّةٍ طويلة؟

عندما يَتقدَّم عدوٌّ قويٌّ إليهم فإنَّ السعوديين يَختفُون كي يهْجموا عليه ويحطِّموه في الحال، ويجدُ نفسه مُشتَّتًا يبحثُ عن لُقمة العيش. وهذا ما يَدفعني إلى الاعتقاد بأنَّهم سوف لن يَستمروا وقتًا طويلًا خاضعين تحت قوَّة السِّلاح، وهو نفس السَّبب الذي وقَى الجزيرة العربيَّة في كلِّ الأوقات من السَّيطرة الأجنبيَّة.

= محملات بالنقود من زكوات بوادي أهل الشام، فإذا جنهم الليل وأرادوا النوم نبذوا أرحلهم ودراهمهم يمينًا وشمالًا، إلا ما يجعلونه وسائد تحت رؤوسهم، وكان بعض العمال إذا جاؤوا بالأخماس والزكاة من أقاصي البلاد يجعلون مزاود الدراهم أطنابًا لخيمهم ورباطًا لخيلهم بالليل لا يخشون من سارق ولا غيره.

(١) ما ذكره باديا غير صحيح بدليل استمرار الحكم السعودي، حيث ظل الأهالي في البادية والحاضرة على ولائهم لأسرة آل سعود، وتقديرهم لمعاملتهم وقيادتهم الحكيمة، ومناصرتهم للدعوة السلفية. فلم يمض عامان على نهاية الدولة السعودية الأولى إلا وعاد القادة من آل سعود إلى الظهور من جديد لإعادة تكوين الدولة السعودية. وألخص هنا ما قاله المؤرخ الفرنسي جان ريفوار الذي أسلم وتسمى باسم حيدر بامات في كتابه مجالي الإسلام الذي نقله إلى العربية عادل زعيتر بعد سقوط الدرعية على يد قوات محمد علي بقوله: «. . . ويلوح أن الدولة الوهابية زالت إلى الأبد، ولم يكن هذا غير وهم، فقد قدر لها أن تبعث في عصرنا ضمن شكل جديد تبدو به أقوى مما كانت عليه».

الفَصلُ التاسِعُ

- عَودةُ عَلي بَايْ إلى جدّة
- مَواقع جُغرافيّة
- أَخْبار
- الطّريق إلى يَنبع.

في اليَوم الثَّاني من شهر مارس سنة ١٨٠٧م (الموافق للثَّاني والعشرين من ذي الحجَّة سنة ١٢٢١هـ) وبعد الطَّواف حول بيت الله، وأداء الصَّلاة الخاصَّة بالوداع أمام زَوايا الكعبة الأربع[1]، وعند بئر زَمزم وحِجر إسماعيل ومَقام إبراهيم خَرجتُ من الحرَم مع باب الوَداع، وهو فألٌ حسن لأنَّ النَّبي ﷺ خرج منها بعد انتهائه من الحجِّ، وتركتُ مكَّة في السَّاعة الخامسة والنِّصف عصرًا كي أعود إلى جدَّة.

استويتُ على شبريَّة يحملها جَمَل مثلما كان الحال أثناء قُدومي، وحالما خرجتُ من المدينة توقَّفت القافلة ودخل العرب الذين رَافقوني في شِجار عنيف لأكثر من ساعة ونصف، وأخيرًا بدؤوا بالمسير في حوالي السَّاعة السَّابعة.

كانت الغُيوم تُغطِّي السَّماء وتحول دون رُؤية ضَوء القَمر، حتى إنَّ الظَّلام الدَّامس الذي يُحيط بي قد جعل من المستحيل تمييز الأشياء.

وفي السَّاعة الرَّابعة صباحًا توقَّفتُ في قريةٍ من الأكواخ اسمها

(١) لم يرد في المصادر الشرعية ما يفيد بصحة هذه الصلوات أمام زوايا الكعبة الأربع، وربما كان هذا من ابتداع الناس.

الحدَّة[١]، وكانت الطَّريق غاصَّة بأعداد كبيرة من الحجَّاج الذين تَزامنت عودتهم إلى ديارهم مع عودتي، سَالكين الطَّريق نفسه، ومَصحوبين بجمالهم وأمتعتهم.

في اليوم الثَّالث من نفس الشَّهر وبينما كُنَّا مُخيِّمين في الحدَّة كان التِّرمومتر يُسجِّل ٢٤ ونصف الدَّرجة في الظِّل والهواء الطَّلق مع رياح غربيَّة، وتطفو في الفَضاء بعض الغُيوم المتفرِّقة.

وفي تمام السَّاعة الواحدة إلا الرُّبع كان التِّرمومتر يُشير إلى ٤٥ ونصف الدَّرجة في الشَّمس، وهذا يَعني أكثر من نصف حرارة الماء المغلي. هذا هو حال الطَّقس في تلك البلدان! فقاطنوها البائسون مَحكوم عليهم أن يعيشوا وكأنَّهم في فُرْن.

لم أستطع الحصول سوى على نَبتتين وبعض الحجارة أثناء مَقامي في الحدَّة.

وفي السَّاعة الثَّالثة مَساءً غادرتُ مع القافلة على الرَّغم من إحساسي بالتَّعب، آخذًا اتِّجاه الغرب بصورة عامَّة، ثمَّ توقَّفتُ بعد أن أمضيتُ طوال اللَّيل تقريبًا في المسير، وقد ترجَّلتُ مُنتظرًا طلوع النَّهار، وبعد وقتٍ قليل من بُزوغ الشَّمس دخلتُ مدينة جدَّة.

لقد قطعنا الطَّريق ما بين مكَّة وجدَّة في ثلاث وعشرين ساعة على الجمال، وكان لديَّ اهتمام كبير لمُلاحظة الفَرق في درجة الطُّول بين كلتا المدينتين، وكلُّ شيءٍ يتعلَّق بهذا الصَّدد قد أعددتُه في مكة إلا أنَّ توقُّف السَّاعة ـ مع الأسَف ـ في الطَّريق في حادثةٍ مُشابهة طرأت لي عند الذَّهاب إلى مكَّة، لأنه من المستحيل أن لا يتأثَّر الجهاز باهتزازات الجمل. ولم أكنْ أنا أيضًا بمعزلٍ عن تلك التي عانتها سَاعاتي، فقد

(١) سبق له أن مرَّ بهذه البلدة أثناء قدومه إلى مكَّة، وهناك عرَّفنا بها.

تعرَّضتُ خلال هذه المسيرة لثمان أو عشر حالات قَيْءٍ عنيفة بسبب الصَّفراء(١).

وفي فجر اليوم الرَّابع وبالرَّغم من أنّي لم أكنْ مُستعدًّا فقد أخذتُ بعض الأبعاد بين القَمر والشَّمس في وضعٍ مُهمٍّ، لأنَّ القَمر كان في الغرب حيث كانت أرصادي السَّابقة التي عَملتُها في جدَّة قد أُخذت باستمرار في الاتِّجاه الشَّرقي.

وعندما كنتُ في مكَّة لم يَحدث غير كُسوف واحد للتَّابع الأول من توابع كَوكب المشتري، وقد تحقَّق ذلك صَباح يوم الثَّاني والعشرين من شهر فبراير، ولأجل مُراقبته صعدتُ إلى جَبل مُجاور لأنَّ هذه الظَّاهرة يجب أن تَبدأ بعد قليل من ظُهور الكوكب، ولكنَّ جبلًا كان أكثر ارتفاعًا برز عن بُعد فحجب النَّجم حتى نهاية الكُسوف، ونظرًا لذلك فلم نتعرَّف سوى أطوال مكَّة قياسًا بالأبعاد القمريَّة، بينما كانت النَّتائج قد أثبتت عددًا من الأرصاد مَأخوذة من جهة اليمين واليسار.

رصدتُ كذلك في جدَّة يوم السَّابع عشر من شهر مارس ظُهور كوكب بعد كُسوفه من مَجموعة الكوكب الرَّابع، وكذلك تمكَّنتُ من رصد غياب آخر من الأوَّل. هذه الأرصاد الممتازة مُتوافقة مع الأبعاد القمريَّة التي قُمتُ بها لأوَّل مرَّة في جدَّة والتي أعطت في الطُّول: ٤٥ً ٥٤َ ٣ْ شرقًا من مرصد باريس؛ ومع العدد الكبير من الأرقام المرصودة، والمتوافقة مع ما سجَلتُه سابقًا، فإنَّ درجة العَرض في جدَّة بشكل قاطع هو: ٢١ْ ٣٢َ ٤٢ً شمالًا، وكثير من السُّموت الشَّمسيَّة متوافقة مع ما رصدتُه سابقًا، وأعطت الانحناء المغناطيسي: ١٠ْ ٨َ ٨ً غربًا. مُدَّعين أنَّ هذا الانحناء الذي هو: ٨ْ ٣٠َ في مُخا، وفي مضيق باب المنْدب ٧ درجات أقلّ أو

(١) سبق أن عانى منها عند قدومه إلى مكَّة وبالتَّحديد في الطريق مابين ينبع وجدَّة؛ وتحدّثنا ـ حينها ـ عن هذا المرض.

أكثر بقليل، وقد أكّدنا أنّه في السُّويس: ٣٠ ١٣° ، فالنَّتيجة إذن تتقلّص بشكل مُعتبر على طول البحر الأحمر في الاتّجاه الجنوبي الشّرقي.

في ذلك البلد المحاط بالصَّحاري الرَّمليَّة تَندر الأمطار اللهمَّ إلا عند اعتدال الخريف، ففي هذه المدة تتساقط الأمطار بغزارة كي تمتلئ الآبار، والرِّياح السَّائدة في سَاحل جدَّة وتهبُّ باستمرار - تقريبًا - تأتي من جهة الشَّمال، ما عدا شهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر، ففي هذه الشُّهور يأخذ اتِّجاه الرِّياح الجنوبيَّة منها زاوية مَيلان رُبعي.

وُدِّع الجنُودُ الأتراك في جدَّة مثلما وُدِّعوا قبل ذلك في مكَّة، وغَادروا الأراضي المقدَّسة، ولم يبقَ في جدَّة سوى المدفعيِّين منهم.

وقد شاهدتُ رُسوَّ سَفينة ذات أعلام مُشرَّعة وطُبول يَعزف عليها مئتا جُندي أرسلهم الشَّريف إلى السَّاحل الأفريقي لتَحصيل الضَّرائب.

الشَّريف يَملك في السَّاحل الأفريقي جزيرة سَواكن التي تُسمَّى من قبل الجغرافيِّين سُواكم[١] Suakem، حيث يُوجد فيها مَيناء حَسن، كما يَملك أيضًا مَصوع في ساحل الحبشة وبعض الجزر الأخرى التي يديرها باسم سُلطان تُركيا.

وبأمرٍ من (السُّلطان) سُعُود أُلغي في جدَّة وكذلك في مكَّة ذِكر اسم سُلطان القُسطنطينيَّة من خُطب الجمعة التي تُقام في المساجد.

ووصل إلى جدَّة القَاضي السعودي لإدارة القَضاء باسم سُعُود، وفي الوقت نفسه فإنَّ الحاكم الزُّنجي عبد الشَّريف (غَالب) ما زال مُستمرًّا في حكم المدينة باسم سيِّده. مَزجٌ كهذا بين السُّلطات أدَّى إلى زَعزعة السُّلطة، وربَّما هذا هو ما ينتظرُه السُّلطان سُعُود. هذا القاضي حسبما

---

(١) لعلَّه يقصد الجغرافيين الأجانب، فجغرافيُّونا يعطونها الاسم نفسه. انظر مثلًا: ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ٣/ ٢٧٦؛ الشريف الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، ط. القاهرة، ١/ ١٠.

أخبروني يتبع المذْهب الحنْبلي، ومع ذلك فإنَّ هناك بعضًا من الأشخاص يدَّعون بأنَّ أتباع الدعوة الإصلاحية لا يسمحون بهذا الاختلاف المذهبي. أمثال هذه تدعو للارتياب في الأخبار التي يَرويها سُكَّان البلاد الأصليِّين.

وبالإضافة للمؤذِّنين، المنادين للصَّلاة بصوتٍ عالٍ من مَآذن المساجد فقد أوجد السعوديون في جدَّة نوعًا آخر من الدُّعاة الذين مع مُناداتهم للصَّلاة لديهم سُلطة تَنفيذيَّة لحثُ المسلمين على الذَّهاب إلى المساجد، ففي السَّاعة المحدَّدة يَتجوَّلون في الشَّوارع مُنادين: «هيَّا إلى الصَّلاة، إلى الصَّلاة» مُستَحثِّين الجميع كي يدفعوهم إلى التَّوجه نحو المسجد، مُستعجلين أصحاب الصَّناعات والتُّجَّار لترك محلاتهم ومَصانعهم ومَخازنهم لحضور الصَّلاة جماعةً خَمس مرَّات يوميًا كما يأمر به الشَّرع، كما يُنادون كثيرًا قبيل طُلوع الفَجر مُحدثين ضَجيجًا مُزعجًا في الشَّوارع لإجبار الجميع للنُّهوض والحضور إلى المسجد. أيُّ غيرةٍ مُتأجِّجة! هي بدون أيَّة شكٍّ أكثرُ نَقاءً ممّا يقوم به أولئك النَّاس الذين هم في السَّاعة نفسها يُحدثون الجلبة والإزعاج بطُبولهم لإيقاظ المتزوِّجين[١]، وفي هذه الأخيرة فالأمر مجرَّد حَالة، بينما هناك كلُّه روحاني. لكن ربَّما أنَّ لنداء الطُّبول أصلًا دينيًا مثلما هو حال دُعاة السعوديين، وهو ما سينتهي بانتكاسة كما هو مُتوقَّع[٢].

ومَلابس هؤلاء الدُّعاة متواضعة جدًّا، وهم يَمشون وكأنَّهم عُراة، ولا يضعون غير سِروال أبيض قصير، وعباءة تُوضع على أكتافهم مع عَصًا غليظة بأيديهم. وقد عَرفتُ بأنَّه في مكَّة قد وصل الأمرُ بهؤلاء المنبِّهين إلى التَّدخل لإلزام النَّاس بالحضور إلى المسَاجد، ولكن في جدَّة يُسيطر

---

(١) إشارة إلى مذهب ساد قديمًا في بعض المدن (Behetrya)، كان من حقِّ أهلها أن يؤمِّروا عليهم من اختاروه. انظر: F. CORRIENTE, Nuevo diccionario, lit. (B).

(٢) مقارنة لا نوافق الكاتب عليها، لاختلاف الغرض وبُعد المقصد بين الطَّرفين، فالمقارنة هنا مرفوضة أصلًا ومضمونًا.

الاعتدال أكثر، فعمَلهم هُنا لم يتجاوز النِّداء والزَّجر، ودَفْع من يَجدونهم في طريقهم، هذا على الأقلّ ما استطعتُ رُؤيته من خلال الشَّبابيك التي تُطلُّ على السَّاحة.

خِلال إقامتي في جدَّة وصل من بلاد البَنْغال باخرة ضخمة تحمل إلى جانب الأُرز مركبًا حربيًّا صغيرًا ذَا علم إسلامي أحمر اللَّون، مزوَّدًا بعشرين مِدفعًا. ويستقبل السُّوق التِّجاري كلَّ عام أربع أو خمس سُفن من هذه الأنواع، تَجلبُ الأرز ومُنتجات هنديَّة أخرى.

الطَّريق إلى يَنْبُع:

في يوم السَّبت الواحد والعشرين من شهر مارس (١٨٠٧م الموافق للحادي عشر من مُحرَّم ١٢٢٢هـ) «الذي هو يوم الاعتدَال»، وبعد أن غَربت الشَّمس بقليل ركبتُ نوعًا من القوارب يُسمُّونه في هذه البلاد «سمبوك»[1]، وبعد ساعة ونصف من المسير بين مجموعة من الصُّخور التي تُشكِّل فُرضة بحرية إلى جانب الشُّعب المرجانيَّة وصلتُ إلى السَّفينة التي ستُقلُّني إلى السّويس، كانت نفس الدَّاو الذي جئتُ به.

٢٢ مارس:

ظلَّت السَّفينة راسيةً طيلة ذلك اليوم قُرب مَدخل الميناء تقريبًا. رصدتُ درجة العَرض فحصلتُ على نتيجة ٢١ْ ٣٦َ ١١ً شمالًا، فتكون جدَّة بهذا على بُعد ثلاثة أميال ونصف إلى الجنوب الشَّرقي بانحراف رُبع درجة نحو الجنوب، وكان لدينا أربعة أذرع ونصف من الماء فوق قَعرٍ من الرِّمال.

وقد أبحر معنا على ظَهر هذه السَّفينة اثنا عشر راكبًا من الحجَّاج

---

(١) هو الزَّورق الصَّغير، وللاستزادة من هذا النَّوع من المراكب، انظر: هانس كندرمان: **مصطلح السفينة عند العرب**، ص ١٣٤ ـ ١٣٧.

الأتراك والعرب، وكانت مُثقلة أيضًا بأكياس القَهوة؛ وقد حُجزتْ لي مَقصورة وحدي في مُؤخِّرة السَّفينة، أمَّا خَدمي فقد أخذوا مَقاعدهم داخلها.

كان الجوُّ صَحوًا لكنَّه حارٌّ جدًّا، وكان مقياس الحرارة الذي كنتُ أحمله في كبينتي قد صعد إلى ٢٣ درجة ونصف، والرِّياح كانت مُواتية، ولكن الرَّئيس أو القُبطان لم يُنهِ إجراءاته وأوراقه إلا بحلُول السَّاعة التَّاسعة ليلًا، وما أن وصل إلى ظَهر السَّفينة حتى أمر بالاستعداد للرَّحيل.

٢٣ مارس:

تحرَّكت السَّفينة في تمام السَّاعة الرَّابعة والنِّصف صباحًا، وكانت تُبحر بنا عِبر صخور بحريَّة لا تُحصى، تسدُّ طريق الدُّخول إلى الميناء، وشُعب بحريَّة أخرى لم نتَمكَّن من رُؤيتها حتى السَّاعة الثَّامنة. وعند مُنتصف النَّهار نشطت الرِّياح الغربيَّة، وقد رسَت سفينتنا عند السَّاعة الواحدة والنِّصف في مَرسى سيئ يُسمَّى Delmaa[1].

وفي المكان نفسه وُجدت هناك خمسة من نوع مَركبنا، كانت تأخذ نفس اتِّجاهنا الذي نسلُكه.

وكان البحر هائجًا؛ ولذا تعرَّضت سفينتنا لتأرجُحات بسبب اضطراب الأمواج.

٢٤ مارس:

في تَمام السَّاعة الرَّابعة صباحًا أطلقنا أشرعة مَركبنا، وعلى الرَّغم من أنَّ الرِّياح لم تكن مُواتية إلا أنَّ السُّفن كانت تسير بشكل جيِّد. قطعنا الجزء الأكبر من طريقنا عبر مَضيق مائيّ «قنال» بعَرض فرسخين، مُتَّجهين

---

(١) لم أستطع التحقق من القراءة الصحيحة لهذا الاسم.

صوب الشَّمال بين ساحل الجزيرة العربيَّة وسلسلة من الشُّعب البحريَّة التي تُغطِّي سطح البحر على امتداد النَّظر، هذه الشُّعب كلُّها وبدون استثناء على مُستوىً واحد، وبصعوبة تَنغمر في الماء على عُمق ستِّ بوصات. أما الأمواج فقد كانت ترتطم بشدَّة عند اصطدامها بهذه الشُّعب، لكنَّ الماء في بقيَّة القنال كان هادئًا وكأنَّه مياه نَهر.

وعند مُنتصف النَّهار عَبرنا من أمام ثول[١] Tual وهي قرية صغيرة تحيط بها بعض الأشجار، وقد سجَّلتْ أرصادي درجة عَرضٍ مقدارها ٢٢° ٥َ ٤٦ً شمالًا، ولن يتجاوز مع ذلك مقدار الخطأ في حساباتي الدَّقيقة أو الدَّقيقتين. وفي السَّاعة الثَّانية رَسا مَركبنا على بُعد ثمانية أميال إلى الجنوب الغربي من قرية صغيرة أخرى اسمها «أمَّ المسك[٢] Omelmusk»، خطُّ طُولها حسب أرصادي هو: ٣٦° ٣١َ ٠ً شرقًا من مَرصد باريس، مع أنَّ نسبة الخطأ برصْدي في تلك الحالة يمكن أن تَصلَ في أسوأ الحالات إلى دقيقة زمنيَّة واحدة أو رُبع درجة طوليَّة.

أمَّا مَضيق مارتي[٣] Marte فقد كانت مَلحوظاتي لخطِّ عَرضه تُشير إلى: ٢٢° ١٣َ ٠ً شمالًا، وهذا مَرسى رائع على الرَّغم من أنَّه يَبعد أكثر من مِيلين عن الأرض.

٢٥ مارس:

ظلَّت سَفينتُنا راسيةً بنا طيلة ذلك اليوم، وكانت مُثقلة بالحمولة التي كان من أبرزها ثلاث مئة قِنطار من القَهوة القادمة من جدَّة دون دَفع مُستحقاتها، وقد حمَّلُوها على ظهر السَّفينة بواسطة القوارب؛ وكانت هذه

(١) هكذا تبدو القراءة، لكن في خريطة أطلس المملكة العربية السعودية وجدنا أن درجة العرض التي وضعها تقترب كثيرًا من درجة عرض خريطة الأطلس. انظر ص٢٣٠.
(٢) لم أجد لها ذكرًا فيما توافر لي من مصادر، ويبدو أن الأمر متعلق باختلاف التسمية.
(٣) هكذا، وهي بهذا النطق تبدو كلمة أجنبيَّة.

البضاعة ـ حسبما قالوا ـ لسِيدي العربي جيلاني التَّاجر الرَّئيس في المدينة، وفي الوقت نفسه هو صَديقي، وبالفعل استلمتُ بواسطة أحد تلك المراكب رسالةً من ذلك الشَّخص وفيها يُوصيني بالتَّوجُّه إلى أحد أصدقائه من سُكَّان المدينَة (المنوَّرة). لقد كانت مثل هذه الزِّيادة عبئًا في حمولة السَّفينة وهذا تسبَّب في دُخول المياه إليها.

لقد تلقَّت بعض من السُّفن الأخرى بضائع مُهرَّبة في ذلك المرسى الذي كانت المياه فيه بعمق ١٨,٣٧ مترًا[١] حتى قاعه الموحل.

رصدتُ سَير الشَّمس وحصلتُ على نتيجة طول: ٢٠° ١٨′ ١١″ ، وهو ما يُؤكِّد نتيجة ما حصلتُ عليه عند مضيق مَارتي Marte، لقد حالت بيننا وبين اليابسة جزيرة مرتفعة وواسعة بما فيه الكفاية. وقد قَفز القُبطان إلى الزَّورق وألقى بشَبكة الصَّيد، وعاد ببعض السَّمك.

يَنخفضُ السَّاحل في ذلك الموضع حتى يَصل إلى بُعد فرسخ من اليابسة الدَّاخلة حيث يَبدأ صفٌّ من الجبال العالية الشَّديدة الانحدار، لكنَّها مُنفصلة عن بعضها، وتَظهر بعض الأحراش الصَّغيرة، والأشجار والنَّباتات المتناثرة هنا وهناك، ولكنَّ الجبال عارية من كلِّ نَبات.

لقد احتفظ الجوُّ طيلة الوقت بالغَيم، وفي المساء ازدادت قوَّة الرِّياح وابتدأ البحر بالهَيَجان بعاصفةٍ شديدة، لكنَّه في مَرسانا كان هادئًا تمامًا.

٢٦ مارس:

على الرَّغم من أنَّ اتِّجاه الرِّياح الشَّمالية كان مُعاكسًا لاتِّجاهنا، لكنَّنا نشرنا أشرعتنا والبحر ما زال مُواصلًا هيَجانه والرِّياح قويَّة، وقد عَانى

---

(١) ذكر المؤلِّف brazas وهو مقياس طول يعادل ١، ٦٧م. انظر: F. CORRIENTE, Nuevo diccionario, lit. (L).

مركبنا كثيرًا من زيادة الحمولة الكبيرة، وبسبب تَحطُّم صَاري إحدى السُّفن المرافقة وجدنا أنفسنا مُجبرين على العودة لنرسوَ في أم المسك.

ومع أنَّ القُبطان قد فرّغ قليلًا من الحمولة فنقل عشرين كيسًا من القَهوة إلى مركب آخر إلا أنَّ الماء لا يزال يتسرَّب إلى السَّفينة، ويبدو لي أنَّه بحاجة إلى تفريغ المزيد من الحمولة. وقد رأينا سُفنًا أخرى متتابعة تصل من جدَّة آخذةً نفس الاتِّجاه، حيث رسَت بجانبنا مع غروب الشَّمس، وعندها شكَّلنا مجموعة تتكوَّن من عشرة مراكب من نوع الدَّاو، بالإضافة إلى مراكب أخرى صغيرة.

وعلى الرَّغم من استمرار الجوّ صافيًا فإنَّ صحَّتي لم تسمح لي بالقيام بأيَّة أرصاد.

٢٧ مارس:

في تمام السَّاعة الرَّابعة والنّصف صباحًا أبحرنا مع رياح مُعاكسة. وعند مُنتصف النَّهار كُنَّا على بُعد ستَّة أميال جنوب أو جنوب غرب Dunibatz[(١)]، وهي قرية صغيرة على ساحل الجزيرة العربيَّة، وخطُّ عَرض مَسار الشَّمس أعطاني بُعد: ٢٢° ٣١َ ٥ً شمالًا، ومن ثم فإنَّ خطّ عَرض (دونيباتز) يجب أن يكون: ٢٢° ٣٤َ ٠ً شمالًا.

وفي السَّاعة الثَّانية بعد الظُّهر دخلنا ميناء رَابغ؛ وقد طلبتُ منهم أن ينزلوني إلى الأرض حيث أخذتُ بعض المحار والأعشاب البحريَّة.

وبما أنَّ الأُفق كان مَحجوبًا من قبل سِرب مُتواصل من السُّفن فقد كان مُستحيلًا عليَّ رصدُ خطِّ العَرض في البحر.

وفي رَابغ تُوجد بعض المزارع حيث قدَّموا لي البطيخ والقَرع. وهناك

(١) تبدو الكلمة صعبة القراءة والتحقيق مع حذف «du» التي تستعمل عادة للتعريف أو الإضافة باللغة الفرنسية.

عدد كبير من الأشجار المحيطة بالقرية التي تبعد فرسخين من هذا المرسى.

٢٨ مارس:

قفزتُ إلى اليابسة في السَّاعة الرَّابعة صباحًا حاملًا معي التِّلسكوب، ورصدتُ بشكل جيِّد احتجاب الكوكب الثَّالث من تَوابع المشتري الذي أعطاني خطّ الطُّول في رَابغ ٣٦ْ ٣١َ ٤٥ً شرقًا من مرصد باريس.

كانت السَّاعة تُشير إلى السَّادسة تقريبًا عندما رفعنا شِراع مركبنا، وكانت الرِّياح ساكنة، واتَّجهنا بالطَّبع نحو الغرب ثمَّ الجنوب الغربي حتى توقَّفت الرِّياح تمامًا، وعندها كان علينا سحب المراكب بواسطة الزَّوارق، وفي تمام السَّاعة العاشرة هبَّت رياح غربيَّة تحوَّلت باتِّجاه الشَّمال الشَّرقي. وفي مُنتصف النَّهار حصلتُ على رصدٍ لخطِّ العَرض هو: ٢٢ْ ٣٨َ ١٤ً شمالًا.

وبعد مَسير بقيَّة ذلك اليوم كله باتِّجاه الشَّمال الشَّرقي حتى الرَّابعة عصرًا توقَّف مَركبنا في مَرسى الخَبت[١] El Hhabt الذي وجدتُ أنَّ طُوله حسب الكرونومتر هو: ٣٦ْ ١٨َ ٤٥ً شرقًا من مرصد باريس.

إنَّ خُطوط العَرض المرصودة من قبلي في ذلك اليوم واليوم السَّابق له لا تختلف فيما بينها أكثر من ٧َ ٩ً، وتحديد الطُّرق أعطاني ما هو قريب جدًّا من خطِّ عرض رَابغ الذي أظنُّ أنَّه موازٍ لرصدي في ذلك اليوم تقريبًا باستثناء خطأ في دقيقة واحدة.

---

(١) هي كما تبدو في خريطة أطلس المملكة العربية السعودية، ص٢٣٠ جنوب رابغ وليس شمالها كما يبدو من خط الرحلة وباسم «خبت القري» فهل هي المقصودة هنا؟ أم أنَّ الأمر يتعلَّق بمصطلح أطلقه العرب على ما اتسع من الأرض، ولذا أطلق على مواقع عدة كما يقول الجاسر في المعجم الجغرافي، ٢/ ٤٩٠.

وقد مررنا عصر هذا اليوم من أمام مستورة Meschtura، وهي على بُعد فرسخ ونصف من الخَبت حسبما قالوه لي.

٢٩ مارس:

عاوَدت القافلة المسير في تمام السَّاعة الرَّابعة والنِّصف صباحًا مع نَسيم عليل، وبعد ذلك بقليل ساد هُدوء تام، وكان الأمر في هذه الحالة يَستدعي قَطر جميع المراكب كما هو الحال في اليوم السَّابق، لكنَّ الوضع تغيَّر إذ هبَّت في السَّاعة العاشرة رياح غربيَّة طيِّبة.

أخذنا طريقنا باتِّجاه الشَّمال الشَّرقي بين مَتاهة من الشُّعب البحريَّة وكُتل من الصُّخور إلى جانب زُهور الماء، ولا تصل المسافة بين الكتلة والأخرى أكثر من اثني عشر إلى خمسة عشر قدمًا. مررنا بعد ذلك بمضايق يبلغ عرضها ما بين الخمسين إلى الستِّين قدمًا، وفي السَّاعة السَّادسة اصطدمت السَّفينة بصخرة، ولحسن الحظّ فقد كانت الرِّياح هادئة، وسيرها بطيئًا.

كنّا نسير على بُعد ميلين أو ثلاثة من اليابسة باستمرار، وكل ما يمكن مشاهدته من قاع البحر كان مزروعًا إمَّا بالشُّعب المرجانيَّة أو الكُتل الصَّخرية والزهور المائية.

وعند مُنتصف النَّهار رصدتُ خطَّ العَرض وكانت النَّتائج: ٢٣° ٢١َ ٤٤ً شمالًا، وتبقَّى إذن للوصول إلى رأس عبيد[1] Ras Abiad الواقع إلى الجنوب والجنوب الشَّرقي على ساحل الجزيرة العربيَّة عشرة أميال.

واصلتْ السَّفينة رحلتها باتِّجاه الشَّمال الشَّرقي، وكانت الرِّياح التي تهبّ من جهة الغرب حسنة، وبعد أن اجتازت المدَار أرست قُبالة

---

(١) هذه قراءة محتملة لكنها ليست الوحيدة، ومع ذلك لم أجد لها ذكرًا فيما كتب حول هذه المنطقة.



الجار⁽١⁾ Algiar بين الشُّعب البحريَّة، وكان ذلك قبل السَّاعة الرَّابعة بقليل.

لقد استمتعنا برؤية مَشهد فريد في مُنتصف النَّهار، وهو معركة بين الأسماك، ونظرًا لهدوء البحر فقد ظهر في مُحيط دائرة قُطرها بين مئة ومئة وعشرين قدمًا دوَّامة من الهيَجان، برزت فجأةً مَصحوبة بزَبد البحر، وصَخبٌ هائل استمرَّ لمدَّة نصف دقيقة، وعاد البحر بعدها إلى هُدوئه، وما أن انتهى هذا حتى عاد مرَّة أخرى ليُكرِّر المشهد نفسه؛ وفي الخارج وحول الدائرة الكبيرة كان يُلحظ خلال الدوَّامة أمكنة عديدة تُؤشِّر إلى موقع المعارك الجانبيَّة أو الفرديَّة، دوَّامة الهيَجان هذه وسَّعت من دائرة المعركة، واجتاز المركب حافَّة الدَّائرة لحظة الهجوم، وللأسف فقد انشغلتُ برصد مَسير الشَّمس عند مُنتصف النَّهار، ولهذا كنتُ مجبرًا أن اختار أحد المشهدين فركَّزتُ اهتمامي نحو الفَلك، وحُرمتُ بذلك من فرصة رؤية الطبيعة القتاليَّة للأحياء المائيَّة، لكن عرفتُ من خلال رفاق السَّفر الذين رأوا تَعارك مجموعات كبيرة من الأسماك فيما بينها، ويَبلغ طول السَّمكة منها قدمًا.

وبينما كانت المعركة مستمرة لاحظوا حضور أعداد لا تُحصى من الطُّيور المائيَّة أو الطيور البحريَّة الأخرى، من كلِّ جوانب الأفق ومن مسافات بعيدة، لونُها أبيض تمامًا، حَامت فوق منطقة المعركة لمسافة ستِّ بوصات أو ثمان فوق سطح الماء، وبلا شكّ فإنَّ ذلك كان بدافع الحصول على السَّمك الميِّت أو الصَّغير الذي لا يزال حيًا؛ وهكذا استمرَّ مشهد المعركة حتى انقطعت الرؤية عنَّا.

---

(١) هي ميناء الجار أو الرايس، سبق الحديث عنها في الفصل الأول.

٣٠ مارس:

رُفعت المراسي، وغادرنا المرسَى في مُنتصف اللَّيل، ومع استمرار هُدوء البحر فإنَّ الزَّوارق كانت تتدخَّل لسحب مراكب الدَّاو بين الفينة والأخرى، وكان مسيرنا يتمُّ ببطءٍ شديد. في السَّاعة العاشرة صباحًا هبَّت رياح جنوبيَّة، وفي مُنتصف النَّهار تراءت لنا مدينة يَنبع، ورسونا بمينائها مَسرورين في تمام السَّاعة الثَّانية إلا رُبعًا.

كانت الرَّغبة الجامحة تَحدوني لمواصلة السَّفر إلى المدينَة (المنوَّرة) لزيارة قبر الرَّسول ﷺ على الرّغم من حَظر السعوديين الصَّارم. لقد كانت خُطوة تحمل في طيَّاتها المغامرة، ومع ذلك فقد ظَفرتُ ببعض الحجَّاج الأتراك والعرب المغاربة ممَّن يَودُّون مُشاركتي أخطار هذه الرِّحلة.

وبما أنَّ عائلة القُبطان كانت في يَنبع، وهو المكان الذي لا بدَّ أن ترسو فيه كلُّ السُّفن لعدَّة أيَّام، ولهذا فمن المناسب له أن تكون عودتي خلال ثمانية أيَّام أو تسعة.

كنتُ أرغبُ في الوقت نفسه في تحديد الموقع الجغرافي للمدينَة (المنورة)، لكن مع اقتراب ظُهور هِلال الشَّهر الجديد، وهو ما يَستحيل معه خلال هذه المدَّة رَصدُ الأبعاد، لكنَّ ذلك مُمكن صباح يوم الرَّابع من أبريل، وحتى في هذا اليوم فإنَّ الرَّصد سيكون ضعيفًا، ويصعب جدًّا الحصول عليه بواسطة انعكاس مِنظار الدَّائرة؛ ومع ذلك فقد كان من الممكن رصد كُسوفين لكوكبين أيضًا، لكنَّ الأول سيظهر في صباح يوم الثَّاني من أبريل، والآخر في اليوم التَّاسع من نفس الشَّهر، ولذا كان من المستحيل عليَّ رَصدُ أيٍّ منهما في المدينة، لأنَّ سفري منها إلى يَنبع سيَستغرقُ أربع ليالٍ؛ كما رأيتُ أيضًا ولظرفٍ خاص أن أرصدَ فارقَ التَّوقيت بين المدينَة ويَنبع لعدم وجود سَاعة قادرة على مُقاومة حركة الجمل ذي السَّنامين أو الجمل ذي السَّنام الواحد. ولم يتبقَّ لي من حيلة

في الحصول على درجة المدينة الطُّوليَّة، وأعترفُ أن اجتماع كلٍّ هذه العوائق قد سبَّبَ لي كآبةً حقيقيَّة.

بعثتُ في الحال لطلب الجمال ذات السَّنامين بهدف التَّعجيل في السَّفر، لكن على الرغم من كلّ ما بذلتُه من جهد فقد أصبح من المستحيل الرَّحيل قبل حلول اللَّيلة التَّالية. ولم أحمل معي غير حقيبة صغيرة مع الأجهزة، ورافقني ثلاثة من الخدم وبقي الآخرون في السَّفينة مع أمتعتي.



الفصل العاشر

السّفرُ إلى المدينَة ـ الجدّيْدة ـ اعـتـراض عـلـي بَـايْ مـن قِـبـل الـسـعـوديـيـن ـ نَـتـائـج سـيّـئـة ـ إلزامه على العَودة مع قَافلة من الـعـامـلـيـن فـي الـحـرَم الـمـدَنـي ـ مَـديـنـة يَنْبُـع.

خرجتُ من يَنبُع يوم الثُّلاثاء الحادي والثلاثين من شهر مارس (الحادي والعشرين من محرَّم) في تمام السَّاعة الخامسة عصرًا، مُمتطيًا جملًا من ذوات السَّنامين، وكان برفقتي ثلاثة من خَدمي، وعدد من الحجَّاج الأتراك والمغاربة، وحوالي مئة وخمسين جملًا من نفس فصيلة مطيَّتي.

أخذنا طريقنا باتِّجاه الشَّرق وبانحراف رُبع درجة نحو الجنوب الشَّرقي في سهل رملي مُمتدّ لمساحات قاحلة، لكن يظهر بين الحين والآخر أثر لبعض النَّباتات.

إنَّ الجِمال ذات السَّنامين تقطع بشكل عام أكثر من فرسخ في السَّاعة، وهي تُهروِل بنا أحيانًا، لكنَّ جسمي لم يستطع تحمُّل عُنف حَرَكتها، وفي مُنتصف اللَّيل وجدتُ أنَّ قُواي قد خَارت بسبب تمايل الحيوان من ناحية، كما أنَّ المقعد المعدّ كليًّة من الخشب وذُون رِكاب غير مريح، ولهذا كنتُ مُضطرًّا لأن أقصر الخُطى إلى حدّ مَا. وفي السَّاعة الرَّابعة صباحًا اتَّجهنا نحو الشَّرق وبانحراف رُبع الدَّرجة نحو الشَّمال الشَّرقي بين تِلال تضيق كلَّما تقدَّمنا، وفي السَّاعة السَّادسة والرُّبع أمرتُ بالتَّوقُّف في وادٍ أظنُّ أنَّه يَبعد حوالي خمسة أو ستَّة عشر فرسخًا من مدينة يَنبع.

كانت الجبال ذات الصُّخور الشِّستيَّة بأنواعها المتعدِّدة تُحيط بنا،

وهي جرداء تمامًا، ومع عدم توافر المياه في ذلك الوادي إلا أنِّي عثرتُ على بعض الحشائش الصغيرة لكنَّها جميلة جدًّا، ومن بينها نوع فخم يعرف باسم سولانوم Solanum من ذوات الزُّهور الكبيرة.

كان الشُّعور بالمرض ينتابني دائمًا، وخلال الرِّحلة تقيَّأتُ بشدَّة مرَّتين قبل الفجر. وفي اليوم نفسه الأربعاء الأول من إبريل (الموافق للثاني والعشرين من محرَّم ١٢٢٢هـ) في السَّاعة الثانية والنِّصف عصرًا، واصلتُ المسير باتِّجاه الشَّرق سالكًا نفس الصَّحراء في وادٍ ذي مَظهر فريد، فجبال الجهة الجنوبيَّة كلُّها رمليَّة مُتحرِّكة بيضاء تمامًا، أمَّا جبال الجزء الشَّمالي فإنَّها مكوَّنة من صُخور الرُّخام السُّماقي، ومن الصُّخور المجزَّعة أو المعرَّقة بألوان اليَشب jaspeado ومن الصخور الشِّستية esquistos. وطُول هذا الوادي حوالي مئة تويسا[١]، وعند تأمُّل تلك الجبال الرَّمليَّة شديدة الارتفاع مثلها مثل تلك الصَّخريَّة لا يَملك المرءُ معها إلا أن يتعجَّب من تلك القُوَّة التي كدَّسته، ومن ثَمّ حافظت على تراكم هذه الرِّمال المتحرِّكة التي تُشكِّل جبال الجنوب، كلُّ ذلك دون أن تحمل الرِّياح ذَرَّةً واحدةً منه إلى جبال الشَّمال. ويتشكَّل عُمق الوادي من مزيج من الصُّخور والرِّمال، وتوجد بعض النَّباتات. وتضمُّ جبال الشَّمال تركيبة جميلة من الأحجار الرُّخاميَّة مُتعدِّدة الألوان والمعادن المصهورة، أمَّا صُخور اليَشب المجزَّعة فتتوافر كلُّ ألوان أو درجات الأخضر، ومن بينها ما هو رائع، كما لا تنقصها الصُّخور الشِّستية بكل أنواعها.

وعند غُروب الشَّمس وجدتُ نفسي بين مجموعات عديدة من الجبال البُركانيَّة حالكة السَّواد، وتعرض لوحات فنيَّة مُتنوعة وجذَّابة.

وبعد غُروب الشَّمس بدأتُ بالصُّعود لاجتياز سلسلة الجبال، لكنَّ السَّاعة وصلت إلى العاشرة ليلًا ولم أصل إلى القمَّة بعد، ومن ثَمَّ شرعتُ

---

(١) سبق التعريف به، وللتذكير فهو اسم لمقياس طول قديم.

في النزول. وفي كلِّ ذلك الفضاء توجد عوائق مُؤذية، تتمثَّل في غابة من شُجيرات شائكة مُزعجة جدًّا خاصة عند المسير ليلًا، وفي كلِّ لحظةٍ يُحسُّ المرءُ بالألم والجروح على الوجه واليدين والقدمين. وعند انبلاج الفجر أبرقت السَّماء مرَّات مُتعاقبة في جهة الشَّرق خلال ساعة من الزَّمن، وقد أشعلت هذه الظَّاهرة حَماس جماعتي الذين نَسبوه إلى النَّبيّ المصطفى.

مررتُ عند مُنتصف اللَّيل بقرية تُسمى الحمراء[1] Hamara لكنها كانت مُظلمة تمامًا، ولم أُميِّزْ سوى بعض النِّيران؛ وقد بدأ الطَّريق يميل أكثر نحو الشَّمال، وقادنا إلى وادٍ ضيِّق مُنحدر قليلًا، وقريب من قرية أُخرى. وقد تابعنا المسير حتى كانت السَّاعة الخامسة صباحًا، فوصلتُ إلى الجديِّدة[2] Djideida وأنا مُتعب تمامًا ونصف ميِّت، فأنزلوني من راحلتي ومدَّدوني على فِراشي في وسط السَّاحة، وقد كان أدلائي من العرب قد وعدوني بالوصول إلى الجديِّدة عند مُنتصف اللَّيل حيث كان علينا أن نتوقَّف.

---

(١) هي قرية تسمى الحمراء وهي معروفة منذ القرن التاسع الهجري وما زالت تحتفظ باسمها حتى الآن على الرغم من أنها أصبحت أطلالًا دارسة من البيوت المتناثرة والحيطان المتهاوية. انظر: سليمان الرحيلي: **الطريق النبوي إلى بدر، معالم وعبر**، المدينة المنورة ١٤١٩م، ص٤٠؛ وتقع في وادي الصفراء قرب دائرة عرض ٣٢ ٥ ٥ شمالًا، وخط طول ٣٨ ٥ ٣٥ شرقًا وتبعد عن المدينة المنوَّرة ١٢١كم. سيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، ص١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) أوردها ابن عبدالسَّلام بصفتها إحدى محطَّات طريق الحاجّ إلى المدينة المنوّرة، انظر: **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام**: ص ص ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢. وهي محطة حديثة للقوافل، ومع شهرتها في كتب **الرحالة** المتأخرين إلا أنها لم تعرف قديمًا، ولم يرد ذكرها في كتب السيرة ومعاجم البلدان، وتعرف بأم أذيان نسبة إلى عين ماء فيها وما زالت كذلك إلى اليوم، ويسكنها المغامسة من حرب. انظر: سليمان الرحيلي: **الطريق النبوي إلى بدر**، ص٣٨.

كنتُ نتيجة لذلك مُستعدًا لمراقبة الكواكب على الرَّغم من سُوء حالتي الصِّحيَّة، وما سبَّبته لي الأشجار الشَّائكة في الطَّريق، وأعتقدُ أنَّ الإرهاق قد بلغ من مُرافقيَّ في هذه الرِّحلة مَبلغه أيضًا، مع عدم المقارنة، فإنَّهم أقوى وأصحّ منِّي، وكانوا قد أخَّروا مَسيرتنا وهذا أبطأ بي في الوصول لعدَّة ساعات، ولكن ممَّا خفَّف من هذه المشكلة وجود مُشكلة أخرى، حيث إنَّه حتى في حالة وصولنا في موعدنا المحدد لن أتَمكَّن من الاستفادة بشكلٍ مُثمرٍ من أرصادي الفلكيَّة، لأنَّ ذلك سيتزامن مع ظُهور المشتري في نفس لحظة طُلوع القَمر، وكلاهما ستُغطِّيهما السُّحب حتى مَجيء النَّهار.

ومن الجدير ذكره دقَّة قَائدي الجمال، ففي كلِّ وقت صَلاة يوقفون القافلة، ويُنادون: «إلى الصَّلاة إلى الصَّلاة»، وعندها ينزل الجميع ويتيمَّمون بالرِّمال، وبعد صَلاة الجماعة يعاودون الرُّكوب لمواصلة المسيرة.

وفي لَيلة من اللَّيالي كنتُ أسير في مقدِّمة القافلة، وسمعتُ ضَجَّة من خلفي، وعندما التفتُّ وجدتُ أحدَ قائدي الجِمال يُهدِّد الخازندار أو رئيس خدمي بعصًا غليظة بيده، يُريد إجباره على التَّراجُع، حضرتُ في الحال لمعرفة ما حدَث، كان العربي قد ثارت حميَّته، ولم يتوقَّف عن تِكرَار:

- آه سيدي باي، هذا الرَّجل مُجرمٌ كبير.
- ماذا فَعَل؟
- إنَّه ارتكبَ إثمًا لا يُغتفر.
- ولكن ماذا فَعَل؟ ألححتُ عليه.
- سوف لن يواصلَ المسير معنا، لن يَذهب إلى المدينة، لن أسمحَ له.

وكان خادمي مُندهشًا.

- قلتُ ـ مكرِّرًا ـ للعَربي: إذَنْ ما جَريمتُه؟

- نعم سيِّدي علي، لقد اقترف ذنبًا كبيرًا، إنَّه يُدخِّن التِّبغ. ولن أدعه يذهب للمدينة، لن أرضى بذلك!

لقد بذلتُ جُهدًا كبيرًا كيْ أُهدِّئ الرَّجل العربي، فقلتُ له بأنَّ هذا الشَّخص شَريفٌ مَغربي يَعمل في خِدمتي، ويَجهلُ تمامًا تَعليمات (ابن) عبدالوهَّاب، وتعهدتُ له باسمه بأنَّه لن يُعاودَ التَّدخين مرَّة أخرى. فطلب أن يَحلف خادمي اليمين، وأن يَرمي الغِليون مع القليل من التِّبغ المتبقِّي، وبهذه الشُّروط فقط سمح له بمواصلة الرِّحلة.

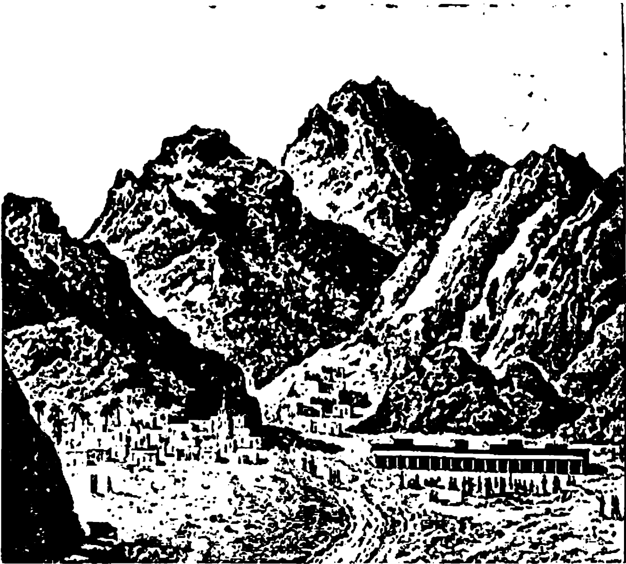
بَلدةُ الجديِّدة جَدُّ كئيبة لأنَّها واقعة في عُمق وادٍ، وبُيوتها واطئة ومبنيَّة من الحِجارة الصَّلدة دون مُلاط، وفيها ساحة كبيرة عليها تُفتح بعض الدَّكاكين حيث يُقام السُّوق، والماء الذي يَسقيها يأتي من عَين رائعة، ولا تنقصها بعض النَّباتات وأشجار النَّخيل، ومع ذلك فالحالة كئيبة للغاية.

ورئيسُ القرية الذي يُلقَّب بـ«شَيْخ البَلد» والقاضي هما من نفس البلاد، وهم تحت نُفوذ السُّلطان سُعُود الذي يَدفعون له عُشر غَلاتهم.

في صحراء المدينة يَنمو الشَّجر الذي يُستخرج منه البَلْسَم، المعروف بـ «بَلْسَم مكَّة»[(١)]، ولعدم استطاعتي التَّوقف تركتُ أمر التَّعرُّف إلى هذه الشَّجرة إلى حين عَودتي.

لقد بدا لي أنّه من المستحيل مُواصلة السَّفر على الجمل ذي السَّنامين، لذا تركتُ القافلة تُواصل المسير واعدًا إيَّاهم اللِّحاق بهم سريعًا، ومكثتُ ممدَّدًا في وسط السَّاحة، أغطُّ في نَوم عميق، ولم يكن في رِفقتي غير الخدم، وحين استيقظتُ وجدتُ نفسي مُحاطًا بكثير من النَّاس الذين اصطفُّوا للفرجة عليّ. فتحتُ خزانة أدويتي ووضعتُ

(١) سبق الحديث عنه وعن خصائصه ومزاياه في الفصل السادس.



منظر لبلدة الجديِّدة في طريق المدينة المنوَّرة،
وفي هذه المنطقة يوجد الشجر الذي يستخرج منه بَلسَم مكَّة

الكمَّادات على الخدوش والجروح في رِجليَّ ويَدَيَّ. . . إلخ بعد دهنها بالبلْسم الموجود لدي. تناولتُ بعدها بطيخة لذيذة كانوا قد برَّدوها لي جيِّدًا.

ومع كلِّ ذلك وجدتُ نفسي غيرَ قادرةٍ على الحِراك إطلاقًا، خَدمي اهتموا كثيرًا بالأمر، فأحضروا لي أربعة جِمال وشِبريَّة مُشابهة لتلك التي استخدمتُها في رحلتي إلى مكَّة. وفي صباح نفس اليوم الخميس الثاني من أبريل امتطيتُ تلك الراحلة، لا يصاحبني سوى خدمي وحَادي الجمال، وخرجتُ من الجديِّدة في السَّاعة الثَّامنة والنِّصف آخذًا طريق المدينَة التي

لا تبعد ـ حسبما توافر من معلومات ـ سِوى ستَّة عشر فرسخًا جهة الشَّرق.

أعتقدُ أنَّ الجديِّدة تقع على بُعد حوالي ثمانية وعشرين فرسخًا إلى الشَّرق، وانحراف بمقدار رُبع درجة إلى الجنوب الشَّرقي من مدينة يَنبع. وقد توجَّهنا نحو الشَّرق فالجنوب الشَّرقي مُخترقين واديًا فسيحًا.

وبعد ساعتين من خُروجنا من بلدة الجديِّدة خرج علينا اثنان من القوات السعودية من بين الجبال واحتجزا جِمالنا، وسألاني:

ـ إلى أين أنت ذَاهب؟

ـ أجبتُهم: إلى المدينَة.

ـ لن تَستطيعوا مُواصلة السَّفر.

عندها تقدَّم إليَّ مَسؤول مع اثنين من الجنود مُمتطين جمالهم لاستجوابي من جديد، كان المسؤول يشكُّ في كوني تُركيًّا، وهدَّدني بقطع رأسي، ودون أن ترعبني تهديداته أجبتُه برباطة جأشٍ عن أسئلته، وقد أكَّد خدمي أجوبتي، وعبثًا دارت بخَلدي في تلك اللَّحظة صُورة الخبر الذي انتشر في جدَّة بأنَّ كلَّ الأتراك الذين خرجوا من مكَّة ذُبحوا[1]، ومع ذلك تَمالكتُ نفسي واحتفظتُ بهدوئي. ثمَّ أمروني أن أُسلِّم النُّقود التي في حَوزتي فناولتهم أربع دُورو كنتُ أحملُها في جَيبي، فألحُّوا بأن أدفع المزيد، ولكنِّي قلتُ لهم بأنِّي لا أملكُ أكثر، وبإمكانهم تفتيش أمتعتي لو

(١) عندما امتد النفوذ السعودي إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م حرص الإمام سعود على خدمة الحرمين الشرفين، وتأمين الطرق وإزالة البدع والأضرحة، إلا أنه واجه اتهامات عديدة لم تثبت في مصادر تاريخية محايدة. وما ذكره باديا هو نقل عما سمعه من إشاعات لم تثبت عند التحقيق. والإمام سعود دخل مكة المكرمة سلمًا ومحرمًا، وبذل من العطاء والصدقات ما أشاد به المؤرخون المعاصرون لتلك المدة.

أرادوا، وظنُّوا بأنّي أُخفي نُقودًا بالحزام كما هو شائع في الشَّرق، لكنّي كرَّرتُ عليهم الإجابة بالنَّفي، وعندما رأيتُ إصرارهم نزعتُ بُرنسي، وبدأتُ أنزع ثيابي لإرضائهم، عندها استوقَفوني، لكن عندما رأوا حزام السَّاعة، أسرعوا نحوها وأجبروني على تسليمها، ثم خفّفوا من تهديداتهم بعد أن استولوا على السَّاعة والبُرنس. وفي النِّهاية انسحبوا مُؤشّرين لحادي الجمال إلى مكان قريب، علينا أن نتوقّف عنده وأن نُنفّذ أوامرهم.

اتَّجهنا إلى المكان المحدَّد، وفي اللَّحظة نفسها حطّمتُ صُندوقًا كان يضمُّ الحشرات التي جمعتها أثناء وجودي في الجزيرة العربيَّة، وألقيتُ به بعيدًا عنّي، كما رميتُ أيضًا صُندوق النَّباتات والمتحجِّرات التي جمعتُها في طريق يَنبع، كما سلَّمتُ الخازندار قِطَع الدُّورو التي كنتُ أحتفظُ بها في محفظتي، وظللتُ هادئًا تمامًا. كما ابْتَلعتُ الرِّسالة التي كنتُ أحملها من مَولاي عبدالسَّلام[1]، لأنَّها ستَضعُني في خطر، كما أَخفى خَدمي التِّبغ القليل الذي تبقَّى لديهم تحت الأحجار، وعلى تلك الحالة بقينا تنفيذًا للأوامر.

وبعد لحظة جاء اثنان من القوات السعودية وأخذا موقعيهما بجانبنا بصفتهما خفيري مُراقبة، ولحسن الحظِّ تأخر اتِّخاذ مثل هذا القرار، وهذا مكَّننا من التَّخلص من كل ما من شأنه أن يُورِّطنا. لقد كنتُ مُقتنعًا بأنَّ تلك اللَّحظات من الحريَّة نَدين بها لشُحِّ أولئك الرِّجال الذين انسحبوا على ما يبدو لتقاسُم الغنيمة، لكنَّها لم تكن أكثر من شيئين البُرنس والسَّاعة، فالنُّقود القليلة التي أخذوها ليست كافية كي تعادل تلك الأشياء عند تقسيمها بين خمسة أشخاص.

---

(١) هو أحد الأمراء المغاربة: عبدالسَّلام بن محمد بن عبدالله الذي كان له صداقة وعلاقة مع باديا أثناء رحلته إلى المغرب، وكان له دور أيَّام حكم أخيه مولاي سليمان. انظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، الدار البيضاء ١٩٥٦م، ٨/٧١، ١٠٠.

وفي بحر ساعتين ظَهر اثنان آخران مُدَّعين أنّهما أُرسلا من قبل الأمير لاستيفاء خَمس مئة فرنك مُقابل إطلاق سراحي، فأعدتُ لهم القول بأنّي لا أملك مالًا فانسحبوا إلى مكانهم.

ولم يطل الوقت حتى حَضر شخص آخر ليُخبرنا بأمر نَقْلِنا إلى مكان ثانٍ، فرحلنا معه، وفي ظَهرِ جبل مُجاور التقيتُ هناك قافلتنا بكامل عُدَّتها وعَتادها، وهي الأخرى كانت أسيرة.

كان مرافقيَّ في الرِّحلة شَاحبي الوجوه مرتَجفين وقلقين على مصيرهم، لاسيَّما وقد كانوا تحت حراسة مشدَّدة من قبل حامية ضخمة؛ ووجدتُني أنحاز إلى العرب المغاربة، فالأتراك كوَّنوا لهم فِرقة خاصَّة بهم.

وصلَ شخص آخر ليبلغنا أمرًا وهو أنَّ على كلِّ حاجٍّ تُركي أو مَغربي أن يدفع خمس مئة فرنك، وأمامِ هذا الأمر أخذ أصحابي سيِّئو الحظّ بالصُّراخ طَالبين الرَّحمة والدُّموع تترقْرق في محاجر عيونهم، أمَّا أنا فقد أجبته بهدوء بأنَّني قد أعطيتُ جوابي، ولكنِّي تدخّلتُ أيضًا للتَّوسُّط لصالح أولئك البائسين.

كانت الشَّمس تُوشك على المغيب، عندما حضَر شخص آخر ليقول لنا: إن الأمير قد خفَّض الضَّريبة، وسوف لا يَدفعُ كلُّ حاجٍّ أكثر من مئتي فرنك، ومرَّة أخرى عَلت الأنَّات وسقطت الدُّموع من قبل أصحابي الذين هم في حقيقة الأمر لا يَملكون نُقودًا.

بعد غُروب الشَّمس أدخلونا إلى مَضيق، وأمرونا بالجلوس فريقين مُنفصلين. كان أصحابي مَرعوبين، وأعترفُ بأنِّي شَخصيًّا خشيتُ أن أكون شاهدًا لمنظرٍ دامٍ قد اقترب، ضحيَّته هم الأتراك.

لم أخَف على حياتي لأنَّهم عدوني عربيًّا مَغربيًّا، لكنَّ الأتراك لم يستطيعوا إثبات عكس ذلك، وقد حزنتُ بعمق على مُستقبل أولئك

المساكين، فلولاي لما فكّروا مُطلقًا بتلك الرّحلة، ولسُوء الحظّ لم أستطع التّأثير أو التّوسُّط لإنقاذهم من الكارثة.

بعد أن قضينا ساعة كاملة في مثل هذا الظّرف من الهمّ والغمّ، وصل جنود آخرون وأمرونا بركوب دوابّنا، وقالوا: إن الأمير يُريد أن يَستجوب كلّ واحد منّا على انفراد، وهذا اضطرنا إلى اجتياز الطّريق في جوّ غائم ومُظلم جدًا، فاخترقنا بلدة الجديّدة، وبعد ذلك بقليل أمرونا بالتّوقُّف لنقضيَ بقيّة تلك اللّيلة الحزينة.

وفي صباح اليوم التّالي الجمعة الثّالث من أبريل، وقبل أن تَبزغ الشّمس بقليل رجعنا القَهقرى في حامية من ثلاثة من الجنود. وفي السّاعة الثّانية لمحتُ مُعسكرًا يضمُّ خِيامًا جميلة، فاعتقدتُ أنّهم سوف يُقدّمونا للأمير لكن اكتشفتُ بعد ذلك أنّ هؤلاء هم الذين نَفَاهم (السّلطان) سُعُود إلى خارج الجزيرة العربيّة[١].

وبعد وصولنا إلى المخيّم أمرونا بملء القِرب من العَين، ودون أن يتركونا نستريح، واصلنا المسير.

وبينما كانوا يملؤون قِربهم كان الخادم المسؤول عن قيادة جَملي والممسك برسَنه قد أصيب بنوبة رُعب حدثت له فجأة لدرجة أنّه اندفع مُسرعًا آخذًا برسَن الدّابة كي يَنضم بنا تحت حماية قافلة عُمّال الحرم وموظفيه لكن بعد قليل حضر أحدهم وجَذب الرّسن من يده وطرحه أرضًا، وبعد أن أشبعَه رَكلًا عاد ليجمعَني مع القافلة دون أن يتلفّظ ببنت شَفة.

مَرّوا بنا على الحمراء، وهي بلدة شبيهة بالجديّدة، لكنّها أحسن

(١) ليس هؤلاء من قوات الإمام سعود وإنما هم من قطاع الطرق الذين استفادوا من انشغال القوات السعودية في فرض السيطرة على المنطقة. ولكن أعمال هؤلاء اختفت عندما سيطرت القوات السعودية على منطقة الحجاز وأمنت الطرق.

مَوقعًا، فالنَّباتات تُحيط بها، والنَّخيل فيها شامخة وسط وادٍ مُنبسط، وعلى مسافة قريبة من النَّبع الجميل الذي ملأنا قِربنا منه كانت تلك العَين ذات مياه غزيرة وعذبة على الرّغم من أنّها حارَّة جدًّا.

وبعد نصف ساعة أخرجونا من الطَّريق، وأمرونا بالمشي على الأقدام في الجبال، وأعادوا مرَّة أخرى مُفاوضاتهم من أجل دَفع الضَّريبة، وظلُّوا على هذه الحالة حتى السَّاعة الثَّالثة عَصرًا. لقد فتَّش هؤلاء كلَّ أمتعتنا، وأخيرًا أجبروا كلَّ تُركيٍ على دَفع عشرين فرنكًا، فأخذوا حائكًا وكيس محمَّصات من المغاربة، كما استولوا على ثلاثة دُوروات كنتُ نَسيتُها في خِزانتي، والبنيش أو القفطان الخاص بالخازندار، كما طلبوا خمسة عشر فرنكًا من كلّ قائد جَمل؛ وقد رفض قائد جَملي الدَّفع، وذهب للكلام مع الأمير، ومنذُ ذلك الحين لم أرَه بعدها(١).

بلَّغونا بعدها بالقرار الأكيد لـ (السُّلطان) سُعُود الذي يَمنع الحجَّاج من الذَّهاب إلى المدينة، وبعدها جَمعونا مع قافلة عُمَّال ومُستخدمي الحرم التي كانت آنذاك تَخترق الوادي مع كتيبة من الجنود(٢).

هكذا انتَهت الأمور. وأستطيعُ القول مُردِفًا بسَعادة: إنَّه على الرَّغم

---

(١) من الواضح جدًّا من سَير المفاوضات منذ بدايتها والخاصة بتحصيل الإتاوة أنَّ المسألة لا تعدو كونها عمليَّة ابتزاز، مارس خلالها هؤلاء وسائلهم المتعدِّدة للاستيلاء على ما استطاعوه دون أن يكون للسُّلطة أيُّ دور أو حتى علم بما يجري هنا في وسط هذه الصَّحاري من مظالم، لاسيَّما وأنها ما زالت في ظلّ مرحلة انتقالية، وهي فُرصة لأمثال هؤلاء لفرض إرادتهم وقانونهم الخاص. وهو ما سيؤكِّده باديا نفسه بعد قليل. وقد أفاض ابن عبدالسلام في ذكر وقائع تدلّ على سوء سلوك سكان هذه المناطق واستغلالهم للحجاج، انظر: **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام**، ص١٤٦ ـ ٨، ١٥٤ ـ ٥.

(٢) لم يمنع الإمام سعود الحجاج من زيارة المدينة، وإنما منع المحمل المشتمل على طقوس غير شرعية، ولكن على ما يبدو أن باديا تعرض لابتزاز بعض قطاع الطرق وحاولوا منعهم من الوصول إلى المدينة المنورة كي لا يفضح أمرهم عند القوات السعودية.

من هذه المشاكسة السيئة إلا أنَّها أبقتْ لديَّ الشُّعور بالأسى، لأنَّني خَسرتُ رِحلةً مهمَّة، وأضعتُ سَاعتي التي خَدمتني في الرَّصد الفَلكي.

وفي مُنتصف النَّهار وبينما كان النِّقاش جَارِيًا حول الضَّريبة المفروضة سُمعَ دَويُّ رعدٍ لخمس أو ستّ مرَّات مع سماءٍ صافية وبلا غيوم.

وفيما يتعلَّق بتصرُّف أولئك فلا بُدَّ من التَّنبيه إلى أنَّنا كُنَّا نَعرفُ جيّدًا ككلِّ العرب ذلك المنْع الصَّريح لزيارة قَبر النَّبي ﷺ في المدينة[١]، ولهذا فقد اقترفنا مُتعمّدين مُخالفة صَريحة للقانون، وكنتُ جريئًا في خوض غِمار هذه المخاطرة على أمل أنَّ الصُّدفة ستُحقِّق مَشروعي، ولم يفعل السعوديون في قضيَّة احتجازنا غير تَطبيق القرار العام الموضَّح سابقًا. والضَّريبة التي طَلبوها، لم تكن غير غرامة مستحقَّة نتيجة لمخالفتنا إلا أنَّ طريقة الطَّلب كانت فَظَّةً بلا أدنى شكّ، ولكن إلى حدٍّ ما علينا أن نَعذُرهم.

وهناك حقيقةٌ أخرى وهي أنَّهم أخذوا منِّي السَّاعة والبُرنس، لكن لماذا لم يُعمِّمُوا ذلك على البَاقين؟

هؤلاء العَرب على الرَّغم من أنَّهم تابعون لـ (السُّلطان) سُعُود، فإنَّهم من سُكَّان البلد الأصليِّين وخاضعين جُدد للسُّلطة[٢]، ولهذا فهم يَختلفون كثيرًا عن أولئك الشَّباب السعودي اللاَّمع في الشَّرق الذين رأيتُهم منذُ مدة قصيرة في مكَّة. ولهذا فقد أعفيتُ هؤلاء بنيَّةٍ خالصةٍ فيما سَلبوه مِنِّي، وأقصدُ به الآلة والبُرنس، وأعدُّ تلك من بَقايا عُيوب البلد القديمة،

---

(١) لم يكن هناك منع لزيارة قبر النبي ﷺ ولكن الظروف التي جاء فيها باديا كان لها تأثير في الوضع وعلى السفر.

(٢) هذا يوضح سبب ما حدث وأنه ليس له علاقة بسلطة الإمام سعود أو الدولة السعودية، وإنما ممارسات محلية استفادت من الوضع غير المستقر في تلك المدة واستخدمت اسم الإمام سعود لتسويغ أفعالها.

وأشكُرُ إصلاح (ابن) عبدالوهَّاب الذي تَرك لي أشيائي الأخرى وأجهزتي الفَلكيَّة.

إنَّ تهديداتهم ومُعاملتهم السيِّئة للأتراك لم تكن إلا نتيجة الحقد والكراهية ضدَّ تلك الأمَّة التي كان اسمها فقط كافيًا لإثارة السُّخط.

ومع ذلك فإنَّ هذه السَّفرة التَّعسة أعطتني فكرةً عن صَحراء المدينَة، ومَعرفةً عن قُرب للموقع الجغرافي لتلك المدينة التي تَقع حسب التَّقدير الجيُوديسي[1] لخطِّ سير الرِّحلة، والأخبار التي حصلنا عليها سواء من بلدة الجديِّدة أو في المكان الذي اعتقلونا فيه، وهو: ٢° ٤٠َ إلى الشَّرق من مدينة يَنبع، وتقريبًا تقع في نفس خطِّ العَرض منها، باستثناء فرق ثلاث أو أربع دقائق نحو الجنوب، بحيث إنَّنا إذا وضعنا المدينة على دائرة خطِّ الطُّول لمكَّة فسوف لن نجدَ أكثر من فرقٍ دقيقة زمنيَّة تقريبًا، أو رُبع درجة من الانحراف.

وبعد انضمامنا مع القافلة اتَّجهنا نحو الغرب، وكنتُ مؤمِّلًا في ذلك أن أعوِّض تلك النَّباتات التي أُجْبرتُ على تركها، ولكنَّنا لم نَسلك نفس الطَّريق.

وفي حوالي السَّاعة الرَّابعة صباحًا وعندما توقَّفت القافلة وجدتُ نفسي في وادٍ متَّسعٍ قاحل لم أرَ فيه سوى نصف درزن من النَّباتات غير الجديرة بالاهتمام. وعند مُنتصف النَّهار وفي الظِّل كان المقياس يُؤشِّر على ٢٨ درجة حسب مقياس الحرارة.

لقد كان برفقتنا في تلك القافلة القَاضي الجديد الذي وصل لتوِّه من القُسطنطينيَّة، والذي عُيِّن في المدينَة حيث أقمتُ معه عَلاقات صداقةٍ أثناء

(١) هذا مُصطلح يُطلق على علم هيئة الأرض ومساحتها.

إقامتي في مكَّة، وفي الوقت نفسه ابتدأتُ في التَّعرُّف إلى الدّفتردار[١] أو مدير الخزينة، وعلى كبار العاملين في حرَم المدينَة.

لقد قَصَّ عليَّ هؤلاء بأنَّ السعوديين قد هَدموا كلَّ زَخارف قبر النَّبي ﷺ، ولم يُبقوا منها أيَّ شيء، كما أغلقوا وخَتموا أبواب الحرم، وأنَّ (السُّلطان) سُعُود قد سيطر على الذَّخائر الضَّخمة المتراكمة هناك مع مُرور القرون العديدة؛ وقد أكَّد لي الدّفتردار بأنَّ قيمة هذه اللآلئ والأحجار الكريمة تفوق كلَّ تقدير[٢].

كانت القافلة تحمل إذنًا بالمرور من (السُّلطان) سُعُود كي يحترمُوها أثناء السَّفر، ومع ذلك فكما أخبروني بأنَّهم عند خُروجهم من المدينة المقدَّسة أجبروهم على مُجانبة الطَّريق، وفَرضوا عليهم ضريبة باهظة، وكذلك أجبروا الأغا أو رئيس العبيد أن يَدفع من حسابه الخاص ما قيمته ثلاثة آلاف فرنك، أمَّا الباقون فبالنِّسبَة والتَّناسُب[٣].

وقد عرفتُ أيضًا بأنَّ جميع من في القافلة التُّركيَّة القادمة من مكَّة وبعد دُخولها المدينَة مباشرةً قد تعرَّضوا للسَّلب والنَّهب حتى في مَعاشهم الذي يَقتاتون منه، لدرجة أنَّه أصبح من المشكوك فيه استطاعة هؤلاء التُّعساء النَّجاة من العطش والجوع في وسط الصَّحاري[٤].

---

(١) هو اسم تُركي يُطلق على رئيس الشؤون المالية أو الخزينة. عن مهامه وما يتقاضاه انظر: محمد أديب غالب: **من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي**، ص٢٦٢ - ٢٦٣.

(٢) هذه من مبالغات الدولة العثمانية التي لم تتحمل انتقال السلطة في الحرمين الشريفين من يدها إلى يد الدولة السعودية، وزخارف الحرم النبوي وبناؤه لم يتأثر بأي شيء.

(٣) حدث لهم هذا من أولئك الذين نصبوا أنفسهم حكامًا على الطريق دون علم السلطة.

(٤) من الواضح أنَّ هذه الأحداث إذا حصلت فعلًا فإنها كانت خارج المدينة، ومن ثم في مناطق خاضعة لسيطرة القبائل التي لم تفرض عليها السُّلطة الجديدة نُفوذها بالكامل بعد.

وفي نفس يوم الرَّابع من أبريل وفي تمام السَّاعة الثَّالثة مَساءً أخذنا اتِّجاه الغرب فالجنوب الغربي، وبعد ساعة رأيتُ البحر لكن على بُعد مسافةٍ مُعتبرة، وبعد مسير ليلة كاملة لمحتُ مدينة يَنبع عند طُلوع النَّهار، عندها أسرعتُ حتى دخلتُ تلك المدينة مع بُزوغ شَمس يوم الأحد الخامس من أبريل، وفي الحال ركبتُ السَّفينة حيث وجدتُ جَماعتي قَلقين من الأخبار السَّيئة التي جَرت لي. هذه هي نهاية تلك الرَّحلة التي كانت بلا شكٍّ رحلة سعيدة. وعلى الرّغم مما حدَث لي ولجماعتي من مِحنة فما نَزال نُهنِّئ بعضنا بخروجنا منها بأقلِّ كلفة.

وهناك طريقان لأجل الذَّهاب من مدينة يَنبع إلى المدينَة، الأوَّل يمرُّ بيَنبُع النَّخل، أمَّا الآخر فيذهبُ مُباشرة مُخترقًا الصَّحراء، وعادةً ما يُفضِّل المسافرون هذا الطريق لأنَّه الأقصر والأقلّ وُعورة، وهو نفسه الطَّريق الذي سَلكتُه أثناء ذهابي، وخطَّطتُ أن تكون عودتي عن طريق يَنبع النَّخل إذا لم يعترضني عائق.

إنَّ طريق يَنبع النَّخل يبعد مسافة مرحلة باتِّجاه الشَّرق، وبانحراف مقداره رُبع درجة نحو الشَّمال الشَّرقي ليَنبع البحر، وهذه المدينة تقع في وسط الجبال، وهي وافرة المياه، وذات بساتين جميلة ونخيل كثيفة، منها استمدَّت اسمها، وكلُّ قاطنيها هم من الشُّرفاء «من سلالة النَّبي ﷺ» وهم مُقاتلون أشاوس.

أمَّا يَنبع البَحر فإنَّها تقع في سهل فسيح، ومن السَّهل معرفة أنَّ موقعها يَشغل مساحة انسحب منها البحر في زمن ليس بالبعيد عن عصرنا الحاضر، فمدُّ البحر في حالة ارتفاعه يَصل حتى المحيط الدَّاخلي للأسوار، ويُغرق قِسمًا من المدينة حيث تبلغ المياه فيها إلى ارتفاع ثلاث بوصات أو أربع، حتى تبدو وكأنَّها استبدلت بأريكتها الصَّخرية زَبد البحر، وهو ما ينطبق أيضًا على تلك الأماكن المتعدِّدة الأخرى التي تقع على امتداد ذلك السَّاحل، بمعنى أنَّ ما مِقداره اثنتا عشرة أو خمس عشرة

بوصة من الأرض أو ممّا انسحب عنه البحر منها في ذلك المكان كانت كفيلة بإلحاقه باليابسة(١).



ميناء يَنْبُع البحر

أمّا ميناؤها فهو جيِّد، ومن الممكن أن تَرسو فيه البَارجات الكبيرة، لكن مَدخله ليس بالسَّهل بسبب تلك الصُّخور التي تُعرقل الحركة فيه.

وتحيط بالمدينة أسوار ممتدَّة بطريقة عَشوائية بقُطر ٣٥٠ تُويسًا من الشَّرق إلى الغَرب، وحوالي ٢٠٠ من الشَّمال إلى الجنوب؛ أمّا سُمك هذه الأسوار فتبلغُ خمس عشرة بوصة فقط، وارتفاعها حوالي تسعة أقدام، ولا تضمُّ بعض تلك الأبراج المرتفعة ولا حتى الكبيرة منها وسط هذه الأسوار أيّة مدفعيَّة.

ومركز المدينة الذي يقع في مَرفئها مُسيَّج بسورٍ ثانٍ أعلى ارتفاعًا، ومَحميٌّ بالأبراج. ويبلغ تِعدادُ سُكّان مدينة يَنبع البحر ثلاثة آلاف نسمة، وبُيوتها مُنخفضة بسقوف مستوية، وكلّها ـ تقريبًا ـ تتكوَّن من طابق أرضي

(١) حول هذه التركيبة والتَّحولات انظر: محمد أحمد الرويثي: **المرافئ الطبيعية على الساحل السعودي الغربي**، ص٢٣ ـ ٢٤، ٤٧ ـ ٥١.

فقط باستثناء القليل منها التي تحوي أكثر من طابق، هذه المنازل وكذلك الأسوار التي تُحيط بالمدينة حديثة البناء، ومنذُ أيَّام الحرب مع السعوديين وهي مبنيَّة من حجر جِيريٍّ ناصع البياض. وفي السَّابق لم تكن المدينة أكثر من مجموعة من العشش التي تَعتمد في تكوينها على العصيِّ والحُصر، أما اليوم فتجد فيها شوارع حقيقيَّة.

ومع أنَّ يَنبع البحر تقع تحت نفوذ السُّلطان الشَّريف في مكَّة الذي يُرسل حاكمًا لها من قبله باسم «وزير»، «حتى ولو كان من عبيده مثلما هو الحال في مدينة جدَّة»، لكنَّه يعترف مع ذلك بسيادة السُّلطان سُعُود الذي له قاضيه هناك إلا أنَّه لا يدفع له الضَّريبة.

إنَّ اسم السعوديين الذي يحمله أهل مدينة يَنبع لم يتسمَّوا به في واقع الحال لأنَّهم يُحبُّون الحركة الإصلاحيَّة، وإنَّما لأنَّهم يَخافون أتباعها الذين يَنتمون إليها، ولهذا فهم دائمًا مسلَّحون وفي حالة تأهُّب قُصوى كي لا يسمحوا بدخول قُوَّاتهم، فحُرَّاسهم آخذون أماكنهم بانتباه ويقظة، وأبوابهم مُغلقة، وهم مُستعدون لصدِّ أيِّ هجوم. ويُدخِّنون بشكل عَلنيٍّ في الشَّوارع على الرَّغم من أنَّ هذا يُعد جريمةً لا تُغتفر في نظر السعوديين.

تَرتدي نِساءُ يَنبع قميصًا طويلًا وسروالًا من القُماش الأزرق، مع غطاءٍ ضافٍ أو عباءة سوداء تُوضع على الرَّأس، ويَضعن حلقة تَخترق الغُضروف الأيمن للأنف، ويتحلَّين أيضًا بالخواتم والأساور والأقراط، ويتمتَّعن بحريَّة زائدة، فقد رأيتُ الكثير منهن مَكشوفات الوَجه، وألوانهن نُحاسيَّة مثل الرِّجال، لكنَّ العديد ممَّن ظَهرن لي قَبيحات وغير لَطيفات.

وعندما كنتُ هناك احتفلوا بعرسٍ فأمضتْ خمسون امرأة ثلاث ليالٍ يُغنِّين مع الدَّف والطُّبول حتى السَّاعة الثانية عشرة، وفي اللَّيلة الأخيرة كان موعد دخول الرَّجل بعَروسه، فأخذوا يُودِّعونها بالغناء بصوت مرتفع وبإيقاعٍ مُنتظم، وفي الوقت نفسه أخذنَ يصفِّقنَ بطريقةٍ أشبه ما تكون بكتيبةٍ

غاضبة منه لاجتماعٍ نِسائي، وقد دام المشهد نصف ساعة تقريبًا، وعندها انتهت الحفلة.

إنَّ مَظهر ما حول مدينة يَنبع ليس سوى صَحراء جرداء، وبالصُّدفة يُمكن أن تَعثر على بعض النَّباتات، لكن في ساحل البحر وجدتُ مَحارًا بديعًا. ولمعرفتي باليوم نفسه الذي سوف أُبحرُ فيه حيث كان علينا أن نَبقى في يَنبع عدَّة أيَّام لذا نزلتُ إلى الأرض للمرَّة الثَّانية، وأمرتُ بنصب الخيام خارج الأسوار.

وقد توصَّلتُ إلى رصدٍ دقيق للمدينة التي تقع على خطِّ طُولٍ مقداره: ٣٥ْ ١٢َ ١٥ً شرقًا من مرصد باريس، كما تقع على خطِّ عَرضٍ مقداره: ٢٤ْ ٧َ ٦ً شمالًا، أمَّا خطُّ الانحراف المغناطيسي فهو: ٣ْ ٣٦َ ٥٨ً غربًا، وهي على مَسافة أربعين دقيقة فقط من المدَار؛ ومُناخها حارّ؛ وخلال وجودي ارتفعت درجة الحرارة في الظِّل حتى وصلت إلى ٢٧ درجة، وذلك في اليوم الرَّابع عشر عند مُنتصف النَّهار، وفي اليوم الحادي عشر من أبريل وفي تمام السَّاعة الثانية عشرة وخمسين دقيقة أعطى مقياس الحرارة في الشَّمس ٤٢ درجة.

كما لحظت أنَّ الرِّياح السَّائدة بشكل عام هي رُبع الغربيَّة، ومع ذلك فقد وجدتُ في بعض الأيَّام أنَّ الرِّياح انقلبت في أربع وعشرين ساعة متابعة لمسيرة الشَّمس.

الفصل الحادي عشر

العبور إلى السُّويس ـ جُنوح السَّفينة ـ جَزيرة امّ الملك ـ مُواصلة الرِّحلة ـ حَوادث مُنوَّعة ـ نُزول علي بَاي في Gadiyahia ـ مُواصلة الرِّحلة بَرًّا.

أبْحرتْ جميع المراكب التي كانت راسية في ميناء يَنبع في يوم الأربعاء الخامس عشر من أبريل (الموافق للسَّابع من صَفر سنة ١٢٢٢هـ) في تمام السَّاعة الخامسة والنِّصف صباحًا إلى السُّويس بعد أن انضمَّت إلى تلك التي قَدمت من جدَّة، وإلى سُفن أخرى صغيرة محمَّلة بالقَهوة. كان قُبطاني على رأس السُّفن القادمة من جدَّة، أمَّا الأخرى فكان لكلٍّ منها قَائدها الخاص بها.

وبما أنَّ الرِّياح لم تكن تَجري لصالحنا فقد اضطُررنا لتغيير مسارنا حسب اتِّجاهها، وفي السَّاعة الثَّالثة والنِّصف عَصرًا ألقتْ كلُّ سفينة مَرساها في خليج يدعى Abokat[1] على بُعد مَرحلة من مدينة يَنبُع برًّا. ومن تلك النَّاحية لا تُرى أيَّة بُلدان، وإن كنتَ تُشاهدُ بعض الغَابات وعددًا من الجزر ناحية الغرب، وكذلك الجبال التي تُشاهَد على بُعد فرسخ. كان البحر هائجًا في حين كنتُ أنَا مُتوعِّكًا باستمرار.

١٦ ابريل:

رُفعت المرساة في السَّاعة الرَّابعة والرُّبع صَباحًا، وتحرَّكنا صَوب الشَّمال الغَربي مَدفوعين برياحٍ خفيفة مُتغيِّرة تقطعها لحظات من الهدوء،

(١) لم أصل إلى قراءة صحيحة أو معرفة باسم هذا الخليج.

وفي السَّاعة الثانية عصرًا رَسا مَركبنا على مسافة ميلين من اليابسة بين صُخور يَعلوها زَبد البحر.

ومن هناك شاهدتُ الجبال التي لا تبعد إلا قليلًا عن شاطئ البحر، وبعض الأحراش الصَّغيرة المتناثرة، لكنِّي لم أشاهد أيًا من السُّكَّان.

١٧ أبريل:

في السَّاعة الخامسة والنِّصف صباحًا أبحرَ أُسطولنا صَوب الشَّمال مَدفوعًا برياح مُواتية. وفي السَّاعة الواحدة رَسا في محار[١] Mohhar أو جبل محار، وهو ميناء صغير جميل، مُغلق بالجبال التي تَمتدُّ داخل الماء مُكوِّنة خليجًا محميًّا من الرِّياح، وفي ذلك الشَّاطئ هناك الكثير من الموانئ أو الخلجَان المشابهة التي تُكَوِّنها سلسلة الجبال تلك.

١٨ أبريل:

شَرعنا في المسير السَّاعة الرَّابعة والرُّبع صباحًا باتِّجاه الشَّمال ثم الشَّمال الغَربي مع هبوب رياح حسنة، وفي السَّاعة السَّابعة توقَّفت الرِّياح فجأة حتَّى السَّاعة الواحدة، عندها هبَّت رياح جنوبيَّة، فتحرَّكنا نحو الشَّمال بين جزيرة جبل حسَّان واليابسة، عبرنا بعد ذلك من أمَام الحوراء[٢] Haura، وهيَ قرية عربيَّة تُشاهَد فيها الأشجار وبعض النَّخيل،

---

(١) ورد في خريطة **أطلس المملكة العربية السعودية**، ص١٢٨ في حدود الموقع المحدد «قطع محار» لكنه من ناحية أخرى لا تنطبق مواصفاته على ما ذكره باديا.

(٢) كانت الحوراء مرفأ مساعدًا لفرضة ينبع لاستقبال الحجيج القادمين من مصر، وعلى بُعد ١٧٠كم منها وعلى خمسة كيلو مترات إلى الشمال من أملج الحالية، وقد استمرَّت في تأدية هذا الدور حتى سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وهي السنة التي يُعتقد أنه ظهر فيها مرفأ أملج المجاور لها. انظر: الرويثي: **المرافئ الطبيعية**، ص٣٦. على أن ذكر هذا الميناء تواتر في كتب رحلات الحجّ فالعبدري يشير إليها على أنها أحساء على شاطئ البحر غزيرة المياه لكنها مالحة وخبيثة منكرة الرائحة لا تكاد تجرع. **الرحلة المغربية**، ص١٦٢؛ أما

وعندما توقَّفت الرِّياح ثانية وجب علينا قَطر المراكب حتّى السَّاعة الثامنة مساءً، حينَها رَسونا في فجٍّ بشاطئ الجزيرة العربيَّة يُدعى Maado[(١)] ويبعدُ مسافة خمسة فراسخ شمال جزيرة جبل حسَّان.

ومن ذلك المرسَى وإلى الجنوب الغربي منه تُشاهَد جزيرة الوقَّادي[(٢)] Okadi الصَّغيرة التي لجأتُ إليها للنَّجاة بعد حادث الغرق الذي تعرَّضتُ له أثناء سَفري إلى مكَّة.

وقد رصدتُ في مُنتصف النَّهار وعلى مَسافة ثلاثة أميال إلى الجنوب الشَّرقي من جزيرة جبل حسَّان حركة الشَّمس التي أعطتني درجة عَرضٍ مقدارها: ٢٥° ٣٢َ ٢٠ً شمالًا، وقُطر تلك الجزيرة هو ثلاثة فراسخ تقريبًا، وهي مَسكونة ووعرة، ولا تبعد كثيرًا عن جزيرة أخرى صغيرة تبعد فرسخًا ونصفًا عن السَّاحل.

١٩ أبريل:

يَبدو أنَّه قُدِّر لي ألا أُسافر في البحر دون حوادث، ففي الرَّابعة والنِّصف صباحًا، وبينما كان أسطولنا الصَّغير يَنشرُ أشرعته مع رياح خفيفة، ويسير صَوب الشَّمال، وبالتَّحديد في السَّاعة السَّادسة اصطدم المركب الذي كنتُ على ظَهره بصخرة، وكان الارتجاج شديدًا فجنح المركب وحدثت فتحة كبيرة في طرف القَاعدة من ناحية المقدِّمة، وتدفَّق الماء دَاخلًا منها. ولن أستطيعَ وصفَ الاضطراب والذُّهول الذي أصاب

= ابن عبدالسلام فأكَّد هذه الخاصيَّة لمائها، لكنه زاد على ذلك بأنَّ فيها نخلًا وسوقًا عامرة، **ملخص رحلتي ابن عبدالسلام**، ص ٨٣، ٨٤. وقد اندرست مع أن اسمها كان معروفًا حتى بداية القرن الماضي. سيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، ص١٣٧.

(١) لم أتمكَّن من معرفة هذا الاسم.

(٢) حدَّدتها خريطة **أطلس المملكة العربية السعودية**، ص٢٢٩.

النَّاس في تلك اللَّحظة المشؤومة. ومن ناحيتي فقد سارعتُ مُلقيًا بنفسي في الزَّورق يَتبعُني خادماي وبعض الحجَّاج وأنا أحمل أوراقي وأدواتي.

لقد هدَّأت جميع المراكب سَيرها وهي ترى الكارثة الوشيكة، وأرسلت زَوارقها لنجدَة المركب المصاب. وكان أوَّل ما فكَّرنا به بعد أن شعرنا بالأمان في الزَّورق هو الانتقال إلى من يَستقبلُنا من المراكب الأخرى، لكنَّ القُبطان الذي توجَّهتُ إليه أوَّلًا لم يشأ استقبالنا، وتلقَّيتُ الرَّفض نفسه من الثَّاني، عندها أدركتُ أنَّهم في مثل هذه الحوادث الشَّائعة ـ مع الأسف ـ في ذلك البَحر مُتَّفقون على عدم السَّماح لأيِّ شخص أو لأيِّ جُزء من حمولة أيِّ مركب مَنكوب بالانتقال إلى مَراكبهم ما لم يُعط قُبطان ذلك المركب الإشارة بالسَّماح به، لأنَّ ذلك يَمَسُّ شَرفه، ولذا فقد وجدنا أنفسنا مُجبرين على انتظار مَصيرنا في هذا الزَّورق.



الدّاو الذي كان يستقله علي باي وقد نقل إلى ساحل في البحر الأحمر لإصلاحه وتبدو المراكب الأخرى

ولمَّا اقتنع القُبطان باستحالة وقفِ تدفُّق المياه إلى داخل السَّفينة أعطى الإشارة المتَّفق عليها فوافقوا في الحال على صُعودنا إلى مَركب آخر. ونُقل إلى الزَّوارق جُزء من حُمولة مَركبنا لكي تُوزَّع على المراكب الأخرى، ومع تخفيف حمله عاوَد الطَّوفان واتَّجه للرُّسو مع بقيَّة المراكب بين جزيرة مُجاورة واليابسة، حيث أُفرغتْ حُمولته، وقُطع سَاريه وأُميل بغيَّة إصلاحه بمساعدة جميع بحَّارة الأسطول، ولا تَخلو صُورة ذلك المشهد من الأهميَّة، ولْيتَصوَّر القارئ مَشهد ثلاث مئة بحَّار عُراة وكلُّهم من السُّود تقريبًا وهم يُكافحون لسحب السَّفينة المعطوبة إلى اليابسة. وفي الجهة المقابلة رَسا الأسطول وكلّه مملوء بالحجَّاج والمسافرين الذين جاؤوا إلى المعابر مَدفوعين بالفُضول، بينما قُبطان المركب الجانح ما زال مَذهولًا بسبب الحادث جَالسًا على الشَّاطئ، أمَّا بقيَّة الرَّبابنة فكانوا يُشرفون على حركة مَراكبهم؛ أضف إلى هذا الجَلبة والصُّراخ الذي ما كان يَسمح لأحدٍ بفَهم ما يقولُه الآخر، وقد دَام هذا المشهد اللَّيل كلَّه.

وليس من عادة البدو «الأعراب» ألا يَحضروا بمراكبهم في مثل هذه الحالات، وفي كثير من الأحيان يقتربون كثيرًا من مكان النَّكبة لعلَّهم يَظفرون بشيءٍ يَسرقونه، لقد رأينا أعدادًا كبيرة منهم تَقترب مِنَّا، ولو كُنَّا بمُفردنا لتعرَّضنا لا محالة للسَّرقة والنَّهب.

لقد خيَّمتُ في الجزيرة الصَّغيرة، وكان الجزء الأعظم من الحمولة والمعدَّات مَعي، بينما كانت مَراكب البدُو راسية ليس بعيدًا عن خَيمتي، ولكنَّنا كُنَّا مُتيقِّظين جيدًا.

وفي هذه الأثناء تَواصل العمل في إصلاح المركب بعد أن أُمِّنت حمولته.

وفي صَباح التَّاسع عشر تُوفِّي أحدُ الرُّكَّاب، وكان حَاجًّا تُركيًا

وشَخصًا ذَا شَأن، كما تُوفِّي كذلك أحد البحَّارة في أحد مَراكب السُّلطان شَريف مكَّة. وقد دُفن كلا الجثمانين في الجزيرة دون أيَّة مَراسم.

٢٠ أبريل:

في صَباح هذا اليوم كان المركب المعطوب قد جَفَّ أكثر فشَرع جميع نَجَّاري الأسطول في إصلاحه.

٢١، ٢٢ أبريل:

تَواصل العمل بالمركب طِيلة يومَي الحادي والعشرين والثَّاني والعشرين.

الجزيرةُ التي كُنَّا فيها اسمها جزيرة أمّ الملك[1]، شَكلُها بيضاوي غير مُنتظم، ويبلغ أكبر أقطارها ما يقرب من مئة وثلاثين تويسًا من الشَّمال إلى الجنوب، وواحد وخمسين تويسًا من الشَّرق إلى الغرب، وأسفل تُربتها من الرَّمل الذي يبلغ ارتفاعه في وسط الجزيرة أربعة عشر قدمًا فوق مُستوى البحر، وهو مُغطَّى تمامًا بنوعين من النَّباتات التي لا تُزهر ولا تُثمر، وهي على ما أظنّ شَبيهة بالـ Salsola Kali.

أمَّا أرصَادي فقد أعطتْ في تلك الأيَّام درجة عَرضٍ قدرها: ٢٥° ١٥َ ٢٤ً شمالًا، ولم يكن بإمكاني مُلاحظة درجة الطُّول بسبب الغُيوم، ولكن أستطيع تقديرها بـ ٣٣° ٥٩َ ٤٥ً شرقًا عن مرصد باريس.

تقع جَزيرة أمّ الملك على بُعد عشرين ميلًا شمالًا، وبانحراف مقداره رُبع درجة نحو الشَّمال الشَّرقي عن جزيرة جبل حسَّان، وميلين عن شَاطئ

---

(١) أورد اسمها الجاسر في: **المعجم الجغرافي** نقلًا عن كتاب **منازل الحجاز**. انظر: ٣/ ١٣٤٩.

الجزيرة العربيَّة، وعند الطَّرف الشَّمالي لخليج صغير كوَّنته اليابسة بين الجزيرتين. وإلى الشَّمال الشَّرقي من الجزيرة من ناحية البرِّ هناك مَرسى مُمتاز تَرسو فيه جميع المراكب، وأمامها باستمرار مَجموعة مَراكب البدو المؤلَّفة من عشر قطع.

والماء الصَّالح للشُّرب نادر في الأراضي المجاورة، بل إنَّه رَديء النَّوعية، ومع ذلك فقد كان علينا شِراؤه بسعر سبعة فرنكات وخمسين سنتًا للقِربة الواحدة. ويَرتفع المدُّ البحري في ذلك المكان أربعة أقدام.

انضمَّ إلى أُسطولنا مَركبان من نوع مَراكبنا «دَاو»، وذلك في اليوم الثَّاني والعشرين، فصار عدد مَراكبنا أربعة وعشرين عدا المراكب الصَّغيرة. وفي اليوم نفسه، فقدنا حَاجًا تُركيًا آخر فدُفن في هذه الجزيرة، شَأنه شأن من مَاتوا يوم التَّاسع عشر.

وطِيلة المساء استمرَّ العمل بالمركب إلى أن انتهى النَّجَّارون والصُّنَّاع من إصلاحه، فاجتمع رَبابنة المراكب وأطقمها في الحال لدفعه إلى الماء، وقد تمَّ ذلك قبل حُلول اللَّيل وسط الصُّراخ والضَّجيج، كما حدَث عند سَحبه إلى اليابسة، ثُمَّ انشغلوا حتَّى مُنتصف اللَّيل في إعادة نصب صَواري السَّفينة ومُعدَّاتها وإعادة الحمولة.

٢٣ ابريل:

في هذا اليوم اكتملت حُمولة مَركبنا، وقبل أن تَغرب الشَّمس أصبح جاهزًا للانطلاق.

وجزيرة أمِّ الملك التي تُغطيها الرِّمال والأحجار ليست سِوى بَقايا صدَفيَّة وقِشريَّات وحيوانات، وقد جمعتُ منها بعض الأشياء المهمَّة.

٢٤ أبريل:

أطْلقْنا أشرعتنا في السَّاعة الخامسة والنِّصف صباحًا مُتَّجهين نحو الغَرب مع أجواءٍ مُتقلِّبة ما بين السُّكون والرِّياح المتغيِّرة. وفي السَّاعة الثَّالثة أرسينا بين بعض الشِّعاب ذات الاتِّصال المباشر مع جزيرة مُشابهة لجزيرة أمّ الملك، واسمُها شربانة[1] Schirbana.

وعند مَسيرنا ابتعدنا كثيرًا حتَّى اختفت اليابسة من أمَام أعيُننا.

٢٥ أبريل:

بَعد انطلاقنا في السَّاعة الرَّابعة والنِّصف صَباحًا مع رياح شَماليَّة معاكسة وقويَّة إلى حدٍّ ما وبَحرٍ هائج سِرنا مُغيِّرين اتِّجاه مَركبنا مُجاراة للرِّيح إلى رُبعيّة شمال غربيَّة حتّى الثَّالثة، حينَها رَسونا في جزيرة حالب[2] Haleb.

لقد تَسبَّبت ضَربات الرِّياح القويَّة التي تلقيناها في عُطل جميع مَراكب الأسطول تقريبًا، وكَسر هَوائي مَركبنا، لكنَّا أعدنا إصلاحه في الحال، وتوجَّب إخراجها إلى اليابسة لإصلاح أشرعة الكثير من المراكب التي تضرَّرت. وفي السَّاعة السَّابعة مَساءً كانت هُناك سَبعة مراكب ما تَزال مَفقودة.

ولكن، يَا لَهُ مِن بَحْر! يا إلهي! إنَّه مَملوءٌ بالشُّعب الصَّخريَّة إلى درجة

---

(١) أوردت خريطة **أطلس المملكة العربية السعودية**، ص٢٢٩ في الموقع المذكور تقريبًا اسم «شبارة» وليس شربانة فهل هي المقصودة بذلك؟ وهذه الأخيرة وردت عند الجاسر باسم «شُبَيْرَة» ويقول عنها: إنها تقع شمال أملج، وهي أرخبيل ممتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة الساحل وما زالت معروفة إلى اليوم. **المعجم الجغرافي**، ٢/ ٧٥٥-٧٥٦.

(٢) لم تتوقَّف عندها المصادر لم تشر إليها الخرائط.

أنَّ أيُّ إهمالٍ أو تَقصيرٍ يسير، سيكون كافيًا للتَّسبُّب في غَرق أيِّ مركب، وفي كلِّ لحظة نَضطرُّ لعبور مَضايقَ غير مَطروقة تقريبًا، وعادةً ما تكون الرِّياح عاصفة وعلى مقدِّمة المركب، وهذا تَزداد معه المخاطر، ويتَضاعف الخوف(١).

٢٦ أبريل:

أبْحرنا في تمام السَّاعة الخامسة صباحًا صَوب الغَرب. وفي السَّاعة السَّابعة وبينما كانت إحدى مَراكب الشَّريف تَقوم بمُناورة مُصطنعة اقتربت مِنَّا وصدمتنا صَدمةً خفيفةً من اليَسار، ثمَّ التفَّت بعد ذلك لتسقُط مُؤخرتُها على مُقدِّمة مَركبنا، لقد اصطدمت بها بشدَّة مُحطِّمةً ومُنتزعةً جزءًا منها، ولحسنِ الحظِّ فإنَّ الحادث وقع في منطقة بحريَّة مَفتوحة، وكان البحر فيها هادئًا والرِّياح خفيفة، وإلا لكانت العاقبة وخيمة. وهذا دليل على ضَعف مَهارة أولئك الرَّبابنة في القيام بمناورة قاتلة لمراكب من ذوات الأشرعة الثَّقيلة.

عندها ألقَى عددٌ من مَراكب الأسطول بالمرساة في الحال لإصلاح العَطب، فقد كانت سَارية مَركب آخر قد تَحطَّمت في اليوم السَّابق، أمَّا بقيَّة المجموعة فقد وَاصلت طريقها باستثناء خمسة مَراكب ما تزالُ مَفقودة.

كُنَّا في مَرسىً حسن على بُعد نصف ميل إلى الشَّرق من جزيرة تُسمَّى

---

(١) عرض لهذه القضايا والعقبات في البحر الأحمر عدد من الدارسين. انظر مثلًا: فاروق أباظة في: «أثر افتتاح قناة السويس على التنافس الدولي في البحر الأحمر ١٨٦٩ ـ ١٩١٤م». ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب التي عقدت في القاهرة سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م باسم: **البحر الأحمر عبر عصور التاريخ**، ص٢٧٣ ـ ٢٧٥. عبدالله عبدالرحمن الربيعي: «السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر» **مجلة الدارة**، العدد ٣، السنة ١٤٢٤هـ، ص ٨٠ ـ ٨٢.

أمّ ورد[١] Moard. وكان البحر مَزروعًا من على بُعد بِجُزرٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ مُشابهة لجزيرة أمّ الملك، وفيها الكثير من الشُّعب الصَّخريَّة.

لقد رَصدتُ مَسير الشَّمس، وأفاد بخطِّ عَرضٍ مقداره: ٢٥° ٢٥َ ٢٤ً. ولكنَّ الغُيوم التي كانت تُغطِّي الكوكب واضطراب الجوِّ والبحر نتيجة رياحٍ عاتيةٍ تَجعلُني أشكُّ في دقَّة الحساب.

وتُعرف الجزر التي تُشاهد من ذلك المرسَى باسم جُزُر الحمَار[٢]. أمَّا الجبال العالية التي تَرتفع في اليابسة فتُسمَّى Uraal y Uassaffa[٣].

٢٧ ابريل:

وأخيرًا ظَهرت المراكب التي أجبرتْها رَداءة الأحوال الجوِّية على التَّخلُّف عنَّا فانطلقنا دون إبطاء في السَّاعة الخامسة صباحًا، ومع هبوب رياحٍ مُعاكسة اضطُرَّ كلُّ مَركب إلى تغيير المسَار بانحراف رُبعي نحو الشَّمال الغربي، فيما بين شَاطئ الجزيرة العربيَّة وأرخبيل جُزُر الحمار. وتَواصلت هذه المناورة حتَّى التَّاسعة والرُّبع صباحًا حين طَوت جميعُ مَراكب الأسطول أشرعتها لنَجدَة مركب صغير جَنح في ذلك الوقت، وقد كُنَّا في الوقت نفسه قد التقينا العديد من المراكب التي كانت قد واصلت طريقها في اليوم السَّابق.

وبعد إنقَاذ المركب الجانح واصل الأسطول رحلته في السَّاعة العاشرة، واضطُرَّ إلى عُبور مَضيقٍ مليءٍ بالشُّعب الخطرة. ومع اشتداد الرِّياح المعاكسة من ناحية الشَّمال الغَربي واضطراب البحر اضطُررنا إلى

---

(١) قد تكون القراءة هكذا، وقد تكون «موارد»، ومع الأسف لم أظفر بشيء عنها.

(٢) سبق الحديث عنها في الفصل الأول.

(٣) لم أتوصل إلى قراءة صحيحة لها.

الرُّسوّ في السَّاعة الحادية عشرة والنِّصف صباحًا عند جزيرة تعد مُنتصف الطَّريق في الرِّحلة بين السُّويس وجدَّة، وفيها يُزار ضَريح وليّ يُدعى الشَّيخ مربط[١] Morgob، ومن السَّفينة تُشاهد القُبَّة، وهو بَيت في نصفه وعِشَّة في نصفه الآخر.

وتَحمل تلك الجزيرة اسم هذا الوَليّ، وهي جزيرة مُنخفضة وصغيرة، ذات طبيعة رمليَّة ومُحاطة بالشُّعب الصَّخرية كبقيَّة جزر الحمار.

ومن حَركة للشَّمس رَصدتُ خَطَّ العَرض ٢٥° ٤٥' ٤٧" شمالًا، وكانت نتيجة الرَّصد جيِّدة، جاءت مُؤكِّدة خَطَّ العَرض الذي ظَهر لي في اليوم السَّابق لأنَّه يتوافق مع تحديد الاتِّجاه مع إضافة دقيقتين، ولم أجد الوقت الكافي لأقوم برصدٍ آخر لدَرجة الطُّول.

كانت المياه التي نَحملها قد فَسدت بكاملها وصارت تَنبعثُ منها رَائحة كريهة، فصرنا نضطرُّ عند شُرب الماء أن نُغلق أنوفنا، وأصبح الفَمُ والحنجرةُ يتحسَّسان من الطَّعم الكريه الذي لا يُطاق بعد وقتٍ طويلٍ من شُربه[٢].

٢٨ أبريل:

في الخامسة صَباحًا أبْحرَ الأسطول برياح خفيفة، تَوقَّفتْ تمامًا بعد ساعتين، مع ذلك عَانينا من أمواجٍ مُزعجة سَبَّبَتْ لي تَوعُّكًا شَديدًا.

---

(١) على الرغم من القراءة التي تبدو مختلفة عمَّا ذكره الرَّحالة (مرغوب) إلا أني اعتمدت تسمية خريطة **أطلس المملكة العربية السعودية**، ص٢٢٩ لاسيما وأنها تعطيها نفس درجة خط العرض ـ تقريبًا ـ الذي أورده الرحالة.

(٢) أكَّد هذه الخاصيَّة لمياه الحوراء أيضًا كل من العبدري وابن عبدالسلام، انظر: ص ٣٤٦، الحاشية (٢).

وبعد أن تَحسَّنتْ الرِّياح المعَاكسة بعد مُنتصَف النَّهار سِرنا مسافة طَويلة، ونَاوَرْنا بربعيَّة شَماليَّة غَربيَّة. كانت السَّاعة الرَّابعة والنِّصف عَصرًا عندما رَسوْنا في ميناء الوَجْه[١] في ساحل الجزيرة العربيَّة، هذا الميناء صَغير لكنَّه جميل ومَحمِيٌّ جيِّدًا بين التِّلال، وهو المكان الوحيد في السَّاحل الذي فيه مَاءٌ جيِّد صَالح للشُّرب، وعند وصولي إلى هناك شَاهدتُ مَا يُشبه السُّوق الشَّعبي لبيع الماء، وهو مَقصور على عدد كبير من العَرب من رِجال ونساء مع إبلهم، وكمِّيات كبيرة من القِرب المليئة بالماء، مَصفوفة في خُطوط طويلة على شَاطئ البَحر.

كانت قد سَبقتْنا إلى الميناء المراكبُ الأخرى التي وصلت إليه مُنذُ يومين، لكن بقيَّة مَراكب الأسطول ظلَّت في الخلف، وكان مَركبنا فقط وهو السَّفينة الشِّراعية الأفضل الذي استطاع الوصول في ذلك اليوم.

لقد مَررنا أثناء ذلك اليوم بجُزُر عديدة، لا تبدو من طبيعة الجزُر السَّابقة نفسها، ففيها تُشاهَد السُّهول والصُّخور والجبال.

٢٩ أبريل:

رصدتُ أرصادًا جيِّدة، وقد أعطتني في الوَجه خَطَّ العَرض: ٦٢ْ ٣١َ ٩٣ً شمالًا. ومع استمرار هبوب الرِّياح الشَّمالية الغربيِّة العَاصفة واضطراب البحر لم تَصل في ذلك اليوم سِوى ثلاثة من المراكب المتخلِّفة، فكان لزامًا علينا أن نظلَّ مُنتظرين ليومٍ آخر.

---

(١) لعلَّ فيما ذكره الجاسر من تعريف لها يكفي القارئ عما سواه لاسيما وقد اعتمد على عدَّة مصادر، عرض نصوصها وعلَّق عليها. انظر: **المعجم الجغرافي**، ٣/ ١٣٤٩ - ١٣٥٩.

٣٠ أبريل:

لقد سَاهمتْ تلك الرِّياح الشَّمالية الغَربيَّة العاتية التي استمرَّت طِوال ذلك اليوم في تأخير المراكب الأخرى.

في أيَّام الرَّاحة تِلك جمعتُ عِدَّة أشياء تَخدم العُلوم الطبيعيَّة، وعندما لاحظ رِفاق سَفري الجهَلة ذلك اخذوا بالتَّشكيك حول أهدافي ومَراميَّ من ورائها، ولذا وجدتُ نفسي مُجبرًا على التَّوقُّف عن فعل ذلك.

١ ـ ٢ مايو:

وأخيرًا وصلتْ المراكب الأخرى التي كُنَّا نَأمل بوصولها لمتابعة طريقنا في اليوم التَّالي، لكنَّ شدَّة الرِّياح العَكسيَّة أجبرتنا على البقاء في مكاننا.

٣ مايو:

وأخيرًا أطلقتْ جميعُ مراكب الأسطول أشْرعتها قبل الخامسة صباحًا بقليل مُتوجِّهة صَوب الشَّمال الغربي، ورَست مُنتصف النَّهار بالقُرب من إحدى الشُّعب البحريَّة.

٤ مايو:

في حُدود الواحدة صباحًا انطلقنا بالمسير مع رِياح خفيفة مُتغيِّرة يَقطعها سُكون حتَّى استقرَّت الرِّياح باتِّجاه الغَرب فالشَّمال الغربي في صَالح مَسيرتنا حتَّى مُنتصف النَّهار، وهي السَّاعة التي رَست فيها جميع المراكب في ميناء دمج[١] Demeg في ساحل الجزيرة العربيَّة. كان سيرنا

---

(١) مع هذه الإشادة بهذا الميناء من قبل الرحالة إلا أن المصادر لم تفدنا بشيء عنه، وكل ما ظفرنا به هو ما ذكره الجاسر بأنه وادٍ يقع إلى الغرب من تبوك. انظر: **المعجم الجغرافي**، ٢/ ٥٣٤.

عُمومًا باتّجاه الشَّمال الغربي وقريبًا من الشَّاطئ، وكُنّا قد خرجنا أخيرًا من مَتاهة الشُّعب المخيفة، تلك التي كانت على مَدى مَسافة كبيرة من رحلتنا، تُهدِّدنا بالمكروه في كلِّ لحظة.

مَيناءُ دمج Demeg هو مَرفأ مُمتاز مُحكم، ومُحاط بالجبال التي بَدت لي طينيَّة، وتَمتدُّ حتّى ضِفَّة الماء؛ وتُلحظ في الأراضي المتاخمة بعض النَّباتات وإن كانت بكمِّيات مَحدودة.

وقد ظَهر بعض العرب من رجال ونساء ليبيعوا لنا الكِباش، وقد قيل لي بأنّهم جميعًا أُناسٌ أشرار.

٥ مايو:

أطْلقنا الأشرعة مُبكِّرًا، بينما كانت الرِّياح مُعاكسة، وهذا ألزمنا بالرُّسوّ في السّاعة الثّامنة صَباحًا في مَيناء صغير على شاطئ الجزيرة العربيَّة مُحاط بالشُّعب، واسمه البيوت[١] Libeyot.

وقد أعطاني مَسار الشَّمس رَصدًا بدرجة عَرضٍ قدرها: ٢٦° ٢٨´ ٤٥´´ شمالًا، ولكنَّ ثِقتي بذلك الرَّصد ضعيفة.

٦ مايو:

أبْحرت القافلة في السّاعة الرَّابعة والرُّبع صباحًا باتّجاه الغَرب فالشَّمال الغربي. لكنَّ تَناوب الهدوء والرِّياح المعاكسة لم يَسمح لنا بقطع مَسافة طويلة، فرَسونا مُنتصف النَّهار في ميناء زويدة[٢] Zuida على ساحل

---

(١) لم أتوصَّل إلى شيء مفيد بشأنه.

(٢) هكذا كتبها الرحالة، لكن هناك أسماء أخرى قد تنطبق عليها، فخريطة **أطلس المملكة العربية السعودية**، ص ٢٢٩ أشارت إلى اسم زبيدة في حدود الموقع المذكور؛ بينما يُسمِّيه الجاسر «زبيرة»، ويذكر أنه مرسى بين رأس الأبيض ورأس الأزلم. انظر: **المعجم الجغرافي** ٣/١٣٤٩.

الجزيرة العربيَّة، وعبرنا في الحال إلى بعض الجزُر الوعرة.

يُكوِّن جُزء من الشَّاطئ الذي رَسونا فيه خليجًا كبيرًا، والجبال تصل حتَّى حدود الماء، ولكنَّها ليست كغيرها مُرتفعة وحادَّة، بل مُتوسطة الارتفاع ومُكوَّرة وحمراء اللَّون ومُغطَّاة بالتُّربة النَّباتيّة.

مَسار الشَّمس أفادني برصد درجة عَرض قدرها: ٢٦° ٣٦َ ٣٤ً شمالًا، هذا الرَّصد كان جيِّدًا هذه المرَّة.

٧ مايو:

كانت السَّاعة تُشير إلى الثَّانية صَباحًا عندما رفعنا المرساة، ولكن بعد هُدوء استمرَّ حتَّى السَّادسة، ومع هبوب رياح مُعاكسة مثلما حصل في الأيّام الماضية اضطُررنا للمناورة حتَّى السَّاعة الواحدة، حينها رَسونا عند جُزُر نعمان.

٨ مايو:

وَاصلنا الطَّريق في الوقت نفسه تقريبًا الذي اعتدناه في الأيّام السَّابقة، كان ذلك مع سُكون ورياح مُعاكسة، وفي التَّاسعة أمَر قُبطان مَركبنا بإلقاء المرساة إلى جانب إحدى جُزر نعمان لمطالبة سُكَّانها بزَورق كانوا قد سَرقوه في رحلة سابقة، وبعد ساعة كاملة من الجِدال لم يَسمع منهم إلا وُعودًا وتطمينات، ثمَّ واصلنا الرِّحلة. وفي الثَّانية عصرًا ألقينا المرساة بعد عدَّة أميال في مكان مفتوح وغير مريح بسبب تمايل المركب.

أرضُ جُزُر النُّعمان أو جُزر النَّعام تبدو طِينيَّة وجِيريَّة، مُجزَّأة بالتِّلال، وتُوفِّر مراسي جيِّدة، وسُكَّانها يعيشون في خِيَم ولكن نباتاتها ضعيفة ومياهها شحيحة(١).

(١) سبق الحديث عنها في الفصل الأول.

٩ مايو:

في تمام الرَّابعة صباحًا كُنَّا في البحر في جَوٍّ هادئ لكن هبَّت رياح شديدة مُعاكسة، وأصبح البحر مُضطربًا حتّى السَّاعة السَّابعة، وعندها تفرَّقت الرِّياح في خيوط مُتعدِّدة أو في تيَّارات مُتوازية حتَّى إنَّ أسطولنا الذي كان يسير في رَتل قدَّم مَشهدًا فريدًا، إذ كان أحد المراكب ينطلق بكلِّ قوَّته، بينما يسير آخر بهدوء تام، وهكذا بالتَّناوب على طول الخطِّ حيث إنَّ المسافة بين مَركب وآخر لم تكن تَتجاوز المنتي تويس، وقد استمرَّت تلك الظَّاهرة ما يوازي الساعة إلى أن استقرَّت الرِّياح على الغَربيَّة فالشَّماليَّة الغربيَّة، وعندها تمكَّنا من مُواصلة الرِّحلة.

وفي السَّاعة الثَّانية عَشرة والنِّصف رَسونا أمام قَلعة المُوَيْلِح، وهي قَصبة أو مُربَّع من الأسوار، يبلغ ضلعها قريبًا من مئة تويس، ولها أربعة أبراج في الزَّوايا وبُرج واحد في وسط كلّ ضلع. ويضمُّ ذلك المربَّع قرية فقيرة ومَسجدًا، وليس فيه من مَاءٍ غير ماء البئر الذي كان مع ذلك جيّدًا، كما يُوجد أيضًا أبقار وطيور داجنة ونَخيل حول السُّور. لكنَّ المناطق المجاورة لم تكن إلا صَحاري مُقفرة تَمامًا، مُحاطة بجبال صَخريَّة جرداء. ويَحتفظ السُّكَّان ببعض قِطع المدفعيَّة، وهي من بَقايا عَهد استقلالها القديم. ولدى وُصولنا رفعوا العلم الأحمر، وفعل أسطولنا الشَّيء نفسه، وحضر العديد منهم لزيارة قُبطاننا، لكنَّ وجود بعض الزَّوارق التي أنزلت بعض رجال المركب للتَّزوُّد بالماء وشراء المؤونة، كلَّفنا الكثير لإقناعهم بفتح بوَّابة السُّور من قلَّة ثِقتهم بالآخرين، لقد شَكوا بمرارة من الوهَّابيِّين، فالسُّلطان سُعُود سَبق وأن أخضعهم لسُلطانه كما حصل مع بقيَّة النَّاس في الجزيرة العربيَّة وألزمهم بدفع العُشر، ولكن ليس هناك من مُوظَّف يُمثِّله في هذه البلدة[1].

(١) لمزيد من المعرفة عن هذه البلدة انظر: الجاسر: **المعجم الجغرافي**، ٣/ ١٢٩٢ ـ ١٢٩٥؛ سيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، ص١٢٩.



منظر لقلعة المويلح من ساحل البحر الأحمر

يُشكّل السّاحل في تلك النّاحية خليجًا واسعًا تحتلُّ القَصبة نهايته.

وفي ذلك اليوم عاودتُ رُؤية جبال أفريقية التي تَضعها الخرائط ـ على الأقلّ تلك التي أحملُها معي ـ على مَسافة ثمانين مِيلًا من قلعة المويلح، وإن كانت المسافة في الواقع أقلّ من ذلك بكثير. ويُسمّي العرب أرض أفريقية بـ«البرّ الأعجمي» في حين يُطلقون على الجزيرة العربيّة «برّ العَرب».

وبينما كنتُ على مسافة نصف يوم وبحدود ثلاثة أميال إلى الجنوب أو الجنوب الغربي من قلعة المويلح تَمكّنتُ من رَصد حركة الشّمس بدرجة عَرضٍ قدرها: ٢٧° ٢٥´ ٥١ ؛ ولكنّي بمقارنة هذه النّتيجة بالخرائط وجدتُها غير مَعقولة، فداخلتني الشُّكوك حول دقّة ملحوظاتي.

١٠ مايو:

تَحقّق خُروجنا السّاعة الثّانية صباحًا مع رياح خفيفة، وفي السّاعة

السَّادسة والنِّصف تحرَّكت رياح من الشَّمال الغَربي تَبعها هُدوء تامٌّ بعد ساعة، وتَتَابعت نَسمات مُتنوِّعة حتَّى المساء، وفي حُدود الخامسة رَسونا في جَزيرة شَرم[١] Scharm، كان مَسيرنا باتِّجاه الشَّمال الغَربي أوَّلًا، ثمَّ إلى الغرب بعد ذلك.

ولمَّا كُنَّا شَرق رَأس أبي مُحمَّد[٢] تمامًا، وعلى بُعد أميال إلى الغرب أو الشَّمال الغَربي من قلعة المويْلح رصدتُ مسير الشَّمس فحصلتُ على درجة عَرضٍ قُدرها: ٢٧° ٤٩َ ٥٥ً شمالًا. هذه العمليَّة ورُؤية الرَّأس بَدَّدت شُكوكي حول مُلاحظة اليوم السَّابق التي هي صحيحة، لهذا السَّبب سَأُبدي مُلحوظة وهي أنَّ الخرائط تحتوي على خطأ يَزيد على نصف درجة في مَوقع قَلعة المويْلح.

واستنادًا إلى ملحوظة أخرى، فإنَّ الجبال التي رأيتُها في اليوم السَّابق لا تَنْتمي إلى السَّاحل الأفريقي كما تُشير الخرائط، بل إلى أرض الطُّور، وهي مُلاصقة لرأس أبي محمَّد في الجزيرة العربيَّة. ذلك الخطأ الكبير جعلني أفقد كلَّ ثِقَةٍ في خَرائط المنطقة التي أحملُها معي.

تقع جَزيرة شَرم التي رسونا فيها عند مَصبِّ بحر العَقبة أو ذِراع البحر الأحمر الذي يدخل في الجزيرة العربيَّة، وعن غَربها يَقع رأس أبي محمَّد والجزيرة مُؤلَّفة من تِلال، ولا يُوجد فيها سِوى قِلَّة من السُّكَّان المُعْسِرين.

---

(١) شرم أو شرمة حسبما ذكر الجاسر: قرية تقع بقرب شاطئ البحر شمال ميناء المويلح، على خليج العقبة. انظر: **المعجم الجغرافي**، ٢/٧١٨ ـ ٧١٩؛ وسميت بهذا الاسم لأنها تقع على شرم من البحر، ولها جزيرة بالاسم نفسه أيضًا. سيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، ص١٢٨.

(٢) هو مرَّة رأس محمَّد وأخرى أبو محمَّد، وسيزيده إيضاحًا في ثنايا حديثه، فهو على حدِّ تعريف بَاديا: هو «الذي يَفصل بَحر العقبة من بَحر السُّويس» انظر ما بعده. وقد ورد ذكره والتَّعريف به في الفصل الأول.

١١ مايو:

بَدأنا الاستعداد في السَّاعة الواحدة صَباحًا، وأثناء العمليَّة سَقط مَركب علينا، واصطدم بمؤخَّرة مَركبنا فحطَّمها ودمَّر جُزءها العلوي، ولكنَّ جُزءها السُّفلي بقي لحسن الحظِّ سالمًا، وبعد أن أصلحنا الضَّرر بأفضل ما أمكن انطلقنا غربًا، ولم تلبث أن هبَّت عاصفة شديدة فهاجَ البحر، وأصبح وضعنا خطرًا في مركب من دون ظَهر، وفي لَيلٍ داجٍ، وعلى مَسافة بعيدة من اليابسة، فما زِلنا حينها نجتاز بَحر العقبة.

وحلَّ الصُّبح أخيرًا، لكنَّ الجوَّ والبحرَ استمرَّا هائجين. وفي السَّاعة التَّاسعة كان الأسطول أمامَ رأسِ أبي محمَّد الذي يَفصل بَحر العقبة من بَحر السُّويس، أو ذراع البحر الذي يَمتدُّ حتَّى السُّويس. أبحرنا حول الرَّأس وعلى بُعد ثلاثين قدمًا فقط منه، وفي الحال ابتعدنا باتِّجاه الجنوب الغربي، لكي نقتربَ ونبحرَ حول الشُّعب التي تحيط به من ذلك الجانب. ولكن تقلُّبات البحر الشَّديدة التي كانت تَرتفع حتَّى المقدِّمة، غَمرت السُّفن بالمياه، ولمَّا لم نكن نَحمل مضخَّة وجَب علينا إخراج الماء بجرادل تَنْتقل من يَدٍ إلى يَدٍ أخرى، لكن مثل تلك الطَّريقة لم تكن كافيةً لتفريغها من عُشر ما فيها من مَاء، وقد واجهنا خَطر الغَرق عندما تَمَكَّنا من الرُّسوِّ بين بعض الصُّخور البارزة، ومَكثنا هُناك حتَّى السَّاعة الثانية عصرًا. ولمَّا سَكنت العاصفة بعض الشَّيء عاودنا الإبحار صَوب الشَّمال الغَربي بين مِئات الشُّعب والصُّخور، وتوجَّهنا لإلقاء المرساة في السَّاعة الخامسة مَساءً في أحد مَراسي السَّاحل من الجزيرة العربيَّة[١] حيث يُوجد مَرسى مُمتاز.

(١) والمقصود هنا شبه جزيرة سيناء.

١٢ مايو:

مَا أن انبلجَ الصُّبح حتَّى هبَّت عاصفة شديدة، لكن شِدَّتها انحسرت بعض الشَّيء، ولكنَّ استمرار سُوء الأحوال الجوِّية حتَّى مُنتصف المساء أجبرنا على قضاء ذلك اليوم في المرسَى نفسه المسمَّى ابن الخادم[1] Ben Hhaddem.

وفي ذلك اليوم شاهدتُ فعلًا السَّاحل الأفريقي، وفيه تَرتفع من ذلك الجانب الجبال العالية.

وقد وصلتْ مُتعاقبة جَميع المراكب سواء تلك التي كانت أمامنا أم الأخرى التي بقيت خلفنا لتنضمَّ إلى الأسطول.

١٣ مايو:

بَدأت الرِّحلة تُصبح مُتعبةً لي، إذْ في هذا اليوم الثَّالث عشر تُوفِّي أربعة رجال في مَركب من مَراكب الشَّريف، وواحد آخر في مَركبي، بالإضافة إلى ثلاثةٍ كانوا في حالة صحِّية سيِّئة، ومع ذلك فقد رَفضوا أخذ أيَّة دَواءٍ، نتيجة إعيائهم الشَّديد وما حلَّ برفيقهم الذي فَقدوه. وكان عليَّ في الوقت نفسه أن أعْتني ببعض المرضى وجريحين آخرين، هُما قُبطاني الذي أُصيب بجرح حادٍّ في ساقه، وقُبطان المركب الآخر الذي أُصيب إصابة خطيرة في أسفل قدمه، وقد تَماثل الجريحان للشِّفاء، وإن كانت أدويتي نفدَت سَريعًا.

في ذلك اليوم لحقَ بنا أحدُ المراكب التي كانت مُتأخِّرة عنَّا، كما اصطدم مَركب آخر بشُعبة صَخريَّة فحدثت فيه فَجوة كبيرة، وعند وصوله

---

(١) هذه قراءة محتملة، إذ لم أجد ما يؤيدها أو يمنعها من المصادر أو ما كتب حول المنطقة.

إلى المرسَى كان الماء قد وَصل إلى حدِّ النِّصف فيه، ولذا أُفرِغَ من حُمولته في الحال لإصلاحه.

تَواصلتْ رَداءة الطَّقس مع رِياح شماليَّة غربيَّة، وكان في الأسطول عدد كبير من المرضى، وكانت المؤن تَتناقص، ولم تكن الأرض المجاورة غير صَحراء مُرعبة.

وقد أخرج قُبطاني من المراكب الأخرى أربعة بحَّارة للحُلول محلّ الميِّت والمرضى.

١٤ مايو:

بَعد اصلاح المركب المعطوب أطلقنا الأشْرعة في السَّاعة الثَّامنة صباحًا على الرَّغم من الرِّياح العاتية، والبحر المليء بالشُّعب الصَّخرية التي لا تكاد تَسمح بمرُور المراكب. وأخيرًا وصلنا إلى ميناء يُسمَّى Gadiyahia[(١)].

لم أجد على اليابسة سِوى الصَّدف، في أرضٍ رمليةٍ تَخلو من النَّباتات والحجارة، وتقع الجبال على مَسافة نِصف فَرسخ، بينما تَقع مدينة الطُّور على مَسافة ستَّة فراسخ من ذلك المرسى.

وقد وصل بعض العرب على الجِمال لنقل المسافرين الرَّاغبين في السَّفر برًّا إلى الطُّور.

١٥ مايو:

هَبَّت عاصفةٌ هَوجاء من الشَّمال الغَربي ألزمتنا بالتَّوقُّف طوال ذلك النَّهار.

---

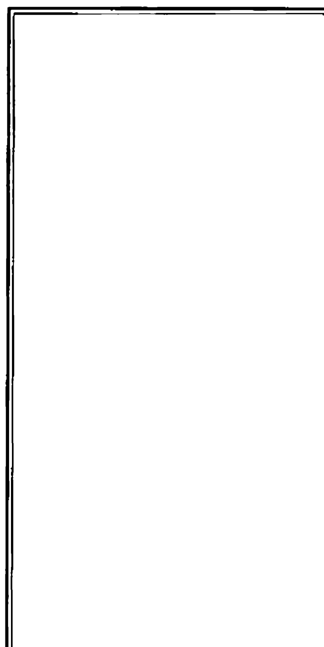
(١) لم أتمكَّن من تهجِّي هذه الكلمة.

وكان قُبطاني قد عَرض عليَّ في اليوم السَّابق ما إذا كنتُ أرغبُ في الذَّهاب إلى السُّويس عن طَريق البَرِّ، وسَعى لي في الحصول على أربعة جِمال وكلّ مُستلزمات السَّلامة والسَّفر.

فكَّرتُ في البداية بتَأجيل الاستفادة من ذلك العَرض إلى حين الوُصول إلى الطُّور بهدف مُتابعة قِياساتي وأرصادي التي واصلتُها من قلعة المويْلح، وتَحديد فَرق دَرجة الطُّول في الطُّور، ولكن وجدتُ أنَّ الأحوال الجوِّيَّة تَنتقل من سيِّئٍ إلى أسْوأ، وفكَّرتُ بأنَّ مُواصلة الرِّحلة في ذلك البحر، لن تُمكِّنني في ظَرف وقتٍ قصير من مُتابعة حِساباتي واستخدام أدواتي فقرَّرتُ السَّفر بَرًّا.

كنتُ أوَدُّ زيارة جبل الطُّور وطُور سِيناء أو جبل سِيناء، لكنَّ الصُّعوبات أجبرتني على السَّفر ذاك المساء على ظَهر جَمل برفقة اثنين من خَدمي وطبَّاخ وعبد ركبوا على أربعة جِمال. وقد تَركتُ في السَّفينة بقيَّة جَماعتي وعَفْشي، وألقيتُ على البَحر ـ وأنا أشعرُ بالفَرح ـ تَحيَّة الوَداع.

ملحق الخرائط والصور



أولاً: مجموعة من الصور والخرائط التي توضح خط سير الرحلة أو بعضًا من تلك الوسائل التي استخدمها الرحالة:

١ ـ الإسطرلاب: أحد أدوات علي باي في رحلته هذه.

٢ ـ كرونومتر: جهاز ضبط الوقت، وهو أحد أجهزة الرَّصد التي استخدمها باديا في رحلته.

٣ ـ آلة الثُّمن: إحدى آلات الرَّصد الفلكي التي استخدمها باديا في رحلته.

٤ ـ منظار بعيد المدى (تليسكوب) من أدوات باديا في رحلاته.

٥ ـ الرَّحل أو الخِرج وهو المعدُّ لحمل الأغراض فوق الجمل لدى بدو الصَّحراء العربيَّة.

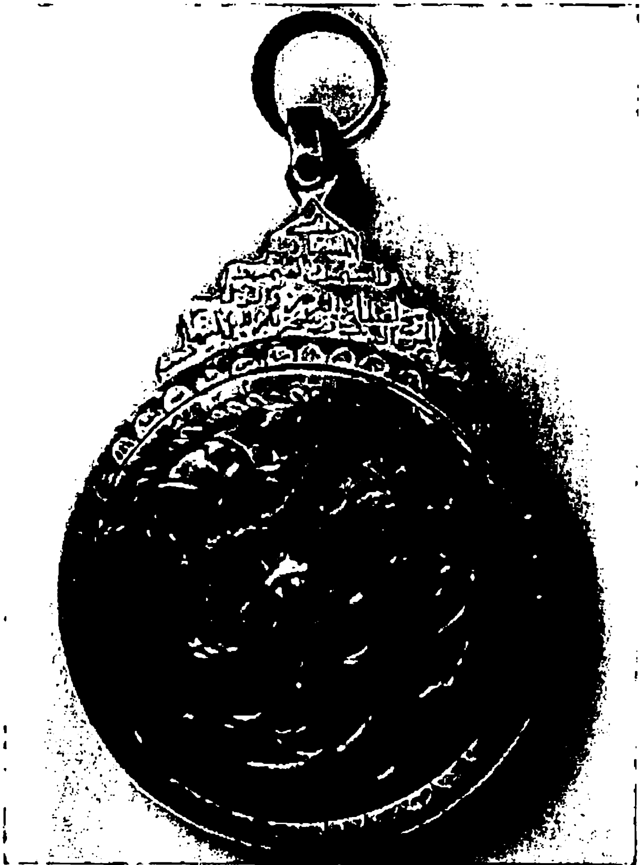
٦ ـ باب الفتح في القاهرة الذي يدخل منه الحجاج القادمون من مكَّة المكرَّمة.

٧ ـ إحدى خرائط علي باي التي رسمها ويبدو فيها واضحًا الجزء الغربي للجزيرة العربية.

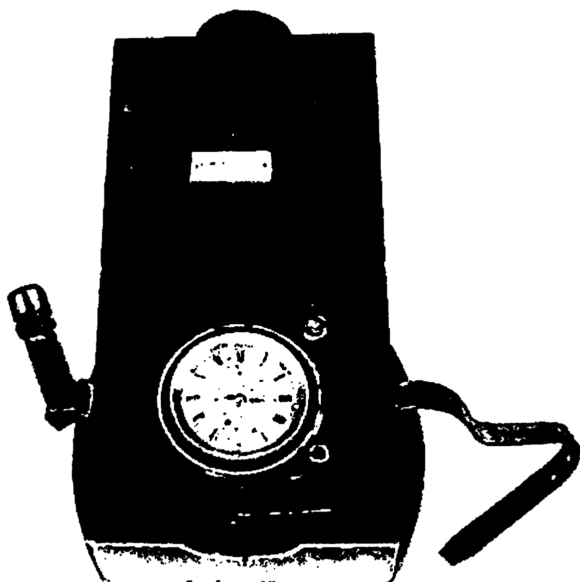
٨ ـ خريطة لسواحل البحر الأحمر الشَّمالية الشَّرقية منها والغربيَّة.

٩ ـ خريطة من عمل المترجم تمثِّل الطريق الذي سلكه الرَّحالة إلى مكَّة المكرَّمة.

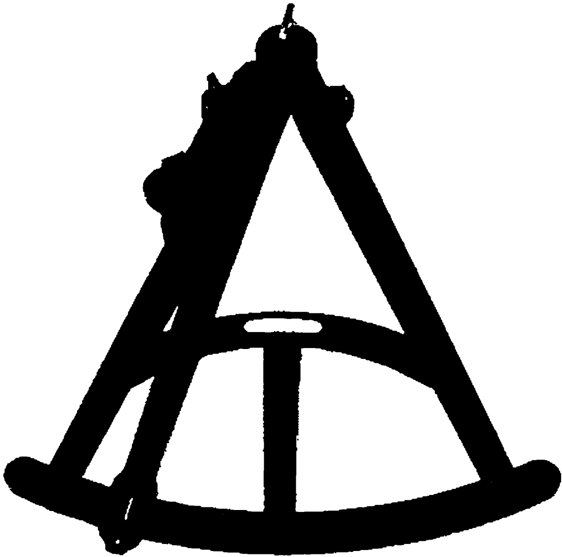
١٠ ـ خريطة من عمل المترجم تمثِّل طريق العودة من مكَّة المكرَّمة إلى القاهرة الذي سلكه الرَّحَّالة.



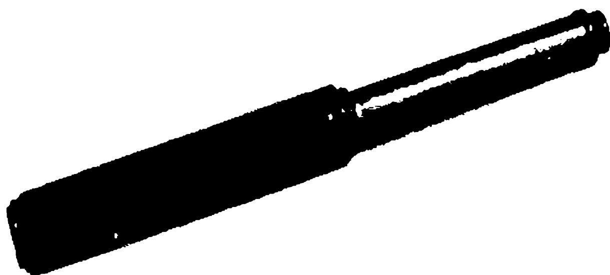
١ ـ الإسطرلاب: أحد أدوات علي باي في رحلته



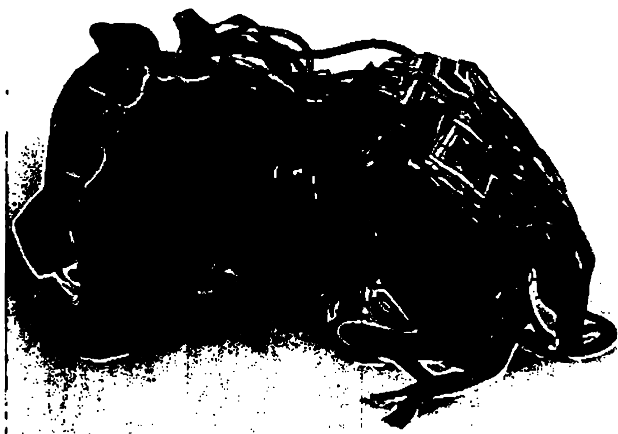
٢ ـ كرونومتر: جهاز ضبط الوقت،
وهو أحد أجهزة الرّصد التي استخدمها باديا في رحلته



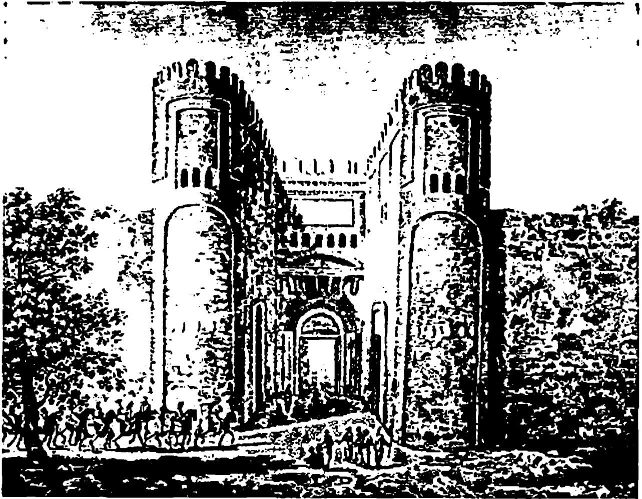
٣ ـ آلة الثُّمن: إحدى آلات الرَّصد الفلكي
التي استخدمها باديا في رحلته



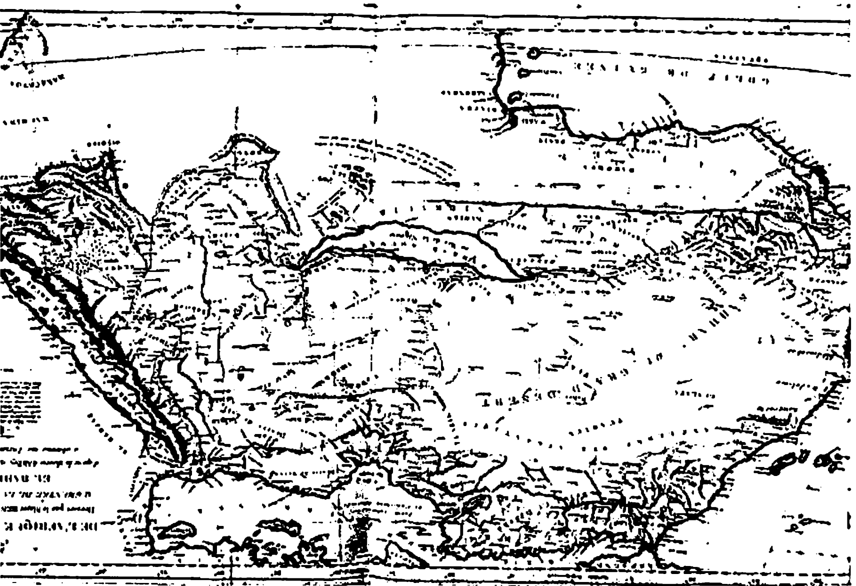
٤ ـ منظار بعيد المدى (تليسكوب) من أدوات باديا في رحلاته



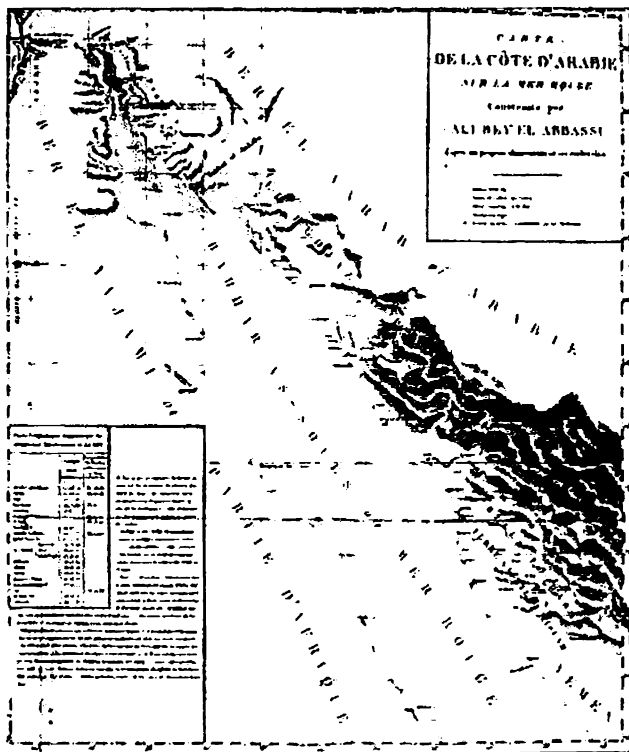
٥ ـ الرَّحل أو الخرج وهو المعدُّ لحمل الأغراض فوق الجمل
لدى بدو الصَّحراء العربيَّة



٦ ـ باب الفتح في القاهرة الذي يدخل منه
الحجاج القادمون من مكّة المكرّمة



٧ - إحدى خرائط علي باي التي رسمها ويبدو فيها واضحاً الجزء الغربي للجزيرة العربية



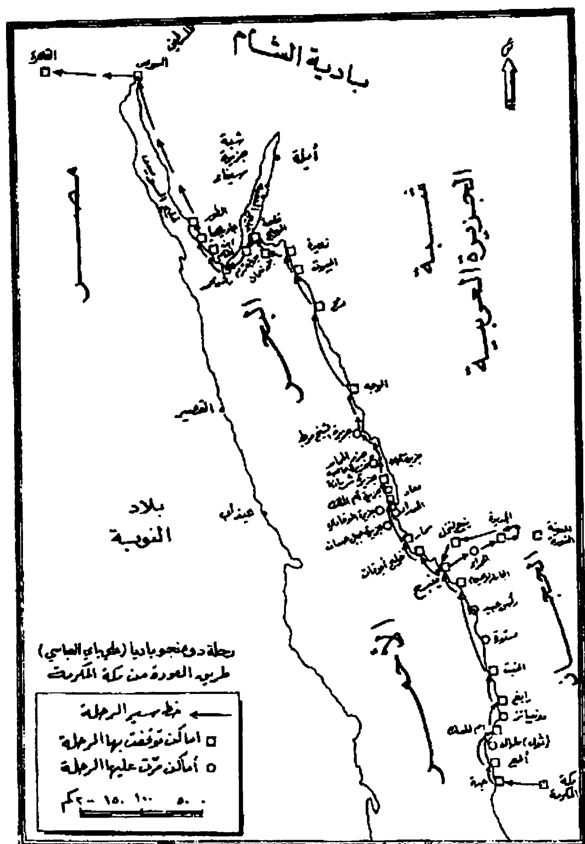
٨ ـ خريطة لسواحل البحر الأحمر الشّمالية الشّرقية منها والغربيّة

رحلة دومنجو باديا (علي باي العباسي)
الطريق إلى مكة المكرمة

← خط سير الرحلة
□ أماكن توقفت بها الرحلة
○ أماكن مرت بها الرحلة

٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠كم

٩ ـ خريطة تمثل الطريق الذي سلكه الرحالة إلى مكة المكرمة



١٠ ـ خريطة تمثل طريق العودة من مكة المكرمة إلى القاهرة الذي سلكه الرحالة

ثانياً: فهرس الأشكال والصور:

هذه الصُّور والرُّسوم والأشكال التي يحويها هذا الملحق أو تلك المتناثرة داخل الكتاب أغلبها من عمل الرَّحالة نفسه، وقد استقيتها من مصادر عدَّة أهمها:

1 - Varios Autores, Ali Bei; Museu etnologic. Barcelona 1996.

2 - DOMINGO BADIA, Viajes del principe Ali Bey el Abbasi en Maruecos, Tripoli, chipre, Egipto, Arabia, Siria y Turquia, Madrid.1982.

3 - DOMINGO BADIA, Viajes por Arabia, Palestina, Siria y Turquia, Prologo de Juan Goytisolo, Barcelona, 1984, t.2.

كشاف الأعلام

كشاف الأماكن

(ح)

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر والمراجع العربية والمعرَّبة:

- إبراهيم رفعت باشا: **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينيَّة؟؟**
- ابن بشر: عثمان بن عبدالله؛ **عنوان المجد في تاريخ نجد**، ج۱ ط. دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ۱۹۸۲م.
- ابن عبدالسلام الدرعي المغربي: **ملخص رحلتيه**، عرض وتلخيص: حمد الجاسر، منشورات دار الرفاعي، الرياض ۱۹۸۳م.
- أبو بكر الرَّازي: **كتاب القُولنج**، تحقيق وترجمة: صبحي حمامي، ط. جامعة حلب، ۱۹۸۳م.
- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، الدار البيضاء ۱۹٥٦م، ج ۸.
- أبو الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي: **أخبار مكَّة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، بيروت ۱۹۷۹م.
- أ. ج. سوانسن كوبر: **رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك**، ترجمة صادق عبد الركابي، الأردن، عمان ۲۰۰٤م.
- أحمد السباعي: **تاريخ مكَّة**، مكة المكرمة ۱۳۹۹هـ.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ط. بيروت.
- أحمد حسين شرف الدين: **المدن والأماكن الأثرية في شمال وجنوب الجزيرة العربية**، الرياض ۱۹۸٤م.
- أحمد حسين شرف الدين: **اليمن عبر التاريخ**، الرياض ۱۹۸۰م.
- إسماعيل حقي جارشلي: **أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني**، بيروت ۲۰۰۳م.

- **أطلس المملكة العربية السعودية الذي أصدرته وزارة التعليم العالي بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية**، الرياض ١٤١٩هـ.
- أمين سعيد: **تاريخ الدولة السعودية**. ط. دارة الملك عبدالعزيز. الرياض.
- أندريه ريمون: **المصريون والفرنسيون في القاهرة**، ترجمة بشير السباعي، القاهرة ٢٠٠١م.
- بكر أبو زيد: **معجم المناهي اللفظية**، الرياض ١٤١٧هـ.
- بيتر برينث: **بلاد العرب القاصية**، ترجمة: خالد عيسى وأحمد إسبانو، بيروت ١٩٩٠م.
- **التّداوي بالأعشاب والنباتات قديمًا وحديثًا**، جمع مواده ونسقها وقدم له: أحمد شمس الدين، بيروت ١٩٩١م.
- ثابت بن قرة: **كتاب الذخيرة في الطّب**، ط. بيروت ١٩٣٨م.
- ج ج لوريمر: **تاريخ البلاد السعودية في دليل الخليج**، جمع وتعليق محمد الخضيري، مطبوعات الدّارة، الرياض ١٤٢٢هـ.
- جاكلين بيرن: **اكتشاف جزيرة العرب** ترجمة قدري قلعجي، نشر الفاخرية بالرياض.
- جان ريمون: **التّذكرة في أصل الوهّابيّين ودولتهم** ترجمة: محمد خير البقاعي، تعليقات: أبي عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، منشورات الدارة، الرياض ١٤٢٤هـ.
- جلال يحيى: **المغرب الكبير (العصور الحديثة وهجوم الاستعمار)**، بيروت ١٩٨١م، ج٣.
- جيمس أنتوني فرويد: **التنافس البريطاني الإسباني الفرنسي في القرن السادس عشر حول العالم الجديد وجزر الهند الغربية**، ترجمة: السيد يوسف نصر، الإسكندرية ١٩٩١م.
- جوزيف بيتز: **رحلة جوزيف بيتز إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، القاهرة ١٩٩٥م.
- جيرالد دو غوري: **حكّام مكّة**، ترجمة محمد شهاب، القاهرة ٢٠٠٠م.
- الحسن بن محمد الوزان: **وصف إفريقيا**، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٩هـ.
- حسين باسلامة: **تاريخ الكعبة المعظّمة**، تعليق يوسف الثقفي، الرياض ١٤١٩هـ.
- حسين بن غنام الأحسائي: **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وغزوات ذوي الإسلام**، ط. القاهرة ١٣٦٨هـ، ج١.
- حسين مؤنس: **تاريخ المغرب وحضارته**، بيروت ١٩٩٢م، م ٣.

- حمد الجاسر: **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية**، الرياض ١٩٧٧م.
- داود بن عمر الأنطاكي: **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**، بيروت.
- روبن بدول: **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ترجمة: د. عبدالله نصيف، جامعة الملك سعود الرياض١٩٨٩م.
- ريتشارد بيرتون: **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة وتحقيق: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، القاهرة ١٩٩٥م.
- سعد زغلول عبدالحميد: **في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت ١٨٧٦م.
- سليمان الرحيلي: **الطريق النبوي إلى بدر، معالم وعبر**، المدينة المنورة ١٤١٩م.
- سليمان بن سحمان: **الضياء الشارق في ردِّ شبهات الماذق المارق**، الرياض ١٤١٤هـ.
- سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب: **تحفة الناسك بأحكام المناسك** ط. الدارة، الرياض ١٩٩٩م.
- سيد عبدالمجيد بكر: **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، جدَّة ١٩٨١م.
- الشريف الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ط. القاهرة.
- شوقي الجمل: **سياسة مصر في البحر الأحمر**، القاهرة ١٩٧٤.
- عاتق البلادي، **معالم مكَّة التأريخية والأثرية**، دار مكَّة ١٩٨٣م.
- عاتق بن غيث البلادي: **رحلات في بلاد العرب**، مكة المكرمة ١٩٨٣م.
- عبدالرحمن البهكلي: **نفح العود في سيرة دولة الشَّريف حمود**، ط. الدارة، الرياض ١٩٨٢م.
- عبدالرحمن الجبرتي: **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، بيروت.
- عبدالرحمن الجزيري: **كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**، القاهرة ١٩٧٠م.
- عبدالرحمن بن علي العريني: **الإمام محمد بن سُعُود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى**، مطبوعات المئوية، الرياض ١٤١٩هـ.
- عبدالعزيز حميد وآخرون: **الفنون الزخرفية العربية الإسلامية**،بغداد ١٩٨٢م.
- عبدالعزيز راشد السنيدي: **الحياة العلمية في مكَّة المكرمة**، الرياض ٢٠٠٣م.
- عبداللطيف بن دهيش: **عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السُّعُودي**، الرياض ١٩٩٩م.
- عبدالله بن خميس: **المجاز بين اليمامة والحجاز**. ط. تهامة، جدَّة ١٩٨١م.
- عبدالله بن خميس: **معجم اليمامة**، الرياض ١٣٩٨هـ.
- عبدالله بن خميس: **معجم جبال الجزيرة**، ج ٥، ط١، الرياض ١٤١٢هـ.

- عبدالله بن صالح العثيمين: **مواد لتاريخ الوهَّابيِّين للرَّحَّالة جوهان بوركهارت**، الرياض ١٩٩١م.
- عبدالملك بن هشام: **السِّيرة النَّبوية**، ط. القاهرة ١٩٥٥م.
- عمر الفاروق رجب: **المدن الحجازية**، القاهرة ١٩٨١م.
- فورستر سادلير: **رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م**، ترجمة أنس الرفاعي، الكويت ١٩٨٣م.
- لويس دو كورانسي: **الوهَّابيُّون: تاريخ ما أهمله التاريخ**، ترجمة مجموعة من الباحثين، بيروت ٢٠٠٣م.
- لي ديفيد كوبر: **كتابات الرَّحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهَّابيَّة في القرن التاسع عشر**، ترجمة د. عبدالله بن ناصر الوليعي، القاهرة ١٩٩١م.
- محمد أحمد الرويثي: **السكان وتنمية الموانئ السُّعوديَّة على البحر الأحمر**، ط. الدَّارة، الرياض ١٩٨٢م.
- محمد أحمد الرويثي: **المرافئ الطبيعية على الساحل السُّعُودي الغربي**، ط. الدارة، الرياض ١٩٨٢م.
- محمد أديب غالب: **من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي**، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٥م.
- محمد البيومي الدمنهوري: **منهج السالك إلى بيت الله المبجل في أعمال المناسك**، تحقيق ودراسة: صالح السدلان، ط. دار بلنسية، الرياض١٤١٧هـ.
- محمد السيد غلاب وآخرون: **البلدان الإسلامية والأقلِّيات المسلمة في العالم المعاصر**، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سُعُود الإسلامية، الرياض ١٩٧٩م.
- محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية: **الطب النبوي** ط. بيروت.
- محمد بن أحمد الفاسي: **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ج١، بيروت ١٩٥٦م.
- محمد بن أحمد بن جبير: **رحلة ابن جبير**، ط. بيروت ١٩٦٨م.
- محمد بن إسحاق: **سيرة ابن إسحاق المسمَّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي**، تحقيق: محمد حميدالله. ط. الرباط ١٩٧٦م.
- محمد بن سليمان الخضيري: **الدولة السُّعوديَّة الأولى والدولة العثمانية**، الرياض ١٤٢٠هـ.
- محمد كمال جمعة: **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربيَّة**، ط. الدارة، الرياض ١٩٨١م.
- محمد بن محمد العبدري: **الرحلة المغربية**، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط ١٩٦٨م.

- محمد بن هادي العجيلي: **الظلّ الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سُعُود الأولين**. المنشور بعناية وتحقيق: عبد الله أبو داهش، أبها ١٩٨٨م
- محمود شاكر: **شبه جزيرة العرب**، الحجاز، بيروت ١٩٨٦م.
- مسعود الندوي: **محمد بن عبدالوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه**، ترجمة وتعليق عبدالعليم البستوي، ط. جامعة الإمام محمد بن سُعُود الإسلامية، الرياض ١٤١١هـ.
- مسعود محمد آل زيد: **تاريخ مكّة المكرمة في عهد الأشراف آل زيد**. القاهرة ٢٠٠٥م.
- معروف الرصافي: **الآلة والأداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات**، تحقيق وتعليق: عبدالحميد الرشودي. بغداد ١٩٨٠م.
- هارولد تمبرلي و أ. ج. جرانت: **أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ترجمة: بهاء فهمي، القاهرة ١٩٦٧م.
- هانس كندرمان: **مصطلح السفينة عند العرب**، ترجمة: نجم عبدالله مصطفى، أبو ظبي ٢٠٠٢م.
- هنري لورنس: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر**. ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٩م.
- ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ط. إحياء التراث العربي، بيروت.
- يفيم رزفان: **الحج قبل مئة سنة**: الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي، بيروت ١٩٩٩م.

ثانيًا ـ المصادر والمراجع الأجنبيّة:

- Diccionario enciclopedico **LAROUSSE**, ed. Planeta, Barcelona 1985.
- DOMINGO BADIA Y LEBLICH, **Viajes de Ali Bey el Abbassi por Africa y Asia**, t.3. Valencia 1836.
- DOMINGO BADIA, (Ali Bey) **Viajes por Marruecos**, Tripoli, Grecia y Egipto, Prologo de Juan Goytisolo, Barcelona, 1984. t. 1.
- DOMINGO BADIA, **Viajes por Arabia, Palestina, Siria y Turquia**, Prologo de Juan Goytisolo, Barcelona,1984. t. 2.
- DOMINGO BADIA, (Ali Bey), **Peregrino a la Meca**, Madrid, 1998.
- DOMINGO BADIA, **Viajes del principe Ali Bey el Abbasi en Marruecos, Tripoli, chipre, Egipto, Arabia, Siria y Turquia**, Madrid.1982.

- F. CORRIENTE, **Nuevo Diccionario Espanol-Arabe**, Madrid, 1988. letra (L).
- JULIO ROMANO, **Viajes de Ali Bey el Abbasi** Madrid, 1951.
- MARQUES DE LOZOYA, **Historia de Espana**, t. 8 p.1727.
- M.HOSSOTE - REYNAUD; Quatre documents inedits touchant les Relations entre la France et Maroc. Dans, **Hesperis Tamuda**, 1960 vol. I pp.555 - 8.
- Varios Autores, **Ali Bei**; Museu etnologic. Barcelona 1996.

ثالثًا ـ الدّوريات والنّدوات والموسوعات:

- إسماعيل محمد الأنصاري: «حَياة الشّيخ محمد بن عبدالوهّاب وآثاره العلمية»، ضمن بحوث **أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب** الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سُعُود الإسلامية بالرياض بتاريخ ٢١ ـ ٢٧/ ٤/ ١٤٠٠هـ الموافق ٨ ـ ١٤/ ٣/ ١٩٨٠م.
- طارق خضر: «علاقات الموريسكيّين بالأراضي العربية المكرّمة من خلال المخطوطات الموريسكية» نشر ضمن موسوعة: **الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات** الذي أصدرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ق٢.
- الطاهر أحمد المكي: «أول رحالة إسباني يزور العالم العربي في مطلع القرن التاسع عشر» **مجلة الفكر العربي**، عدد ٥١ يونية ١٩٨٨م.
- عبدالحفيظ حمّان في بحث مختصر بعنوان: «رحلات الأوربيين إلى شمال أفريقية في مطلع القرن التاسع عشر» ضمن بحوث ندوة: **مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي** التي أقامتها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- عبدالحفيظ حمّان: «الحياة العامة في منطقة الحجاز من خلال رحلة دومنجو باديا في بداية القرن التاسع عشر». **مجلة التاريخ العربي**، عدد ٢٣، سنة ٢٠٠٢م.
- عبدالحكيم سلامة: «بعض الرّحلات الإسبانيّة إلى الحجاز» في ندوة **مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي** التي أقامتها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- عبدالرحمن عميرة: «الشبهات التي أثيرت حول دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهّاب» بحوث **أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب** الذي أقامته جامعة الإمام

محمد بن سُعُود الإسلامية بالرياض بتاريخ ٢١ ـ ٢٧/ ٤/ ١٤٠٠هـ الموافق ٨ ـ ١٤/ ٣/ ١٩٨٠م.

- عبدالعزيز بن محمد آل الشَّيخ: «اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب على الكتاب والسنة»، **بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب**.
- عبدالله بن صالح الرقيبة: «الأماكن المقدسة والحجّ»، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي** الذي نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٩٩م، م٣ ق١.
- عبدالله بن محمد المطوع: مجتمع الدرعية في عهد الدولة السُّعوديَّة الأولى، نشرته **الجمعية التاريخية السُّعوديَّة** ضمن سلسلة بحوث تاريخية، الرياض ٢٠٠٣م.
- عبدالله عبدالرحمن الربيعي: «السياسة الصليبية تجاه البحر الأحمر» **مجلة الدارة**، العدد ٣، السنة ١٤٢٤هـ.
- عبد الله ناصر الوليعي: «البنية الجيولوجية والتضاريس»، ضمن **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي**، م٣ ق١.
- فاروق أباظة: «أثر افتتاح قناة السويس على التنافس الدولي في البحر الأحمر» ضمن سجل **ندوة البحر الأحمر عبر عصور التاريخ** التي أقامها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- فاروق أباظة: «أثر افتتاح قناة السويس على التنافس الدولي في البحر الأحمر ١٨٦٩ ـ ١٩١٤م» ضمن **ندوة البحر الأحمر عبر عصور التاريخ** التي أقامها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- مجموعة من الباحثين: «المغرب وإسبانيا خلال القرن السابع عشر» ضمن سلسلة **ندوات ومناظرات** رقم ٦٤ في جامعة محمد الخامس. الرباط ١٩٩٧م.
- محمد زكريا عناني: «مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد ونابليون» **مجلة الدَّارة**، عدد ٤، السنة الحادية والعشرون.
- **موسوعة الأحجار الكريمة**: الدَّليل المرئي للأحجار الكريمة على اختلاف أنواعها، الناشر: مكتبة لبنان، بيروت ٢٠٠٢م.
- **موسوعة تاريخ العالم**، إعداد مجموعة من الباحثين، ط. القاهرة.

المحتويات